

من روائع الأدب الأمريكي المعاصر

آن تايلر

ترجمة وتقديم

د. أمين العيوطي

اهداءات ١٩٩٩
مؤسسة الأهرام للنشر والتوزيع
القاهرة

من روائع الأدب الأمريكي المعاصر

آن تايلر

عشاء في مطعم المشتاقين للأهل

ترجمة وتقديم

د. أمين العيوطي

الطبعة الأولى
١٤١١ هـ - ١٩٩١ م

الناشر : مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام - شارع الجلاء القاهرة
تليفون : ٧٤٨٢٤٨ - تلكس ٩٢٠٠٢ يوان

تصميم الغلاف
يوسف فرنسيس

المحتـويـات

الصفحة



مقدمة

منذ أن ظهرت الرواية فى القرن الثامن عشر كنوع أدبى متميز عما سبقه من الأشكال السردية مثل الملحمة وقصص الفرسان الرومانسية ، أسهمت الكاتبات الروائيات فيه بقدر وافر فى الولايات المتحدة الأمريكية . بل كانت هناك فترات فاق فيها عدد الروائيات من النساء عدد الروائيين من الرجال . ففى حين نجد فى الفترة ما بين ١٨٢٠ ـ ١٨٧٠ إحدى عشرة كاتبة أمريكية ، نجد فى مقابلهن ثلاثة روائيين فقط . أما الروائيات فكن كاثرين سيدجويك ، ماريا ماكنتوش ، أ.د.أ.ن . سوثويرث ، كارولين لى هنتر، سوزان ورنر ، آنا ورنر ، ماريا كمنز ، آن ستيفنز ، مارى جين هولمز ، ماريون هارلاند وأوجستا ايفانز . ويقابلهن من الروائيين تيموثى شى آرثر ، ناثانيال ب . واليس ، وجورج ميتشيل . ولعل السبب فى هذا يرجع إلى إقبال النساء على قراءة الروايات ، بحيث أصبح جمهور القراء يتألف من غالبية نسائية . لذلك راحت الكاتبات الروائيات يقدمن لقارئاتهن روايات تعكس تجارب النساء فى الحياة ، وتكاد كلها تحكى قصة واحدة : قصة الفتاة التى حرمت من العون الذى تعتمد عليه فى حياتها ، فتواجه ضرورة أن تشق طريقها فى العالم بنفسها ، فتشبع ذاتها وتؤكدها لتصل إلى النهاية السعيدة : الزواج .

كانت الروائيات يكتبن لجمهور القراء العاديين ، ولذا جاءت كتاباتهن ، كما تقول نينا بايم ، روايات تسلية وإن لم تخل من هدف

تعليمى يعين النساء على حياتهن . فانتصار البطلة على العقبات التى تعترض طريقها ممتع للقارئات اللاتى يتوحدن معها ، ويرين فيها أنفسهن ، وفى انتصارها وخروجها من المأزق الذى تجد نفسها فيه تنفيسا عن إحباطاتهن . كان هذا المأزق يتمثل فى سوء معاملتها ، والظلم الواقع عليها ، وعجزها بصفتها أنثى . وكانت الروايات تتعاطف مع البطلة فى المصاعب التى تتعرض لها وهى ليست من خلقها ، وتعقد لها لواء النصر وتعتبرها مسئولة كلية عن التغلب عليها .

كانت تلك الروايات تشترك فى تفسيرها للتجربة من خلال العلاقات الشخصية لا العلاقات الطبقية أو الاجتماعية أو العرقية . ولم تكن تعرض لمشكلة الجنس بصفته عنصرا من عناصر الذات . فبدلا من دمج التجربة الجنسية فى الشخصيات النسائية ، كانت الروائيات يتسامين به ، ويعرضن الرجال والنساء على أساس أنهم مختلفون فى القدرة الجسمانية التى تكفل فى حد ذاتها مجتمعا طبقيا يقوم على أساسها ، وسلوكا مختلفا ومهنا مختلفة . وهذه ، فى التحليل الأخير لروايات تلك الفترة ، هى إرادة الله ، وعلى المرأة أن تؤمن بالواجب والنظام وضبط النفس والتضحية .

وتمضى نينا بايم فتقول إن البناء الروائى فى تلك الروايات يعتمد على تصوير مراحل تطور البطلة وإدراكها لذاتها . فهى فى البداية لا تأخذ نفسها مأخذ الجد - فلا ذات لها ، أو لها ذات مدمرة ، وتتوقع من العالم أن يحميها ، لأنها غير قادرة على أن تدرك إمكانياتها الذاتية بنفسها . فالأوصياء عليها يطعمونها ، ومتطلباتها معقولة . لكنها فى النهاية تتطور وينمو بداخلها إدراك لقدرها وقدرتها على مواجهة متطلباتها . والتغير الذى يحدث بداخلها يغير موقف العالم منها بحيث يسعى إليها الآن ما كان ينكر عليها دائما .

كانت ، إذن ، روايات عن إدراك المرأة الخاطىء لذاتها ، وهو إدراك يؤدى إلى انحطاط وضعها واعتمادها على الرجل فى الحياة الاجتماعية . ومعاملة المجتمع لها وتدريبها مسئولان عن تشكيلها بهذا الشكل ، وعن تقديرها الخاطىء لذاتها وشخصيتها الضعيفة . والحل الوحيد لتغيير وضعها الاجتماعى هو تغيير شخصيتها . وفى هذه الروايات نساء يسعين لإحداث هذا التغيير ، ونساء يقبلن واقعهن بدافع الرضا عن تدليلهن وتنعيمهن . والنوع الأخير نموذج خطر على باقى بنات جنسهن لأنهن أسعد حظا من الغالبية العظمى .

وما أن تأخذ المرأة نفسها مأخذ الجد ، حتى تدخل العالم وتكتشف كيف أسىء تعليمها وتربيتها ، وتجد نفسها مواجهة بالكثير حتى تصل إلى تطوير نفسها . عليها أن تحارب الإغراء الحالى بالاستسلام وتلمس العذر لنفسها على أساس جنسها . الإحساس بقيمتها هو أول طريق التغيير . وكل إنجاز يعمق احترامها لذاتها ويمهد الطريق لجهد أكبر . وهدف التغيير هو الوصول إلى امرأة جديدة ، وإقامة علاقات جديدة واستجابات جديدة من البيئة المحيطة بها .

كانت مثل هذه الروايات تأمل فى فرض قيم جديدة على مجتمع تحكمه قيم تجارية استغلالية . ولعلها توضح أن حياة المرأة فى القرن التاسع عشر كانت فى مرحلة تخمر . ولهذا كانت قصص النساء اللاتى يكتشفن قدراتهن ويؤكدنها ، وينتزعن الاحترام والاعتراف من عالم عدائى أو غير مبال ، قصصا مثيرة وممتعة لكل القارئات الأمريكيات . ونتيجة لإقبالهن على قراءة الروايات تسيدت الكاتبات الروائيات عادة القراءة الأمريكية ، بحيث سعى الروائيون من أمثال هنرى جيمز فى أواخر القرن ، ووليام وين هولز فى تناول قصص النساء ، وإن جاءت نساء رواياتهما أكثر سلبية من النساء اللاتى صورتهن أقلام الكاتبات .

وقد واكب هذه الحركة الأدبية النسائية حركة نقدية ترى وينيفريد فارانت بيفيلاكا أنها كانت تقيّم الروائيات باعتبارهن نساء أولا وفنانات ثانيا ، حتى أن الكثيرات منهن ، وبخاصة في انجلترا ، اضطررن إلى الكتابة بأسماء رجال مستعارة . ففي انجلترا اختارت ماري آن ايفانز اسم جورج إليوت ، حين نشرت روايتها الأولى **آدم بيد** . واختارت تشارلوت برونتي لنفسها اسم كرر بِل ، كما اختارت اميلي برونتي اسم إليس بِل حين نشرت رائعتها **مرتفعات وذرنج** ، وذلك حتى تُقَيم رِوَاياتهن لا على أساس أنها لكاتبات ، بل على أساس جدارتها . بل إن فرجينيا وولف في مطلع القرن وجدت في مقالها « النساء والرواية » أن النقاد كانوا يقللون من شأن الموهبة الإبداعية النسائية .

وقد أدت بعض هذه الدراسات إلى أن الدارسين للأدب النسائي في تلك المرحلة كانوا يرونه أكثر ميلا إلى تبني شكل السيرة الذاتية ، والتركيز على موضوعات تافهة ، والاعتماد على الحدس أكثر من الاعتماد على الحساسية التحليلية ؛ بحيث جاءت أعمال الروائيات في نظرهم أدنى بكثير من أعمال الرجال ، كما لجأ بعضهم إلى الاهتمام بالنظر في حياة الروائيات الشخصية بدلا من إخضاع أعمالهن للتحليل النقدي الدقيق ، أو إلى إنكار واقعية هذه الروايات .

وعلى الرغم من أن النقاد الأمريكيين لم يظهروا هذه العصبية في تناولهم للروائيات الأمريكيات ، بل إن بعضهم بوأهن مكان الصدارة في الحقل الأدبي ، إلا أن الروائيات كن أقل حظا في احتلال المساحة اللائقة بهن في سجلات التاريخ الأدبي ، وفي كثير من الدراسات النقدية التي اهتمت بدراسة الأسلوب الأدبي في تلك الفترة من فترات التاريخ الأدبي الأمريكي . فقد لقين قدرا أقل من التأكيد أو أهملن إهمالا كاملا .

وهكذا وضعت الكاتبات الأمريكيات في خانات تحذ من قدراتهن

حتى اعتبرت كيت شوبان وسارة أورن جيويت ممارستين ماهرتين لروايات « اللون المحلى » ، وهو ما كان دائما وجها ثانويا فى الأدب الأمريكى . ولم ينظر إلى ايديث وارتون على أنها كاتبة لها طريقتها الخاصة فى تعاملها مع موضوعاتها . وأفرد لكاثرين بورتر دراسات قليلة تؤكد اهتمامها بتصوير النساء ونقدها للأدوار المتاحة لهن فى المجتمع الأمريكى الجنوبى . ولم تدرس الروائيات الزنجيات إلا فيما ندر .

استمرت الكاتبات الروائيات ، على أية حال ، فى تقديم هذا اللون بعد الحرب الأهلية الأمريكية وحتى يومنا هذا . ومن بين أبرزهن اليوم مارجريت درابل ، مارى مكارثى ، آن بترى ، جون ريس ، ميورييل سبارك ، ايدورا ولتى ، فرانسيس هاربر ، بولا مارشال ، أليس ووكر ، كاثرين آن بورتر ، سيلفيا بلاث ، فلانرى أوكنر ، تونى موريسون وآن تايلر .

غير أن موضوعاتهن لم تعد الموضوعات المحددة التى ظلت الكاتبات يطرقنها فيما سبق . فترى باتريشيا ماير سباكس أن الموضوعات تعددت فشملت موضوعات اجتماعية وتاريخية وسياسية وعرقية وفولكلورية . وامتدت الرقعة التى تغطيها روايات القرن العشرين من انجلترا وأمريكا إلى ايرلندا وأفريقيا . واتسعت رقعة الأساليب الفنية لتشمل الواقعية الاجتماعية ، والواقعية النفسية ، إلى استخدام الخيال وأسلوب تيار الوعى ، واستخدام أسلوب السرد بتعدد أصوات الرواة داخل العمل الفنى الواحد . ويدل هذا على اتساع المدى الموضوعى والفنى الذى ذهبت اليه الروائيات فى يومنا هذا .

ولا يعنى هذا أن الروائيات قد أسقطن جنسهن من الحساب . فكثير من الروائيات الأمريكيات المحدثات يحاولن تصوير النساء على

حقيقتهن ، لا كما يراهن الرجال . وفى مثل هذه الأمثلة تعرض الشخصيات النسائية بنظرة ثاقبة ، شخصيات لها ذاتيتها وهويتها وتمردها وعدم قناعتها بوضعها الاجتماعى ، وانشغالها بأسئلة عن وعيها ووضعها . هنا نلتقى ببطلات قد تمردن على متطلباتهن كجنس ، وتصدين لفكرة أن الحياة تقوم على إنجاب الأطفال والعناية بالأزواج والطهى والرقص وعزف البيانو . ومن بينهن من يتمردن على العائلة وخلقيات المجتمع فى محاولة منهن لتحقيق التحرر . وقد تصل بعضهن إلى إدراك قوة المرأة الخفية وعجزها النهائى ، وتظل معرفتهن خافية على أعين الرجال . فنساء آن بترى يجاهدن ، ونساء مارى مكارثى يصلن إلى تحقيق حكمة متفوقة وإن أدركن أيضا وضعهن المتدنى . مثل هذه الشخصيات تأخذ الرجال على أنهم ضرورة مؤلمة لوجودهن النسائى ، حتى وإن تحررن من ربقتهم . لكن المرأة تدرك ، فى كل الأحوال ، مصادر القوة النسائية ومكمنها فيها .

ومع تأكيد روائيات القرن العشرين لهويتهن الفنية المتفوقة بدأت النظرة النقدية الضيقة تنحسر فى السنوات الأخيرة ، حين خضع التقليد الأدبى الأمريكى لإعادة النظر والمراجعة بما فى ذلك الكتابات النسائية ، فاتجه الكثير من النقاد الجادين للنظر إلى هذه الكتابات نظرة فاحصة جادة .

ويرجع هذا الاهتمام بالنساء الكاتبات إلى مولد الحركة النسائية فى أمريكا ، والاهتمام بكل جوانب التجربة النسائية . وقد وجدت الحركة النسائية بعض جذورها الايديولوجية فى كتاب سيمون دى بوفوار **الجنس الثانى** الذى صدر فى فرنسا عام ١٩٤٩ ، وترجم فى أمريكا عام ١٩٥٣ ..وتقوم فرضية دى بوفوار على أساس أن تطور النساء بصفتهن كيانات حرة مستقلة ، وإنجازاتهن فى كثير من المجالات قد

عاقتها حقيقة أنهن فرض عليهن أن يشغلن مكانا ثانويا فى العالم بالنسبة للرجال لا بصفتهن جنسا ، ولكن بحكم التقاليد التعليمية والأنماط الثقافية والبنيات الاجتماعية تحت سيطرة الرجال . وفى الستينيات شاعت مثل هذه المفاهيم فى أمريكا حتى عين جون كنيدى الرئيس الأمريكى آنذاك لجنة رئاسية للتحقيق فى التمييز الاجتماعى والاقتصادى ضد النساء الأمريكيات .

وقد أدى هذا بكثير من الدارسين للأدب إلى فتح مناطق جديدة فى البحث أدت إلى تفسيرات جديدة لكتابات الروائيات الأمريكيات ، وتقييم التقاليد الاجتماعية والثقافية والأفكار المتوارثة عن النساء . ومن بين هذه الدراسات ظهرت دراسات حول علاقة النساء بالأدب تهدف إلى إبراز تميز المرأة فى مجال الأدب . وأدى هذا إلى إعادة النظر فى بعض المفاهيم الأساسية فى النقد الأدبى بحيث يتضمن التجربة النسائية والمقدرة الابداعية النسائية .

وفى هذه الأعمال النقدية تنقسم الآراء إلى شقين . البعض يرى أن مسألة جنس الكاتب لا علاقة لها بالدراسات الأدبية لأن المهم هو الأسلوب وتفرد الرؤيا . وهو اتجاه موضوعى يهتم بتقييم الجوانب الفنية فى العمل مثل الحبكة والشخصيات والأسلوب الفنى وعلاقة الشكل بالمضمون . وهناك اتجاه آخر يرى أن جنس الكاتب يحدد المضمون الأدبى ووجهة النظر ، وأن هناك صوتا نسائيا متميزا فى الأدب النسائى يتضح فى اللغة الروائية والبناء والمضمون . ويؤكد هذا الاتجاه العلاقة بين المقدرة الابداعية وجنس الكاتب ، وهى علاقة تتضح فى انشغال الروائيات بوضعهن كنساء فى العالم المعاصر . ويتجه مثل هذا النقد إلى دراسة بعض جوانب الرواية النسائية مثل العلاقة بين السلبية وتطور الشخصية ، والدوافع وراء اختيار المرأة لدور الفنان . وتصل هذه

الدراسات إلى نتيجة توجزها باربرا كريستيان فى قولها : إن هناك « وعيا نسائيا ذاتيا خاصا يبرز في الأدب النسائى دائما » . وقد أدى هذا الموقف إلى إعادة النظر فى الأعمال النسائية التى أهملها الدارسون لإعادة تقييمها ونشرها مصحوبة بتعليقات نقدية ثاقبة تضعها فى سياقها الاجتماعى والأدبى والثقافى .

إلى مثل هذا التيار الجديد فى الرواية الأمريكية تنتمى آن تايلر (١٩٤١ -) . وهى واحدة من أخصب الروائيات المعاصرات . فقد كتبت عشر روايات على مدى واحد وعشرين عاما (١٩٦٤ - ١٩٨٥) . ورواية **عشاء فى مطعم المشتاقين للأهل** هى الرواية التاسعة لها ، هذا بالاضافة إلى عشرات القصص القصيرة . وتتضمن كل رواياتها موضوع الحياة العائلية فى البلدان الصغيرة فى الجنوب الأمريكى ، أو فى البيوت التى تقع ضمن صف من البيوت فى بلتيمور . فهى تقف مبهورة بالعلاقات العائلية ، بالرجال الذين تربطهم مشاعر الأخوة ، بالأمهات اللاتى يفنين حياتهن فى رعاية أبنائهن ، بالأبناء الذين تفضلهن أمهاتهن ، بالهاربين من بيوتهم والمقيمين فيها .

فى رواية بعد رواية هناك هذه العلاقة اللانهائية بين الآباء والأبناء منذ الصغر وحتى مرحلة النضوج . وفى العائلة الواحدة هناك الآباء والأبناء والأحفاد . هناك الأطفال الذين يكبرون ، والكبار الذين يعودون إلى البيت بعد رحيلهم عنه . والتوتر داخل هذه العائلات ينشأ من رغبة أفرادها فى البقاء داخل العائلة والرغبة فى الهرب منها . وفى رواية **عشاء فى مطعم المشتاقين للأهل** هناك الأب ، مندوب المبيعات ، الذى يهجر العائلة ، والابن الذى يرحل ليعمل بعيدا عن موطنه ، والابنة التى لا تريد العودة إلى البيت ، والابن الذى يبقى ليرعى أمه فى كبرها ، والصبى الذى يهرب من بيت أبيه . وهكذا تصبح الرواية بين يدى آن

تايلر تأريخا للأحزان العائلية والتمزق والرغبة فى التئام الشمل .

البيئة المنظرية فى الرواية هى بلتيمور . والأحداث تتركز على الثمن الذى يدفعه أفراد عائلة بيرل تل ، الأم ، حين يتهرب الأب ، بِكْ تَلّ ، من أداء واجبه فيرحل . إن أبناء تل الثلاثة لا يمكنهم أن يفلتوا من ماضى العائلة ، مما يؤثر على درجة نضجهم . حتى الأم لايمكنها إلا أن ترى أن هناك شيئا خاطئا فى تكوين كل من الأبناء . والأم نفسها تعانى هجر زوجها لها والثورات الغاضبة العارمة التى يولدها هذا فيها فتصبها على أبنائها من آن لآخر . والأبناء تعذبهم حاجتهم إلى الحب ، ويظلون يجفلون من هذه الثورات التى ترسبت فى أعماقهم طيلة حياتهم . وكودى تل ، الابن الأكبر ، يعانى من تفضيل أمه لأخيه ومن إحساس غامض بالذنب . وعزرا يعانى من نقص الرغبة عنده . وجينى تعانى من خوفها من الاتصال بالآخرين . وسلوك الشخصيات ومشاعرها يرتبطان ارتباطا وثيقا بالتمزق العائلى الذى لا نجد له تفسيرا إلا حين يعود الأب فى آخر الرواية .

وعزرا هو الشخصية الوحيدة الحالمة التى تغذى الخط الأساسى فى الرواية ، وهو الرغبة فى التئام شمل العائلة الممزقة . إنه يدير مطعما كما لو كانت الأطعمة التى يقدمها لزبائنه سوف تشفيهم من الوحدة والإحباط . وكودى يكره عزرا لحماقته وحب الآخرين له ، ويأتى بكل ألاعيبه ومشاكساته مع أخيه من إحساس بالألم لرفض الآخرين له ، ويذهب فى هذه الألاعيب إلى حد سرقة خطيبة أخيه . لكن هذا لايعيق عزرا عن متابعة جهوده . فمن كانت زوجة المستقبل أصبحت الآن زوجة أخيه ، وهى مازالت فردا فى العائلة ، ولابد أن تجتمع العائلة حول مائدة العشاء . والوحدة الفنية المسلية فى الرواية هى محاولات عزرا الملحة فى إعداد ولائم لأسرته فى مطعمه . والعائلة تجتمع فى

كل مرة ولا تكمل وجبة كاملة . هو يعيش طيلة الرواية مهموما بهذا الالتئام الذى يتحقق أخيرا بعودة الأب الغائب بعد موت الأم .

والحقيقة أن أحدا منهم لا يمكنه البقاء بعيدا عن بيته فترة طويلة . فأفضل ما فى كل واحد منهم يضرب بجذوره فى تجربة الحرمان التى تشدهم إلى أحدهم الآخر . حيوية جينى الوافرة تنبع من معرفتها بالحاجة الغامرة إلى البهجة بين الكبار والصغار . وطيبة عزرا وكرمه البالغ ينبعان من نفس المصدر . وحتى كودى ، الذى يرى فيه القارىء خلال الرواية شخصية عدوانية ، يبرز فى آخر الرواية متساميا على أحقاده من خلال ماتعلمه من درس حياته . فآن تايلر تشعر بعمق تلك الحاجة إلى العائلة ، وتكتب رواية بعد أخرى عن عدم قدرة شخصياتها على التخلى عن العائلة .

ومن خلال هذا الموضوع تتناول آن تايلر فى رواياتها فكرة الوحدة والعزلة الانسانية والصعوبات التى يلقاها الناس فى فهم بعضهم البعض وتواصلهم . فالرؤية التى تعيش فى عينيها هى أن العلاقات الانسانية التى تُشبع نصف إشباع تظل أفضل من عدم إمكانية إقامة علاقات على الإطلاق . فلن يجد الإنسان الكمال فى الحياة . ومن هنا كان تساميها بالشخصيات القادرة على الحب . فاذا كان الاختيار بين حب غير كامل أو لا حب على الإطلاق ، فإنها تقف ، مثلما تقف شخصياتها ، فى صف الاختيار الأول ، حتى ولو رأى الغرباء والأصدقاء فى هذا الاختيار اختيارا أبله أو غير مفهوم ، مثل اختيار جينى لأزواجها الثلاثة . فالانتماء إلى شخص ضرورة فى الحياة . والبحث عن الانتماء فكرة دائمة فى كل أعمالها .

غير أن رواية **عشاء فى مطعم المشتاقين للأهل** ، وإن كانت تعالج نفس هذا الموضوع وهذه الفكرة ، إلا أنها تعد تطورا جديدا فى

روايات آن تايلر . فهى هنا قادرة على الوصول بشخصياتها إلى منتهى التطور . فالشخصيات الرئيسية ، والشخصيات التى تلعب أدوارا صغيرة تتمتع بحيوية وحضور كاملين . ويسود فى هذه الرواية ذلك السبر العميق للمشاعر المتضاربة فى العلاقات العائلية ، لا فى جيل واحد وإنما فى ثلاثة أجيال . وتحت السطح التراجيدى ـ الكوميدى تكمن نظرة ساخرة تتألق بالحياة . فهى رواية تؤكد مكانة آن تايلر بصفتها واحدة من أبرز الروائيات المعاصرات فى الأدب الأمريكى ، إذ تصل إلى أعماق بعيدة الغور من خلال تشابك البناء الروائى عندها فى هذه الرواية .

هذا البناء أشبه بالبناء الروائى فى الروايات البيكارية ، أو روايات الشطار والمحتالين ، التى تتألف من سلسلة أحداث غير مترابطة بالضرورة ، كل حدث منها قائم بذاته . فالستار يفتح فى هذه الرواية عن بيرل تل وهى تحتضر عن خمسة وثمانين عاما ، وهى تتذكر الماضى . لكنها لا تلبث أن تُبعث من جديد وهى أم فى الخمسين ترعى أطفالها الثلاثة . وتتحول الرواية بعد ذلك إلى سلسلة من الفصول عن كل واحد من الأبناء أو الحفيد . وهى فصول تبدو مكتفية اكتفاء ذاتيا كما فى روايات الشطار . لكنها مع ذلك تختلف عن الطابع الحواديتى لروايات الشطار من ناحية أن كل فصل ليس مستقلا هذا الاستقلال الكلى . فما زالت الرؤية التى تمتد عبر الرواية تغذى كل فصل ، وتتعقب ردود أفعال كل شخصية على حدة ، أو تجمع الشخصيات معا لتتبع سلوكها وردود أفعالها . فالرواية تطوقها هذه الرؤية وتحيط بها إحاطة السوار بالمعصم لتحبك بناءها . وهو بناء يأخذ شكلا دائريا تنتهى فيه الرواية عند نفس النقطة التى بدأت منها ، وهو مشهد موت بيرل . لكن الأحداث تكون قد دارت دورة كاملة لا فى شكل حلقة مفرغة . فهناك التطور الذى يلحق بالشخصيات . وهناك إحكام الحبكة بعودة

الأب ، هذه العودة التى تخلص الأبناء من عقدهم وتجمع شمل الأسرة الممزق أخيرا .

من خلال هذا الشكل الذى يقوم على سلسلة من الأحداث ، تتعقب الرواية فصلا بعد فصل وجهة نظر كودى وجينى وعزرا ، بل حتى لوك الحفيد ، فى النتائج المتشعبة عن الحادث الأولى - رحيل بك تل ذلك الرحيل الفجائى الغامض عن زوجته وأولاده . فكودى يرى فى أمه « ساحرة » ، أما ذات مزاج حاد مفزع . « كانت تضربنا بعنف فى الحائط وتدعونا حثالة وأفاعى ، وتقول إنها تتمنى أن ترانا ميتين ، وترجنا حتى تصطك أسناننا ، وتصرخ فى وجوهنا » . وأفعال كودى العنيفة تجاه أخيه الهادىء الرقيق تتبع نفس هذا النمط . وجينى أيضا قد خبرت صفعات أمها اللاسعة ، وتحلم فى الليل أن أمها تربيها لتأكلها . غير أن الأم رغم هذا أم بطولية حنون . وآن تايلر لا تترك القارىء جاهلا بأسباب سلوك بيرل الوقتى على هذا النحو . فهى الأم التى تريد أن تبقى بيتها متماسكا ، بعيدا عن التلوث ، ولا ترضى عن أصدقاء أبنائها ، وليست لها صديقات . فعزلة العائلة كاملة . ويؤكد هذه العزلة القصص العائلية التى يسمعها لوك من ثلاثة أشخاص حين يهرب من بيت أبيه إلى بيت عمه . كلها قصص مرعبة من حياتهم العائلية المدمرة ، والأطفال الذين يموتون ، وابنة جاحدة ، وزوجات يهجرن أزواجهن . وهى قصص قد تتفق مع الطابع الحدثى الظاهرى للرواية . لكنها قصص تذوب فى الرؤية النهائية التى تؤكد الحاجة إلى العائلة ، وإلى الحب ، وإلى التماسك ، والعلاقات الإنسانية الحميمة ، كما تؤكد الفكرة الأساسية التى تطرحها آن تايلر فى رائعتها **عشاء فى مطعم المشتاقين للأهل** .

أمين العيوطى

القاهرة ١٩٩١

[١]

شيء لابد أن تعرفه

بينما كانت بيرل تَّل تحتضر ، طرأ لها خاطر غريب جعل شفتيها ترتجفان وأنفاسها تحدث حفيفا ، وشعرت بابنها يميل إلى الأمام من حيث كان يسهر عليها بجوار سريرها . قالت له ، « كان عليك أن تسعى . . . » « كان يجب أن تسعى . . . »

كانت تعنى أن تقول ، كان يجب أن تسعى للحصول على أم إضافية أخرى ، مثلما فعلنا عندما بدأنا ننجب أطفالا آخرين بعد أن مرض الطفل الأول مرضا شديدا . كان ذلك كودى ، الصبى الأكبر سنا . لا عزرا الذى كان يجلس هنا بجوار سريرها ، ولكن كودى مثير المتاعب ـ طفل صعب المراس ، ولد فى مرحلة متأخرة من حياتها . كان رأيها هى وزوجها قد استقر على ألا ينجبا أطفالا آخرين . ثم أصيب الطفل بالتهاب خطير فى الحنجرة . كان ذلك فى عام ١٩٣١ ، عندما كان التهاب الحنجرة شيئا خطيرا . عصف القلق بها . كانت قد كست أعلى مهده بملاءة من الصوف الناعم ، ووضعت قدورا كبيرة وصغيرة ذات مقابض ودلاءً مليئة بماء قامت بتسخينه على الموقد . رفعت الملاءة الصوفية الناعمة لتعرضها للبخار . كان تنفس الطفل مختنقا ومضطربا ، أشبه بشيء يُجَر فوق حصى شديد التماسك . جلده متوهج وشعره ملتصق بشكل متيبس بصدغيه . نام مع انبلاج نور الصباح . تدلى رأس بيرل

فى المقعد الهزاز ، ونامت هى أيضا وأصابعها مازالت تقبض على حاجز المهد المعدنى العاجى اللون . كان بِكْ متغيبا عن البيت يؤدى بعض الأعمال - وحين عاد كانت لحظات الخطر قد مرت بسلام ، وكودى يخطو فى أرجاء البيت ثانية وقد تراجع المرض إلا من أنف يسيل منه المخاط ، وسعال لا يدعو للقلق حتى أن بك لم يلحظه . قالت له بيرل ، « أريد أطفالا أكثر » . تظاهر بالدهشة ، رغم سروره . ذكَّرها بأنها لم تشعر بأن بإمكانها أن تتحمل ولادة أخرى . لكنها قالت ، « أريد بضعة أطفال آخرين فحسب » . فقد اكتشفت أثناء التهاب الحنجرة أنه إذا مات كودى فما الذى يبقى لها ؟ هذا البيت الصغير الذى يستأجرونه ، والذى رتبته بعناية فائقة وبشكل يثير الإشفاق ؛ وحجرة الأطفال المؤثثة على صورة الأوزة الأم ؛ وكان بك بطبيعة الحال مشغولا مع شركة تانر . كان متغيبا عن البيت فى أغلب الأحيان ، وحتى حين يعود كان يتكلم دائما باهتياج عن عمله : عمن كان يشق طريقه نحو النجاح ومن كان يتعثر فى فشله ، ومن كان ينشر شائعات مدمرة من خلف ظهره ، وعن احتمال طرده من عمله حيث كانت تلك الأوقات عصيبة للغاية .

قالت بيرل ، « لا أدرى لِمَ ظننت أن مجرد صبى صغير واحد كان يكفى » .

لكن الأمر لم يكن بسيطا كما أفترضت . كان الطفل الثانى هو عزرا ، لطيف وأخرق إلى حد يفطر القلب حزنا . كانت معرضة للخطر أكثر من أى وقت مضى . كان من الأفضل لو أنها توقفت عند كودى . لكنها مع ذلك مازالت لم تتعلم بعد . فبعد عزرا جاءت جينى - الفتاة - وجدت متعة أن تلبسها ثيابها ، أن تصفف شعرها بأساليب مختلفة . تنشئة الفتيات مكلفة للغاية ، هكذا شعرت بيرل . لكنها لم تكن تستطيع

أن تتخلى عن جينى هى الأخرى . لم تكن تواجه حينذاك خسارة واحدة فحسب بل ثلاث خسائر . ورغم ذلك خطر لها أنها بدت فكرة طيبة ذات يوم : إنجاب أطفال احتياطيين ، شأنهم شأن الاطارات الاحتياطية ، أو تلك الجوارب القطنية الناعمة الإضافية التى كانوا يقدمونها مجانا مع كل زوج من الجوارب .

قالت ، « كان ينبغى لك أن تدبر أما بديلة ، ياعزرا » . كانت تقصد القول ، « كم كان هذا قصر نظر من جانبك » . لكن من الواضح أنها فشلت فى أن تشكل الكلمات ، إذ أنها سمعته يعود إلى الجلوس ثانية دون أن ينبس ببنت شفة ويقلب صفحة من مجلته .

لم تكن قد رأت عزرا منذ ربيع عام ١٩٧٥ ، منذ ٤ سنوات ونصف خلت ، عندما أخذ نور عينيها يخبو لأول مرة . بدأ الأمر بغشاوة بالبصر لم تزعجها كثيرا . ذهبت إلى الطبيب لعمل نظارة . أخبرها بأنها الشرايين ؛ شىء له علاقة بشرايينها . فقد بلغت الواحدة والثمانين فى النهاية . لكنه كان واثقا أن فى الإمكان معالجتها . أرسلها إلى أخصائى ، أرسلها بدوره إلى شخص آخر . . . حسنا ، لكى نوجز القصة ، وجدوا أنه لا حيلة لهم فى الأمر . فقد ذبل شىء ما خلف عينيها . قالت لأولادها ، « لقد عمرت أكثر من اللازم وصرت كُهْنة » . وضحكت ضحكة صغيرة . وإحقاقا للحق فإنها لم تصدق ذلك . فى البداية صدرت عنها أصوات تنم عن الفزع والأسى ، ثم تقبلت الأمر ، واعتراها ابتهاج شجاع ، لكنها فى أعماقها كانت قد قررت ألا تسمح بحدوث هذا . لن تعير الأمر اهتماما ، كان ذلك كل شىء . فقد كانت دائما امرأة قوية العزيمة . وذات مرة ، حين كان بك متغيبا عن البيت يؤدى عمله ، ظلت تصرف أمور البيت بذراع مكسورة لمدة يوم ونصف حتى أمكنه أن يأتى ليبقى مع الأطفال . (كان ذلك عقب إحدى المرات التى نقل فيها لبلدة

أخرى . وكانت غريبة فى هذه البلدة وليس لها من تلجأ إليه) . لم تستعن حتى بالأسبرين ؛ لم تحبذ الاعتماد على الآخرين أو طلب شىء منهم . قالت للأطفال ، « يقول الطبيب إننى سأصاب بالعمى » . لكنها فى أعماقها لم تكن تنوى أن يحدث لها شىء من هذا القبيل .

ومع ذلك كان بصرها يذوى كل يوم . كانت تشعر أن الضوء يخبو وينسحب بشكل ما . أصبح وجه ابنها عزرا ، الهادىء الذى كانت تعشق أن تطيل النظر إليه ، معتما . حتى فى ضوء الشمس المبهر ، تجد الآن صعوبة فى تمييز شكله . كان بإمكانها بالكاد أن تميز خطوط جسمه الخارجية وهو يقترب منها . ذلك الجسم الكبير المائل الذى فقد بعض صلابته مع بلوغ منتصف العمر . كانت تشعر بالدفء الذى ينبعث من ملابسه الصوفية الناعمة حين يجلس إلى جوارها على الأريكة ، يصف لها ما يدور على جهاز التليفزيون الخاص بها أو يفتش فى درجها عن صور فوتوغرافية بالطريقة التى تحبه أن يفعل هذا بها . وكانت تسأله ، « ما هذا الذى وجدته ، ياعزرا ؟ »

وهو يرد ، « يبدو أنهم ناس فى رحلة » .

ـــ « رحلة ؟ أى نوع من الرحلات ؟ »

ـــ « مفرش طاولة أبيض مفرود على العشب . سلة من الخوص . سيدة ترتدى بلوزة فضفاضة » .

ـــ « ربما كانت عمتى بسى » .

ـــ « كنت لأتعرّف على عمتك بسى حتى الآن » .

ـــ « أو ابنة عمى إلسا . فقد كانت تفضل البلوزات الفضفاضة ، فيما أذكر » .

قال عزرا ، « لم أعرف أبدا أن لك ابنة عم » .

قالت ، « أوه ، كان لى أبناء عمومة » .

مالت برأسها إلى الخلف وتذكرت أبناء عمومتها ، عماتها ، أعمامها ، وجَداً كانت أنفاسه تفوح منها رائحة مثل رائحة الكرات التى تستخدم لمقاومة العثة . من الغريب أن ذاكرتها بدت كما لو كانت تصاب بالعمى مع سائر جسمها . لم تكن ترى وجوههم مثلما كانت تسمع أصواتهم العذبة ، وتشعر بالكشكشة فى بلوزات السيدات ، وتشتم رائحة دهانات شعورهن العطرية وعطر اللافندر وزجاجة البللورات ذات الرائحة النفاذة التى كانت ابنة العمة العليلة برتا تحملها معها لتفادى نوبات الإغماء .

قالت لعزرا ، « كان لى كثير من أبناء العمومة » .

كانت الظنون قد ذهبت بهم إلى أنها ستصبح عانسا . لقد شبوا على اللباقة ـ لباقة إلى حد الإيلام . كان الحديث يتوقف عن حفلات عرس الأخريات وولاداتهن حين تظهر بيرل على عتبة الشرفة . عرض عليها العم سيوارد أن تتلقى تعليما جامعيا . هناك فى رالى بكلية مريديث ، حتى لا تضطر إلى مغادرة موطنها . مما لاشك فيه أنه خشى أن يضطر إلى إعالتها إلى الأبد : أن تصبح ابنة الأخ العانس واليتيمة ، التى تشغل غرفة نومه الإضافية ، عبئا ثقيلا . لكنها أخبرته أنه لا حاجة بها إلى الكلية . شعرت أن الذهاب إلى الكلية يعنى اعترافها بالهزيمة .

أوه ، ماذا كانت المشكلة بالضبط ؟ لم تكن قبيحة الخلقة . كانت ضئيلة القد ونحيلة ذات بشرة صافية وشعر أشقر غزير ، لكن الشعر كان قد بدأ يجف مثل التراب .. والإرهاق أخذت علاماته تظهر حول ركنى فمها المجعدين . تقدم لها عدد وفير من الخُطّاب ، أكثر مما تستطيع تحديده ؛ ومع ذلك لم يدوموا أبدا ، بشكل ما . و يبدو أنه كانت

هناك كلمة سحرية يعرفها الجميع إلا بيرل ـ أعداد من الفتيات الأصغر سنا منها بكثير ، يعترض الزواج طريقهن ودون أن يسعين وراءه . هل كانت تُظهر الصرامة أكثر مما ينبغى ؟ هل ينبغى لها أن تلين أكثر ؟ أن تقهقه إلى حد الابتذال مثل التوأمتين وينستون الغبيتين الساذجتين ؟ ياعمى سيوارد ، أنت يمكنك أن تخبرنى .. لكن كل مافعله العم سيوارد كان أن نفث دخان غليونه واقترح مقررا تعليميا خاصا بأعمال السكرتارية .

ثم التقت ببِكْ تَلّ . كانت فى الثلاثين من عمرها ، وكان هو فى الرابعة والعشرين ـ مندوب مبيعات يعمل لدى شركة تانر التى تبيع معدات المزارع والحدائق على طول الشاطىء الشرقى ، وحيث كان من المؤكد لشاب ذكى مثله أن يسطع نجمه . فى تلك الأيام كان نحيلا وممشوق القوام . كان شعره الأسود متموجا بغزارة ، وعيناه زرقاوان بدرجة غير طبيعية تماما . وقد يقول البعض أنه كان على النقيض منها إلى حد ما ، بالغ التأنق . لا ينتمى بالضبط إلى طبقة بيرل . ومن المؤكد أنه كان أصغر منها بأكثر من اللازم . كانت تعلم أن هذه الأقوال لا تخلو من وجاهة . ولكن ماذا يهمها ؟ شعرت بأنها غير مبالية ومندفعة ، مستعدة لكل الاحتمالات .

التقت به فى الكنيسة ـ فى كنيسة معمدانية خيرية ، كانت بيرل تزورها فقط لأن صديقتها إيمالين عضو بها . لم تكن بيرل نفسها معمدانية ، بل تتبع الكنيسة الأسقفية البروتستانتية ؛ ولكن للحق لم تكن أيضا كذلك ، إذ كانت تنظر إلى نفسها على أنها غير مؤمنة بالكنيسة . وعلى الرغم من ذلك ، فإنها حين ذهبت إلى الكنيسة المعمدانية ورأت بك تل يقف هناك ، غريبا عن المكان ، حليق الذقن بشكل مبالغ فيه ، يرتدى حلة زرقاء متألقة ، وسألها خلال دقيقتين إذا ما كانت تسمح له

بأن يزورها ، فإنها ربطت بين هذا والكنيسة ذاتها بشكل غيبى ـ كما لو كان بك جائزتها على حضورها مع المعمدانيين . لم تجرؤ على أن تتوقف عن الحضور . أصبحت عضوا ، وهو ما سبب رعبا لعائلتها ، وتزوجت فى كنيسة معمدانية خيرية وظلت تتردد على كنيسة معمدانية أو أخرى ، فى هذه البلدة أو تلك ، طوال حياتها الزوجية كلها ، لمجرد ألاّ تُسْتَرد منها جائزتها . (ألم يكن ذلك يعنى ربما نوعا ما من الايمان فى نهاية الأمر ؟ هكذا جال بخاطرها) .

وأثناء خطبه لودها ، كان يحضر لها أنواعا من الشيكولاته والزهور ثم ـ أشياء أكثر جدية ـ كتيبات تصف منتجات شركة تانر . شرع يخبرها بالتفصيل عن عمله وخططه من أجل الترقى . أفاض عليها بألوان من المديح تجعلها تشعر بالضيق إلى أن يمكنها أن تنفرد بنفسها فى غرفتها وتتذوقها . قال إنها أكثر الشابات اللاتى عرفهن فى حياته ثقافة وتهذيبا وسلوكا وأناقة . وكان يروق له أن يضع يدها على يده ، والراحتان متعانقتان ، ويعجب لحجم يدها الدقيق . وعلى الرغم من سمعة مندوبى المبيعات ، إلا أنه كان يبدى نحوها احتراما مفرطا ولم ينقض عليها مطلقا بالطريقة التى قد ينقض بها بعض الرجال الآخرين .

ثم تلقى خبر نقله ، وبعد ذلك تسارعت الأمور للغاية ؛ فلم يكن ليسمح لنفسه بالتفكير فى تركها خلفه بل لابد أن يتزوجها ويأخذها معه . وهكذا تم زواجهما المعمدانى ـ وكلاهما مبهور الأنفاس ـ هكذا صورت بيرل الأمر دائما فيما بعد ـ وقضيا شهر العسل وهما ينتقلان إلى نيوبورت نيوز . حتى فرصة الاستمتاع بوضعها الجديد وسط صديقاتها لم تواتها مطلقا . لم يسعفها الوقت أن تتباهى بثوب واحد من ثياب جهازها ، أو تتفاخر بخاتميها الذهبيين ـ شريط الزفاف الضيق وخاتم

الخطوبة الذى نقشت عليه عبارة : **إلى لؤلؤة بين النساء** . كل شىء بدا غير مرض للغاية .

وانتقلا ، وانتقلا ثانية . لم يرزقا بأطفال فى السنوات الست الأولى ، لذا كانت الانتقالات سهلة إلى حد ما . كانت تحدق فى كل بلدة جديدة بعينين تفيضان أملا وتقول لنفسها : ربما كانت هذه هى البلدة التى سأنجب فيها ابنى . (ذلك أن الحمل اكتسب الآن البريق الذى كان للزواج ذات يوم - الكنز الذى يواتى كل واحدة بسهولة إلا هى) . ثم ولد كودى ، وبدا الانتقال أكثر مشقة . لاحظت أن الأطفال لهم طريقتهم فى تعقيد الأشياء . كان هناك الأطباء والشهادات المدرسية ، وهذا ، وذاك ، وذاك فى تلك الأثناء تطلعت فيما حولها ورأت أنها ، دون أن تلاحظ هذا ، قد تقطعت بها السبل عن أقاربها بشكل ما . كانت العمات والأعمام قد توفوا بينما هى بعيدة بعدا لا يسمح لها إلا بأن ترسل بضعة سطور للعزاء . بيع المنزل الذى ولدت فيه إلى رجل من ميتشجان ؛ تزوجت بنات العمومة من غرباء يحملون أسماء عائلات لم تسمع بها مطلقا ؛ حتى أسماء الشوارع تغيرت بحيث ستضل طريقها لو أنها عادت فى يوم من الأيام . خطر لها ذات مرة ، وهى فى الأربعينيات من عمرها ، أنها لم تكن لديها أدنى فكرة حقا عما لحق بذلك الجد الذى لأنفاسه رائحة تشبه رائحة الكرات القاتلة للعثة . لم يكن من الممكن أن يظل على قيد الحياة - أليس كذلك ؟ هل مات ولم يفكر أحد فى إبلاغها ؟ أو ربما أرسلوا الخبر إلى عنوان قديم ، مضى عليه ثلاث أو أربع سنوات . أو لعلها سمعت لكنها ببساطة نسيت ، وسط عجلة انتقال ما أو آخر . كان أى شىء ممكنا .

آه من تلك الانتقالات . كان هناك دائما حافز ما - فرصة ترقية ، أو إقليم أكثر ثراء . لكن الأمر نادرا ما كان يستحق كل هذا العناء .

هل هو خطأ بِكْ ؟ كان يزعم أن الخطأ ليس خطأه ، لكنها لم تكن تدرى ، لم تكن تدرى حقا . كان يزعم بأنه مطارد من قبل الحاقدين . قال إن هذا العالم حافل بالأنذال . مطت شفتيها وراحت تتفحصه . سألها ، « لماذا تنظرين إلىّ بهذه الطريقة ؟ فيم تفكرين ؟ إننى أوفر لك حاجاتك على الأقل . لم أدع أسرتى تجوع مطلقا » . اعترفت بذلك ، لكنها شعرت رغم ذلك بلهفة قلق دائمة . بدا جبينها مقطبا ومجعدا بشكل دائم . لم يكن هذا شخصا تستطيع أن تركن اليه ، هكذا شعرت ـ مندوب المبيعات السوقى هذا ، صاحب الصوت الجهورى الذى يتطلع إلى صورته فى المرآة بشغف بالغ وهو يعقد ربطة عنقه فى كل صباح ، ويرسل شعره ، مجعد الخصلات ومبللا ، عاليا فوق جبهته ، ثم يعيد المشط إلى جيب قميصه العامر بأقلام رصاص ، وأقلام حبر ، ومسطرة ، ودفتر للمواعيد ، ومقياس نفخ إطارات السيارات ـ وكلها تحمل شعارات مطبوعة خلابة لشركات شتى .

كان يروق له وهو يتناول كوبا من البيرة فى المساء (لكنه لم يكن سكيرا ؛ لا تسيئوا الفهم) ، أن يغنى ويشد جلد وجهه . لم تكن تدرى لم تجعله البيرة يجذب جلده بتلك الطريقة ، فيبدو وكأنه يرتدى قناعا مطاطيا ، إلى درجة أنه ما أن يحين وقت النوم ، حتى تكتسب وجنتاه مظهرا مترهلا متراخيا . كان يغنى ، « لا أحد يعرف المتاعب التى رأيتها » ـ أغنيته المفضلة . لا أحد يعرف سوى الله . ظنت أن هذا لابد أن يكون صحيحا . ماذا كانت أفكاره الخاصة ، وراء وجهه المنبسط ، تحت خصلة شعره الأسود التى تشبه عرف الديك ؟ لم تكن لديها أدنى فكرة .

وفى إحدى ليالى أيام الأحد عام ١٩٤٤ ، قال إنه لا يود أن يظل متزوجا . قال إنهم سيرسلونه إلى نورفوك ؛ لكنه يرى أن من الأفضل

أن يذهب وحده . شعرت بيرل أنها أخذت تغرق فى لجة عميقة ، كما لو أنها أصابتها لكمة فى معدتها . لكن جزءا منها استشعر نوعا من الاهتمام الفضولى ، كما لو كان هذا يحدث فى قصة . سألته بهدوء كاف ، « لم ؟ » لم يجب . « بك ؟ لم ؟ » كل مافعله أنه راح يتفحص قبضتيه . بدا أشبه بتلميذ صغير مولع بالعراك ينتظر توبيخا . قصدت أن يخرج صوتها أهدأ كثيرا . كان مهما أن تعرف السبب . ماذا لو أخبرها على الأقل ما الخطب ؟ قال إنه قد أخبرها . غاصت وهى ترتجف فى الكرسى المواجه له . نظرت إلى صدغه الأيسر ، حيث كان هناك عصب ينبض . مجرد أنه كان يمر بحالة اعتلال فى المزاج ، هذا كل ما فى الأمر . وسوف يعدل عن رأيه فى الصباح . قالت له ، « سنؤجل اتخاذ القرار » .

لكنه قال ، « أنا راحل الليلة » .

اتجه إلى غرفة النوم ليأخذ حقيبة ملابسه ، وأخرج حلته الأخرى من خزانة الملابس . وفى تلك الأثناء سألته بيرل ، وهى تسابق الزمن ، إن لم يكن باستطاعتهما أن يناقشا الأمر ؟ أن يمحصاه تفكيرا ؟ ليس هناك ما يدعوه إلى العجلة ، أليس كذلك ؟ عبر من المكتب إلى السرير ، ومن خزانة الملابس إلى السرير ، وهو يحزم حاجياته . لم يكن هناك كثير منها . أنجز المهمة فى ظرف عشرين دقيقة . جذب نفسا عميقا ، وقالت لنفسها ، سوف يخبرنى الآن . لكن كل ما قاله كان ، « لست شخصا غير مسئول . وأنوى بالفعل أن أرسل لك نقودا » .

قالت ، وهى تتشبث بأمل جديد ، « والأطفال ؟ سوف تود أن تزور الأطفال » .

(سوف يأتى محملا بالهدايا لهم وستكون هى من يفتح له الباب .

معطرة ، في ثوبها الأثير ، وربما تطلى شفتيها بأحمر الشفاه . كانت دائما تعتقد أن اللون الزائف يبدو رخيصا ، لكن ربما كانت مخطئة) .

قال بك ، « لا » .

ـــ « ماذا ؟ »

ـــ « لن آتى لزيارة الأطفال » .

جلست على السرير .

قالت ، « أنا لا أفهمك » .

قالت لنفسها ، ينبغى أن تكون هناك لغة كاملة منفصلة تحمل كلمات أصدق من كلمات أخرى ـ تنقل الحقيقة الكاملة المطلقة . كانت هذه أنقى حقيقة فى حياتها : لم تفهمه ، ولم تكن لتفهمه مطلقا .

فى ذلك الوقت ، كانوا يعيشون فى بلتيمور ، فى بيت يقع ضمن صف من البيوت بشارع كالفيرت . كان الأطفال فى الرابعة عشرة ، الحادية عشرة ، والتاسعة من عمرهم . كانوا كبارا بما يسمح لهم أن يلاحظوا أن هناك خللا ما ، إذا لم تحترس . كانت تحتاط للأمر بلا حدود . وفى الصباح ، بعد أن رحل بك ، نهضت وارتدت ثيابها ، ولملمت شعرها على رأسها كما تفعل دائما ، وطبخت طحين الشوفان من أجل إفطار الأطفال . أكل كودى وجينى دون أن ينطقا حرفا ؛ وقص عزرا عليهم حلما طويلا غير مترابط . (كان الوحيد المبتهج فى أوقات الصباح) . انتابهم شعور بخيبة الأمل لأن وجبة طحين الشوفان ينقصها الزبيب . لم يسأل أحد أين كان بك . فقد كان غالبا ما يرحل قبل أن يستيقظوا يوم الأثنين . وكانت هناك أوقات ـ أوقات كثيرة ـ حين يظل متغيبا طوال الأسبوع . لم يكن الأمر غير عادى إلى هذا الحد .

عندما حلت ليلة الجمعة ، قالت إن شيئا قد أخره . كان قد وعدهم أن يصحبهم إلى سيرك الأقزام ، وقالت لهم إنها ستفعل ذلك بدلا منه . ومر أسبوع آخر . لم تكن لديها صديقات حميمات ، لكنها كانت إذا قابلت واحدة تعرفها بالصدفة فى متجر البقالة ، فإنها كانت تقول إن من حسن الحظ أنها لم تكن مضطرة إلى استخدام أى لحم اليوم ، فزوجها متغيب فى عمله . كان الناس يومئون برءوسهم ، غير مكترثين . فهو متغيب فى عمله بشكل دائم تقريبا ، وقليلون هم من التقوا به فى أى وقت .

وفى الليالى ، على الأخص فى ليالى الجمعة ، كانت ترقد فى السرير فى الظلام وتنصت إلى طقطقة الكعوب الخشنة فى الممشى الجانبى . وقع الأقدام يقترب ثم يمضى فتطلق أنفاسها . أقدام أخرى تخطو مقتربة . كان **هذا** من المؤكد بك . كانت تعرف كيف سيدخل بتردد ، وهو يتوقع أسوأ الأمور - دموع أطفاله وتوبيخات زوجته . لكنه بدلا من ذلك سيجد كل شىء كما هو لم يتغير . سيقوم الأطفال بتحيته بطريقة عفوية . وسوف تطبع بيرل على وجنته قبلة سريعة وتسأله إذا كان قد قام برحلة طيبة . وفيما بعد سيشكرها لأنها احتفظت بسره . سوف يسمح له بالدخول مرة أخرى بسهولة ، إذ أن كليهما فقط كانا يعرفان أنه رحل ؛ وسوف يستمر الغرباء على اعتقادهم بأن آل تل كانوا أسرة سعيدة . وهو ما كان عليه حالهم فى حقيقة الأمر . أوه ، لقد كانوا دائما سعداء للغاية ! وكانوا يعتمدون فحسب على أحدهم الآخر بسبب ترحالهم كثيرا جدا . وقد جعل هذا الرابطة بينهم متينة للغاية . وسوف يعود .

كتبت إليها أرملة عمها سيوارد متمنية لها عيد ميلاد سعيد . (كانت بيرل قد نسيت كل شىء بهذا الشأن) . ردت بيرل فى الحال تشكرها . كتبت تقول ، **احتفلنا به فى البيت . فاجأنى بِكْ بعقد بالغ الجمال ...**

وأضافت ، **سلامى إلى الآخرين** ، وتصورتهم جميعا فى قاعة استقبال عمها ، وأحست بحنين جارف نحوهم ، لكنها غالبت نفسها وتذكرت كيف كانوا متأكدين جدا ألاّ يرضى بها رجل زوجة له . لم يكن بإمكانها مطلقا أن تخبرهم بما حدث .

مرّت عليها صديقتها ايمالين فى طريقها لزيارة أختها فى فيلادلفيا . قالت بيرل إن بك خارج البلدة ، وأن كلتيهما محظوظتان ؛ بإمكانهما أن يتبادلا حديثا نسائيا حسبما يحلو لهما . أفردت لإيمالين مكانا فى سريرها المزدوج ، بدلا من غرفة الضيوف . قضتا نصف الليل ساهرتين منهمكتين فى القيل والقال والقهقهة . وفى إحدى المرات كادت بيرل تضع يدها على ذراع إيمالين ، وتقول ، « إيمالين . انصتى . إننى تعيسة ، يا إيمالين » . لكنها لحسن الحظ تمالكت نفسها . ومرت اللحظة . وفى الصباح استغرقتا فى النوم ، وكان على بيرل أن تهرع لترسل الأطفال إلى المدرسة ؛ ولذا لم تفه بالكثير . قالت إيمالين وهى تغادرها ، « لابد أن نفعل هذا كثيرا » ، وقالت بيرل إن بك سيسوؤه أنه فاتته فرصة رؤيتها . قالت ، « تعلمين أنه كان يحبك دائما » . على الرغم من أن بك فى الواقع كان يؤكد أن إيمالين كانت تذكره بحيوان المرموط .

حل عيد الفصح ، وكانت جينى تقوم بدور فى مهرجان عيد الفصح بمدرستها . وعندما جاء اليوم ومازال بك لم يعد للبيت ، بكت جينى . ألم يكن باستطاعته أبدا أن يعود للبيت ؟ أخبرت بيرل جينى أنها لم تكن غلطته . فقد كانت هناك حرب دائرة ، ومعدلات الانتاج تتزايد ؛ ولم يكن له حيلة فى هذا إذ كانت شركته تحتاج إليه الآن أكثر . قالت إنهم ينبغى أن يكونوا فخورين به . كفكفت جينى دموعها ، وأخبرت الجميع أن أباها كان عليه أن يسهم فى الجهد الحربى . الحرب قد تقادم بها

الزمن الآن ، تدور رحاها بلا هوادة ، ولم يثر هذا اهتمام أحد . إلا أن هذا جعل جينى تشعر بأنها أفضل حالا . وذهبت بيرل إلى مهرجان عيد الفصح وحدها ، وهى ترتدى قبعة أنيقة لها مقدمة ناتئة صنعت على منوال القبعات التى كان فيلق الجيش النسائى يرتديها .

بعد غيابه بشهر ، أرسل بك بضعة سطور من نورفوك يقول فيها إنه على مايرام ويأمل ألا يكون هناك شىء ينقصها ، هى والأطفال وأرفق شيكا بخمسين دولارا . لم تكن تكفى . قضت بيرل الصباح تذرع البيت جيئة وذهابا . راحت أول الأمر تسترجع الرسالة فى ذهنها ، وهى تقلّب كلماته بحثا عن معان كامنة . لكن لم يكن هناك الكثير مما يكمن تحت عباراته : **شقة طيبة للغاية بها موقد كهربائى للطهى ، ويبدو أن مدير المبيعات له رأى طيب فىّ** . ثم تفكرت فى النقود . وحوالى وقت الغداء ارتدت معطفها وقبعتها التى صنعت على منوال قبعات فيلق الجيش النسائى ، وانعطفت عند الناصية باتجاه **بقالة ومنتجات الإخوة سوينى الفاخرة** حيث ظلت لافتة تحمل « مطلوب صرّاف » قابعة فى نافذة المعروضات لعدة أسابيع حتى بهتت ألوانها . أسعدهم أيما سعادة أن يستأجروها . أوضح لها الأخ سوينى الأصغر كيف تدير آلة تسجيل النقدية ، وقال إنها تستطيع أن تبدأ العمل فى صباح اليوم التالى . وعندما عاد أطفالها إلى البيت من المدرسة فى ذلك اليوم ، أخبرتهم أنها ستعمل لتزجية الوقت . قالت إنها بحاجة إلى شىء يشغلها ، إذ أنهم كانوا يكبرون ويخرجون وحدهم أكثر من ذى قبل .

مر شهران . ثلاثة شهور . خمسون دولارا شهريا من بك . عندما وصل الشيك الثانى لم تصل معه رسالة . مزقت المظروف إربا ، وهى تظن أنها لابد قد التصقت بالداخل ، لكن لم تكن هناك كلمة . غير أنه مع الشيك الثالث كتب يقول إنه سينتقل إلى كليفلاند ، حيث كانت الشركة

تخطط لافتتاح فرع جديد هناك . قال إنها كانت علامة طيبة أنهم قرروا هذا النقل ـ أو ما أسماه « الدعوة » . لم يكن يسميها أبدا انتقالا ؛ كان يسميها دعوة . دعوة إلى هذا التوسع الهام باتجاه الغرب . استهل الخطاب **بعزيزتى بيرل والأطفال** ، لكن بيرل لم تظهره للأطفال . طوته بعناية ووضعته مع الخطاب الأول فى صندوق جوارب فى مكتبها ، حيث لم يكن حتى كودى الفضولى ليفكر أن ينقب هناك . فى المظروف الرابع كان هناك شيك فقط مرة أخرى . أدركت أنه لم يكن يقيم اتصالا بها (عبرت عنها هكذا) ، لكنه يمس فقط الحدود الدنيا للعلاقة من وقت لآخر . كان كل ما يفعله حقا هو أن يقول : **أرفق طيه** . لم يخطر لها أن تكتب له ردا . ومع ذلك ظلت تحتفظ بخطاباته .

وأحيانا كانت تراودها أفكار غريبة تدهشها . مثلا : لدىّ على الأقل الآن مساحة أكبر فى خزانة الملابس ، وحيز أكبر فى الأدراج .

وفى الليل كانت تحلم أن بِك صار شخصا جديدا ورائعا مرة أخرى ، شخصا ما تعرفت عليه لتوها . كان يحدق فيها بهيام ، يعصف بأشياء بعيدة داخلها لم تفطن من قبل إلى وجودها . كان يساعدها فى عبور الشوارع ، وصعود الدرج . يده تضم مرفقها بحرارة أو تلتف حول وسطها أو تستقر عند نهاية ظهرها . شعرت أنه يُدللها . وعندما تستيقظ كان كل ما تفكر فيه هو أن تغوص ثانية فى حلمها . فكانت تبقى عينيها مغمضتين . كانت تحاول أن تقنع الحلم بأنها مازالت نائمة ، فتتوهم أنها حيوان الأبوسوم ولا تحرك ساكنا . لكن المحاولة لم تفلح أبدا . كانت تنهض أخيرا ، مهما كانت الساعة ، وتهبط إلى الطابق السفلى لتعد إبريقا من القهوة . وبينما تقف عند نافذة المطبخ حاملة قدحها ، تراقب السماء وهى تكتسى باللون الأبيض فوق أسطح المنازل ، كانت تلمح انعكاس صورتها الداكنة الشفافة ـ وجهها الصغير

وذقنها المستدير الذى كان يكتسب مظهرا مقعرا فى تلك السنين القليلة الأخيرة ؛ وقوسا حاجبيها اللذين حال لونهما تعلوهما أمارات القلق ؛ والشعر الشاحب البالى الذى فشل فى أن يخفى التغضن على امتداد جبهتها . لم يكن التغضن تجعدا بل ندبة ، علامة باقية من حادثة فى طفولتها . أوه ، لم تكن عجوزا إلى هذا الحد ! لم تكن طاعنة فى السن إلى هذا الحد ! لكنها عندئذ تذكرت الحادثة : كانت تحاول ركوب دراجة ابنة عمها ، أول دراجة على الإطلاق تعرفها العائلة . كانوا يسمونها « عجلة » . كانت تحاول أن تركب عجلة . والوقت الآن عام ١٩٤٤ . والدراجات أصبحت منتشرة فى كل مكان ، لكنها متطورة إلى حد أنها كانت بالكاد تنتمى لنفس السلالة . كان أطفالها الثلاثة كلهم يعرفون كيف يركبون الدراجات ، وكان من الممكن أن يكون لهم ، فى حقيقة الأمر ، دراجات خاصة بهم لولا الحرب . كيف وصلت إلى هذا الحال ؟ كانت قد اجتازت لتوها عيد ميلادها الخمسين . لم يكن هناك أمل فى عودة بك . لعله وجد امرأة أخرى أصغر سنا ، امرأة أخرى فاتنة ومرحة ، مازالت قادرة على إنجاب الأطفال . كانا يسخران منها ، وكيف أنها كانت دائما عانسا ، عانسا بالقلب فى واقع الأمر . كيف أنها كانت تجفل عندما يستدير إليها فى الظلام ، ومازالت تفزع ، بعد كل هذه السنين ، من وجوده المادى ـ من لحيته النامية على فوديه ، بشرته التى لها رائحة الملح ، جسده الثقيل . كيف أنه كان لابد بالنسبة لها أن تكون الأشياء منظمة تماما ، ملاءات السرير متراصة على رفوف تحمل بطاقات من الورق تدل على محتوياتها فى خزانة الملابس ، والستائر مفرودة بشكل مستو على النوافذ . كيف أنها لم تتعلم أن تتساهل فى حياتها ، أن ترضخ ، أن تسبح مع تيار الأحداث كل يوم ، ولكن كان عليها دائما أن تشغل نفسها بشأن خيوط متناثرة وأن تجذبها وأن تسوى أركان الأشياء ؛ وأسوأ ما فى الأمر ، كيف كانت **تعرف** أنها تفعل ذلك ، تعرف وهى

تفعله ، لكنها رغم ذلك لم يكن بإمكانها أن تمنع نفسها .

لم يكن سيعود مطلقا .

حان الوقت أن تخبر الأطفال . أذهلها ، فى الحقيقة ، أنها تمكنت من أن تخفى الأمر عنهم طوال تلك المدة . هل كان من السهل خداعهم دائما ؟ كان هناك شيء وحيد طيب فى إبلاغهم : أنهم سوف يلتفون حولها بشكل أوثق . لم يرق لها أن تعترف بهذا لكنها كانت تفقد سيطرتها على الصبيين . فبدلا من أن يعيناها ـ بأن يحملا القمامة إلى الخارج ، وأن يساعداها فى أعمال خشنة عديدة وفى حراسة المنزل ـ كانا فيما يبدو يتحولان إلى صبيين جامحين ؛ نعم ، حتى عزرا . لم يكونا حتى يقومان بالأعمال المنزلية التى تعودا أن يقوما بها ، ناهيك عن أن يضطلعا بمهام جديدة . كان كودى فى الواقع نادرا ما يوجد فى البيت . وكان عزرا حالما كثير النسيان ، ويميل فى كثير من الأحيان إلى أن ينصرف فجأة عن المهمة التى يقوم بها . وظنت أنها حين تخبر الأطفال بحقيقة الأمر سوف يروعهم أنهم قد خذلوها . وسوف يسألون لم أخفت ذلك عنهم طيلة هذا الوقت ، وعما كانت تفكر فيه .

إلا أنها لم تستطع أن تخبرهم .

خططت كيف تفعل ذلك : سوف تجمعهم حولها على الأريكة ، فى ضوء المصباح ، فى إحدى الأمسيات بعد العشاء . ستقول ، « ياأطفالى . ياأعزائى . هناك ما ينبغى أن تعرفوه » . لكنها لن تتمكن من الاستطراد ؛ فقد تبكى . لايمكنها أن تتصور أن تبكى أمام الأطفال ، أو أمام أى شخص آخر . أوه ، كان لديها كبرياؤها ! لم تكن امرأة بلا كرامة ؛ فغالبا ما كانت تفقد أعصابها ، تصرخ ، تصفع أقرب وجنة إليها ، تتفوه بأشياء تندم عليها فيما بعد ـ لكنها ، شكرا لله ، لم تكشف

عن دموعها . لم تسمح لدموعها أن تغالبها . فقد كانت هى بيرل كودى تل التى رحلت عن رالى مزهوة بزوجها الجديد ولم تنظر إلى الخلف أبدا . بل إنها الآن ، حتى وهى تقف بجوار نافذة المطبخ ، وحدها تماما ، تراقب وجهها المتوتر الذى ارتسمت عليه خطوط الزمن ، لم تبك .

وكل صباح ، فى تلك الآونة ، كانت تذهب إلى الإخوة سوينى . ظلت ترتدى قبعتها ، لتعطى الانطباع بأنها قد قامت بزيارة مفاجئة بلا ترتيب سابق ، وأنها كانت تعرض خدماتها لتخرجهم من ورطة يواجهونها . وكلما كان عميل يقترب (وعادة أحد تعرفه ، على الأقل بالشكل) ، كانت تومىء إيماءة حازمة ثم تحدق بعينين نصف مغمضتين ، بما ينطوى على ابتسامة . كانت تطلب المشتريات على الهاتف بكفاءة فى حين كان صبى يدعى ألكسندر يضعها فى أكياس . وفى النهاية تقول ، « شكرا ، طاب يومك » ، تتبعها بابتسامة مختزلة أخرى . كان يروق لها أن تبدو حادة وحرفية . وحين يظهر جيران ، ناس تعرفهم بشكل وثيق أكثر ، كانت تشعر بخدر الموت يزحف فى داخلها لكنها لم تكن تفقد تماسكها . معهم كانت حتى أكثر حدة . كان هناك إيقاع صغير بين طرق المفتاح بإصبعها وانزلاق مشتريات البقالة على طول المنضدة الخشبية الطويلة ؛ يصرف ذهنها عن التفكير فى أى شىء . وإذا سمحت لنفسها بأن تفكر ، فإنها كانت تسقط فريسة للقلق . كان الصيف قد أقبل وأطفالها خارج المدرسة طوال اليوم . لم تكن هناك وسيلة لمعرفة مايفعلونه .

عند الخامسة والنصف كانت تمضى إلى البيت ، مارة بجمهرة من الصغار يلعبون الحَجلة أو يتجمعون حول لعبة البلْى ، مارة بأطفال رُضّع وضعوا فى عرباتهم فى الهواء الطلق ، ونساء يجلسن فى

شرفاتهن الأمامية الصغيرة يروّحن عن أنفسهن فى القيظ . كانت ترقى درج بيتها لتتلقاها أخبار سيئة عند الباب : « سقطت جينى على الدرج وعضت شفتها السفلى حتى قطعتها ، وكان عليها أن تذهب إلى بيت مسز سيمونز لتأخذ ثلجا وشاشا » .

ــــ « أوه ، جينى ، ياحبيبتى ! »

بدا لها أنهم يرحبون بها بكارثة ، يدخرون كل حوادثهم لها بوجه خاص . كانت لتود أن تخلع قبعتها وحذاءها وترتمى على الأريكة ؛ لكن لا ، كانت تواجه بـ « لقد سُدَّ المرحاض » ، و « لقد مزقت سروالى » ، و « لقد ضرب كودى عزرا بإبريق عصير البرتقال » .

وكانت تسألهم ، « ألا يمكنكم أن تتركونى فى حالى ؟ ألا يمكنكم أن تمنحونى دقيقة لنفسى ؟ »

كانت تعد العشاء من معلبات جلبتها معها إلى البيت ، لا شىء منها متميز ، وتستمع إلى الراديو وهى تغسل الأطباق . كان من المفروض أن تجففها جينى لكنها بالخارج تلعب لعبة المسّاكة مع الأولاد . كانت بيرل تدلف للخارج من الباب الخلفى لتلقى بماء غسيل الأطباق فى الفناء ، وتقف لتراقبهم ـ كودى وجينى داكنان سريعا الحركة ، مرتفعا الصوت ، قد غلبهما الضحك ؛ وعزرا شاحب ، يلمع لمعانا خفيفا فى ضوء الشفق ، أبطأ حركة وأكثر تجوالا بلا هدف فى تحركاته . أحيانا كان هناك أطفال من الجيران أيضا ، لكن فى أغلب الأحيان ثلاثتهم فقط . كانوا يلازمون بعضهم البعض فى أغلب الأحيان .

كانت تغسل شعرها وتشطف قمصانها الداخلية ، وتنادى على كودى ليأتى بالاثنين الآخرين ويدخلوا فى الحال .

وفى الليالى كانت تقوم بالأعمال المنزلية . ولو أنك تأملت هذه

المرأة التى تنتمى فى دخيلتها لعصر مضى ، ورأيتها هشة البنيان ، غائرة الصدر ، كما لو كانت ثياب فترة صباها الفضفاضة من الأمام قد شكلت قدها - لما خمنت على الإطلاق أن بيرل كانت بارعة فى استخدام الأدوات لإصلاح منزلها . كانت ترقع شقا ، تطلى نافذة ، تعيد تركيب الجزء العلوى لدرجتين من الدرج المؤدى إلى البدروم . كانت تصلح مفتاح الإنارة وتطلى خزانات المطبخ . كانت تفعل مثل هذه الأشياء حتى فى الأيام الخوالى ، إذ لم يكن بك بارعا فى استخدام يديه . كانت تقول له ، « هذا البيت برمته يقوم على كتفى » ، وتعنى بذلك اتهاماً لهُ ؛ لكن الفكرة كانت تعيد إليها الطمأنينة ، بشكل ما . فهى تعرف أنها كفء ، فمنذ الأيام الباكرة لزواجها ، منذ اللحظة التى أدركت فيها كم سيتكرر ترحالهم ، ركزت على أن تجعل كل بيت كاملا - محكما لا يسمح بدخول الهواء ، غير قابل للصدأ ، منيعا ضد تسرب الماء . أراحت نفسها من مشقة استقبال جيران جدد بشكل دائم ، وكفت عن إعادة علب الفطائر (بعد أن تملأها من جديد) التى كانوا يأتون لها بها حين تصل . كان كل ما تهتم به هو سد البيت بإحكام ، كما لو كانت تستعد لإعصار . كانت تستيقظ ليلا وهى تتساءل ما إذا كان البدروم جافا ، وتهبط حافية القدمين حتى تتأكد . لم يكن فى استطاعتها أن تستمتع بنزهاتهم يوم الأحد لأن البيت قد تدمره النيران فى غيابها . (كان بإمكانها أن تتصور بكل وضوح أنها ستجد عند عودتهم مساحة فضاء حيث مكان البيت ، وحفرة ممزقة مكان البدروم) . وهنا فى بلتيمور استنتجت أنهم كانوا يرونها غير ودودة ، بل شبحا مخيفا - ساحرة شارع كالفيرت . يالها من فكرة ! لقد عرفت مثل هاتيك الساحرات فى طفولتها ؛ لكنها لم تكن تشبههن فى شىء . كل ما كانت تريده هو أن يدعوها تعمل فيما هو مهم : أن تسد شقوق النوافذ ؛ أن تلصق الشرائط ضد الجو على الباب . فمع الأدوات كانت تجد ذاتها الحقيقية ، قادرة وقوية . كانت تشعر بنوع من الازدراء

المتسامح تجاه أطفالها ، الذين لم يرثوا مهارتها . كان كودى ينقصه الصبر ، وعزرا أخرق ، وجينى متقلبة . وطاف بخاطرها أنه من الجدير بالملاحظة كم يكشف الناس عن شخصياتهم فى كل شىء ضئيل يقومون بعمله .

وبينما كانت تطرق لوحا مخلخلا من ألواح الأرضية ، وقد برزت المسامير خشنة من فمها ، كانت لا تلتفت لمرور الساعات فإذا بها قد بلغت العاشرة والنصف أو الحادية عشرة . عندئذ يكون أطفالها واقفين بمدخل الباب غارقين فى عرقهم وتلطخهم الحشائش ، وهم يطرفون بعيونهم بسبب الضوء المبهر المفاجىء . كانت تقول لهم ، « ياللسماوات ! اذهبوا إلى فراشكم . أظن أننى ناديت عليكم لتدخلوا من ساعات مضت » . ولكنها بعد هنيهة من انصرافهم تبدأ فى الشعور بأنهم قد هجروها ، حتى بالرغم من أنهم لم يكونوا صحبة يعتد بها ، فتضع المطرقة جانبا وتنهض وتمشى فى أرجاء البيت ، تسوى تنورتها ، وفى شرود تلمس شعرها حيث كان يتهدل من تسريحة الكعكة التى زينت بها رأسها . وتصعد الدرج إلى الردهة ، وتمر أمام الحجرة الصغيرة التى تنام فيها جينى ، إلى داخل غرفتها هى ، حيث خزانة ملابسها المنبعجة المصنوعة من الورق المقوى والمخططة حتى تبدو مثل تعرق الخشب ، والخوان الصغير ذو السطح المكشوف ، والسرير الكهفى - ثم تخرج ثانية وتصعد بضع درجات أكثر إلى حجرة الولدين ، وهى مهجع يقع فى الطابق الثالث تفوح منه رائحة الهجير . كان ايقاع أنفاس ولديها المطمئن يجعلها تشعر بالحسد . استدارت وهبطت الدرج حتى آخره إلى المطبخ . كان الباب الخلفى مازال مفتوحا والباب الحاجز يعج بالعثة . كانت البيوت المجاورة تدوى فيها ضحكات شخص ما ، بضعة أنغام متصدعة من نفير ، صوت بيانو نشاز يؤدى لحن « تشاتا نوجا تشو -

تشو » . أغلقت الباب وثبتته بالقفل وأنزلت الساتر الورقى . صعدت الدرج مرة أخرى وخلعت ملابسها وارتدت قميص النوم وأوت إلى سريرها .

حلمت بأنه معطر بعطر بعد الحلاقة الذى كان يستعمله بك وهما مخطوبان . لم تكن قد شمته لسنين طويلة ، ولم يشغل تفكيرها ، لكنه عاد اليها الآن بشكل واضح . شيئا لاذعا ، مطعما بالتوابل . رائحة مختالة تكشف عن نفسها بتبجح ، وهو ما كانت تعرفه حتى فى ذلك الوقت ؛ لكنها حين كانت تتشممها عندما يصل إلى شرفة العم سيوارد الأمامية لكى يصحبها ، كانت تشعر بروح المغامرة تتقمصها . كانت تدفع الباب لتفتحه على مصراعيه ، وكان يضحك قائلا ، « حسنا ، الآن . أهلا ، الآن » ، وهى تقف هناك ، تبتسم له .

كانت قد سمعت أن المرء لا يمكنه أن يحلم برائحة أو يتذكرها فى غيابها ؛ ولذا ، فإنها حين استيقظت اقتنعت ، للحظة ، أن بك قد دخل البيت وكان يجلس على حافة السرير ، يراقبها وهى نائمة . لكن لم يكن هناك أحد .

أرقص ! أوه ، لا أظن ذلك ، قالتها لنفسها . أنا مسئولة عن هذه الأسرة كلها ، هل تفهمنى ، وكل ما علىّ أن أفعله هو أن أدير ظهرى لحظة واحدة حتى يتمزق الجميع إلى أشلاء ، مجرد أشلاء صغيرة متناثرة . وأيا كان الشخص فإنه تراجع . قلب عزرا صفحة من مجلته . قالت ، « عزرا » . شعرت به وقد سكنت حركته . كانت لديه هذه العادة ـ كانت لديه دائما ـ أن يصبح بلا حراك كلية حين يخاطبه الناس . كانت عادة تجعل الناس يحبونه ، لكنها بشكل ما تعبير عن شعوره

بإجهاد أيضا ، فأيا كان ما تقوله له (« أشعر بتيار هواء » ، أو « تأخر الصبى موزع الجرائد ثانية ») حرى بأن يصيبه بخيبة الأمل ، أليس كذلك ؟ فكيف يمكنها أن تكون على مستوى توقعاته ؟ راحت تزيح لحافها . قالت له ، « لو أمكن أن أشرب بعض الماء فقط » .

صبه من الإبريق الموجود على الخوان الصغير . لم تسمع صلصلة أية مكعبات ثلج ، لابد أنها ذابت . ومع ذلك فقد بدا أنه قد جاء منذ دقائق مضت فقط بزاد كامل جديد منه . رفع رأسها ، وأراحه على كتفه ، وأمال الكوب إلى شفتيها . نعم ، فاتر - وليس معنى هذا أنها تبالى . شربت بشعور بالامتنان ، وقد احتفظت بعينيها مغمضتين . شعرت بكتفه ثابتة تبعث الراحة . أراح رأسها ثانية على الوسادة .

قال لها ، « سوف يحضر دكتور فنسنت فى العاشرة » .

— « ما الساعة الآن ؟ »

— « الثامنة والنصف » .

— « الثامنة والنصف صباحا ؟ »

— « أجل »

سألته ، « هل ظللت هنا طوال الليل ؟ »

— « نمت قليلا » .

— « نم الآن . فلن أكون بحاجة إليك » .

— « حسنا ، ربما بعد أن يحضر الطبيب » .

كان من المهم بالنسبة لبيرل أن تخدع الطبيب . لم تكن تريد أن تذهب إلى المستشفى . كانت مريضة بالتهاب رئوى ، كانت متأكدة من ذلك تقريبا ؛ خمنت هذا من تجربة سابقة . تعرفت على الطريقة التى

استوطن بها المرض ظهرها . لو اكتشف دكتور فنسنت هذا لأرسلها إلى مستشفى « يونيون ميموريال » ، ويضع فوقها خيمة من البلاستيك . قالت لعزرا ، « ربما يحسن أن تلغى الطبيب . فقد تحسنت جدا ، فيما أعتقد » .

ـــ « دعيه يقرر هو ذلك » .

ـــ « حسنا ، أنا أكثر دراية بما أشعر ، ياعزرا » .

قال ، « لن نتجادل فى هذا الآن » .

كان بإمكانه أن يصيبك بالدهشة ، كان ذلك بإمكان عزرا . قد يسمح لشخص أن يقهره بشكل حاسم ، ثم يبدى فى لحظات عابرة ، عنادا عميقا صلبا كالصخر . تنهدت وسوت لحافها . يبدو أنه أسال عليه بعض الماء .

تذكرت حين كان عزرا طفلا ، ما زال فى المدرسة الابتدائية . قال لها حينذاك ، « أمى ، لو اتضح أن النقود تنمو على الأشجار ، لمجرد يوم واحد ثم لا تعود إلى ذلك مطلقا ، هل كنت ستسمحين لى بعدم الذهاب إلى المدرسة والبقاء فى البيت لأقطفها » .

قالت له ، « لا » .

ـــ « لم لا ؟ » .

ـــ « تعليمك أهم » .

ـــ « أراهن أن أمهات الأطفال الآخرين كن سيسمحن لهم » .

ـــ « الأمهات الأخريات ليست لديهن خطط لأطفالهن حتى يكونوا ذوى شأن » .

ـــ « ولكن لمجرد يوم واحد فقط ؟ »

ـــ « أقطفها بعد المدرسة أو قبلها . استيقظ مبكرا أكثر من

المعتاد ؛ حرّك عقارب منبهك ساعة للأمام » .

قال ، « ساعة ! أتكفى ساعة واحدة من أجل شىء يحدث مرة واحدة فقط فى العالم كله ؟ » .

سألته بيرل ، « عزرا ، هل تدع هذا الأمر جانبا ؟ أم يجب أن تظل تلاحقنى بهذا الشكل ؟ لماذا أنت عنيد إلى هذا الحد ؟ »

خطر لها الآن فقط ، وهى تحت لحافها الرطب ، أن تتساءل لماذا لم تقل له نعم . كان باستطاعته أن يبقى فى البيت . فإذا قررت النقود أن تنمو على الأشجار يوما واحدا ، فليقطف منها ما شاء ! كان ينبغى أن تقول له هذا . أى فرق كان سيصنعه هذا ؟

أوه ، لقد كانت أما غضوبا . كانت متوترة بشكل دائم ؛ تشعر بأنها تحمل عبئا ثقيلا على عاتقها ، وأنها وحيدة تماما . وبعد أن رحل بك ، أصبحت مستغرقة بالكامل فى دفع الإيجار وضبط الميزانية ، وأن يظل هؤلاء الأولاد العظام ذوو الأقدام الخشنة يرتدون أحذية جديدة . كانت هى من استدعت الطبيب فى الساعة الثانية صباحا ، حين أصيبت جينى بالتهاب الزائدة الدودية ؛ كانت هى من هبطت الدرج بمضرب البيسبول ليلة سمعوا ضجة مخيفة . لقد أبقت على الفرن مزودا بالفحم ، وواجهت بلطجى الناحية حين ضرب عزرا ضربا مبرحا ، وأطلقت ماء الخرطوم على السطح حين شبت النار فى مدخنة مسز سيمونز . وحين عاد كودى إلى البيت مخمورا من عيد ميلاد فتاة ما ، من كان عليه أن يتصرف حيال الموقف ؟ بيرل تل ، التى لم تتعاط أبدا أى شىء أقوى من كأس نبيذ فى عيد الميلاد . أجلسته بشكل بارع فى كرسى مطبخ ، وتجاهلت تأوهاته ، ومالت على المنضدة فى مواجهته . ولم تستطع أن تفكر فى أى شىء تقوله .

ثم تخرَّج كودى من المدرسة الثانوية ، وكان عزرا طالبا فى السنة الثانية ، وجينى فتاة طويلة القامة فى الصف الثامن . لم يكن بك ليعرفهم . ولعلهم لم يكونوا ليعرفوا بك . لم يسألوا عنه مطلقا . ألم يكن ذلك يبين ضآلة أهمية الأب ؟ الرجل الخفى . الحاضر الغائب . شعرت بيرل بوخز بهجة غاضبة . لقد أصابت نجاحا ظاهرا فى هذا - حققت التحول بنعومة إلى حد لم يتوقعه أى إنسان . كان أعظم انتصار فى حياتها . قالت لنفسها ، إنجازى الوحيد الحقيقى . (كم كان من المؤسف ألا يوجد شخص واحد تفاخر أمامه بهذا) . بل إنها ، دون حتى أن تلحظ ، كفت بالتدريج عن الذهاب إلى الكنيسة المعمدانية . كفت عن الإشارة إلى بِكْ أثناء الحديث - على الرغم من أنها حين كانت تكتب بطاقات عيد الميلاد إلى أقاربها فى رالى ، كانت تبدى ملاحظة أن بك ناجح فى عمله وأنه يرسل لهم تحياته .

وذات ليلة ، تخلصت من خطاباته . لم يكن قرارا مخططا . كانت فقط تنظف المكتب ، هذا كل ما فى الأمر ، ولم تستطع أن تجد سببا وجيها للإبقاء عليها . جلست بجوار سلة المهملات فى غرفة نومها وأسقطت فيها خطاباته التى جاء فى واحد منها : **يبدو أننى سأرتقى السلم ، مكانا صغيرا ملائما بالنسبة لمحطة السكك الحديدية وقال لى إننى أحسن عملى تماما** . لم يكن هناك الكثير منها - ثلاثة أو زهاءها فى السنة الأخيرة . متى كفت عن فض المظاريف بيدين مرتعشتين وبتلهف ، وتفحص السطور بدقة ونهم ؟ خطر لها أن الرجل الذى لا تزال تنعيه ، فى وقت متأخر من ليال مؤرقة ، لم تكن له أية علاقة من أى نوع بالرجل الذى كان يرسل تلك الرسائل المملة . كانت تقرأ بضجر لا حد له ، **سوف يحال إد بول للتقاعد فى يونيو ، وسوف أدخل منطقته التى بها أعلى دخل « للفرر د » فى ديلاوير** . أثلج صدرها للغاية أنه قد أخطأ فى هجاء كلمة **فرد** .

كبر أبناؤها وباشر كل منهم حياته الخاصة . بدأ ولداها يساعدانها ماليا ، وتقبلت بيرل هذا بسرور . (لم تكن خجلة أبدا من تقبل نقود ـ من العم سيوارد فى الأيام الخوالى ، أو من بك ، أو الآن من الولدين . فمن حيث جاءت ، كانت المرأة تتوقع أن يعولها الرجال) . وعندما حقق كودى نجاحا كبيرا ، اشترى البيت الذى كان يقع فى صف من البيوت والذى ظلت تستأجره طوال هذه السنين وقدم لها حجته صباح أحد أعياد الميلاد . كان بوسعها أن تستقيل من متجر البقالة عند ذاك الوقت تماما ، لكنها أرجأت هذا حتى بدأت تفقد بصرها . أى شىء آخر كان بوسعها أن تفعله بوقتها ؟ كانوا يطلقون على مثل هذا الوقت « العش الخالى » . وفى هذه الأيام كان ذلك هو التعبير الذى يستخدمونه . كان من الطريف ، وهى فى شيخوختها، أن تنظر إلى الماضى وأن ترى كم كانت الفترة التى لم يكن عشها فيها خاليا قصيرة . كانت بمعيار المقارنة قصيرة إلى حد العدم ـ خالية أطول بكثير مما كانت ممتلئة . لقد استثمرت جزءا كبيرا للغاية من نفسها فى أولئك الأطفال ؛ من كان بإمكانه أن يتخيل أن الوقت الذى قضوه معها قصير إلى هذا الحد ؟

عندما كانت تفكر فيهم فى مراحلهم المختلفة ـ فى البداية وهم ملتصقون بها ، ثم وهم ينفصلون عنها وينجرفون بعيدا ـ كانت تفكر فى مصباح الصالة الذى اعتادت أن تتركه مضاءً حتى لايخافوا فى الظلام . ثم تركت فيما بعد مصباح الحمام فقط مضاءً ، كان الحمام يقع فى آخر الصالة من كل بيت سكنوا فيه ؛ وفيما بعد تركت مجرد مصباح الطابق السفلى إذا كان أحدهم يقضى الأمسية بالخارج .

كان نضوجهم يعنى ، بالتالى ، إعتاماً تدريجيا للضوء عند باب حجرة نومها ، كما لو أنهم أخذوا معهم بعض الإشراق حين تباعدوا عنها . لقد فكرت أحيانا أنها كان عليها أن تخطط لهذا بشكل أفضل .

كان عليها أن تعقد بضع صداقات أو أن تنضم إلى نادٍ . لكنها لم تكن من ذلك النمط . لم يكن هذا ليجلب لها العزاء .

فى الصيف الماضى أيقظتها نصف يقظة ترتيلة من جهاز الراديو الذى يعمل بساعة ـ « فى المستقبل العذب » يؤديها مطرب محبوب بطريقة حزينة قبل الموعظة القصيرة التى يلقيها نورمان فنسنت مباشرة . **سوف نلتقى على ذلك الشاطىء الجميل** ... غابت فى حلم أخبرها فيه أحد الغرباء أن الشاطىء الجميل كان شاطىء رايتزفيل ، نورث كارولينا ، حيث قضت هى وبِكْ والأطفال ذات يوم أجازة صيفية . كانوا يلتقون على الشاطىء بعد ارتداء المايوهات وينزلون الماء لأول مرة فى يومهم الأول . كان بك وسيما وبيرل بادية الرشاقة والأطفال لايزالون صغارا جدا ؛ لهم وجوه مستديرة ، مستثارة ، تفيض بالبهجة وأجسام ضئيلة ريانة . أذهلتها براءتهم ـ براءتها هى وبراءة بك أيضا . مدت ذراعيها تجاه الأطفال ، لكنها استيقظت . وفيما بعد ، تصادف أن ذكرت الحلم وهى تخاطب كودى على الهاتف . قالت ، ألا يكون لطيفا لو أن الجنة كانت شاطىء رايتزفيل ؟ لو أنهم بعد الموت يفتحون عيونهم ويجدون أنفسهم ثانية على تلك الرمال الدافئة المشمسة ، وكل واحد صغير السن وسعيد مرة أخرى ، وتلك الموجات القديمة تمور باتجاه الشاطىء ؟ لكن كودى لم يدخل فى إهاب الحلم . سألها ، **لطيف** ؟ سألها ، أكان هذا كل ما ترين أنه الجنة ؟ شاطىء رايتزفيل ، حيث يذكر أن القلق ظل يأكلها لمدة أسبوعين كاملين خوفا من أن تكون قد تركت الفرن بالمنزل مشتعلا ؟ وسألها ، هل أخذت فى اعتبارها رغباته هو فى هذا الأمر ؟ هل كانت تظن أنه يريد أن يقضى الخلود طفلا ؟ قالت ، « كودى ، ماعليك ، كل ما كنت أعنيه هو ـ »

كان به شىء ما خطأ . كان بكل أطفالها شىء ما خطأ . كانوا

يثيرون الإحباط ـ ثلاثتهم ناس جذابون محبوبون ، لكنهم منعزلون عنها بشكل خاطىء لم يكن باستطاعتها أن تحدد كنهه . وأحست بخلل فى حياة كل منهم كأنه نوع من العلامة التجارية . كان كودى عرضة لفورات غضب غير معقولة ؛ وجينى طائشة ؛ وعزرا لم يكن فى الواقع يعيش وفقا لقدراته . (كان يدير مطعما فى شارع القديس بول ـ لم يكن مطلقا ما خططته له) . تساءلت إن كان أطفالها يلومونها على شىء . كانوا يميلون ، وهم جالسون لصق أحدهم الآخر فى الاجتماعات العائلية (حيث كان الأزواج والزوجات يجلسون متباعدين عن أولادهم وكأنهم ليسوا أبدا أعضاء أسرة واحدة) ، إلى أن يتذكروا الفقر والوحدة فقط ـ اللعب التى لم يكن بإمكانها أن توفرها لهم ، الحفلات التى لم يكونوا يدعون إليها . كان كودى بالذات يشير بشكل دائم إلى مزاج بيرل الحاد ، وهو يعرضه على خلفية من وجوه أطفال مذهولة ، حزينة وحائرة إلى حد أن بيرل نفسها كانت تتعرف بالكاد عليها . قالت لنفسها ، بكل أمانة أليس هناك قانون يضع حدودا للأشياء هنا ؟ متى كان سيحلها من تبعات هذا ؟ كان فى منتصف العمر . لم يكن من شأنه أن يعتبرها مسئولة بعد الآن .

وبِكْ : حسنا ، مازال حيا ، إذا كان ذلك مهما . هو الآن هرم . تراهن أنه عجوز متوعك الصحة . هى تراهن أنه يرتدى شعرا مستعارا ، له طقم أسنان شديد البياض ومنتظم ، أو تسريحة شعر شابة منسابة تجعله يبدو مضحكا . ربطات عنقه فاقعة الألوان وحلله من قماش ذى مربعات فجة . ما الذى رأته فيه على الإطلاق ؟ لاكت شفتيها من الداخل . خطؤها الوحيد ، خطأ بسيط فى الحكم على الأشياء . لم يكن ينبغى لهذا الخطأ أن يؤدى إلى مثل هذه النتائج بعيدة المدى . إن المرء ليظن أن الحياة بإمكانها أن تكون أكثر صفحاً من هذا بقليل .

كانت رسائله تصل مرة أو مرتين فى العام ، حتى الآن . (رغم أن النقود قد توقفت حين بلغت جينى الثامنة عشرة - أو **بعد** شهرين من بلوغها الثامنة عشرة ، وهو ما يعنى أنه قد نسى عيد ميلادها ، هكذا افترضت بيرل) . كان ذلك هو سلوكه المألوف الذى يفتقر إلى الذوق والذى جعله يخرج خروجا نهائيا . كان يقضى وقتا أطول من اللازم فى وداعاته ، يثرثر فى مدخل الباب ، تاركا البرد يدخل . كتب لها قائلا إنه تقاعد من شركة تانر . وظل فى آخر مكان نقل اليه ، ريتشموند ، كأنه شىء جرفه فيضان ؛ لكن من الواضح أنه مازال يسافر قليلا . فى ١٩٦٧ أرسل اليها بطاقة بريدية من المعرض العالمى فى مونتريال ، وبطاقة أخرى فى ١٩٧٢ من مدينة أتلانتيك فى نيوجيرسى . بدا لها أن مناسبات رنانة مختلفة كانت تحفزه إلى النشاط - عندما سار أول انسان على القمر ، مثلا (وهو حدث لا أهمية له بالنسبة لبيرل ، أو أى شخص آخر جاد) . كتب يقول ، **حسنا ! يبدو أننا أفلحنا** . بدت حماسته متوهجة ، ربما بفعل الخمر . أجفلت ومزقت الخطاب إربا .

وفيما بعد ، عندما أظلمت عيناها ، كانت تحتفظ ببريدها لعزرا . كانت تعرض عليه مظروفا . « من أين هذا ؟ لا أستطيع أن أميزه تماما » .

ــــ « رابطة البنادق القومية » .

ــــ « طوحه . ماهذا ؟ »

ــــ « الحزب الجمهورى » .

ــــ « طوحه . وهذا ؟ »

ــــ « شىء كتب بخط اليد العادى ، من ريتشموند » .

ــــ « طوحه » .

لم يسألها لماذا . لم تكن لدى أى من أطفالها ذرة من فضول .

* * *

حلمت بأن عمها ربط الحصان برنس إلى العربة الخفيفة ، وصحبها إلى مسابقة فى الإداء خصصت للفائز بها ميدالية . لكنها فشلت فى أن تستظهر قطعة واحدة ووقفت على خشبة المسرح مثل شىء أخرس والجميع يهمسون . عندما استيقظت ، غضبت من نفسها . كان عليها أن تؤدى مقطوعة « الواد فريتز ده » ؛ فقد كانت دائما جيدة فى أداء اللهجات . ومازالت تعرفها عن ظهر قلب حتى الآن ، أيضا . لم تكن ذاكرتها قد ذوت مطلقا . أعادت ترتيب وسادتها بنزق . شعرت بحوافها الحادة وقد اهترأت ، هكذا فسرت الأمر لنفسها . عادت إلى النوم ثانية وحلمت بالبيت تشتعل فيه النيران . جف جلدها من الحرارة وبدا لها أن شعرها يئز فى أذنيها . هرعت جينى إلى الطابق العلوى لتنقذ الأشياء التى تزين بها ملابسها واختفى وقع أقدامها فجأة ، كما لو كانت قد سقطت فى فراغ . صاحت بيرل ، « قفى » . فتحت عينيها . كان هناك من يجلس بجوارها فى ذلك المقعد الذى يصر . قالت ، « جينى » .

ــ « أنا عزرا ، يا أمى » .

مسكين عزرا ، لابد أنه منهك . ألم يكن من المفروض أن تقوم الابنة بتمريضها ؟ عرفت أن عليها أن تطلب منه أن يذهب ، لكنها لم تجد فى نفسها القدرة على أن تفعل هذا . قالت له ، « أظنك تريد العودة إلى ذلك المطعم » .

ــ « لا ، لا » .

قالت ، « إنك أشبه بالدجاجة الأم فى أرجاء ذلك المكان » . تنشقت ثم قالت ، « عزرا ، هل تشم رائحة دخان ؟ »

قال (وهو يتخذ جانب الحذر كعادته) ، « لماذا تسألين ؟

ــــ « كنت أحلم بأن البيت يشتعل وينهار » .

ــــ « لم يحدث هذا حقا » .

ــــ « آه » .

انتظرت ، وهى تكبح نفسها . كانت عضلاتها متوترة للغاية ، وكل جسمها يؤلمها . أخيرا قالت ، « عزرا ؟ »

ــــ « نعم ، يا أمى » .

ــــ « ربما يمكنك فقط أن تتحقق » .

ــــ « أتحقق مم ؟ »

ــــ « البيت ، بالطبع . تحقق مما إذا كان مشتعلا » .

استطاعت أن تتبين أنه لم يكن يريد أن يفعل هذا .

قالت له ، « من أجل خاطرى » .

ــــ « حسنا ، بالتأكيد » .

سمعته ينهض ويمشى متثاقلا . لابد أنه يرتدى جوربه ؛ فقد تعرفت على ذلك الصوت ذى الحفيف . غاب طويلا حتى بدأت تتوقع أسوأ شىء . أجهدت نفسها فى توجس زئير ألسنة اللهب لكنها سمعت فقط أبواق السيارات العابرة ، الهمهمة الكهربية لجهاز الراديو الذى يعمل بساعة ، صليل جرس دراجة تحت نافذتها . ثم ها هو يأتى ، متثاقلا وبطيئا على الدرج . من الواضح أنه لم يكن هناك طارىء . استقر فى مقعده ثانية . قال لها . « كل شىء على مايرام » .

قالت بتواضع ، « شكرا ، ياعزرا » .

ــــ « العفو » .

سمعته يلتقط مجلته .

قالت ، « عزرا ، لقد خطر لى خاطر . هل تصادف أن تحققت من البدروم ؟ »

ـــ « أجل » .

ـــ « هل نزلت إلى أسفل الدرج تماما ؟ »

ـــ « أجل ، يا أمى » .

ـــ « لا يهمنى كثيرا كيف يبدو صوت الفرن » .

قال لها ، « إنه على مايرام » .

كان على مايرام . قررت أن تصدقه . أراحت نفسها بأن راحت تتجول ، بعقلها ، من أحد طرفى البيت إلى الطرف الآخر ، وهى تضع بيانا يوضح كم أحسنت تدبير الأمور . كانت مدخنة المدفأة مغلقة ضد البرد . أنابيب الصرف خالية من الشوائب والصنابير محكمة وقد أفرغت أنابيب التدفئة بنفسها . كانت وهى عمياء ، تدير مفتاحها إلى وضع الغلق بحدة حالما تسمع هسيس المياه . كانت قنوات البالوعات قد سُلّكت والسطح لا يسرّب المياه والثلاجة تطن فى المطبخ . كان كل شىء يعمل وفقا للتعليمات .

قالت ، « عزرا » .

ـــ « نعم ، يا أمى » .

ـــ « هل تعرف دفتر العناوين الذى فى مكتبى ؟ »

ـــ « أى دفتر عناوين ؟ »

ـــ « انتبه ، ياعزرا . لدى دفتر واحد ، لا الدفتر الأحمر لأرقام التليفونات ولكن الدفتر الأسود الذى يوجد فى درج أدوات الكتابة » .

ـــ « أوه ، نعم » .

ـــ « أريدك أن تدعو كل اسم فيه إلى جنازتى » .

ساد الصمت فيما عدا صوت نقر أصابع على طاولة ، كما لو كانت قد تفوهت بما لا يليق . ثم قال عزرا ، « جنازة ، يا أمى . إنك لا تحتضرين » .

طمأنته ، « لا ، بالطبع لا » . لكنها تحايلت قائلة ، ولكن يوما ما . عند مجرد امكانية حدوث هذا ، هل ترى ... »

قال ، « دعينا لا نخوض فى هذا الحديث » .

صمتت ، وهى تستجمع صبرها . ماذا كان يتوقع ؟ هل ستستمر حية إلى الأبد ؟ كان هذا متعبا للغاية . لكن هكذا كان عزرا . قالت ، « كل ما أقوله هو إننى أود دعوة هؤلاء الناس . هل تصغى إلىّ ؟ الناس الذين فى دفتر العناوين الخاص بى » .

لم يجب عزرا .

ـــ « دفتر العناوين فى درج أدوات الكتابة » .

ردد عزرا بعدها ، « درج أدوات الكتابة » .

حسنا ؛ لقد فهم . قلب صفحة من المجلة ، لم يزد على ما قاله ، لكنها عرفت أنه فهم .

فكرت فى أن هذا الدفتر لابد أن يكون قد تقادم الآن - له رائحة الفئران ، وقد أصبح متهالكا . كان تاريخه يرجع إلى ما قبل أن يبدأ بصرها فى الإعتام بوقت طويل . كانت إيمالين فيه ، وقد توفيت إيمالين منذ عشرين سنة أو أكثر . وبالمثل توفيت مسز سيمونز ، هناك فى سانت بيترسبرج ، فلوريدا ، وأرملة العم سيوارد وربما ابنته أيضا .

حسنا ، كان كل من فى ذلك الدفتر مسجى تحت الأرض بست أقدام ، فيما تظن ، ماعدا بك .

تذكرت أنه شغل بالدفتر صفحة كاملة ـ وكانت تشطب بلدة بعد بلدة . وقد احتفظت به مواكبا لتنقلاته حتى الوقت الحاضر لأنها تخيلت أنها ستحتاج إلى استدعائه عند أى طارىء . أى طارىء كانت تفكر فيه ؟ لم تستطع أن تفكر فى أى طارىء يبعث وجوده فيه الراحة على الإطلاق . إنها لتود أن ترى وجهه حين يتسلم دعوة إلى جنازتها . كان يسميها « دعوة » . سيقول وقد أصابته صدمة ، « تخيل ! لقد رحلت عنى ، فى نهاية الأمر . هاك دعوة إلى جنازتها » . كان بإمكانها أن تسمعه يقول هذا الآن .

ضحكت .

حضر الطبيب ، وهو يدق قدمه . سألته ، « هل تمطر ثلجا فى الخارج ؟ »

ــ « تمطر ثلجا ؟ لا » .

ــ « أنت تدق بقدمك » .

قال ، « لا ، الجو بارد فقط » . جلس على حافة سريرها . قال ، « أشعر كما لو كانت أصابع قدمى تتساقط . عظام ركبتى تحدثنى بأنه سيكون هناك صقيع الليلة » .

لوحت بيدها طاردة هذا اللغو . قالت ، « اسمع . . استدعاك عزرا خطأ » .

ــ « هل الأمر هكذا ؟ »

ــ « أشعر حقا أننى على مايرام . ربما كنت قبل هذا متوعكة ، لكننى تحسنت الآن كثيرا » .

قال ، « فهمت » . تناول رسغها بين أصابعه الثلجية المتجعدة . (كان مثلها تقريبا فى السن ، واعتزل كل شىء سوى ممارسة الطب) . أمسك به لمدة بدت عدة دقائق . ثم قال ، « منذ متى ظل هذا جاريا » .

ـــ « لا أعرف عم تتكلم » .

سأل عزرا ، « أين التليفون ؟ »

صاحت بيرل ، « انتظر ! دكتور فنسنت ! انتظر ! »

كان قد ترك رسغها ، لكنه الآن وضع يده على يدها وشعرت به يميل فوقها ، وأنفاسه لها رائحة التبغ . قال ، « نعم ؟ »

ـــ « لن أذهب إلى أى مستشفى » .

ـــ « طبعا ستذهبين » .

تكلمت بوضوح ، ربما بصوت أعلى من اللازم قليلا ، وهى توجه صوتها باتجاه السقف . قالت له ، « اسمع ، لقد فكرت فى هذا مليا . أنا لا أطيق تلك الأسِرَّة التى يرفعونها بذراع إدارة ورائحة المستشفى . سوف تقتلنى » .

ـــ « سيدتى العزيزة » .

ـــ « وأنت تعلم أنهم لن يمكنهم إعطائى بنسيلين » .

ـــ « بنسيلين ، لا ... »

ـــ « كان ذلك ما أخذته فى عام ٤٣ »

قال الطبيب ، « لا تتعبى نفسك . أذكر كل ما يتعلق بذلك » .

أو ربما كان فى عام ٤٤ . لكن بك لم يكن قد رحل . كان متغيبا فى رحلة عمل ، وأحضر معه لعبة رمى السهام للأطفال . ياللأشياء التى

كان يبدد عليها ماله ! عندما لم يكونوا ميسورى الحال أبدا ، فى أحسن الأوقات . أخذ اللعبة فى نزهتهم بالسيارة يوم الأحد إلى حقل خارج المدينة - وسمَّر الهدف المصنوع من قماش القنب إلى جذع شجرة . أوه ، لم يكن يتحسب للخطر أبدا . لم يكن ذلك النمط الذى يظل مستيقظا ليالى يعدد ما يمكن أن يحدث خطأ . حسنا ، على أية حال . لم يكن بإمكانها أن تقول كيف حدث هذا (كانت ترتب باقة من أعشاب الشتاء فى ذلك الوقت ، حيث أنها لم تكن تشارك فى الألعاب الرياضية) ، لكنها ، بشكل ما ، أصيبت . كان كودى هو من جذب وتر القوس ، لكن ذلك كان أمرا عارضا ؛ لم يكن كودى هو من أنحت عليه باللائمة ، بعد الاضطراب الأولى الضئيل . أنحت باللائمة على بك ، الذى أصابها فى القلب نتيجة رعونة تفكيره إن لم يكن مبيت النية ؛ أو بالأحرى لا القلب بالضبط ولكن الجزء المكسو لحما فوقه ، بين الصدر والكتف . كان أغرب إحساس ، كما لو كانت قد تلقت صفعة - لا وخزة على الإطلاق ، ولكن صوت ارتطام مفاجىء ثم بقعة من الدم على بلوزتها المفضلة . قالت ، « أوه » ، ثم نظرت إلى أسفل ، وظلت تقبض على أعشابها . ثم بدأ الألم . اقتلع بك السهم ، وقد شحب وجهه . شرعت جينى تبكى . عادوا إلى البيت مباشرة ، وقد نسوا أن ينزعوا الهدف من على الشجرة ، ولكن ما أن وصلوا حتى كان النزيف قد توقف وبدا أنه لم يكن هناك خطر حقيقى . ضمدت بيرل الجرح بنفسها - باليود والشاش . ولاحظت بعد يومين أن هناك خطأ ما . لم يكن الجرح أحسن حالا بل كان أسوأ . كان ملتهبا ، وأصابتها حمى . كان بك فى رحلة أخرى ، وكان عليها أن تذهب إلى الطبيب وحدها ، وهرعت لاهثة الأنفاس وقد ارتدت قبعتها على عجل لأنها كانت تريد أن تعود إلى البيت قبل رجوع الأطفال من المدرسة . فى تلك الأيام ، كان دكتور فنسنت قد بدأ لتوه يشيد عيادته بعد جولة كُلف بها فى الجيش . تذكرت أنه كان لايزال

يحتفظ برأس غزير الشعر ، ولم يكن قد ارتدى نظارة بعد . أعطاها حقنة بنسيلين - قال إنه دواء معجزة استخدمه لأول مرة فيما وراء البحار . وفيما كانت تسير عائدة إلى البيت ، داخلها شعور بسعادة هائلة ، بالطريقة التى يشعر بها المرء دائما حين يأخذ طبيب على عاتقه عبء مرضه ؛ لكنها فى تلك الليلة ، انهارت . فى أول الأمر ظهر طفح جلدى ، ثم نوبات قشعريرة ثم تراءى لها منظر طبيعى غائم ومملوء ضجيجا . كان كودى هو من استدعى عربة الإسعاف . وما أن مرت الأزمة فى المستشفى حتى راح كل واحد يتصرف بطريقة صارمة لائمة ، كما لو كان الخطأ خطأها . قالت لها ممرضة ، « كدت تموتين » . لكن ذلك كان هراء . لم تكن لتموت بطبيعة الحال ؛ كان لديها أطفال . عندما يكون لديك أطفال ، تضطر إلى أن تعيش . أغمضت عينيها دون كلمات الممرضة . ثم جاء طبيبان وجذبا كرسيين إلى جوار سريرها وشرحا بطريقة رزينة منذرة بالسوء كل شىء عن البنسيلين . لا ينبغى لها أبدا ، أبدا أن تأخذه مرة ثانية ، ولا بد أن تحتفظ بتعليمات بهذا المعنى فى مفكرتها فى كل الأوقات . لم تكن تلقى بالا لهما (كانت تصوغ طلبا بإطلاق سراحها ليمكنها العودة إلى البيت لأطفالها) ، لكنها تذكرت جيدا قولهم ، « مرة واحدة هى الحد الأقصى لك . مرتان تقتلانك » . أثر هذا فيها . كان أشبه بشىء فى حدوتة خيالية - مثل شراب سحرى يمكنك أن تستخدمه مرة واحدة فقط ثم لا تعود إليه مطلقا بعد ذلك . وها هى قد أضاعته على حادثة تافهة ؛ جرح أحدثه قوس وسهم . لا معجزات أخرى ! وفى السنين التالية ، عندما أصبح البنسيلين كلمة تستخدم فى كل بيت وأحفادها يأخذونه لأى شىء قليل الأهمية ، كانت تفيض فى الحديث عنه ، « أنتم محظوظون . ياللى من مسكينة . فيجسن بى ألا أصاب بعدوى ، هذا كل ما يمكننى قوله ، أو أن أصاب بالتهاب الحنجرة أو الالتهاب الرئوى » .

التهاب رئوى .

كان هناك صوت مائي يزأر في أذنيها جعل من الصعب عليها أن تسمع صوتها . كان عليها أن تنتظر حتى يتلاشى قبل أن تتكلم . قالت ، « دكتور فنسنت » .

ــــ « أنا هنا » .

كانت يده لا تزال على يدها . لم تعد مثلجة . لقد أدفأ نفسه على جلدها كما لوكانت موقدا . استجمعت صوتها وقالت ، « أخبر عزرا أنني باقية »

قال ، « لكن ـ »

ــــ « أنا أعرف ما أنا فاعلة » .

صمت .

قالت بقوة ، « أخبره أن هذا لا شيء . هل تفهم ؟ لا أريد أى مستشفيات . سوف يقتلنى ، يقتلنى مجرد أن أسمع مكبرات الصوت تنادى على أطباء لم أسمع بأسمائهم أبدا . فهذا مجرد برد . أخبره » .

قال دكتور فنسنت ، « حسنا » . تنحنح . أبعد يده عنها . سألها ، « هل أنت متأكدة ؟ »

ــــ « أنا متأكدة » .

بدا مستغرقا في التفكير . استدار بعيدا وقال لعزرا ، « أسمعت ما تقوله ؟ »

قال عزرا ، وهو أقرب مما كانت بيرل تعتقد ، « نعم » .

ــــ« اقترح أن ندعو أخاك وأختك ، رغم هذا » .

شعرت بيرل باهتمامها يتصاعد .

قال عزرا ، « لكن إذا كان الأمر بهذه الخطورة ... »

قال له الطبيب ، « دعنا فقط نرى ما يحدث » . ووضع راحة يده على جبهتها .

لابد أنه انصرف بعد ذلك . عاود الزئير أذنيها ولم تسمعه تماما وهو ينصرف . كانت تدير فى رأسها أفكارا عن كودى وجينى ؛ سيكون جميلا أن يجتمع كل أولادها . عندئذ سرت قشعريرة ثقيلة عبر صدرها فجأة . قالت لنفسها ، لماذا ؟ إن دكتور فنسنت سوف يسمح بهذا . نعم ، سوف يسمح بهذا حقا . حانت اللحظة ، إذن !

من المؤكد لا .

لقد ظل هاجس الموت يطاردها سنين عديدة حتى الآن ؛ لكن هناك جانب للموت لم تفكر فيه أبدا من قبل : أنت لا تصل إلى رؤية ما سيؤول إليه الحال بالنسبة لكل شىء ، وأنت تحتضر . سوف تظل أسئلة طرحتها بلا إجابة إلى الأبد . هل سيستقر هذا الطفل من أطفالى ؟ هل سيتعلم ذلك الطفل أن يكون أسعد ؟ هل سأكتشف أبدا ما كان يعنيه هذا وذلك ؟ انبثق فى ذهنها أنها كانت طوال تلك السنين تتوقع أن تقابل بك ثانية صدفة . كم كان ذلك غريبا ؛ لم تكن قد أدركت ذلك . كانت قد افترضت أيضا أنه ستكون هناك نقطة تحول ما ، ومضة ضوء تكتشف فيها فجأة السر ؛ سوف تستيقظ يوما ما فإذا بها أكثر حكمة ورضا وقبولا . لكن ذلك لم يحدث . والآن لن يحدث . لقد افترضت أنها على فراش موتها ... فراش موتها ! لماذا ، كان ذلك الوضع اليومى العادى ، لا الوضع النحاسى المنمق الذى تصورته دائما . لقد افترضت أنها على فراش موتها سوف يكون لديها شىء نهائى تقوله لأطفالها حين

يجتمعون حولها . لكن لم يكن هناك شيء نهائى . لم يكن لديها حتى ما تخبرهم به . شعرت بشيء من الخجل ؛ شعرت أنها غير كفؤ . حركت قدميها بنزق وبحثت عن مكان أكثر برودة على الوسادة .

لقد قالت ، « ياأطفال » . كان ذلك قبل مغادرة كودى إلى الكلية مباشرة ، يوم أحرقت خطابات بِك . قالت ، « يا أطفال ، هناك شيء أريد أن أناقشه معكم » .

كان كودى يتحدث عن وظيفة . عليه أن يبحث عن عمل يساعده على مصاريف الدراسة . كان يقول ، « بإمكانى أن أعمل فى الكافيتيريا ، أو ربما خارج حرم الجامعة . لا أعرف أيهما » . ثم سمع أمه والتفت إليها .

قالت بيرل ، « إنه بشأن أبيكم » .

قالت جينى ، « كنت لأختار الكافيتيريا » .

قالت بيرل لهم ، « تعرفون ، يا أحبابى ، كيف أقول دائما إن أباكم متغيب فى عمل » .

قال كودى ، « ولكن خارج الحرم قد يدفعون أكثر ، وكل بنس له أهميته » .

قال عزرا ، « فى الكافيتيريا سوف تكون مع رفاق الدراسة ، رغم ذلك » .

— « نعم ، لقد فكرت فى ذلك » .

قالت جينى ، « كل زملاء وزميلات الدراسة المختلطة . رؤساء المشجعين فى المباريات الرياضية . فتيات يرتدين جوارب قصيرة » .

قال كودى ، « فتيات يرتدين السويترات » .

قالت بيرل لهم ، « هناك شىء أريد أن أفسره عن أبيكم » .

قال عزرا ، « اختر الكافيتيريا » .

ــ « يا أطفال ؟ »

قالوا ، « الكافيتيريا » .

وحدق ثلاثتهم جميعا فيها ببرود ، من عيون رمادية مسددة لا تطرف أشبه بعينيها تماما .

حلمت أنه كان عيد ميلادها التاسع عشر وأن جون دوبرى الشيطانى قد أحضر لها علبة من الشيكولاته وحلية من الجلد المحروق لشعرها . قالت له ، « لماذا ، يا جون ، ياللك من ماكر ! خذ بعض الحلوى » . وفى الحلم حيّرها أن تعرف أن جون دوبرى قد مات منذ واحد وستين عاما . فتلته قبائل الهن فى غابة أرجون . تذكرت أنها قامت بزيارة عزاء لأمه التى لم تكن تستقبل ضيوفا على أية حال . قالت بيرل لجون دوبرى ، « كان الأمر كله غلطة ، فيما يبدو » . وثبتت شعرها بالحلية المصنوعة من الجلد المحروق .

قالت جينى ، « ليس هناك شك . لابد أن نستدعى عربة إسعاف . ما الذى حدث للدكتور فنسنت ؟ هل أصابه خرف الشيخوخة ؟ »

قال عزرا ، « إنه يتصرف على مايرام ، بالنسبة لسنه » . بدا أنه كعادته قد أخفق فى فهم نقطة أساسية ؛ حتى بيرل كان باستطاعتها أن ترى هذا . تنهدت جينى ، أو ربما أنها أصدرت مجرد صوت حفيف نافد الصبر بملابسها .

قالت ، « من حسن الحظ أنك استدعيتنى . ها أنا أحضر فأجد كل شىء يتصدع » .

ــــ « ليس هناك شيء يتصدع » .

ــــ « ولماذا إذن ترقد مسطحة ؟ من الواضح أنها تعانى من تنفسها . أين تلك الوسادة الكبيرة الخضراء التى صنعتها لها بيكى ؟»

كانت بيرل تنزلق عبر الزمن ، للحظة ـ تستعد لأن تذهب بعربة الإسعاف لعلاج الجرح الذى سببه السهم . استجمعت قواها استعدادا للرحلة المقلقلة المائلة أسفل الدرج على نقالة . كان ذكر اسم بيكى يجعلها تذعن مباشرة . كانت بيكى حفيدتها ، ابنة جينى الكبرى . قالت ، « جينى ؟ »

سألتها جينى ، « كيف تشعرين ؟ »

ــــ « هل كودى هنا أيضا ؟ »

لا فيما يبدو . مالت جينى فوق السرير لتطبع عليها قبلة . ربتت بيرل على شعر جينى ووجدته مقصوصا بشكل سيىء ، متشقق الملمس ، لكنها لأول مرة لم توبخها . (كان لجينى شعر جميل كثيف تميل إلى إهماله ، وتسيء معاملته ، كما لو كان مظهرها لايهمها) . قالت لها بيرل ، « كان لطيفا منك أن تأتى » .

قالت جينى ، « حسنا ، ياالله ، كنت قلقة ، فأنت الأم الوحيدة التى لنا » .

شعرت بيرل أنها قد دارت دورة كاملة . قالت « كان ينبغى لك أن تحصلى على واحدة إضافية » .

ــــ « عفوا ؟ »

لم تكرر جملتها . أدارت وجهها إلى الوسادة واجتاحتها فورة غضب فجائية انتفضت لها . لماذا لم يدبروا واحدة إضافية ؟ كل تلك

السنين حين كانت هى الأم الوحيدة ، العائل الوحيد ، الشجرة الوحيدة فى المرعى تنتظر فقط البرق أن يومض ... حسنا . بدت لو كانت تفقد خيط أفكارها . قالت ، « هل أحضرت الأطفال ؟ »

ــــ « ليس هذه المرة . تركتهم مع جو » .

جو ؟ أوه ، نعم ، زوجها . سألت بيرل ، « لماذا لم كودى ؟ »

قال عزرا ، « حسنا ، تعلمين أن من العسير دائما أن مكانه ... »

قالت جينى لبيرل ، « نحن نعتقد أنك يجب أن تذهبى المستشفى » .

ــــ « أوه ، شكرا ، ياعزيزتى ، لكننى لا أعتقد أنه يهمنى أن هذا » .

قالت جينى ، « أنت لا تتنفسين بشكل صحيح . أين تلك التى صنعتها بيكى وهى صغيرة ؟ الوسادة التى تحمل ذلك المنعش للمعنويات . نم ، **أيها المحارب المخلص** ، **على وساد المنحوتة** » . أطلقت ضحكة صغيرة لها شخير ، وابتسمت بيرل ، و تتصور عادة جينى فى تغطية فمها بيدها كما لو كانت قد قهرت ، لو كانت سخافة الحياة قد جعلتها عاجزة تماما . قالت جينى ، و تستجمع نفسها ، « على أية حال ، عزرا ، **أنت** توافقنى ، كذلك ؟ »

ــــ « أوافق ؟ »

ــــ « بشأن المستشفى » .

قال عزرا ، « آه ... »

وحل صمت . قالت بيرل لنفسها ، يمكنك أن تنتزعى هذه اللحظة من الزمن كله ، وأنت لا تزالين تكتشفين الكثير عن أولادك - حتى عن كودى ، لأن غيابه هذا كان خصلة من خصاله ، ربما أهم خصاله . وجينى كانت خفيفة الحركة مرحة لكنها ... أوه ، ربما أمكنك القول بأنها معتمة بعض الشىء ، سطح عاكس يعكس ذاتك اليك ، دون أن تشى بشىء عن مكنونات نفسها هى . وعزرا ، عزرا الرقيق : وهو بالتأكيد يجذب كتلة الشعر الشقراء المتشابكة التى تتدلى فوق جبهته وقد اختلطت الأمور فى رأسه ، يفكر ويعاود التفكير ... قال ، « حسنا ، لا أدرى ... أعنى ، ربما إذا أنتظرنا هنيهة ... »

ـــ « لكن إلى متى ؟ إلى متى يمكننا أن ننتظر ؟ »

ـــ « أوه ، ربما حتى الليلة فقط ، أو غدا ... »

ـــ « غدا ! ماذا لوكان هذا ، فرضا ، التهابا رئويا ؟ »

ـــ « أو ربما كانت مجرد نزلة برد ، هل ترين » .

ـــ « نعم ، ولكن - »

ـــ « ونحن لا نود لها أن تذهب إذا كان هذا يجعلها تعيسة » .

ـــ « لا ، ولكن - »

أصغت بيرل ، وهى تبتسم . عرفت النتيجة الآن . سوف يتشاوران ساعات ، يرددان إجابات أحدهما الآخر ، يرددان الأسئلة بعينها أو يعيدان صياغتها ، ويراوغان ويتقهقران ، ويجادلان لمجرد المجادلة ، ويصلان فى النهاية إلى لا شىء . قالت برقة ، « أنتم لم تواجهوا الأشياء أبدا من قبل » .

ـــ « أمى ؟ »

ـــ « كنتم دائما تراوغون وتتملصون » .

ـــ « نراوغ ؟ »

وابتسمت ثانية ، وأغمضت عينيها .

يا لها من راحة غامرة حلت أخيرا . لماذا قضت كل هذا الوقت لتتعلم الطريق لذلك ؟ انسابت أصوات المرور ـ أبواق وأجراس ومزق من موسيقى ـ حول الأصوات الآدمية فى حجرتها . ظلت تضع مكانها فى غير موضعه فى الزمان ، لكن هذا لم يحدث فرقا ؛ فكل ما تذكرته كان سارا بدرجة متكافئة . تذكرت ملمس الريح فى ليالى الصيف ـ كيف تتلاطم خلال البيت وتحرك الستائر وهى محملة برائحة القطران والورود . كم يثقل وزن طفل نائم على كتفك ، كأنه فاكهة ناضجة . أى خلوة أن تسير فى المطر تحت تقاطر الماء من شمسيتك وطقطقته . تذكرت مزادا ريفيا حضرته منذ أربعين سنة خلت ، حيث عرضوا للبيع سريرا نحاسيا عتيقا كاملا بكل فرشه ـ ملاءات وبطانيات ، وسادة فى كيس كتانى مطرز بزهور البنفسج . قام رجلان بدفعه على عجلات إلى المنصة ، ومفرشه المتموج يتحرك كأنه قميص فتاة داخلى . وخلف جفونها ، تسلقت بيرل تل إلى داخله ووضعت رأسها على الوسادة وحُمِلت بعيدا إلى الشاطىء ، حيث كان ثلاثة أطفال صغار يعدون باتجاهها ، ضاحكين ، عبر الرمال الدافئة المشمسة .

[٢]

تعليم القطة التثاؤب

حين راح والد كودى يسمر الهدف إلى جذع الشجرة ، أخذ كودى يختبر القوس . جذب الوتر إلى الخلف ، ووضع خده لصقه ، وضيق عينيه باتجاه الهدف . كان والده يطرق المسامير ذات الرءوس العريضة بحذائه ؛ فلم يكن قد فكر فى إحضار مطرقة . بدا أشبه بشخص أبله ، هكذا قال كودى لنفسه . لم يكن يملك ملابس لاجازة عطلة الأسبوع ، مثلما يفعل الآباء الآخرون ، لكنه قاد السيارة إلى هذا الحقل فى حلة مندوب المبيعات البنية المخططة التى يبدو عليها التكلف ، وقميصه الأبيض المكوى بالنشا ، وربطة عنق البحارة التى تناثرت بعرضها مربعات ودوائر متعددة الألوان بشكل عشوائى . كانت الطريقة الوحيدة التى يمكنك أن تتبين بها أن اليوم هو يوم الأحد هى حين استدار بعد أن طرق المسمار الأخير ؛ لم يكن قد رفع ربطة عنقه لصق ياقته . كانت تتدلى سائبة وملتوية لحد ما ، مثل ربطة عنق سكير . وكانت كومة شعر تشبه عرف الديك ، سوداء فى لون شعر كودى غير أنها متموجة ، تقف منتصبة على جبهته .

قال ، وهو يعود متهاديا فى مشيته ، « هاك ! » كان مازال ممسكا بفردة الحذاء . سار مائلا إلى جانب ، إما يبتسم لكودى أو يضيق عينيه فى ضوء الشمس . كانت تلك الفترة من السنة لاتزال أبعد ما تكون عن

الربيع ، لكن الجو كان دافئا فى غير أوانه وشمس شاحبة تصب حرارة كأنها سائل فوق كتفى كودى . انحنى كودى وجذب سهما من أنبوب من الورق المقوى . وضعه على الوتر . قال أبوه ، « انتظر الآن يابنى . عليك أن تفعل الأشياء بالشكل الصحيح الآن » .

كان من الضرورى أن تكون هذه تجربة تعليمية ، بطبيعة الحال . لابد من محاضرات ونقد مرتبطين بها . تنهد كودى وأنزل السهم . انحنى أبوه ليلبس حذاءه وهو يلوى قدمه داخله دون أن يفك الأربطة ، بالطريقة التى كانت أمه تكرهها . كان كعب جوربه الأسود من الحرير الصناعى ناحلا إلى درجة أنه أصبح شفافا . اتجه كودى ببصره فى اتجاه آخر . كان فى الرابعة عشرة . أكبر من أن يجروه معهم فى نزهات خلوية عائلية أكثر من هذا ، وأكبر بالتأكيد من أن يلعب بالأقواس والسهام ، بالطبع ما لم تترك الأدوات له ولأصدقائه وحدهم ، ويتركوا ليتجولوا على صهوات الجياد أو يقيموا فيما بينهم مسابقة أو يحطموا زجاج النوافذ أو مصابيح الشوارع بلا سبب . كيف واتت أباه تلك الأفكار ؟ بل إن هذه الفكرة كانت تبدو أقل نجاحا من معظم الأخريات . كانت أم كودى ، التى لم تكن رياضية بأى قدر ، تقطف زهورا جافة بجوار سياج . وأخته الصغيرة تزرر سترتها الصوفية بيدين مزرقتين مشققتين . وأخوه عزرا ، فى الحادية عشرة ، يمضغ قشة ويدندن . وهو يفتقد صفارته ، بلا شك . مزمار من البوص ، له ثقوب لست أصابع ، يعزف عليه ألحانا بلا توقف تقريبا . وقد قام بتهريبه معه لكن أباه أجبره على تركه فى السيارة .

فى هذه اللحظة كان أفضل صديقين له يحضران فيلما : **سلاح الطيران** ، يقوم ببطولته جون جارفيلد وفيبى ايمرسون . كان كودى ليضحى بأى شىء ليكون معهما .

قال أبوه ، وهو يقوم بتهيئته للوضع السليم ، « الآن ، ذراعك اليسرى هكذا . عليك أن تحافظ على رسغك من أن يوخز ، هل ترى . وقف معتدل القامة . كانت رياضة رماية السهم هى ما أعطانا معلوماتنا عن الوقفة الصحيحة ؛ هكذا يقول كتيب الإرشادات . فقد اعتاد الناس أن يقفوا وقفة مترهلة حول أى قوس قديم ، كلهم ماعدا الرماة . أراهن أنك لم تكن تعرف هذا ، أليس كذلك ؟ »

لا ، لم يكن يعرف ذلك . وقف مثل شيء صنع من صلصال فى حين راح أبوه يلكزه هنا وينخسه هناك ، يصيغ منه شكلا . قال أبوه ، « فى الأيام الخوالى ... »

أفلت كودى وتر القوس . رمية . أصاب السهم حافة الهدف ، بجانبه أكثر منه بطرفه ، وارتد بلا أذى وسقط بين جذوع الشجرة . سأله أبوه ، « الآن ! لماذا تفعل ذلك ؟ هل أخبرتك أن تطلق السهم بعد ؟ هل فعلت ذلك ؟ »

قال كودى ، « لقد انزلق » .

ـــ « انزلق ! »

ـــ « وعلى أية حال ، لم يكن بإمكانه أن يغرز فى الهدف ـ ليس وذلك الجذع الصلب السمين خلفه » .

قال أبوه ، « من المؤكد تماما أنه كان يستطيع ، لكنك كعادتك تماما ، كان عليك أن تثب إلى الأمام . يا لك من متهور . كان عليك أن تفعلها بطريقتك . متى تبدأ فى كبح جماح نفسك بطريقة أفضل ؟ »

اندفع والد كودى (الذى لم يكبح جماح نفسه قط بأى شكل من الأشكال ، كما كانت أم كودى تُذكّره بشكل دائم) تجاه الهدف ، وهو يهمهم وينتزع حفنات من رءوس الاعشاب يلقى بها بعيدا بعد ذلك .

ورصّعت البذور والقشور الجافة الهواء حوله . « ولد عنيد ؛ لا يصغى أبدا . لا أدرى لماذا أزعج نفسى » .

غطت أم كودى عينيها بيدها ونادت ، « هل أصابه ؟ »

ـــ « لا ، لم يصبه . وكيف يمكنه ؛ لم أكن حتى قد انتهيت من الشرح » .

همهم كودى ، « لقد عرف عن ناس أنهم يصيبون الهدف دون أن يشرح لهم هذا شخص مقدما » .

ـــ « ماذا تقول ؟ »

اقترحت أم كودى ، « دع عزرا يجرب » .

التقط أبوه السهم وغرزه فى عين الثور ، فى مركز الهدف تماما . وسأل كودى ، « أتريد أن تقول لى أنه لا يمكنه أن ينغرز ؟ » أشار إلى السهم ، الذى ظل ثابتا . « انظر إلى ذلك : إن له قمة من الفولاذ . بالطبع ينغرز . واللحاء علىٰ الشجرة اسفنجى . لقد اخترت تلك الشجرة . بالطبع ينغرز . كان بإمكانك أن تجعله ينغرز بسهولة » .

قال كودى وهو يركل كتلة من التربة « ها » .

ـــ « ماذا تقول ، يا بنى ؟ »

كررت بيرل النداء ، « دع عزرا يجرب . بك ؟ دع عزرا يجرب » .

كان عزرا الطفل الأثير لديها ، طفلها المدلل . العائلة كلها تعرف هذا . بدا عزرا مُحرَجا ونقل القشة إلى الجانب الآخر من فمه . خاض بك فى العشب عائدا اليهم . قال ، « أوه ، لا أدرى ، لا أدرى . أحيانا أتساءل » .

نادت بيرل ، « عزرا ؟ انظر إذا كان بإمكانك أن تصيبه ، يا حبيبى » .

كانت نظرة بك إلى كودى تنم عن التعاطف ، وإلاّ فإنها تنم عن القرف . أخرج سهما آخر من الأنبوب المصنوع من الورق المقوى . قال ، « حسنا ، يا عزرا ، تعال وجرب . فقط لا تندفع وراء حماستك مثلما فعل كودى هنا » .

تقدم عزرا نحوهم ، وهو لا يزال يقرض قشته ، وتسلم القوس من كودى . حسنا ، سوف يكون هذا أضحوكة . فلم يكن هناك من تنقصه البراعة مثل عزرا . عندما اتخذ وقفته فعل هذا بشكل خاطىء للغاية ، مجرد أنه بدا خاطئا فى كل شىء ، بطريقة ما لم يكن بإمكانك أن تحددها . مرفقاه بارزان للجانب ، كأنهما جناحان ؛ شعره الأشقر المتهدل ينسل إلى داخل عينيه . ظل بك يقول ، « الآن ، انتظر ، الآن . ما المشكلة هنا ؟ » تحرك حوله وهو يعيد محاذاة كتفى عزرا ، ويضبط قبضته على القوس . ظل عزرا صابرا . وقد يكون عقله ، فى حقيقة الأمر ، منصرفا إلى شىء آخر تماما ؛ بدا أن اهتمامه قد اجتذبه تشكيل من السحب ناحية الجنوب . قال بك أخيراً ، وهو يقر بعجزه ، « دعه يطير ، فيما أظن ، يا عزرا . عزرا ؟ »

تراخت أصابع عزرا على الوتر . اندفع السهم فى مسار مستو سريع ، لا يعتريه تقوس مطلقا . وكما لو كان يوجهه خيط خفى – أو على أسوأ الفروض ، بمحض الصدفة والحظ وحدهما – شق السهم الذى رشقه بك سالفا بطوله واستقر فى مركز عين الثور ، وهو يتذبذب . حط صمت حاد مشدوه . ثم قال بك ، « هلا نظرتم إلى ذلك » .

قالت بيرل ، « رائع ، يا عزرا » .

وصاحت أختهما جينى ، « عزرا . عزرا ، انظر إلى ما فعلت ! ما أنزلته وفعلته بذلك السهم ! »

نزع عزرا القشة من فمه . قال لبك ، « آسف » . (كان معتادا على كسر الأشياء) .

قال بك ، « آسف ؟ »

بدا كما لو كان ينشد نغمة الصوت الملائمة ، ثم وجدها . قال ، « حسنا ، يا بنى . هذا يثبت فقط أن اتباع التعليمات يؤتى ثماره . هل رأيت هذا ، يا كودى ؟ انظر ماذا يحدث ؟ إصابة فى عين الثور . تبًا لى . لو أنك أنصت بانتباه مثلما فعل عزرا ، ولم تطلقه وأنت نصف منتصب ... »

كان يتحرك باتجاه الهدف وهو يتكلم ، يجدف خلال الحشائش ، وكانت جينى تعدو لتصل إلى هناك أولا . ولذا لم يكن بإمكان كودى أن يأخذ دوره فى الإطلاق ، رغم أنه يتحرق شوقا إلى هذا . كان مضطرا تماما أن يفلق ذلك السهم الثانى مثلما فلق عزرا السهم الأول . كان من غير المتصور ألا يفعل ذلك . ولكن ماذا يحول دون حدوث ذلك ؟ شعر برنين زنبركى بداخله ، كما لو كان هو نفسه وتر القوس . انحنى وانتزع سهما جديدا من الأنبوب وثبته فى القوس . جذب الوتر وصوب باتجاه أجمة شجيرات ، ثم نحو عربة أبيه الزرقاء المتربة ، ثم نحو عزرا ، الذى كان يطوف فى المكان حالما كعادته . وبتلهف ، ركز كودى على شعر عزرا الأشقر المهوش . قال ، « زينج . وام . آه ، أصبتنى » . استحضر شعورا بالارتياح . استدار عزرا ببطء ولمحه . صاح ، « لا ! » .

ــــ « هه ؟ »

جرى عزرا باتجاهه ، وهو يرف بذراعيه مثل أبله ويتلعثم ، « قف ! قف ! قف ! لا ! قف ! » هل كان يظن حقا أن كودى سيطلق السهم عليه ؟ حملق كودى ، وهو لا يزال يحتفظ بالقوس مشدودا . وثب عزرا وثبة طائرة بذراعيه مفتوحتين مثل عاشق . أمسك بكودى فيما يشبه عناق دب وطرحه أرضا . أطاح هذا بأنفاس كودى ؛ كان كل ما يمكنه أن يفعله هو أن يشهق تحت ثقل عزرا الدافىء الناتىء العظام . وفى تلك الأثناء ، ماذا حدث للسهم ؟ مرت دقائق من كفاح مرير قبل أن يستطيع الوصول لوضع الجلوس ، وهو يدفع عزرا بمرفقيه بعيدا عنه . نظر عبر الحقل ووجد أمه تستند على ذراع أبيه ، وهى تعرج فى اتجاهه بدائرة دم كاملة تلمع على صدر بلوزتها . كان أبوه يقول ، « بيرل ، يا آلهى . أوه . بيرل » . استدار كودى ونظر إلى عزرا ، الذى كان وجهه شاحبا ومذهولا . سأله كودى ، « هل ترى ذلك ؟ انظر ماذا فعلت ؟ » ،

ـــ « هل فعلت أنا هذا ؟ »

قال كودى ، « فعلت هذا بى مرة أخرى » ، وترنح واقفا على قدميه ومضى مبتعدا .

وفى أحد أيام الأسبوع حين كان والده خارج البلدة ، وأمه تتسوق العشاء ، وأخوه وأخته يؤديان واجبهما المدرسى فى حجرتيهما ، أخذ كودى بندقية الرش الخاصة به وأطلقها على نافذة المطبخ محدثا بها ثقبا . ثم تسلل خارجا وأدخل خيط سنارة بطوله خلال الثقب . وجذب الخيط من المطبخ حتى أصبح مفتاح ربط الصواميل الصدىء الذى ربطه فى الطرف الآخر ملتصقا بالزجاج مباشرة من الخارج . وثبته هناك بأن

وضع الخيط تحت أصيص زهور البغونية . وعندما عادت أمه من التسوق ، كان كودى يجلس إلى منضدة المطبخ يلون خريطة لآسيا .

عندما انتهى عزرا وجينى من واجبهما المدرسى ، خرجا إلى خلف المنزل . كان عزرا يبين لجينى طوال الأسبوع كيف تضرب كرة طرية . (يبدو أن رفيقاتها فى الفصل كن يخترنها أخيرا حينما يلعبن مباراة) . وما أن خرجا ، حتى نهض كودى وذهب إلى النافذة . رآهما يأخذان مكانيهما فى الفناء المعتم ، تحدهما من كل جانب أسوار الجيران . كانت تفصلهما عن أحدهما الآخر مسافة قصيرة إلى حد يثير الضحك . كانت جينى تقف أكثر التصاقا بالمنزل وتمسك بحماسة بمضربها مرفوعا لأعلى ، كما لو كانت تستعد أن تضرب بهراوة حيوانا صغيرا ما حتى تقضى عليه . قذف عزرا الكرة إليها بضربة رقيقة . (لم يكن هو نفسه لاعبا عظيما) . مالت جينى على عقبيها محدثة أزيزا ، أخطأت الكرة ، واستعادتها من بين صفائح القمامة بجوار الباب الخلفى . قذفت بها ويدها فوق كتفها قذفة عنيفة بشعة حتى أن كودى تعجب لم أتعب عزرا نفسه ؟ أمسك عزرا بها وقذفها ثانية . وفى حين كانت الكرة تطير فى قوس تجاه المضرب ، تحسس كودى خيط الستارة تحت أصيص أزهار البغونية . وجذبه جذبا سريعا . صلصل زجاج النافذة مندفعا إلى الداخل ، مهشما إلى أجزاء عديدة . دارت جينى إلى الخلف وحملقت . فغر عزرا فمه . ونادت بيرل من غرفة الطعام ، « ماذا كان ذلك ؟ »

قال كودى لها ، « لا شيء غير أن عزرا يكسر نافذة أخرى » .

وفى إحدى عطلات الأسبوع لم يحضر أبوهم إلى البيت ، ولم يحضر فى عطلة الأسبوع التالية أيضا ، أو التى تلتها . أو بالأحرى أن

كودى استيقظ ذات صباح ورأى أنه قد مرت فترة ولم يحضر أبوهم إلى البيت . لم يكن بإمكانه أن يقول إنه لاحظ ذلك منذ البداية . ولم تقدم أمهم أية أعذار . راح كودى بعيون متلصصة مثل جاسوس ، يراقب تعبير وجهها المشتت المجعد والطريقة التى كانت يداها تجذبان بها إحداهما الأخرى . أزعجه أن يدرك أنه لم يكن قادرا على تخيل آخر مرة كان أبوه فيها معهم . وفى محاولته أن يتذكر مشهدا ما يفسر رحيل بك ، كان بإمكانه فقط أن يصل إلى مشاهد **عامة** ، تجمعت خيوطها من العديد من التكرارات : وجبات أفسدتها مشاحنات ، وجبات أخرى سادتها الفوضى لأن عزرا سكب الحليب ، نزهات بالسيارة فى الريف ضل فيها أبوه الطريق ، وأطلقت فيها أمه توجيهات لاذعة متألمة ساخطة . تذكر مرة حين انطلق البخار من رادياتير السيارة من طراز ناش ، فألقى أبوه فوقه بسترته عندما عجز عن التصرف . قالت أمه ، « أوه ، يا للسذاجة » . لكن ذلك حدث منذ زمن بعيد ، من سنين مضت ، أليس كذلك ؟ ساح كودى خلال أركان البيت وشقوقه المختلفة بحثا عن زخارف ما كانت تدعوه أمه « أطوار » أبيه . كانت هناك مضارب تنس الريشة ، شبكة اصطياد الفراشات ، لعبة رماية السهام ، آلة التصوير بجهاز إطلاق الوميض الذى يصعب تشغيله ، وصندوق الأحذية الملىء بطوابع بريد أجنبية مازالت فى مظاريفها ذات الفتحات الشفافة . لكن بقاء هذه الأشياء لم يعن له شيئا . الشىء الذى أقلقه هو الجزء الخاص بأبيه من خزانة الملابس الصغيرة : درج جواربه الخاوى ، درج ملابسه الداخلية الخالى . وفى درج القمصان ، قميص سبور لم يستعمل اشتراه الأطفال الثلاثة بمناسبة عيد ميلاد بك الأخير ، الرابع والأربعين . وتشكيلة كاملة من البيجامات ؛ لكنه كان ينام دائما بملابسه الداخلية . وفى خزانة الملابس ، مجرد شماعة علقت عليها أقدم أربطة العنق الخاصة به وأكثرها كآبة وبلى وبقعا – وزوج أحذية عتيق إلى درجة أن مكان

أصابع القدم فيهما كان ملتويا إلى أعلى .

كان أخو كودى وأخته ضعيفى الملاحظة بشكل مذهل . كانا يهرعان إلى خارج البيت وداخله كأنهما عصفوران - عزرا يعزف على صفارته ، وجينى تردد أغانى الوثب بالحبل . تولد لدى كودى انطباع بأن الأنغام الموسيقية كانت تملأ رأسيهما إلى حد الفيض ؛ بحيث لم تترك مكانا لأى شيء آخر جدى . كانت جينى تغنى **العمة سو ارتدت ملابس زرقاء ، وارتدت أحذية وأحذية مطاطية أيضا** ... كان صوتها القبيح غير المنغم وضفيرتاها المتأرجحتان بلا مبالاة يبعثان فيه الشعور بالاطمئنان بشكل ما . ففى نهاية الأمر ، أى ضرر يمكن أن يؤدى إليه هذا ، وهى تتواثب أمامه بحبلها البالى ؟ أى ضرر بالغ يمكن أن يحدث ؟

ثم قالت فى أحد أيام السبت ، « أنا قلقة على أبى » .

سألها كودى ، « لم ؟ »

قالت بطريقة الشخص الأكبر سنا والأكثر دراية ، « كودى ، يمكنك أن ترى أنه لم يعد يأتى إلى البيت . أظنه قد تركنا » .

قال كودى ، « لا تكونى سخيفة » .

ألقت عليه نظرة فاحصة للحظة ، برباطة جأش جعلته يتململ ، وعندما لم يواصل الكلام استدارت وخرجت إلى الشرفة . سمع المقعد المتأرجح يصر وهى تستقر فيه . لكنها لم تشرع فى الغناء . كان البيت فى حقيقة الأمر ، هادئا هدوءا غير عادى . وكان الصوت الوحيد هو صوت كعبى أمه ، يطقطقان جيئة وذهابا فوق رءوسهم وهى تضع الغسيل فى الخزانة . لم يكن عزرا يلعب بصفارته . ولم يكن لدى كودى أدنى فكرة عن أين ذهب عزرا .

صعد إلى غرفة نوم أمه فى الطابق العلوى . كانت تطوى ملاءة سرير . سألها ، « ماذا تفعلين ؟ » رمقته بعينيها . جلس فى كرسى ظهره مكون من سنادات خشبية ليراقبها وهى تعمل . كانت ترتدى ثوبا منزليا يكرهه للغاية ، ذا لون أصفر شاحب بخطوط حمراء داكنة عرضية كأنها ضربات فرشاة رسم . وقد أسبغ على الكتفين شكلهما وسادتان مثلثتان رقيقتان يمكن فكهما وإزالتهما حين يحين موعد غسيل الثوب . وغالبا ما فكر كودى فى سرقة هاتين الوسادتين . فمع اتساع كتفى أمه ، كانت تبدو قوية وحادة ومخيفة . كانت تضع فى قدميها حذاء مفتوحا عند الأصابع وجوربا أبيض قصيرا . كانت تتحرك بسرعة بين سلة الغسيل والسرير ، ترتب أكواما من الملابس . لم تكن هناك كومة لأبيه .

سألها ، « متى يعود أبى إلى البيت ؟ »

قالت ، « أوه ، قريبا جدا » .

لم تنظر فى عينيه .

نظر كودى فيما حوله ولاحظ لأول مرة أن هناك شيئا يوحى بالجهامة والصرامة والضنك فى الطريقة التى صمم عليها ديكور البيت . لم تكن هناك زجاجة عطر واحدة أو تمثال صغير من الصينى على خزانة ملابس أمه الصغيرة . لا صور معلقة على الحائط . حتى الطاولتان على جانبى السرير عاريتان تماما ؛ وكان يعرف أن كل شيء فى أدراج فى هذه الغرفة مرتب بشكل مستو دقيق – الملابس منظمة حسب النوع واللون ؛ الألوان البيضاء ثم الألوان الفاتحة ثم الداكنة ؛ المشط والفرشاة جنبا إلى جنب ؛ القفازات مقترنة ومطوية كأنها صف من القبضات المضمومة . من ذا الذى **لا يود** أن يترك مثل هذا المكان ؟

شد عوده ، وهو يشعر بفزع . تخيرت أمه تلك اللحظة لتدنو منه وتسوى شعره . قالت وهى تبتسم ، « ياالله ، إن حجمك يكبر للغاية ! لا أستطيع أن أصدق » .

انكمش إلى الخلف فى مقعده .

قالت ، « إنك تكبر لدرجة تسمح لى أن أبدأ فى الاعتماد عليك »

قال كودى لها ، « لست إلا فى الرابعة عشرة » .

انزلق من الكرسى وغادر الغرفة . كان باب الحمام مغلقا ؛ سمع صوت الدش ينساب وعزرا يغني « أكمام خضراء » . فتح الباب بما يسمح بأن يمرر إحدى ذراعيه خلسة إلى الداخل ، وفتح الماء الساخن فى حوض الاغتسال . ثم طاف ببقية أرجاء البيت ، من المطبخ إلى حمام الطابق السفلي إلى البدروم ، وهو يفتح بنفس الطريقة كل صنبور ماء ساخن إلى آخره . لكن لا يمكنك أن تقول إنه كان متلذذا بهذا .

قال الرجل ، « تل ؟ »

– « نعم » .

– « هل هذا مسكن آل تل ؟ »

– « أجل ، هو كذلك » .

قال الرجل وهو يبرز بطاقة عمل ، « داريل بيترز » .

أخذ كودى جرعة من البيرة وتقبل البطاقة . وبينما كان يقرأها ، راح يرج زجاجة البيرة وهو شارد الذهن ليحصل على رغوة وفيرة

أعلاها . كان يرتدى سروالا من قماش قطنى خشن ولا شيء غير هذا ؛ كان يوما قائظا من أيام أغسطس . كان البيت ، على أية حال ، رطبا نوعا ما - غرفة المعيشة معتمة ، والستائر الورقية مسدلة بطولها تتوهج بلون أصفر مع سطوع شمس العصر . ألقى مستر بيترز على الداخل نظرة تواقة متقلقلة ، لكنه ظل في الشرفة ممسكا قبعته بيده . كان مرتديا الكثير من الملابس بالنسبة لأغسطس .

قال كودى ، « إذن » . ضرب الباب الساتر بقدمه العارية ليفتحه . أمسك مستر بيترز بالباب وخطا إلى الداخل .

سأله ، « هل والدتك موجودة ؟ »

ــــ « لا ، فقد تسلمت وظيفة » .

ــــ « حسنا ، إذن ... هل عزرا تل والدك ؟ »

ــــ « هو أخى » .

ــــ « أخ . آه » .

ــــ « هو موجود » .

قال مستر بيترز ، « حسنا ، إذن » .

ــــ « سوف أذهب لإحضاره » .

صعد كودى إلى الطابق العلوى ودخل حجرة جينى . كانت جينى وعزرا يلعبان الضامة على أرضية الحجرة . كان عزرا يربت على قطته ، أليسيا ، ويقطب جبينه وهو ينظر إلى الرقعة ، مرتديا سروالا قصيرا وفانلة داخلية بلا أكمام مليئة بالثقوب . قال كودى له ، « هناك من يريد رؤيتك » .

رفع عزرا رأسه . سأله ، « من هذا ؟ »

هز كودى كتفيه غير مبال .

نهض عزرا ، وهو مازال يحتضن القطة . رافقه كودى حتى الدرج . وقف هناك ومال فوق درابزين السلم ليسترق السمع ، وهو يبتسم ابتسامة عريضة . وصل عزرا إلى غرفة المعيشة . سمعه كودى يسأل ، « أنت تريدنى ؟ »

قال مستر بيترز ، « عزرا تل ؟ »

ـــ « أجل » .

ـــ « حسنا ، آه ... ربما كان هناك خطأ » .

ـــ « أى نوع من الخطأ ؟ »

قال مستر بيترز ، « أنا من حدائق بيسفول هيلز التذكارية . كنت أظنك تريد شراء مدفن » .

ـــ « مدفن ؟ »

ـــ « كنت أظن أنك ملأت هذه القسيمة البريدية : عزرا تل ، إمضاؤك . **نعم ، أود مسكنا أبديا لى و / أو لأحبائى . وأستنتج أن مندوب مبيعات سوف يأتى لزيارتى** » .

قال عزرا ، « لم يكن أنا » .

ـــ « لم تملأ هذه القسيمة . ألست مهتما بشراء قطعة أرض ؟ »

ـــ « لا ، شكرا لك » .

قال مستر بيترز ، « كان ينبغى أن أعرف » .

قال عزرا له ، « آسف » .

ـــ « لا بأس ، يمكننى أن أرى أنها ليست فعلتك » .

ـــ « ربما حين أصبح أكبر سنا ، أو إذا ما حدث ... »

ـــ « لا عليك ، يابنى . لا بأس » .

صعد كودى إلى الطابق الثالث الحار الخانق ، حيث كانت لورينا شميدت تجلس فى سريره وظهرها للحائط . كانت حديثة العهد بالمكان – سمراء ذات شعر أسود طويل ، كانت تلف خصلة منه حول إصبعها . سألت كودى ، « من كان ذلك ؟ »

ـــ « مندوب مبيعات مدافن » .

ـــ « أف » .

ـــ « جاء ليرى عزرا » .

ـــ « ومن هو عزرا ؟ »

ـــ « أخى عزرا ، يا غبية » .

قالت لورينا ، « حسنا ؟ أنّى لى أن أعرف ؟ هل تعنى ذلك الولد فى الطابق الأسفل ؟ الصبى الأشقر ، حسن الطلعة ؟ »

ـــ « حسن الطلعة ! عزرا ؟ »

قالت لورينا ، « أحب هذا النوع من الوجه الجاد . وتلك العيون الرمادية الفاتحة » .

ـــ « عيناى أنا رماديتان » .

قالت لورينا ، « حسنا . على أية حال » .

قال كودى ، « وعلاوة على ذلك ، فهو يصاب بنوبات »

ـــ « صحيح ؟ » .

ـــ « سوف يخدعك . سوف يبدو طبيعيا مثل أى شخص آخر ثم فجأة ، صوت ارتطام ! وإذا به ممدد على الأرض ، والزبد حول فمه » .

قالت لورينا ، « لا أصدقك » .

ـــ « بعض الناس يظنون أنه خطر . أنا الوحيد الذى لديه الشجاعة على الاقتراب منه ، عندما تنتابه هذه الحالة » .

قالت لورينا ، « لا أصدق كلمة واحدة من هذا » .

تقلبت نحو مقدمة سرير كودى ورفعت ركنا من ستار النافذة . قالت ، « أرى أمك قادمة » .

ـــ « ماذا ؟ أين ؟ »

استدارت وأومضت له ابتسامة عريضة . كانت حافة إحدى أسنانها الأمامية مكسورة ، مما جعلها تبدو غير مستقرة ، تفتقد إلى السيطرة على نفسها . قالت ، « كنت أشاكسك » .

ـــ « أوه » .

ـــ « كان عليك أن ترى وجهك . ها ! أنا حتى لم ألتق بأمك . أنّى لى أن أعرف إذا كانت قادمة ؟ »

قال كودى ، « لابد أنك التقيت بها . فهى تعمل صرّافة الآن فى متجر بقالة الإخوة سوينى . الناس فيما حول هذه الناحية يسمونها بخيلة سوينى » .

ـــ « حسنا ، نحن نتسوق من عند متجر ايزموند » .

قال كودى ، « هكذا أود أنا » .

ـــ « كيف حدث لها أن تعمل ؟ أين أبوك ؟ »

قال لها ، « مفقود فى إحدى العمليات الحربية » .

ـــ « أوه ، آسفة » .

لوح بيده على نحو عرضى وأخذ جرعة من البيرة . قال ، « إنها تعمل على آلة تسجيل النقدية . انظرى فى نافذة عرض سوينى ، حين تمرين أمامها فى المرة القادمة . سوف تعرفينها على الفور . ادخلى وقولى ، « سيدتى ، علبة الحساء هذه منبعجة . هل لى فى تخفيض ؟ » - سوف تقول ، « الحساء هو الحساء . الثمن كاملا ، من فضلك » .»

قالت لورينا ، « أوه ، واحدة من أولئك » .

– « بكعكة شعر صغيرة محكمة خلف رأسها . وفم يبدو كما لو كانت تمسك به دبابيس مستوية . لو تلكأ أحد ، وهو يحاول أن يضيع الوقت فى الحديث ، ستقول ، « تحرك ، من فضلك . من فضلك تحرك » .»

كان يبتسم للورينا وهو يتكلم ، لكنه بداخله شعر بغصة مفاجئة . تصور أمه جالسة عند آلة تسجيل النقدية ، بذلك التغضن القلق الممتد عبر جبهتها ، كأنه شعيرات مجدولة أو درْزة حياكة ضعيفة هشة .

أزاح كودى كل البطاطين والملاءات من سرير عزرا ونقل الوسادة والحشية . تحتها كانت هناك أربع وصلات خشبية ، ممتدة بعرض

الهيكل . رفعها من مكانها ووضعها فى خزانة الملابس . أعاد الحشية إلى مكانها على الهيكل بحرص شديد . جذب شهيقا وانتظر . صمدت المرتبة فى مكانها . أعاد فرش السرير ونفخ الوسادة ووضعها برقة عند مقدمة السرير . حمل كومة من المجلات من مخبئها فى خزانة ملابسه الصغيرة ، فتحها وبعثرها على أرضية الحجرة . ثم أطفأ النور وذهب إلى سريره فى الجانب الآخر من الغرفة .

خطا عزرا داخل الغرفة ، عارى القدمين ، بخطى لا صوت لها ، وهو يأكل شطيرة . كان يرتدى سروال بيجاما يتدلى منه رباطه . قال ، « أوه ، يا لى » ، وغاص فى السرير . سُمع صوت ارتطام . اهتزت الأرضية ، وصرخت أمهم وهرعت إلى الطابق العلوى تدق الدرج دقا . عندما أضاءت النور ، رفع كودى رأسه وحملق فيها بعينين ناعستين وتعبير مرتبك . كانت إحدى يديها تضغط على قلبها ، وهى تشهق جرعات من الهواء . وكانت جينى ترتجف خلفها ، تحتضن أرنبا محشوا بالقش باليا . قالت أمهم ، « اللهم احفظنا ! »

بدا عزرا أشبه بشخص داخل حوض استحمام ملىء بالأقمشة . كان يعانى محاولا فك نفسه من ملاءاته ، وإحدى يديه مرفوعة مازالت تمسك بالشطيرة التى أكل نصفها . قالت بيرل ، « عزرا ، حبيبى » ، لكنها قالت عندئذ ، « ما هذا ، يا عزرا ؟ » كانت تنظر إلى المجلات . كانت مفتوحة على صور نساء فى ثياب النوم ، فى مايوهات ، فى مشدات صدر سوداء من الدانتيل ، وأربطة جوارب ، فى بشاكير استحمام ، فى أردية من أنسجة شفافة لا تخفى شيئا ، أو فى لا شىء على الإطلاق . قالت ، « عزرا تل ! »

جاهد عزرا أن ينهض ليحدق من فوق حافة هيكل سريره .

قالت له ، « حقا ، يا عزرا ، لم أكن أشك مطلقا فى أنك مثل هذا

الشخص » . ثم استدارت وغادرت الغرفة ، مصطحبة جينى معها .

انتفض عزرا من سريره ، طار فى الهواء ، وانقض على كودى . قبض على حفنة من شعر كودى وشرع يرج رأسه . كل ما أمكن كودى أن يتلفظه هو ، « ممف ! ممف ! » لأنه لم يكن يريد أمه أن تسمع . وأخيرا تمكن من عض ركبة عزرا ، فتدحرج عزرا ، وهو يلهث ويشهق . لابد أنه اصطدم بشىء ما قريب ، لأن عينه اليسرى كانت متورمة . جعلته يبدو حزينا . نهض كودى وأراه أين خبأ الوصلات . ركباها فى أماكنها ، رفعا الحشية فوق الهيكل ، وحاولا تسوية البطاطين ثم أضاء كودى النور ، ودخل كل منهما سريره وراحا فى النوم .

أحيانا كان كودى يحلم بأبيه . كان يراه يخطو داخلا من الباب ، مرتديا حلة من حلل عمله كمندوب مبيعات ، وقد أحضر معه جريدة المساء مثلما تعود أن يفعل يوم الجمعة . كانت هيئته الاعتيادية مروعة – بخصلات شعره الكثيفة ، والانتفاخات المتعبة المائلة للصفرة تحت عينيه . (لم تكن صورته فى ذكريات اليقظة مؤخرا تنبض بالحياة لهذا الحد ، فقد بدت غائمة مسطحة وباهتة المعالم) . رآه يسأل بضجر ، « كيف كان أسبوعك ؟ » ، وترد عليه أم كودى ، « أوه ، على ما يرام » .

فى هذه الأحلام ، لم يكن كودى على ما أصبح عليه حاليا . كان الزمن قد أنزلق به إلى الوراء بشكل ما وعاد طفلا يمشى بخطى قصيرة قلقة مرة ثانية ، يندفع فى أرجاء البيت على ساقين دقيقتين سمينتين ، متباهيا بشكل محموم . « هل ترون هذا ؟ وهذا ؟ هل ترون شقلباتى البهلوانية ؟ تروننى وأنا أجر عربتى » . كانت ضآلته تلون كل شىء ؛

كان واعيا بحاجته الماسة لأن يتعلم كيف يدبر أمره ، ولأن يمسك بزمام الأمور حوله . كان أول ما يفعله ، حين يستيقظ فى الظلام ، هو أن يمد ساقيه الطويلتين ويرفع ذراعيه اللتين أصبحتا بارزتى العروق ومجدولتى العضلات . فكر فيم يمكن أن تكون عليه الحال لو أن أباه عاد فى وقت ما فى المستقبل ، عندما يكون كودى رجلا . سوف يقول كودى له ، « انظر إلى ما أنجزته . لاحظ ما وصلت إليه ، وإلى مدى ما وصلت إليه بدونك » .

هل كان شيئا قلته ؟ هل كان شيئا فعلته ؟ هل كان شيئا لم أفعله ، هو ما جعلك ترحل ؟

بدأت المدرسة ، ودخل كودى الصف التاسع ، وحط الرحال به وبصديقيه المقربين فى نفس الحجرة التى يسجل فيها الطلبة حضورهم . أحيانا كان بيت وبويد يذهبان معه إلى البيت ؛ يسلكون جميعا الطريق الأطول ، تفاديا لمتجر البقالة حيث تعمل أم كودى . كان لزاما على كودى أن يفصل بين الأشياء – أصدقاؤه فى جانب من حياته وعائلته فى الجانب الآخر . كانت أمه تكره أن يختلط كودى بالأغراب . كان ينبغى لها أن تسأله ، « لماذا لا تدعو أحدا إلى البيت ؟ » لكنها لم تخدعه للحظة . وكان يقول ، « لا ، لا أحتاج إلى أحد » ، فيبدو عليها السرور . كانت لتسأله ، « أظن أن عائلتك كافية بالنسبة لك ، أليس كذلك ؟ ألسنا محظوظين أن نكون لأحدنا الآخر ؟ »

كان يسمح لصديقيه بدخول المنزل حين تكون أمه فى عملها فقط ، وأحيانا كان يسمح لهما بالفرجة على أمتعتها لسبب لا يستطيع تحديده . فقد يفتح أصغر الأدراج فى خزانة ملابسها الصغيرة العلوية ، ويريهما

دبوس زينتها الذهبى الخالص الذى أهداه أبوه إليها وهما مخطوبان . كان ليقول ، « كانت تملك عليه كل تفكيره واهتمامه . لقد أعطاها أكواما من الأشياء . أكواما . هناك أكوام من أشياء أخرى لكنها ليست فى متناول يدى » . وكان الضجر يبدو على صديقيه . ولكى يغير تكتيكاته ، كان كودى يريهما مناديلها المكوية وقد صُفّتْ بدقة فائقة حتى لتبدو كما لو كانت يضمها صندوق مربع غير ظاهر للعيان . قال ، « أعنى أن والدة أيكما لا تفعل ذلك ، أليس كذلك ؟ هل تفعل ذلك ؟ النساء ! » . ثم قال وهو يتأمل مليا فى مشبك معدنى غامض أو شىء من الواضح أنه يستخدم فى تثبيت الجوارب النسائية ، « من يستطيع فهمهن ؟ حقا : هل يمكنكما سبر غورهن ؟ إنها تحب عزرا أكثر ، أخى عزرا الغبى . عزرا العجوز المخنث . أعنى لو أنها كانت جينى ، لأمكننى أن أفهم – لكون جينى فتاة وما إلى ذلك . لكن عزرا ! من يستطيع أن يحب عزرا ؟ هل يمكنكما أن تجدا لى سببا واحدا لهذا ؟ »

هز صديقاه كتفيهما ، وهما يحدقان بتكاسل فى أرجاء الغرفة ويصلصلان بالعملات المعدنية السائبة فى جيوبهما .

أخفى فردة حذاء عزرا الخفيف اليسرى ، وكراسة واجب الحساب الخاصة به ، وقفاز البيسبول ، وقلمه الحبر ، وسترته المفضلة . حبس قطة عزرا فى خزانة البياضات . أخذ صفارة عزرا البوص إلى المدرسة ودسها فى سترة جوسيا بيسون ، أعز أصدقاء عزرا – صبى ذو نظرة مسعورة ، فى حجم رجل ناضج ، يعتقد الكثيرون أنه أبله . كان تصرفا نمطيا من عزرا أن يحب جوسيا بكل وجدانه ، بل إنه كان ليصحبه إلى البيت لولا أن أمه كانت تخاف منه . تقدم كودى عندما كان فصل عزرا فى فترة الغداء ، وتسلل خلف حاجز غرفة الملابس ووضع الصفارة فى جيب سترة جوسيا السوداء الهائلة الحجم . حدث بعد ذلك

أن مرت موجة حر شديدة القيظ ، ومن الواضح أن جوسيا ترك سترته حيث كانت معلقة ، وهكذا ظلت الصفارة مفقودة لمدة أيام . انزعج عزرا بشدة لفقدها ، وجعل يسأل كل واحد ، « هل رأيت صفارتى ؟ » . ولمرة واحدة على الأقل ، لم يكن كودى مضطرا لأن ينصت إلى « الأكمام الخضراء » و « أيكة الرماد » ، تُعزفان على ذلك المزمار الصغير الذى تنطلق منه أنفاس العازف بصوت مسموع ، والذى كان مداه محدودا لدرجة أن عزرا يضطر إلى النفخ بقوة أكبر ليصل إلى النغمات العالية ، فيشق طبلات آذان الناس . قال عزرا لكودى ، « أنت أخذتها ، أليس كذلك ؟ أعرف أنك فعلت هذا » .

سأله كودى ، « وما حاجتى إلى صفارة لعبة غبية ؟ »

كان يأمل أن يلقى عزرا باللائمة على جوسيا حين تظهر فى جيب جوسيا بيسون . لكن لم تجر الرياح بما يشتهى . فما حدث بينهما مهما كان سُوِّى بدون ضجة ، وظل الاثنان صديقين . ومرة أخرى راحت أغنية « أيكة الرماد » تبقبق فى كل ركن من أركان المنزل ، مشروخة غائمة .

ثارت إحدى ثائرات أمهم . قال كودى لأخيه وأخته ، « لقد قرعت بيرل طبول الحرب » . كان يسميها بيرل دائما فى مثل تلك الأوقات . قال ، « يحسن بكما أن تأخذا حذركما . فقد أفرغت كل أدراج الخزانة الصغيرة الخاصة بجينى » .

صاح عزرا ، « أوه . أوه » .

— « وهى تصفق الأشياء فى أرجاء البيت وتكلم نفسها » .

قالت جينى ، « ياللك من ولد ! »

كان كودى قد قابل الاثنين الآخرين فى الشرفة الخارجية ؛ فقد تأخرا في المدرسة . فتح لهما الباب في صمت ، وتسللوا صاعدين الدرج . أخذ كل منهم خطوة هائلة مندفعة فوق الدرجة التى تصر - على الرغم من أن أمهم ما كانت لتسمعهم . فقد كانت تحدث ضجة كبيرة للغاية فى المطبخ . بدا الصوت كما لو كانت تلقى بالقدور خلال زجاج النوافذ .

ساروا على أطراف أصابعهم عبر الصالة إلى غرفة جينى . همس عزرا قائلا ، « يا لها من فوضى » . كانت أكوام من الثياب تغطى أرضية الحجرة ، والأدراج الفارغة قد قذف بها فى كل مكان . كانت خزانة الملابس مفتوحة وقد انتزعت شماعاتها ، وثياب جينى ذات الأكمام المنتفخة ترقد مكومة . حملقت جينى من حيث وقفت فى مدخل الغرفة . سألها كودى ، « جين ؟ ماذا فعلت ؟ »

قالت جينى بصوت يرتجف ، « لا شىء » .

- « فكرى ! شيئا ما تافها ، شيئا نسيته ... »

- « لا شىء . أؤكد لك » .

قال لعزرا ، « حسنا . ساعدنى فى إعادة الأدراج إلى أماكنها » .

كانت مهمة ينوء بها رجلان . كانت الأدراج من البلوط ، ثقيلة وتميل إلى الالتصاق . راح كودى وعزرا يقبعان وهما يوائمانها داخل الخزانة . وراحت جينى تطوف حول الحجرة وهى تجمع ملابسها . كانت الدموع قد ملأت عينيها ، وظلت تمسح أنفها بواحد أو آخر من أزواج الجوارب الملفوفة . قال لها كودى ، « توقفى عن هذا ، فسوف تفعل هذا كله ثانية ، إذا وجدت مخاطا على جواربك » .

جمع هو وعزرا السراويل الداخلية وشرائط الشعر ، ونفضا

البلوزات ، وحاولا أن يعيدا الملابس إلى شماعاتها بالطريقة التى كانت عليها قبل ذلك . كان بعضها متجعدا بدرجة مستحيلة ؛ ففرداها بقدر المستطاع وأخفياها فى مؤخرة الخزانة . وفى تلك الأثناء ركعت جينى على الأرض وهى تشهق وتطوى القمصان الداخلية .

قال عزرا ، « أود لو أننا فقط غادرنا المكان ، فلا نعود حتى ينتهى الأمر » .

قال له كودى ، « لن ينتهى قبل أن تنفث عن غضبها ، وأنت تعرف ذلك . وليست هناك طريقة يمكننا بها تفادى ما يحدث » .

- « أود لو كان أبى هنا » .

- « حسنا ، هو ليس هنا ، أخرس إذن » .

سوى عزرا حزاما .

وبعد أن رتبوا كل شيء ، جلس ثلاثتهم فى صف واحد على سرير جينى . كانت الأصوات الآتية من المطبخ مختلفة الآن - قعقعة سكاكين المائدة ، وصليل الآنية الزجاجية . لابد أن أمهم كانت تعد المائدة ، وسرعان ما تقدم العشاء . داخَل كودى شعور بالثقل فى حلقه ، حتى أنه لم يكن يريد أن يأكل ثانية أبدا . ولاشك أن الآخرين كانا يشعران بنفس الشعور ؛ فقد ظل عزرا يبتلع طعامه . قالت جينى ، « لنهرب من البيت » .

قال كودى ، « ليس لدينا أى مكان نهرب إليه » .

جاءت أمهم إلى أسفل الدرج ونادتهم . كان صوتها واهنا ، مثل صوت بعوضة ، « يا أطفال » .

نزلوا فى طابور ، وهم يجرجرون أقدامهم . توقفوا عند حمام

الطابق الأول ونظفوا أيديهم بعناية فائقة وبخاصة ظهر اليد . انتظر كل منهم الآخرين . ثم دلفوا إلى المطبخ . كانت أمهم تقطع كتلة مستطيلة من اللحم . لم تنظر إليهم ، لكنها شرعت تتكلم ما أن احتلوا مقاعدهم . « كأنه لا يكفى أننى علىَّ أن أعمل حتى الخامسة مساء ، لا ؛ حتى أحضر إلى البيت فلا أجد شيئا قد لقى عناية منكم ، لا أعمال منزلية أنجزت ، وأنتم يا أطفال بالخارج طوال الوقت مع أشخاص سيئى السمعة فى الحارات أو تضيعون وقتكم مع جوقة المدرسة ، وفى اجتماعات النادى ؛ المائدة لم تُعدّ ، صحون الإفطار لم تغسل ، العشاء لم يطبخ ، الأرضيات لم تكنس ، البريد مكوم على الحصير ... ولا أثر لأى منكم . أوه ، أعرف ما يحدث ! أعرف ما تدبرون ! همج هذه الناحية ، هكذا أنتم ، تختلطون بكل من هب ودب . كيف تنتظرون أن أعالج هذا ؟ كيف تتوقعون أن أتصرف حيال هذا ؟ ابنة لا نفع فيها ، ولدان جامحان فاقدا الإحساس ... أنا أعرف ما يقوله الناس . هل تظنون أن عميلاتى لا يسرهن أن يخبرننى ؟ الواحدة منهن تدخل وتتكلف الابتسام ، « حسنا ، يا مسز تل ، ابنك الأكبر ذلك من المؤكد أنه يكبر . رأيته ومعه علبة سجائر كاميل فى الطريق أمام بيت بنات آل بارلو » . وعلىَّ أن ابتسم وأن ابتلع هذا . علىَّ أن أقف هناك وأنظارهن ترقبنى ولسان حالهن يقول ، « مسكينة مسز تل ، لا أدرى كيف تستطيع أن ترفع رأسها . من الواضح أنها ليست لديها أدنى قدرة على معاملة أولئك الأطفال ؛ انظرن كيف يجلبون لها العار » . تدخلون حبات البطاطس فى عوادم سيارات الناس ، وتفرغون الإطارات من الهواء ، وتطلقون بنادق الخرطوش على مصابيح الشوارع وتسرقون أغطية الإطارات المعدنية ، وتنسلون حاملين معكم علامات المرور ، وتنقلون صورة مريم العذراء الخاصة بمسز كوريللى إلى شرفة مطبخ سونى بوى براون ، وتتسكعون حول صنابير المياه مع فتيات لسن أكثر

من متشردات ، فتيات يرتدين سترات صوفية خشنة محزقة وسلاسل حول كواحلهن ، أوه ، إنني.أسمع عن هذا فى كل مكان ... » .

قالت جينى ، « لكننى لا أفعل هذا ، يا ماما »

- « عفوا ؟ »

- « أنا لا آتى تلك الأفعال » .

حسنا ، بالطبع لم تكن تفعل ذلك (كودى فقط كان يفعله) ، لكن لم يكن ينبغى أن تشير إلى هذا . والآن جذبت الانتباه نحوها . استدارت بيرل ، واستجمعت قوتها ، وانطلقت ، « أنت ! إننى أعرف عنك . لم أستطع أن أصدق أذنى . فقد ساقتنى الظروف أننى كنت أهبط درج الكنيسة يوم الأحد حين رأيتك مع ميلانى ميللر ، تلك الفتاة التى تحضر معك فصل دراسة الكتاب المقدس » . جعلت صوتها يخرج حادا مزعجا لا يشبه فى الواقع صوت جينى فى شىء ، «أوه ، ميلانى ... ميلانى ، أنا أحب ثوبك حقا . أود لو كان لدى ثوب مثله ؟ » وقالت ، وهى تستدير نحو الولدين ، « افهما ، كان مجرد نمرة صغيرة رخيصة من محل سيرز . لم تكن مربعاته المنقوشة متجانسة ؛ وهناك كشكشة عند الذيل مثل ... ثوب رقص بالى الطراز وباقة من زهور صناعية مشبوكة عند الوسط . ثوب لا يليق بتاتا بفتاة فى التاسعة ، أو بأى فتاة . ولكن أختكما تقول ، « أوه ، أود لو كان لدى ثوب مثله » ، وهكذا تقول كل واحدة لنفسها ، « مسكينة مسز تل ، لا تقدر حتى على شراء ثوب من محل سيرز ووربك ذى زهور صناعية ، لا أدرى كيف تدبر أمرها ، وهى تشقى طوال اليوم فى محل البقالة ذلك ، وتجاهد مع ميزانيتها فى الليل ، تقتطع من هنا وتقتطع من هناك ، وهى تتساءل إن كان بإمكانها أن تقتصد شيئا ، وتأمل ألا يتعرض أحد لفاتورة طبيب ، وتصلى حتى تتوقف أقدام

أطفالها عن النمو ... » .

« وأم ميلانى ، حسنا ، إنها من ذلك النوع الذى يفاجئك ويقتحم عليك بيتك . فأول ما يحدث هو أن تأتى إلى هنا بتبجح : « مسز تل ، تصادف أن لدىّ الكتالوج الذى طلبنا منه ثوب ميلانى ، إذا كان يهمك أن تشترى واحدا لجينى » . كما لو كنت أريد أن أكسو ابنتى بثياب اليتامى ! كما لو كنت أرضى لها أن تصبح نسخة مكررة من طفل آخر ! سأقول : « لا . شكرا لك ، يا مسز ميللر ، قد لا أقدر على دفع هذا الثمن الغالى ، لكننى على الأقل حين أشترى فعلا فإننى أشترى ثيابا حيكت وصلاتها حياكة متقنة . لا ، يا مسز ميللر ، يمكنك الاحتفاظ بكتاب أمنياتك المزعوم ، وثيابك التى توفر ربع بوصة من ذيل الثوب ، وزهورك المهشمة المصنوعة من الجوخ ... » . ما العيب فينا ، أود أن أعرف ؟ ألسنا أكفاء لابنتى التى من دمى ولحمى ؟ ألا تشعر أننى أبذل ما بوسعى ، قصارى جهدى ، لأوفر لها سبل الحياة ؟ هل ينبغى لها أن تتعرف على الرعاع ؟ هل ينبغى لها أن تحضر حثالة الناس إلى البيت ؟ نحن أسرة ! وقد اعتدنا أن نكون متقاربين ! ما الذى حدث لنا ؟ لماذا تتصرف بهذا الجحود ؟ »

جلست ساكنة ، كما لو كانت قد انتهت من الموضوع إلى الأبد ، ومدت يدها لتتناول وعاء البسلة . كانت الدموع تسيل على وجه جينى ، ولكنها لم يصدر عنها صوت ، وبدت بيرل غير واعية بها . تنحنح كودى .

قال ، « لكن ذلك كان يوم الأحد » .

توقفت ملعقة الغرف فى يد بيرل ، فى منتصف المسافة بين الوعاء وطبقها . بدت مهتمة بشكل مهذب . قالت ، « نعم ؟ »

ـــ « اليوم الأربعاء »

ـــ « نعم » .

ـــ « اليوم الأربعاء ، اللعنة ؛ لقد مرت ثلاثة أيام . لماذا إذن تثيرين شيئا حدث يوم الأحد ؟ »

قذفت بيرل بالملعقة فى وجهه . قالت ، « أيها الدعى » . نهضت وصفعته على وجنته ، « يا تعسا ، يا رعبا قبيحا » . وقبضت على ضفيرة من ضفيرتى جينى وجذبتها حتى انتزعت جينى من كرسيها . قالت لعزرا ، « أيها الأبله الغبى » ، وتناولت وعاء البسلة وهوت به على رأسه . لم ينكسر الوعاء ، لكن حبات البسلة تطايرت فى كل مكان . أقعى عزرا ، وهو يحمى رأسه بذراعيه . قالت لهم ، « أيها الطفيليون . ليتكم تموتون جميعا ، وتدعونى أغدو حرة طليقة . ليتنى أجدكم موتى فى أسرَّتكم » .

وبعد ذلك صعدت إلى الطابق العلوى . غسل ثلاثتهم الصحون وجففوها ووضعوها فى الخزانات . مسحوا الطاولة وأسطح النضد وكنسوا أرضية المطبخ . كان منظر كسرة خبز أو بقعة باعثا على الراحة والسرور ؛ إذ كانوا ينقضون عليها بروح طيبة . أسدلوا الستائر على النوافذ وأغلقوا الباب الخلفى . وفى الخارج كان أطفال الناحية يشتركون فى لعبة الاستغماية . لكن أصواتهم كانت واهنة حتى أنهم بدوا بعيدين فى الزمان بمثل ما هم بعيدون فى المكان . بدوا كأنهم ناس من زمن سحيق ، يضحكون ، ويتصايحون فى الذاكرة فقط ، أو فى حلم من تلك الأحلام المفعمة بالحياة على نحو غامض والتى تبدأ على حافة النوم .

قبيل أجازة عيد الشكر ، انتقلت فتاة تدعى إيديث تابر إلى مدرستهم . كان كودى نفسه جديدا على مدارس كثيرة ، فتعرف على الطريقة المتحدية التى تميل بها رأسها والتى تميزت بها حين دخلت الغرفة التى يسجل فيها حضوره . كانت تحمل دفترا مغلقا بسوستة لم يكن النوع الملائم على الإطلاق ، وترتدى فوق تنورتها ما بدا أنه قميص رجالى ، وهو تصرف لم يُسمع أن سبقها أحد إليه مطلقا . لكن كان لها شعر أسود كثيف وتلك النظرة الغجرية التى كان كودى يحبها ؛ واجتذبته أيضا مشيتها المترفعة المزدرية وهى تسير وحدها فى طريقها إلى الفصول - بلا صديق مثلما كان كودى ، هكذا قال لنفسه ، أو على الأقل بلا صديق مثلما كان يشعر فى أعماقه . ولذا فإنه فى عصر ذلك اليوم سار خلفها مسافة قصيرة (اتضح أنها تعيش على بعد بناية واحدة إلى الشمال منه) ، وفى عصر اليوم التالى لحق بها وسار إلى جوارها . بدا عليها أنها ترحب بصحبته وتحدثت معه دون توقف تقريبا ، وهى تثبت ياقة سترتها بإحكام حول رقبتها من آن لآخر بحركة بدت له متكلفة . قالت إن أخاها كان فى البحرية ، وأنه قد وعدها أن يحضر لها ثوبا يابانيا حريريا فضفاضا من طراز الكيمونو إذا خرج من الحرب حيا . وأنها لم تجد مدينة بلتيمور دولية الطابع ، وأنها ترى أن الآنسة سوندرز ، مدرسة اللغة الإنجليزية ، تشبه الممثلة لانا تيرنر . قالت إنها كانت تشعر أن مظهر الصبية يبدو جذابا حقا عندما لا يصففون شعورهم إلى الخلف ، بل يتركوه يتهدل فوق جباههم مستقيما ، بالطريقة التى يصفف بها كودى شعره . تحسس كودى شعره بأنامله وقال : حسنا ، إنه لم يكن يدرى شيئا عن هذا ؛ إنه كان يعتقد دائما أن الفتيات يفضلن تموجا أو تجعيدة أو شيئا من هذا القبيل . قالت إنها تزدرى أن يكون للصبية تجعيدات . سارا بقية الطريق دون أن يتكلما ، على الرغم من أن كودى راح من آن لآخر يدندن أجزاء من اللحن الوحيد الذى جال

بخاطره ، وهو ما تصادف أن كان « أيكة الرماد » .

لم يستطع أن يسير معها إلى بيتها يوم الأربعاء لأنه كان عليه أن يتأخر بسبب عقوبة احتجازه فى المدرسة ، وكان اليوم التالى أجازة عيد الشكر . ولم تستأنف الدراسة حتى يوم الاثنين . وطوال صباح يوم الخميس راح يتسكع فى الشرفة الخارجية فى برد نوفمبر الرطب ، محدقا فى اتجاه الشمال نحو الشارع الذى تقطنه إيديث ثم يستدير ليصوب لكمات فى الهواء نحو وسادة من وسادات الأرجوحة . وأخيرا برزت أمه ، وقد تورد وجهها من المطبخ ، وراحت تستميله حتى يدخل . « كودى ، حبيبى ، سوف تتجمد حتى الموت . تعال وقشر لى بعض الجوز » . كانوا سيتناولون وجبة هزيلة - بلا ديك رومى - لكنها قد وعدتهم أن تعد لهم فطيرة كحلوى بعد الطعام . كان للبيت رائحة مختلفة سلفا : حريفا أكثر ، وأكثر بهجة . كان كودى ليبقى فى الشرفة إلى الأبد ، رغم هذا ، لو أنه ظن أن هناك فرصة ليرى إيديث .

لعبوا جميعا لعبة « بنك السعادة » بعد العشاء . كانت عائلة كودى لا تسمح له بالاشتراك فى ألعابهم ، بوجه عام ؛ فقد كانت له دائما مشكلة مع المكسب . كان يصر بشكل مطلق على كسب أى لعبة يشترك فيها . وكان يكسب أيضا - لمجرد حماسته وشغفه باللعب أكثر من الآخرين . (وقد عرف عنه الغش أيضا) . وأحيانا كان يكسب حين لم يكن أحد غيره يظن أنها مباراة . كان يلتهم من الفول السودانى مقدارا أكبر ، أو يقشر كوز الذرة أسرع منهم ، أو ينتهى من صفحة من صفحات مجلته الفكاهية قبلهم . كانت أسرته تقول ، « أغرب عن وجهنا » حين يقترب (وهم يخلطون أوراق اللعب بلا اكتراث أو يقذفون النرد) . « أنت تعرف ما قلناه . لن تلعب معنا مرة ثانية مطلقا » . لكنهم سمحوا له باللعب فى عصر ذلك اليوم . حاول أن يكبح نفسه ، لكنه ما أن مكنته

أوراق اللعب من أن يشترى فندقا على الطريق المحاذى للشاطىء حتى أفلت الزمام . قالت أمه ، « أوه ، يالله ، كان يجب أن أتذكر . ماذا يفعل هو فى هذه اللعبة ؟ » لكنها كانت تبتسم . كانت ترتدى ثوبها الصوفى الأزرق وشعرها ينحل من كعكته ، مما أضفى عليها مظهرا مسترخيا . كان رمزها فى اللعب هو المكواة ، وقد تخطت به بنجاح الطريق المحاذى للشاطىء ، لكن الدور كان على عزرا فاصطدم به . لم يكن لديه فى أى مكان قريب ما يكفى من المال . عرض عليه كودى أن يقرضه بعضا منه ؛ إذ كان يكره أن يستسلم الناس بهذه السهولة . كان يروق له أن يورط كل واحد فى دين بآلاف الدولارات ، وهو يكافح حتى النهاية المريرة . لكن عزرا قال ، « لا ، لا ، أنا منسحب من اللعب » . وتراجع إلى الوراء وهو يرفع كفه بطريقته الخاصة كأنه رجل يافع . وهكذا اضطر كودى إلى الاستمرار فى اللعب مع جينى وأمه فقط ، وفى النهاية مع أمه وحدها . لعبا حتى نهاية الخط ، حين انتهى الحال بأمه على الطريق المحاذى للشاطىء وهى لا تملك سوى ثلاثة دولارات . قضى كودى وقتا ممتعا للغاية فى حقيقة الأمر .

ثم طلب الصغيران من كودى وبيرل أن يقوما بعرض المسرحية الهزلية القصيرة : « فات موعد الرهن » . « أوه ، هيا ، من فضلكما ! فبدونها لن يكون لليوم مذاق العطلة » . انتهى الأمر بكودى وبيرل إلى النزول على رغبتهما ، على الرغم من أنهما لم يتدربا عليها منذ أمد بعيد ، ولم يتمكن كودى من تذكر الخطوات الراقصة التى تأتى فى النهاية . كانت المسرحية شيئا مقتبسا يعود إلى فترة صبا أمهم ، ذلك النوع من العروض التى كانت تؤدى فى مسابقات الإلقاء للهواة أو فى حلقات حفلات السمر . لعبت بيرل دور أيفى ، العذراء التى تواجه محنة ، وكودى دور الشرير الذى يفتل شاربه الكثيف . كان يتزلف إليها بنظرة شذراء شريرة ، « **أيفى ، يا أيفى الحلوة الرقيقة ، استندى**

على ذراعى » ، فى حين تدور بيرل بعينيها وتنكمش فى ركن . كان بإمكانها أن تكون ممثلة ، هكذا قال أبناؤها لأنفسهم ؛ فقد أدت دورها أداء كاملا للغاية ، تلك النظرة المحدقة الخجلى وردودها الرتيبة العتيقة . وفى النهاية جاء البطل وأنقذها . كان عزرا وجين يزعمان دائما أنهما خجولان للغاية ، ولذا لعب كودى دور البطل أيضا . قال للعذراء ، « **سوف أدفع قيمة الرهن على المزرعة** » ، وقادها راقصا إلى غرفة الطعام . أخيرا تذكرت قدماه الخطوات الراقصة ، لكن لسان أمهم التوى وبدلا من أن تقول **الحياة الزوجية** قالت **الزوجة المقادة** ، وانهارت وسط عاصفة من القهقهات . راح عزرا وجينى يصفقان مطالبين الممثلين بالعودة إلى المسرح ثلاث مرات .

فى ذلك المساء ، خرج كودى إلى الشرفة واتجه بنظره شمالا مرة أخرى فى ضوء الشفق . وجاء عزرا أيضا وجلس فى الأرجوحة ، وهو يدفعها جيئة وذهابا بكعب حذائه الخفيف . سأله كودى ، « هل تريد أن تمشى باتجاه شارع سلوب ؟ »

ـــ « ما الذى يجرى بشارع سلوب ؟ »

ـــ « لا شىء يذكر . هذه الفتاة التى أعرفها ، إيديث تابر » .

قال عزرا ، « أوه ، أجل إيديث » .

ـــ « هل تعرف من هى ؟ »

قال عزرا ، « لديها ذلك المزمار الذى يعزف النغمات الحادة والمنخفضة دون مزيد من العناء تقريبا » .

ـــ « إيديث تابر ؟ »

ـــ « آلة فلوت » .

قال كودى ، « أنت تقصد واحدة أخرى » .

ـــ « حسنا ، ربما كان الأمر كذلك » .

ظل كودى صامتا لحظة ، وهو مستند إلى درابزين الشرفة . وجعل عزرا يحرك الأرجوحة لتصدر صريرا يؤنس الوحشة . ثم قال كودى ، « فتاة سوداء الشعر . فى الصف التاسع » .

قال عزرا مؤمّنا على كلامه ، « وافدة جديدة فى البلدة » .

ـــ « متى رأيتها ؟ »

قال عزرا ، « بالأمس فقط . كنت عائدا إلى البيت من المدرسة سيرا على الأقدام ، أعزف على مزمارى ، ولحقت بى وقالت إنه يروق لها ، وسألتنى إن كنت أود أن أرى فلوتها . وهكذا ذهبت إلى بيتها ورأيته » .

- « إلى **بيتها** ؟ هل كانت تعرف أنك أخى ؟ »

قال عزرا « حسنا ، لا ، لا أظن ذلك . إن لديها ببغاء صغيراً يتجشأ ويقول ، « سامحنى » . وقد قدمت أمها لنا بسكويتا حلوا » .

- « أنت قابلت أمها ؟ »

- « سيكون شيئًا لطيفا أن أحصل على فلوت ، يوما ما » .

قال كودى ، « إنها أكبر سنا من أن تلائمك » .

ارتسمت أمارات الدهشة على وجه عزرا . قال ، « حسنا ، بالطبع . فهى فى الرابعة عشرة والنصف » .

- « ما الذى يمكن أن تريده من تلميذ صغير فى الصف السادس ؟ »

قال عزرا ، « كانت تريد أن ترينى مزمارها » .

قال كودى ، « شيء مقزز » .

- « كودى ؟ هل سنخرج للسير إلى شارع سلوب ؟»

قال كودى ، « لا » ، وركل عمودا .

قال عزرا ، « لو طلبت من أمى ، هل تظن أنها لتحصل لى على واحد من هذه الفلوتات بمناسبة الكريسماس ؟ »

قال كودى : « يا مغفل . أيها الأبله المخرّف . هل تظن أن لديها مالا تستغنى عنه للمزامير اللعينة ؟ »

قال عزرا ، « حسنا ، لا ، لا أظن »

ثم دخل كودى البيت وأغلق الباب بالمزلاج ، وعندما شرع عزرا يدقه قال كودى لأمهما إنه كان فقط مستر ميليدج ، وقد أصابته إحدى نوبات جنونه .

فى صباح يوم الاثنين ، بحث عن إيديث فى طريقه إلى المدرسة لكنه لم يرها . والذى حدث أنها جاءت للمدرسة متأخرة . وصلت إلى غرفة تسجيل الحضور بعد الجرس مباشرة . حاول أن يلفت انتباهها لكنها لم تنظر ناحيته ، حدقت فقط بشكل ثابت فى المعلمة طوال مدة النداء على الأسماء . وعندما رن جرس الحصة الأولى سارت إلى الفصل مع سو ميكس وهارييت سميث . من الواضح أنها لم تعُد بلا صديقة .

وما أن حلت الحصة الثالثة ، حتى اتضح له أنها كانت تتجنبه . لم يستطع حتى أن يقترب منها ؛ كان يلازمها حارس خاص بصفة دائمة . ولكن أى خطأ ارتكبه ؟ ساق باربارا بيس إلى الركن – وهى فتاة مدملجة مرحة حمراء الشعر كانت بمثابة مركز لنقل الأخبار بين العشاق من الصف التاسع . سألها ، « ما خطب إيديث ؟ »

ــــ « من ؟ »

ــــ « إيديث تابر . كنا نحرز تقدما طيبا للغاية والآن لا تريد الكلام » .

قالت ، « أوه » . رفعت كتبها . كانت ترتدى قميصا فى حجم القمصان الرجالى وقد برزت نهاياته للخارج . ولو أنك فكرت فى الأمر لوجدت أن نصف الفتيات الأخريات كن كذلك . قالت ، « حسنا ، أظنها تميل إلى شخص آخر الآن » .

سألها ، « هل هو أخى ؟ »

ــــ « من أخوك ؟ »

– « عزرا . أخى عزرا » .

قالت وهى تحدق فيه ، « لم أكن أعلم أن لك أخا » .

– « حسنا ، لقد كانت تحبنى كثيرا فى الأسبوع الماضى . ما الذى حدث ؟ »

قالت له مترفقة ، « ما حدث هو أنها قد ذهبت مؤخرا إلى حفلتين ، ومن الطبيعى أن أشخاصا آخرين أثاروا اهتمامها . وقد أصبح لديها نوع من ... الرؤية الأوسع ، كما أنها لم تكن تدرك شيئا عن سمعتك » .

- « أى سمعة ؟ »

- « حسنا ، إنك تشرب ، يا كودى . وكنت تتسكع مع تلك الفتاة الرخيصة لورينا شميدت طوال الصيف ؛ وتبدو برائحتك وكأنك سيجارة تمشى على قدمين ؛ وكاد يقبض عليك عشية عيد جميع القديسين » .

ـــ « هل أخبرها أخى بذلك ؟ »

ـــ « ما هذا الكلام عن أخيك ؟ كلهم أخبروها . فليس هذا سرا بالضبط » .

قال كودى ، « حسنا ، أنا لم أزعم أبدا أننى قديس » .

قالت باربارا ، « إنها تقول إنك وسيم حقا وما إلى ذلك ، لكنها تريد رفيقا يمكنها أن تحترمه . وهى ترى أنها قد يروق لها فرانسيس إلبيرن الآن » .

ـــ « فرانسيس إلبيرن ! ذلك الجنى ! »

قالت باربارا ، « إنه حقيقة أكثر ملاءمة لها » .

ـــ « إن شعره مجعد » .

ـــ « وماذا إذن ؟ »

ـــ « فرانسيس إلبيرن ؛ ياربى » .

قالت له باربارا ، « لست بحاجة إلى التجديف » .

سار كودى وحده إلى البيت ، بعد أن رحل الآخرون بوقت طويل ، وهو يتخير شوارع تضمن له ألا يصطدم بإيديث أو صديقاتها . وفى

إحدى المرات انعطف فى زقاق خطأ وخطر له أنه ما زال غريبا ، لا يألف الناحية . فقد ولد رفاقه فى الدراسة ونشأوا هنا ، معظمهم ، وكانوا يستريحون إلى أحدهم الآخر أكثر مما يستطيع أن يأمل . انظر إلى صديقيه الحميمين : والداهما يذهبان إلى السينما معا ؛ وأماهما تتجاذبان أطراف الحديث فى التليفون . أمه هو ... ركل إشارة مرور . إنه ليضحى بأى شىء لتكون له أم تتصرف مثل الأمهات الأخريات ! تاق الى أن يراها تنهمك فى القيل والقال مع زمرة من النساء فى المطبخ ، وتدعهن يلفن لها شعرها فى عقصات ، ويتبادلن وصفات التجميل ، ويلعبن الورق ، ويغفلن عن الوقت . « أوه ، يالله ، انظرن إلى ساعة الحائط ! والعشاء لم نبدأ حتى فى إعداده ؛ سوف يقتلنى زوجى . هيا أسرعن ، يا بنات » . ود لو أن لها علاقة خارجية ما ، شيئا فيما وراء ذلك البيت الخانق .

وأبوه : لقد كان يقوض بنيانهم الأسرى من أساسه باستمرار ، يشتتهم ما أن يستقر بهم المقام ، ويلقى بهم فى مكان ما جديد . ولكن أين هو الآن وكودى يريد أن يُجتث من هذا المكان ، الآن تلاحقه سمعةٍ سيئة وقد اشتدت حاجته إلى الرحيل ليبدأ بداية جديدة ؟ لقد دمر أبوه حياتهم ، هكذا قال كودى لنفسه - بطريقة أو بأخرى . فكر فى أن يتعقبه ويصل إلى عتبة باب بيته : « أنا فى ضيق ؛ وكل هذا بسبب خطئك . لقد تلوثت سمعتى ، واحتاج إلى مغادرة البلدة ، وعليك أن تقبلنى هنا » . ولكن هذه لن تعدو أن تكون مجرد مدينة أخرى مجهولة ، ومدرسة جديدة يدخلها وحده . وهناك أيضا ، من الممكن أن تبدأ تقديراته المدرسية فى الانخفاض ، وسوف يشتكى منه الجيران ويبدأ المدرسون فى الشك فيه أولا ما أن يحدث خطأ صغير ؛ وحينذاك يظهر عزرا سريعا بطريقته العنيدة ، الجادة ، المخلصة فيقول الجميع لكودى ، « لماذا لا يمكنك أن تكون أشبه بأخيك ؟ » .

دخل البيت ، الذى كانت تفوح فيه رائحة الكرنب من الليلة السابقة . كان مظلما تقريبا وبدا الهواء كثيفا ؛ شعر أنه كان عليه أن يبذل جهدا كى يشق طريقه خلاله . صعد الدرج بسأم . مر أمام غرفة جينى ، حيث جلست تؤدى واجبها المدرسى فى دائرة ضيقة كئيبة من الضوء الأصفر المنبعث من المصباح . كان وجهها نحيلا يكسوه الظل ولم تهتم بأن تحييه . واصل صعوده إلى غرفته ونقر مفتاح الكهرباء نقرة خفيفة . وضع كتبه على خزانة الملابس الصغيرة قبل أن يدرك أن عزرا موجود . نائم كالعادة - متكور على سريره ومعه حزمة من أوراق الواجب المدرسى . أوه ، كان عزرا متبلد الذهن مشوشا ؛ يمكنه أن ينام فى أى وقت . كانت شفتاه منفرجتين . وقد رقدت قطته ، أليسيا ، فى عقفة ذراعه ، تهرّ فى طمأنينة ورضا .

ركع كودى بجوار سريره وجذب من تحته زجاجة نصف ممتلئة بشراب البوربون ، وزجاجة جن فارغة ، وخمس زجاجات بيرة فارغة ، وعلبة سجائر « كاميل » مجعدة ، وصندوق بسكويت مملح . نثرها حول عزرا ، ورتبها ترتيبا متقنا . ذهب إلى خزانة الأدوات التى تقع فى الصالة وأخرج آلة التصوير الخاصة بأبيه . وفى مدخل غرفته ضبط توجيهها وتوقف قليلا ثم ضغط زر الالتقاط . لم يستيقظ عزرا ، وهو ما يبعث على الدهشة تماما . (كان الضوء المنبعث من مُطلِق الوميض قويا للغاية ، حتى أن كرات زرقاء سابحة كانت لتُرى لمدة دقائق بعد التقاط الصورة) . لكن القطة بدا عليها انزعاج طفيف . نهضت على قدميها وتثاءبت . يا له من تثاؤب ! - هائل ومزدر . كان هذا ليصنع صورة مدهشة : عزرا المنهك وقطته التافهة ، وكلاهما بفم فاغر . تساءل كودى إذا كانت القطة لتفعلها ثانية . قال لها ، « هيا تثاءبى » ، وقام بتحريك الفيلم إلى الأمام استعدادا للقطة أخرى . « أليسيا ؟ تثاءبى » . تكلفت الابتسام فقط وأقعت . تثاءب هو نفسه ،

موضحا لها ما يريد ، لكن يبدو أن القطط لا تجد مثل هذه الأشياء معدية . أنزل الكاميرا واقترب منها أكثر ليربت على رأسها ، ويحك أسفل ذقنها ، ويمسد زورها . لم يُجْد معها أى شىء . قال ، « تثاءبى ، عليك اللعنة » ، وحاول أن يفتح أسنانها بالقوة . انتصبت واقفة بحدة ، عيناها مفتوحتان عن آخرهما تحملقان بغضب . استيقظ عزرا .

قال كودى له ، « قطتك متخلفة عقليا » .

— « هه ؟ »

— « لا أستطيع أن أحملها على التثاؤب » . مد عزرا ذراعه ، هكذا ببساطة ، وطوق قطته . تثاءبت تثاؤبا مترفا واستكانت لصقه ، وعاد عزرا إلى النوم . رغم ذلك لم يحاول كودى التقاط صورة أخرى . لم ير فى حياته مخلوقا يسلب الأشياء هزلها مثلما يستطيع عزرا أن يفعل .

ذهب كودى وعزرا وجينى يتسوقون هدية عيد الميلاد لأمهم . كان كل منهم قد وفر مصروف أربعة أسابيع ، وهو ما كان يعنى أربعين سنتا لكل منهم ، وكان لدى كودى دولار آخر أخذه من درج مكتب مركز مس سوندرز . بلغ المجموع دولارين وعشرين سنتا – ما يكفى لشراء قفازين للشتاء ، هكذا اقترح كودى . قالت جينى إن القفازات عرضة لأن تثقب ، وأرادت أن تشترى خاتما ماسيا . قال كودى لها ، « هذا غباء حقا ، فحتى أنت يجب أن تعرفى أنك لا تستطيعين شراء خاتم ماسى بدولارين وعشرين سنتا » .

– « أنا لا أعنى خاتما حقيقيا ، أعنى خاتما زجاجيا . أو أى شىء ، مجرد أن يكون جميلا ولا نفع له » .

اضطروا إلى أن يتسوقوا فى المحلات القريبة من البيت ، حيث أنهم لم يريدوا أن ينفقوا نقودا على المواصلات . كان الوقت منتصف ديسمبر وكانت جماهير من الناس تتسوق أيضا - يخوضون فى الزحام بأذرع ممتلئة بالمشتريات ، وينفثون سحبا بيضاء فى الهواء المشبع بالصقيع . هناك فى وسط المدينة كانت نوافذ المتاجر الكبرى ثرية ومتألقة مثل علب المجوهرات من الداخل ، وترنيمات وصليل أجراس نحاسية ، وأشرطة من الورق المفضض معلقة على إشارات المرور الضوئية . ولكن المحلات هنا ، فى هذه الناحية ، كانت أصغر وأعتم ومزينة بأكليل واحد من الورود على الباب ، أو بصورة بابا نويل من الورق المقوى يحمل خرطوشة من سجائر تشسترفيلد . وكان الجنود الذين يقضون أجازاتهم يتمشون على غير هدى فى مجموعات ، ويبدون كمن ضل طريقه . والمتسوقون يحيط بهم جو من الجهامة.والإصرار - حتى أولئك الذين يحملون اللفافات المبهرجة . كان يبدو عليهم احتمال أن يحصدوا أى إنسان فى طريقهم . أمسك كودى بجزء من معطف جينى حتى لا تتوه منه .

كانت تقول ، « أنا جادة . لا أريد أن أشترى لها شيئا فخيما . أى شيء ضرورى . أى شيء » .

قال عزرا ، « نافعا » .

قطب الجميع جباههم .

قال عزرا ، « لو أننا اشترينا لها خاتما ، رغم ذلك ، فقد تستاء من تبديد النقود . قد لا تستمتع به حقا » .

كان كودى يكره التعبير المشرق الرزين الذى يبدو على عزرا أحيانا ؛ إذ يظهر أنه يدرك تماما كم هو حريص على مشاعر الآخرين .

سأله كودى بخشونة ، « ماذا تريد **أنت** فى أعياد الميلاد ؟ السلام العالمى ؟ »

قال عزرا ، « السلام ماذا ؟ أريد فلوتا » .

عبرا التقاطع مع حشد من البحارة . قال كودى ، « حسنا ، لن تحصل على واحد » .

ــــ « أعرف ذلك » .

ــــ « سوف تحصل على غطاء رأس بحاشيتين لتغطية الأذنين يثنيان إلى أسفل ، وسروالا من القماش المضلع » .

قالت جينى ، « كودى ! لم يكن من المفروض أن تبوح بالأمر » .

قال عزرا ، « لا يهم » .

تباعدوا بسبب امرأة توقفت لتهيىء قفازات أطفالها . قالت جينى ، « كان من المعتاد أن نحصل على لعب فى أعياد الميلاد ، وحلوى . هل تذكران كم كانت أعياد الميلاد الأخيرة لطيفة ؟ »

قال عزرا لها ، « وسوف يكون هذا العيد لطيفا أيضا »

ــــ « هل تذكران هناك فى فرجينيا ، حين اشترى والدنا لنا زحافة جليد ، وقالت أمى إنها كانت فكرة خائبة لأنه نادرا ما أمطرت السماء ثلجا هناك ، لكن فى السادس والعشرين من ديسمبر استيقظنا وإذا بالثلج يغطى كل شىء » .

قال عزرا ، « كانت لحظات ممتعة » .

قالت جينى ، « كان لدينا الزحافة الوحيدة فى البلدة . وشرع كودى يتقاضى نقودا نظير الركوب . وعلمنا والدنا كيف ندهن الزلاقات بالشمع

وجذبناها إلى أعلى ذلك التل ... ماذا كان اسم ذلك التل ؟ كان له اسم مضحك ـــ » .

ثم توقفت فجأة على الرصيف . تدافع المارة من حولها . قالت ، « لماذا ؟ »

نظر كودى وعزرا إليها .

قالت ، « إنه لن يأتى حقا إلى البيت أبدا ، أليس كذلك ؟ »

لم يجب أحد . وبعد دقيقة واصلوا سيرهم ، ثلاثتهم جنبا إلى جنب ، وأمسك كودى بجزء صغير من كم عزرا ، أيضا ، حتى لا ينجرفوا بعيدا عن أحدهم الآخر وسط الزحام .

فرز كودى البوستة ، ووضع مظروفين لأمه جانبا يبدو أنهما بطاقتا معايدة . أطاح بنشرة إعلانية عن أحد المتاجر الكبرى وخطابا من مدرسته . ووضع فى جيبه خطابا يحمل علامة بريد كليفلاند .

صعد إلى غرفته وأضاء المصباح الذى يشبه عنق الأوزة بجوار سريره . وبينما كان الجزء الزجاجى من المصباح يسخن ، راح يصفر ويحدق خارج النافذة . ثم اختبر الجزء الزجاجى بأصابعه ، وعندما وجده ساخنا بما فيه الكفاية ، لف المظروف حوله وعدّ ببطء إلى رقم ثلاثين . بعد ذلك فض لسان المظروف بسهولة وأخرج قصاصة ورقية وشيكا .

كتب أبوه يقول ، « ... **يقولون إنه ينبغى أن ينتج بكامل طاقته فى يونيو ٤٥ . آسف لأن المبلغ المرفق أقل قليلا من المتوقع إذ تعرضت مؤخرا لبعض** ... » ، كان خطابه المعتاد ، لا يختلف فى

شيء . طواه كودى بعناية ثانية ، وأعاده إلى داخل المظروف ، رغم أنه لا يكاد يستحق الجهد . ثم سمع انصفاق الباب الأمامى . ونادت بيرل ، « عزرا تل ؟ » شرع كعبا حذائها العالى المجلجلان يصعدان الدرج بسرعة . دس كودى المظروف فى خزانته الصغيرة وأغلق الدرج . « عزرا ! »

قال كودى ، « هو ليس هنا » .

جاءت لتقف فى مدخل الباب ، « أين هو ؟ » كانت لاهثة الأنفاس ، تبدو غير مهندمة الثياب . كانت قبعتها على رأسها ملتوية ومازالت ترتدى معطفها .

ــــ « ذهب ليحضر الغسيل من المغسلة ، كما أخبرته » .

ــــ « ماذا تعرف عن هذا ؟ »

مالت نحوه ، وهى تمد يدها بكومة من اللقطات الفوتوغرافية . كانت الصورة العليا مغبشة وباهتة حتى أن كودى وجد صعوبة فى فك طلاسمها . تناول المجموعة كلها من يدها . آه ، نعم : عزرا يرقد فى سبات عميق ، محاطا بزجاجات الخمر . ابتسم كودى ابتسامة عريضة . فقد نسى أمر هذه الصورة تماما .

سألته أمه ، « ماذا يمكن أن يعنى هذا ؟ أحمل لفة فيلم إلى محل التصوير وأعود بصدمة العمر . كنت أريد فقط أن أعد آلة التصوير لمناسبة عيد الميلاد . كنت أتوقع ربما بعض المناظر من الصيف الماضى ، أو كعكة عيد ميلاد جينى ... وإذا بى هنا أجد عزرا مثل سفينة مهجورة ! سكير مبتذل ! هل يعقل أن ينحدر إلى هذا السفل ؟ أجبنى ! »

قال لها كودي ، « إنه ليس مثاليا كما تظنينه » .

ــــ « لكنه لم يعطنى مطلقا سببا للقلق عليه » .

ــــ « لقد فعل الكثير مما يمكن أن يدهشك » .

جلست بيرل على سريره . كانت تهز رأسها ، وتبدو مذهولة . قالت ، « أوه ، كودى ، إنها معركة شرسة ، تربية الأطفال . أعلم أنك لابد تفكر أننى صعبة . أفقد أعصابى ، وأتصرف كامرأة سليطة اللسان أحيانا ، لكنك إذا استطعت فقط أن تدرك كم أشعر بـ ... العجز ! كم هو مخيف أن أشعر أن كل من أحبهم يعتمدون علىَّ ! أخشى أننى سأرتكب خطأ ما » .

بسطت يدها إلى أعلى – ظن أنها تريد الصور ، ومد يده إليها بها ؛ لكن لا ، كان ما تريده هو يده . تناولتها وجذبته إلى جوارها . كان ملمس جلدها حارا وجافا . وقالت ، « ربما كنت قاسية للغاية عليك ، لكننى أتوقع منك العون الآن ، يا كودى . أنت الشخص الوحيد الذى يمكننى أن ألجأ إليه ؛ ربما كنا أنت وأنا متماثلين أكثر مما تظن . كودى ، ماذا أفعل ؟ »

مالت والتصقت به أكثر ، وتراجع كودى إلى الخلف – حتى عيناها بدتا كما لو كانتا تشعان حرارة . قال ، « آه ، حسنا ... »

– « من الذى التقط هذه الصورة ، على أية حال ؟ هل كان أنت ؟ »

قال ، « انظرى . كانت مجرد مزحة » .

ــــ « مزحة ؟ » .

ــــ « عزرا لم يشرب تلك الأشياء . أنا فقط وضعت بعض الزجاجات حوله » .

راحت نظرتها المحدقة جيئة وذهابا تطوف عبر وجهه بسرعة .

قال لها كودى ، « إنه لم يمس قطرة مطلقا » .

قالت ، « فهمت » ، أطلقت يده . قالت ، « حسنا ، كل ما أستطيع قوله هو أن تلك مزحة بالغة ، أيها الفتى » ، ثم نهضت وخطت بضع خطوات بعيدا عنه . قالت ، « إنك تملك روح دعابة ثقيلة » .

هز كودى كتفيه .

ــ « أظن أن الأمر يبدو مسليا للغاية ، أن تخيف أمك حتى تكاد تفقد صوابها . أن تدعها تهذى مثل بلهاء . أن تشهِّر بأخيك الأصغر . لابد أن يبدو هذا مرحا صاخبا ، لشخص مثلك » .

قال كودى ، « أظن أننى حقير بطبعى » .

قالت له ، « إنك حقير منذ يوم مولدك » .

وبعد أن غادرت ، راح يعمل على إعادة لصق خطاب أبيه .

فى لعبة بنك السعادة ، هبط عزرا على ميدان بارك ، وقال كودى ، « آها ! ميدان بارك ومعه فندق واحد . ألف وخمسمائة دولار » .

قالت جينى ، « ياالعزرا المسكين ، المسكين » .

سأل عزرا كودى ، « كيف تفعل ذلك ؟ »

ــ « أفعل ماذا ؟ » .

ــ « كيف تحصل على فندق فى ميدان بارك ؟ منذ دقيقة مضت كان مرهونا » .

قال كودى ، « قترت على نفسى واقتصدت » .

ـــ « هناك شيء غريب يجرى هنا » .

نادت جينى ، « أمى ، كودى يغش ثانية » .

كانت أمهم تقوم بتعليق لمبات زينة شجرة عيد الميلاد . التفتت وقالت ، « كودى » .

سألها كودى ، « ماذا فعلت ؟ »

ـــ « ماذا فعل يا أطفال ؟ »

قالت جينى ، « إنه صاحب البنك . أرغمنا على أن ندعه يحتفظ بالبنك وحجج الملكية والبيوت . وقد حصل الآن على فندق فى ميدان بارك ، وكل هذه الأموال الإضافية . ليس هذا إنصافا ؟ »

وضعت بيرل صندوق لمبات الزينة على الأرضية وتقدمت إلى حيث كانوا يجلسون . قالت ، « حسنا ، ياكودى ، أعده . جينى تحتفظ بالحجج من الآن فصاعدا ؛ وعزرا يحتفظ بالبنك . هل ذلك واضح ؟ »

مدت جينى يدها لتتناول الحجج . شرع عزرا يجمع الأموال .

قالت بيرل ، « وأقول لك هذا ، إذا سمعت كلمة واحدة أخرى ، يا كودى تل ، فأنت خارج اللعبة . إلى الأبد ! مفهوم ؟ » ، انحنت لتساعد عزرا . « دائما تغش ، وتعذب ، وتسبب المشاكل ... » وضعت الخمسات بجانب القطع ذات الدولار ، والعشرات إلى جانب الخمسات . « كودى ، هل تسمع ما أقول ؟ »

سمع ، لكنه لم يكترث بأن يجيب . عاد إلى الجلوس وابتسم ، آمنا متباعدا ، يراقبها وهى تكوم الأموال .

[٣]

دمـــرها الحـــب

- ١ -

كان من المفترض أن جينى ستكون جميلة ذات يوم ، لكن الناس الذين تنبأوا لها بهذا كانوا طاعنين فى السن إلى درجة أنه من الجائز جدا أن يكونوا قد توفوا حين جاء ذلك اليوم ، ولم ير أحد ممن فى سنها سندا كبيرا لهذا الرأى فيها . ففى السابعة عشرة كانت نحيلة ، صارمة ، يبدو عليها الولع بالدراسة . كانت عظامها ناتئة إلى حد أنه بدا من المحتمل أن تخرق جلدها . وكان شعرها خشنا داكن اللون حتى أنها تقصه دائما بشكل غير منتظم ، وهو ما كان يثير اعتراض أمها - فهى فى أحد الأسابيع تقطعه حتى يأخذ شكلا مربعا فظا ؛ وفى الأسبوع التالى تقصه ليتهدل فوق جبينها إلاّ أنه كان يميل منها دون أن تقصد تجاه اليسار ؛ ثم تقصر القصات فوق جبينها بشكل مبالغ فيه ، لتصلح الخطأ ، فإذا بها تفسد شكلها وتشوه منظرها . وفى حين كانت رفيقات دراستها يرتدين فى ١٩٥٢ تنورات منتفخة وبلوزات مبهجة يرفعن ياقاتها من الخلف ، كانت جينى ترتدى ملابس مستعملة من عند أمها : أثواب مترهلة ، هزيلة مطابقة لأزياء الأربعينيات ، ذات أكتاف كبيرة للغاية وتنورات ضيقة . ولما كانت أمها تزدرى الأحذية الخفيفة الهزيلة الصنع ، كانت جينى تضع فى قدميها نفس نوع الأحذية الواطئة البنية

المتينة التى كان أخواها يرتديانها . وفى كل صباح كانت تمشى متثاقلة إلى المدرسة تبدو عليها أمارات الغضب والضيق . فلا عجب إن لم يكن أحد يهتم بأن يخاطبها إلا فى أحوال نادرة .

كانت على وشك أن تصبح ، لأول مرة ، بمفردها مع أمها فى البيت ، فقد ذهب أخوها كودى إلى الكلية . رفض أخوها عزرا أن يذهب إلى الكلية ، واتخذ بدلا منها ما تأمل أمها أن يكون وظيفة مؤقتة فى مطعم سكارلاتى ، يقطع الخضراوات اللازمة لعمل السلطة ، ولكن وهو على وشك أن يرقى إلى عمل الصلصات ، وصل إشعار بأنه قد جند . لم يستطع أحد من عائلته أن يتصور هذا : عزرا الهادىء يشق طريقه إلى كوريا ، يتعثر فى سونكى بندقيته كلما تحرك . من المؤكد أنهم سيجدون به عيبا ما ، ضعفا فى العمود الفقرى أو البصر ينقذه من هذا المأزق . ولكن لا ، وجد أنه فى صحة تامة ، وفى فبراير صدر له الأمر بالذهاب إلى معسكر تدريب فى الجنوب . جلست جينى على سريره وهو يحزم أمتعته . أثر فيها أنه كان يأخذ معه فلوته الصغير المصنوع من خشب شجر الكمثرى ، ذلك الفلوت الذى اشتراه من أجر أسبوعه الأول فى العمل . لم يبد لها أنه كانت لديه فكرة واضحة جدا عن التجربة التى كان مقبلا عليها . كان يتحرك بطريقته الحذرة المتأنية ، يفرز ما يود أن يرسله إلى البدروم لتخزينه . فلما كانت أمه لديها خطط لتأجير غرفته ، لم يكن يستطيع ببساطة أن يترك الأشياء على ما كانت عليه . كان سرير أخيه قد أعيد تجهيزه من جديد سلفا من أجل نزيل ، والبطانيات مشدودة ، مثل جلود الطبول ، على الحشية الضيقة ، وقد حزمت معدات كودى الرياضية فى صناديق من الكرتون .

راحت تراقب عزرا وهو يفرغ درج قمصان داخلية ، معظمها ملىء بالثقوب . (فبطريقة ما كان يستطيع دائما أن يبدو أشبه بيتيم) .

وقد أصبح رجلا عريض المنكبين ، لكن وجهه كان لا يزال طفوليا مستديرا ، بعينين واسعتين ، ووجنتين زغبيتين ، وشفتى تلميذ رقيقتين . بدا شعره كما لو كان مكونا من رقائق من الحرير بظلال متنوعة من الأصفر والبيج . كانت الفتيات يلاحقنه دائما ، فيما تعرفه جينى ، لكنه كان أكثر خجلا من أن يستغل هذا – أو ربما حتى لم يفطن إليه . كان يمضى فى الحياة شارد الذهن ، سارحا متأملا ، كما لو كان يفكر فى حل مسألة رياضية معقدة سرعان ما يستفيق منها ، كما يعتقد المرء ، حالما يجد الحل . لكنه لم يكن يفعل ذلك أبدا .

قال لجينى ، « هل لك أن تتوقفى عند مطعم سكارلاتى من آن لآخر . بعد أن أرحل ؟ »

— « أتوقف وأفعل ماذا ؟ »

— « حسنا ، تتكلمين مع مسز سكارلاتى . أعنى مجرد أن تتأكدى أنها على ما يرام » .

كانت مسز سكارلاتى قد ظلت بلا زوج لسنين طويلة ، إن كان لها زوج على الإطلاق ، وقد قتل ابنها الوحيد مؤخرا فى إحدى المعارك . كانت جينى تعلم أنها لابد أن تكون وحيدة . لكنها كانت امرأة منعزلة لافتة للنظر ، ترتدى أحدث الأزياء إلى حد أن اعتبر هذا ، فيما يبدو ، إساءة إلى القسم الذى تقطن به من مدينة بلتيمور . لم تكن جينى تستطيع أن تتخيل نفسها وهى تتبادل الحديث معها . ورغم ذلك ، فأى شىء يهون من أجل عزرا . أومأت برأسها .

قال عزرا ، « وجوسيا أيضا » .

– « جوسيا ! »

كان جوسيا أكثر صعوبة – مفزع تماما فى حقيقة الأمر : صديق عزرا المدعو جوسيا بيسون ، يقترب من سبع أقدام طولا ، سريع الاهتياج ، متنافرا فى كلامه وتفكيره . كان من المفهوم عموما أن بعقله خللا . كان الأطفال الآخرون يشاكسونه في مرحلة المدرسة فى الماضى ، وكانوا يشاكسون عزرا أيضا ويسألون جينى لماذا يقضى عزرا وقته مع أشخاص أغبياء . قالوا لها ، « كل واحد يعرف أن جوسيا لابد أن يطرد يوما ما . من الأفضل أن يذهب إلى مصحة عقلية ؛ هكذا يقول الجميع » .

قالت ، « عزرا ، أنا لا أستطيع مخاطبة جوسيا . فلن أفهمه » .

قال عزرا ، « بالطبع ستفهمينه . فهو يتكلم الانجليزية ، أليس كذلك ؟ »

ــــ « إنه يثرثر ويهذى بكلام غير مفهوم ويتلعثم ! »

ــــ « لابد أنك رأيته فقط وهم يضايقونه . وهو على ما يرام فى باقى الوقت . أوه ، لو أن أمى تسمح لى أن أصطحبه إلى البيت مرة لعرفت ذلك . هو على ما يرام ! إنه ذكى مثلك ومثلى ، وربما أذكى » .

قالت جينى له ، « حسنا ، إذا كنت تقول هذا » .

لكنها لم تكن مقتنعة .

وبعد أن رحل عزرا ، خطر لها أنه قد ذكر الأغراب فقط . لم يقل أى شىء عن العناية بأمهم . ربما افترض أن بيرل يمكنها أن تدبر أمرها بنفسها . وصحيح أنها كانت تستطيع أن تدبر أمرها بشكل طيب ، لكن رحيل عزرا بدا كما لو كان قد سلبها شيئا . فقد أرجأت تأجير غرفته . قالت لجينى ، « أعلم أننا بحاجة إلى المال ، لكننى لا أستطيع حقا أن

اتصدى لهذا الأمر الآن ، فمازالت تحمل رائحته . ربما لو قمت بتهويتها فترة ... مازالت تحمل فى طواياها شكله ، هل تعرفين ما أعنيه ؟ إننى أنظر فيها فيبدو الهواء مليئا بشىء دافىء . أظن أننا لابد أن ننتظر قليلا » .

وهكذا عاشتا فى البيت وحدهما . بل إن جينى شعرت أنها أكثر ضآلة من المعتاد ، حينما حاصرها هذا الفراغ الهائل . وحين كانت تعود إلى البيت من المدرسة فى أوقات العصر ، كانت أمها لا تزال فى عملها ، فتفتح جينى الباب وتخطو إلى الداخل مستريبة . أحيانا كان يبدو لها حالما تعبر العتبة أن هناك شيئا مروعا يتحرك ، أو توقف عن الحركة ، فى مكان ما فى عمق البيت . عندئذ تتوقف ، وقلبها يدق بعنف ، يقظة مثل غزالة ، لكن لم يتضح أبدا أنه شىء حقيقى . كانت تغلق الباب خلفها وتصعد إلى غرفتها ، وتضىء المصباح الذى تدرس عليه ، وتغير ثياب المدرسة . كانت فتاة منظمة ذات ضمير حى تعلق الأشياء باستمرار وتعنى بحاجاتها ، ترتب كتبها على مكتبها بدقة ، وتصف أقلامها ، وتضبط المصباح بحيث يضىء بالزاوية الصحيحة ، ثم تشق طريقها بشكل منظم خلال واجباتها المدرسية . كان أعظم أحلامها أن تصبح طبيبة ، وهو ما يعنى أنه كان عليها أن تفوز بمنحة دراسية . وفى سنوات الدراسة الثانوية الثلاث ، لم تحصل مطلقا على تقدير أقل من « ممتاز » .

كانت تهبط إلى الطابق السفلى فى الخامسة لتنظف البطاطس ، أو لتشرع فى إعداد الدجاج للتحمير - أيا كانت التعليمات المدونة فى مذكرة أمها على طاولة المطبخ . وسرعان ما كانت أمها تصل . « حسنا ، لقد أخبرتك أن تلك المرأة العجوز بندل متعبة ومزعجة ، مزعجة للغاية ، فهى تدعنى أطلب كل أصناف البقالة بالتليفون ثم تقول ،

« انتظرى الآن ، دعينى أرى ، لماذا ، ليس لدى ما يكفى من النقود لمثل هذه الفاتورة » . وتروح تفتش فى حافظة نقودها القماشية الزرية فى حين يروح كل من يقف وراءها يبدل قدما بعد قدم ... » . كانت تربط مئزرها فوق ثوبها وتأخذ مكان جينى عند الموقد . « حبيبتى ، ناولينى الملح من فضلك . أرى أنه ليس هناك بريد من الولدين . لقد نسيانا تماما فيما يبدو . لم يعد إلا أنت وأنا الآن » .

كانت هناك اثنتاهما فقط ، نعم ، لكن هناك أيضا أصداء من الآخرين حولهما – كودى الشرير الغريب ، وعزرا المسالم ، ينصبان صمتا مشحونا وجينى وأمها يجلسان إلى المنضدة . « صبى الحليب ، يا حبيبتى ، من فضلك . خذى لنفسك بعض الفاصوليا » . وأحيانا كانت جينى تتخيل أنه حتى أبيها يجعل غيابه محسوسا ، رغم أنها لا تستطيع أن تتصور وجهه وذكرياتها عن الفترة التى قضاها معهم قبل رحيله كانت محدودة . لم تذكر هذا مطلقا لأمها بطبيعة الحال . كان حديثهما ثرثرة ، عن أشياء صغيرة عابرة ، وهما تعبران خفافا فى أمان فوق ما يمكن أن يكمن تحتها . « كيف حال تلك الفتاة المسكينة من آل كارول ؟ هل فقدت أى وزن لاحظته عليها ؟ »

كانت جينى تعرف ، فى الواقع ، أن أمها خطرة – ذات مزاج حاد وعارمة الغضب ولا يمكن التنبؤ بما يصدر عنها . كان نسيج رموشها الجاف القشى ليبدو وكأنها قد تعرضت لحريق هائل ، وكان يمكن لشعرها أن يرسل طقطقة كهربائية من كعكته ، ولعينيها أن تضيقا حتى تصبحا فى حجم دبابيس القبعات . مَنْ مِنْ أبنائها لم يشعر بصفعتها اللاسعة ، باللؤلؤة التى يضمها خاتم خطوبتها فى حافظتها المخلبية الشكل والتى يمكنها أن تسيل الدماء من الشفاه بصفعة واحدة ؟ وقد رأتها جينى تقذف كودى أسفل مجموعة من الدرجات . ورأت عزرا يحنى

رأسه ومرفقاه مرفوعا ليتفادى هجومها . وهى نفسها دُفعت بعنف إلى الحائط ، أكثر من مرة ، ونعتت بـ « ثعبان » ، « صرصار » ، و « فتاة أزقة صغيرة قبيحة يسيل أنفها » . ولكن ها هى بيرل تجلس ، تتساءل بلياقة عن مشكلة وزن جوليا كارول . كان لدى جينى أمل ضئيل مرتعش أن الزمن قد تغير . ربما كان الخطأ خطأ الولدين . ربما أمكنها هى وأمها - وكلتاهما امرأتان ذكيتان فى النهاية - أن يعيشا بدون مثل تلك الثورات الغاضبة إلى الأبد . لكنها لم تشعر بالأمان كلية ، وفى الليل حين تطبع بيرل قبلة على منتصف جبين جينى ، كانت جينى تأوى إلى فراشها وتحلم بما تحلم به دائما : أمها تطلق ضحكة متحشرجة كما تفعل الساحرات ؛ تجتذب جينى من مخبئها بينما النازيون يصعدون الدرج ؛ وتتهمها بخطايا وجرائم لم تخطر مطلقا على بال جينى . وقد أخبرتها أمها ، بنبرة صوت تقريرية حذرة ، أنها إنما كانت تربى جينى لتأكلها .

* * *

لم يكن كودى يكتب مطلقا تقريبا ، وكان ما يكتبه من خطابات مقتضبا وواقعيا . **لن أحضر إلى البيت فى أجازة الربيع . كل تقديراتى طيبة فيما عدا اللغة الفرنسية . هذا العمل الجديد يدر أكثر من العمل القديم** . أرسل عزرا بطاقة بريدية حالما وصل إلى المعسكر ، وشفع هذا بعد ثلاثة أيام بخطاب يصف فيه البيئة المحيطة به . كان أطول من عدة خطابات من كودى مجتمعة . لكنه لم يخبر جينى بما كانت تريد أن تعرفه . **هناك شخص على بعد بنايتين من مريلاند أيضا فيما سمعت لكننى لم تواتنى فرصة الحديث معه ، ولا أظن أنه من بلتيمور على أية حال ولكن من مكان آخر لا أعرف عنه شيئا ، ولذا أشك فى أن هناك الكثير الذى** ... ما الذى يقوله بالضبط ؟ هل أقام علاقات صداقة ، أم أنه لم يفعل ؟ فإذا كان الناس يعيشون متلاصقين

بهذه الدرجة ، فالمفترض أنهم يتخاطبون . تصورت جينى أن الآخرين يتجاهلونه ، أو ما هو أسوأ : يعذبونه ويسخرون من عدم كفاءته . لم يكن ببساطة جنديا . لكنه كتب يقول : **لقد تعلمت الكثير جدا عن بندقيتى . سوف يدهش كودى** : حاولت أن تتخيل أصابعه الطويلة الحساسة تقوم بتنظيف وتشحيم بندقية . فهمت أنه لابد أن يكون على قيد الحياة ، بشكل أو بآخر ، لكنها لم تستطع أن تتخيل كيف يعيش . فكرت فيه وهو راقد منبطحا ، وسط غبار ميدان التدريب على إطلاق النار ، وهو يضغط الزناد . كانت نظرته المحدقة نظرة تأملية ، كيف يتأتى له أن يصيب الهدف ؟ **يقولون إن مجموعتنا كلها سوف تنضم إلى الصراع فى كوريا حالما** ... يالله ، سوف يسددون النار إليه فيردونه قتيلا كأنه ذبابة ! ولن يفعل أكثر من أن يراوغ ويحمى رأسه ليدافع عن نفسه .

كتب يقول : **أفكر كثيرا فى مطعم سكارلاتى وكم كانت رائحة الخس طيبة وأنا أقوم بتقطيعه فى الوعاء** - كان ذلك كل ما صرح به تعبيرا عن حنينه للوطن والأهل ، إذا جاز لنا أن نعتبره كذلك . نشقت بيرل نشقة غيورة وقالت ، « كما لو كان الخس له رائحة ! » شعرت جينى بالغيرة أيضا ؛ كان باستطاعته أن يتذكر ، بدلا من ذلك ، كيف كان هو وهى معتادين أن يستلقيا على الأرضية أمام جهاز الراديو الفيلكو فى ليالى يوم الاثنين ، يصغيان إلى فرقة « سيتيز سيرفيس باند أوف أمريكا » . ما الذى كان يراه فى ذلك المطعم ، على أية حال ؟ ثم شرع إحساس بالانزعاج يلكزها داخل صدرها . هناك شىء لم تفعله ، شىء كريه لا تريد أن تفعله ... أن تمر على مسز سكارلاتى . تساءلت إن كان عزرا يعنى حقيقة أن تفى بوعدها . لم يكن باستطاعته فعلا أن يتوقع منها أن تقوم بذلك ، أليس كذلك ؟ لكنها افترضت أن ذلك ممكن بالنسبة

له . كان ذلك النوع من الأشخاص الذين يفكرون تفكيرا حرفيا .

وهكذا طوت خطاب عزرا ووضعته فى جيبها . ثم ارتدت معطفها وسارت إلى شارع القديس بول ، إلى بناية ضيقة من القرميد تقوم فى منطقة تعج بالمحلات والأعمال التجارية .

كان مطعم سكارلاتى المطعم الرسمى الأنيق الوحيد فى الناحية . كان يقدم وجبة العشاء فقط ، فى الأغلب لزبائن قادمين من أحياء أفضل بالمدينة . وفى هذه الساعة – الخامسة والنصف أو نحو ذلك – لن يكون حتى مفتوحا . ذهبت إلى خلف المطعم ، حيث جاءت مرتين من قبل مع عزرا . دارت حول صفيحتى قمامة تفيضان بخضراوات ذابلة ، وصعدت الدرج وطرقت الباب . ثم ضمت يدا على زجاج النافذة وحدقت بالداخل .

كان هناك رجال يرتدون مآزر قذرة يهرولون فى أرجاء المطبخ ، الذى كان معبأ بالبخار ، والأوانى من الصلب الذى لا يصدأ ، وغطاءات القدور تقعقع ، والأوعية فى حجم أحواض الاستحمام قد تكومت فيها خضراوات مقطعة إلى شرائح . لا عجب أنهم لم يسمعوها . أدارت المقبض ، لكن الباب كان مغلقا . وقبل أن تطرقه بشدة أكبر لمحت مسز سكارلاتى . كانت تقف بتراخ فى الممر المفضى لقاعة الطعام ، وهى تمسك بسيجارة مشتعلة – امرأة بيضاء الوجه ترتدى ثوبا بليسيه غارق فى السواد . وأيا كان ما تقوله ، لم تستطع جينى أن تسمعه ، وإن التقطت رنة صوتها الخشنة اللامبالية . ورأت كيف كان شعر مسز سكارلاتى الأسود قد أزيح بكامله إلى اليمين ، وكأنها عارضة أزياء مغالية فى واحدة من مجلات « فوج » ، وكيف كانت تميل برأسها إلى اليمين أيضا حتى بدت وكأنها مثقلة بالأوجاع ، قد أسيئت معاملتها بقسوة ، متحاملة على نفسها تحت ثقل منهك له علاقة بالرجال والحياة .

تخيل عزرا يعرف مثل هذه المرأة ! تخيله على راحته معها ، قريبا منها إلى درجة القلق عليها . تراجعت جينى . أدركت فى الحال أن أخويها قد كبرا ورحلا . كانت صورتهما المنطبعة فى عقلها عتيقة - عزرا يعزف على صفارته البوص التى كانت له فى المدرسة ، وكودى مهللا يطقطق بنرده فوق رقعة لعبة « بنك السعادة » القديمة . فكرت فى قميص صوفى ناعم بال كان عزرا يلبسه فى أغلب الأحيان ، كأنه جلد ثانى . فكرت فى كيف كان يتأرجح إلى الخلف والأمام واضعا يديه فى جيوبه الخلفية حين لا يجد ما يقوله ، أو يحفر حفرة فى الأرض بحذائه الخفيف . وكيف كان ينسل إلى المطبخ فى الطابق السفلى ، وجينى محطمة الأعصاب من جراء ثورة غضب من ثورات أمها ، ليعد لها قدحا من اللبن الساخن مضافا إليه عسل النحل ، وقد نثر فوقه القرفة . كان دائما سريعا فى فهم حالات عائلته المزاجية ، وفى تقديم الطعام والشراب والعون الملموس .

سارت إلى آخر الزقاق ، وعرجت على شارع بوشنل ثم بتنام ، بدلا من التوجه إلى البيت . كانت برودة الجو تشتد ، واضطرت إلى أن تزرر معطفها . بعد ثلاث بنايات فى شارع بتنام كان هناك مبنى كئيب سفعته عوامل الطقس ، حتى لتظن أنه مخزن مهجور حتى ترى اللافتة : « ورشة توم وإيدى لسمكرة السيارات » . كانت قد جاءت كثيرا إلى هنا لتصحب عزرا إلى البيت ، لكنها كانت تنادى اسمه فى مدخل الممر ؛ لم تدخل أبدا . والآن خطت داخلة فى الظلمة وتطلعت فيما حولها . كان توم وإيدى (كما افترضت) يتحدثان إلى رجل يرتدى زى العمل ، وأحدهما يحمل لوح كتابة بمشبك فى أعلاه لتثبيت الأوراق . كان جوسيا بيسون فى الخلفية يؤرجح مطرقة مطاطية هائلة الحجم ويهوى بها على حاجز اصطدام شاحنة خفيفة . راودتها إحدى

الذكريات : جوسيا فى فناء المدرسة ، من زمن بعيد ، يطوح بعنف بماسورة أو بقضيب من المعدن ، يقطع فى الهواء دائرة يائسة تئز ويصيح بشىء غير مفهوم فى حين وقف عزرا حاجزا بينه وبين ثلة أطفال . كان عزرا يقول للآخرين ، « سيكون كل شىء على ما يرام ؛ فقط اذهبوا » . لكن ماذا حدث بعد ذلك ؟ كيف انتهى الأمر ؟ كيف بدأ ؟ أحست باضطراب كامل فى ذاكرتها ولم تصل لإجابة شافية .

وفى تلك الأثناء راح جوسيا يؤرجح مطرقته . كان طويل القامة على نحو مضحك ؛ نحيلا مثل درع لتمثال لم يكتمل . كان شعره الأسود المقصوص قصا قصيرا ينتصب فوق رأسه كله ، ووجهه الناتىء العظام يلمع ، وقد أطبق أسنانا مثلمة بيضاء ومتزاحمة ، متراكبة ومتداخلة بغير نظام حتى بدا كما لو كان قد أتم مضغها ويستعد لبصقها .

نادت بوجل ، « جوسيا »

توقف لينظر إليها . أو هل كان ينظر إلى مكان آخر ؟ كانت عيناه فاحمتى السواد بلا جفون وشرقية الملامح تقريبا . كان من المستحيل معرفة المكان المسلطة عليه . رمى بالمطرقة على كومة جوالات من الخيش واندفع فى اتجاهها ، ووجهه يضىء بالسعادة . قال ، « أخت عزرا ! عزرا ! »

ابتسمت وطوقت مرفقيها .

توقف أمامها مباشرة ومسد شعره المنتصب . بدت ذراعاه أطول مما ينبغى أن تكونا عليه . سألها ، « هل عزرا على ما يرام ؟ »

— « هو بخير » .

— « لم يجرح أو —— » .

— « لا » .

كان عزرا محقا : فجوسيا يتكلم بوضوح مثل أى واحد ، بصوت له دوى صوت رجل ناضج . لكنه كان يجاهد ليجد شيئا يفعله بيديه ، وانتهى بأن حكهما الواحدة بالأخرى كما لو كان يحاول أن يخلص كفيه من قذارة أو دهن ، أو حتى من طبقة من الجلد . كانت واعية بتوم وإيدى وهما ينظران إليها بفضول ، ويضيعان مسار حديثهما . قالت له ، « تعال إلى الخارج ، سوف أدعك ترى خطابه » .

فى الخارج كان الشفق ، يكاد يكون أكثر ظلمة من أن يسمح بالقراءة ، لكن جوسيا تناول الخطاب على أية حال وتفحص السطور . كان هناك تجعّد بين حاجبيه عميق كما لو أن أحدا قد ضغط هناك بحد فأس . لاحظت أن زى العمل الذى يرتديه ، قد غسل بعناية تثير الإشفاق ، قصير جدا بالنسبة له حتى أن جوربه الأبيض الساقط وعظام قصبة ساقيه المكسوة بالشعر برزت منه . وكان بإمكان شفتيه أن تنطبقا بصعوبة على تلك الفوضى من الأسنان ؛ ولفمه مظهر عنقودى وذقنه قد طال من المجهود .

أعاد إليها الخطاب . لم تجد سبيلا إلى معرفة ما فهمه منه . قال ، « لو أنهم سمحوا لى لذهبت معه . أوه ، لم أكن لأمانع فى الذهاب . لكنهم زعموا أننى أطول من اللازم » .

ـــ « أطول من اللازم ؟ »

لم تسمع مطلقا بمثل هذا الشىء .

قال ، « لذلك كان علىّ أن أبقى ، لكننى لم أكن أريد . لا أريد أن أعمل فى ورشة لسمكرة السيارات طيلة عمرى . فأنا أخطط لأعمل شيئا مختلفا » .

ـــ « مثل ماذا ؟ »

ـــ « أوه ، لا أدرى . أن أجد شيئا مع عزرا ، فيما أظن ، حالما يترك الجيش . عزرا ، كان ليأتى دائما لزيارتى هنا ، ويتطلع فيما حوله ويقول ، « كيف تتحمل هذا ؟ كل هذه الضجة » وسيقول ، « علينا أن نجد لك شيئا مختلفا » . لكننى لم أعرف أين أبدأ البحث ، وقد رحل عزرا الآن . ليست الضجة هى الأمر السيىء إلى هذا الحد ، لكن الجو حار فى الصيف وبارد فى الشتاء . وقدماى تتوعكان من البرد ، وتحدث لى تلك الأشياء التى توجب الحك فى أصابع القدمين كلها » .

اقترحت جينى ، « تقرح فى القدمين ، ربما » . شعرت بملل لطيف ؛ بدا لها أنها قد عرفت جوسيا دائما . مرت بظفر إبهامها على طول ثنية خطاب عزرا . حدق جوسيا إما فيها أو خلالها مباشرة (من العسير أن تعرف أيهما) وطقطق مفاصل أصابعه .

قال ، « من الممكن أن يكون ما سوف أفعله هو أن أعمل لحساب عزرا ، ما أن يفتتح عزرا مطعمه » .

ـــ « عم تتكلم ؟ عزرا لن يفتتح مطعما » .

ـــ « من المؤكد أنه سيفعل » .

ـــ « ولماذا يفعل ذلك ؟ فما أن يملك زمام أمره سوف يذهب إلى الكلية ليدرس ويصبح مدرسا » .

سألها جوسيا ، « من الذى يقول هذا ؟ »

قالت له جينى ، « حسنا ، أمى تقول هذا . وهو يمكنه تحمل ذلك ، كما تقول . وربما أصبح أستاذا بالجامعة حتى » . لكنها لم تكن متأكدة الآن . « أعنى أن المطاعم ليست عملا يدوم مدى الحياة » .

ـــ « ولم لا ؟»

لم تستطع أن تجيب .

قال جوسيا ، « عزرا سوف يحصل على مكان يؤمه الناس كما لو كانوا ذاهبين إلى غداء عائلى . وسوف يطبخ لهم شيئا مخصوصا كل يوم ويغرفه فى أطباقهم ، وسوف يكون كل شيء متماسكا وصحيا ، مثل البيت حقا » .

ـــ « هل قال لك عزرا ذلك ؟ »

ـــ « حقا مثل البيت تماما » .

ـــ « حسنا ، أنا لا أدرى ، لعل الناس يذهبون إلى المطاعم فرارا من البيت » .

ـــ قال جوسيا ، « سوف يكون مطعما شهيرا » .

قالت له جينى ، « إن فكرتك خاطئة تماما . من أين أتيت بتلك الفكرة المجنونة ؟ »

عندئذ عاد جوسيا إلى ذاته القديمة ، بدون إنذار - أو إلى صورتها القديمة عنه . مال برأسه ، مثل دمية متحركة من دمى الماريونيت انقطعت خيوطها . قال لها ، « ينبغى أن أذهب » .

ـــ « جوسيا ؟ »

ـــ « لا أريد هؤلاء الناس الذين يصرخون فى وجهى » .

وابتعد متبخترا دون أن يقول وداعا . راحت جينى تراقبه مفعمة بالأسى كما لو كان هو عزرا نفسه . لم ينظر وراءه .

• كتب كودى يقول إن عدة شركات تعقد اختبارات شخصية له . كان يريد وظيفة فى عمل تجارى بعد أن ينهى دراسته . وكتب عزرا يقول

إنه يستطيع الآن أن يمشى عشرين ميلا مرة واحدة بدون تعب يذكر بدأت حقيقة أن عزرا يجب أن يكون جنديا تبدو أقل تنافرا ، بل طبيعية تماما . ففى نهاية الأمر ، ألم يكن طرازا يتحمل المشاق ، لا يشكو ، ويبتهج بأداء واجباته ؟ كانت جينى قلقة بدون داع وأمها أيضا بدت مسترخية لحد ما . قالت ، « حقا إن فى ذلك كل الخير ، حين تفكرين فى الأمر . فالقيد فى الخدمة العسكرية غالبا ما يكون هو عين الصواب ؛ إذ يعطى الصبى فرصة لكى يمسك بمقادير نفسه . وأراهن أنه حين يعود ، سوف يريد أن يذهب إلى الكلية . أراهن أنه سوف يريد أن يقوم بالتدريس فى مكان ما » .

لم تخبرها جينى بأمر المطعم .

بعد زيارتها الأولى لجوسيا ، قامت بزيارته زيارتين قصيرتين . كانت تتوقف عند ورشة سمكرة السيارات بعد المدرسة ، فيأتى جوسيا إلى الخارج للحظة لكى يؤرجح ذراعيه ويحدق فيما وراءها ويتحدث عن عزرا . « وصلتنى أنا رسالة منه ، هناك بالبيت . يشتكى أنه يسير كثيرا » .

قالت جينى ، « عشرين ميلا » .

ـــ « بعضها صعودا على مرتفعات » .

ـــ « لابد أنه فى حالة بدنية طيبة » .

ـــ « كان دائما يحب المشى » .

وفى المرة الثالثة التى جاءت فيها ، كان الظلام قد حل تقريبا . كانت قد تأخرت بالمدرسة لتؤدى دورها فى الجوقة . وكان جوسيا يتأهب لمغادرة عمله . كان يرتدى سترته ، المصنوعة من قماش خشن به مربعات كبيرة فاتحة الظلال من الكحلى والأحمر الداكن . مرت

بخاطرها السترات التى يرتديها الصبية الصغار فى الفرق الأدنى فى المدرسة . قال جوسيا وهو يدس قبضتيه فى جيوبه ، « ذلك المدعو توم ، وذلك المدعو إيدى » . مشى بخطى واسعة سريعة على الرصيف . وجدت جينى مشقة فى ملاحقته . قال ، « هما لا يهمهما كيف يخاطبان شخصا . لا يفكران فيما قد يشعر به ؛ مشاعر مثل مشاعر أى واحد آخر تماما ... » تباطأت فى سيرها ، وقد قررت أنه قد يفضل أن يكون وحده ، لكنه توقف عند نقطة ما من البناية والتفت وانتظر . سألها حين حاذته ، « ألست إنسانا ؟ ألا أشعر شعورا سيئا حين يصيح فى وجهى أحد ؟ أود لو كنت بالخارج فى الغابات فى مكان ما ، ولا يزعجنى أى من هؤلاء الناس . أقيم معسكرا فى مكان هادىء للغاية بخيمة صغيرة من عند « ل . ل . بين » وكيس نوم من عند « ل . ل . بين » . » استدار واندفع إلى الأمام . كان على جينى أن تلاحقه جريا . قال ، « إننى أميل شيئا ما إلى أن أرسل لهم إشعارا بالاستقالة » .

— « لماذا لا تفعل ، إذن ؟ »

— « أمى بحاجة إلى المال » .

— « يمكنك أن تجد شيئا آخر » .

— أوه ، لا ، ليس هذا سهلا » .

— « لم لا ؟ »

لم يجبها . انطلقا بسرعة متجاوزين متجرا لبيع المجوهرات الرخيصة ، مخبزا ، صفا من الشقق الخاصة نوافذها ذات لون أصفر ذاب . ثم قال ، « تعالى وتناولى العشاء فى بيتنا » .

— « ماذا ؟ لا أستطيع » .

قال ، « كان عزرا يجىء ، قبل أن يعمل فى المطعم ولا يستطيع

أن يغادره . كانت أمى تسر دائما حين تضع طبقا إضافيا ، دائما ، فى أى وقت . لكن أمك لم تكن فى الغالب تسمح له بزيارتى ؛ فهى لا تحبنى » .

ـــ « أوه ، حسنا ... »

ـــ « أود لو أنك فقط تناولت طعام العشاء معنا » .

سكتت . ثم قالت ، « سوف يسعدنى هذا » .

لم تبد عليه علامات الدهشة . (كانت جينى نفسها مندهشة) . قبع وواصل اندفاعه . كانت قشات شعره الأسود تنتصب حول رأسه . قادها عبر شارع جانبى ، ثم اخترقا زقاقا لم يكن مألوفا لدى جينى .

كان بيته من واجهته شديد الشبه ببيتها ـ بيت من الآجر يقع ضمن صف بيوت أقيمت فى فناء صغير . لكنهما اقتربا منه من الخلف ، حيث أضفى عليه هيكل رمادى إضافى ملحق به مظهر بيت آيل للسقوط . اتضح أن الهيكل الإضافى ما هو إلا خزانة لحفظ اللحوم الباردة ذات أرضية من المشمع المشقوق . توقف جوسيا هناك ليتحرر من سترته ، ثم مد يده يطلب معطف جينى وعلقهما على خطافات بجوار الباب . صاح ، « ماما ؟ » أدخل جينى إلى المطبخ . « ماما ، لدينا ضيوف على العشاء » .

كانت مسز بيسون تقف عند الموقد ـ امرأة ضئيلة القد ذات وجه مستدير ممتلىء ترتدى ثوبا بلون التراب . ذكّرت جينى بطائر ما متواضع بنى اللون . كان وجهها مستديرا وناعما ولامعا . رفعت رأسها وابتسمت ، ولما كان جوسيا قد أغفل تقديمها قالت جينى ، « أنا جينى تل » .

ـــ « أوه ، هل أنت قريبة لعزرا ؟ »

ـــ « أنا أخته » .

قالت مسز بيسون ، « يا سلام ! إننى مغرمة للغاية بذلك الفتى » . رفعت القدر من على الموقد ووضعته على المنضدة . « لقد بكيت عندما استدعى للخدمة العسكرية ، هل أخبرك جوسيا ؟ جلست فى الحال وبكيت . وكيف لا ، وقد كان أشبه بولد من أولادى ، دائم الدخول والخروج من البيت ... » . وضعت أدوات مائدة لعدد ثلاثة أشخاص ، بينما راح جوسيا يصب اللبن . قالت ، « لن أنسى ، عندما توفى والد جوسيا ، جاء عزرا وجلس معنا ، وأعد لنا وجبات ، وعمل لنا كاكاو . قلت ، « عزرا ، أشعر أننى أنانية ، وأنا آخذك من عائلتك » . لكنه قال ، « لا تقلقى بهذا الخصوص ، يا مسز بيسون » . »

تساءلت جينى عن متى حدث هذا . فلم يذكر عزرا مطلقا وفاة مستر بيسون .

كان العشاء يتألف من الاسباجيتى والسلطة ، مع كعكة بالشيكولاته كحلوى . أكلت جينى دون إسراف ، وهى تنوى أن تأكل ثانية عندما تصل إلى البيت حتى لا تثير شكوك أمها ؛ لكن جوسيا تناول عدة حصص من الطعام من كل شىء . ظلت مسز بيسون تعيد ملء طبقه . قالت ، « لو نظرت إليه ، لما عرفت أنه يأكل كثيرا هكذا ، أليس كذلك ؟ فهو هزيل مثل عمود فى سور . أعتقد أنه مازال فتى فى مرحلة النمو » . ضحكت ، وابتسم جوسيا ابتسامة عريضة بخجل وأطرق بعينيه لأسفل ـ رجل هيكلى ، محنى الظهر ، ضخم الجثة . لم تكن جينى قد فكرت أن جوسيا كان ابنا لامرأة ما ، الكنز الأعظم لامرأة ما . كانت رموش عينيه القصيرة الغليظة مرخية ؛ ورأسه الشوكى مائل فوق طبقه . كان متأكدا من أنه محبوب ، هنا إن لم يكن فى مكان آخر . أشاحت بنظراتها .

وبعد العشاء ساعدت فى غسل الأطباق ، وهى تضع كل طبق نظيف وكوب على رفوف خشبية مكشوفة أصبحت حوافها ناعمة من كثرة طبقات الدهان . سوف تكون أمها مستثارة الآن ، لكن جينى تريثت حتى تم تجفيف كل شوكة ثم صحبها جوسيا إلى البيت . صاحت مسز بيسون من المدخل ، « عودى إلينا لترينا . تأكدى أن معطفك مزرر ! » فكرت جينى فى ... هل تلك حكاية « جاك وساق نبات الفول » ؟ ... أو ربما حدوتة خرافية أخرى ، حيث تعيش الأرملة المتواضعة ، مستقيمة راضية النفس ، فى كوخ مع ابنها . بدا لها كل شىء آخر - ظلمة الشوارع الباردة ، صورة أمها الدائبة الحركة - هشا بالمقارنة ، ينقصه الصورة البالغة حد الكمال والتى تمضى عليها حياة جوسيا بنعومة .

مضيا على طول شارع كالفيرت دون كلام . ينفثان سحبا من البخار . عبرا الطريق إلى بيت جينى وصعدا درجات الشرفة الخارجية . قالت جينى ، « حسنا ، شكرا على دعوتك لى ، يا جوسيا » .

أتى جوسيا بحركة ما مرتبكة مرتجة افترضت أنها محاولة للكلام . تعثر وهو يقترب منها أكثر ، وأحاطها بدائرة من نسيج المربعات الخشن ، وقبّل شفتيها . فى أول الأمر ، صادفت صعوبة فى فهم ما يحدث . ثم شعرت بفزع هائل ، لا من أجل نفسها بقدر ما هو من أجل جوسيا . أوه ، كان ذلك محزنا ، لقد أساء فهم كل شىء ؛ سوف يرتبك للغاية ! ولكن كيف أمكنه أن يرتكب مثل هذا الخطأ ؟ وعندما أمعنت النظر (وهو منضغطة إلى ذقنه النابتة الشعر شاءت أم لم تشأ ، إلى عقدة فمه) ، رأت الأشياء فجأة من وجهة نظره : علاقتهما « الرومانسية » الوليدة الرقيقة (كان ذلك ما يجب أن يطلقه عليها

بالتأكيد) بلا ارتباط بالواقع بمثل ما كانت عليه حكاية مسز بيسون الخرافية . داخلها الحنين إلى ذلك ؛ تمنت لو كان الأمر صحيحا . أوجعها شيء كأنه الحنين ، إلى حياة قانعة مع أمه فى بيتهما المنزوى الدافىء ، إلى زواج برىء يحميها . قبّلته بدورها ، وهى تشعر حتى من خلال كل تلك الطبقات من الصوف كم كان متوترا ومرتعشا .

غشى الضوء المكان وانصفق الباب الأمامى مفتوحا ، وانفجر صوت أمها من فوقهما ، « ماذا ؟ ماذا ؟ ما معنى هذا ؟ »

وثبا متباعدين .

قالت بيرل لجينى ، « يا قطعة من نفاية . يا صعلوكة . يا شيئا تافها . هذا إذن ما كنت تفعلينه ! دون حتى أن تخطرينى أين أنت ، والعشاء لم يبدأ ، وأنا أفقد عقلى قلقا ـ وأجدك هنا ! تتعانقين ! تتعانقين مع ، مع ــــ »

ولافتقارها إلى كلمة مناسبة ، فيما يبدو ، سددت لطمة . صفعت جينى بعنف على وجنتها . فاضت عينا جينى بالدموع . وكما لو كان جوسيا هو من تلقى اللطمة ، أدار وجهه بحدة وحدق فى شىء ما عند نقطة بعيدة . كان فمه يتحرك لكن لم يخرج منه صوت .

قالت بيرل لجينى ، « مع مجنون ! غبى ! شخص متخلف عقليا . فعلت ذلك نكاية فىّ . أليس كذلك ؟ هذه طريقتك لتجعلى منى أضحوكة . فى كل أوقات العصر هذه ، التى كنت أكدح فيها فى متجر البقالة ، كنت أنت بالخارج فى زقاق ما ، أليس كذلك ، مع هذا الحيوان ، هذا الغوريللا ، يستمتع بك ، لمجرد أن تجلبى لى العار » .

قال جوسيا ، « لكن ـ لكن ـ لكن ــــ »

ـــ « لمجرد أن تفضحينى فى حين كانت لدىّ خطط عظيمة لك . كنت تهربين من المدرسة ، دون شك لترقدى معه فى الأجمات ومقاعد السيارات الخلفية وربما هنا فى بيتنا ذاته ، فى حدود علمى ، فى حين أكدح أنا عند الإخوة سوينى ـــ » .

صاح جوسيا ، « لكن ! لكن ! لكن ! » ونطق بكلمات سريعة مختلطة حتى رأت جينى بقعا بيضاء دقيقة تتطاير فى ضوء المصباح . ثم طوح ذراعيه واندفع يهبط الدرج واختفى .

لم تره ثانية ، بالطبع . أصبحت تختار خط سيرها بعناية ولم تقترب منه مطلقا ، أو تقترب من مكان تعلم أن من المحتمل أن يوجد فيه ؛ وافترضت أنه يفعل نفسه الشىء . كان الأمر كأنهما اقتسما المدينة فيما بينهما ، باتفاق ضمنى متبادل .

وإلى جانب هذا ، لم يكن لديها سبب وجيه حتى تراه ؛ فقد توقفت خطابات عزرا . وظهر عزرا بشحمه ولحمه . فى صباح يوم من أيام الأحد ، كان هناك ، يجلس فى المطبخ حين هبطت جينى لتناول طعام الإفطار . كان يرتدى ملابسه المدنية القديمة التى حزمت وخزنت مع كرات العثة ـ سرواله الجينز القطنى الأزرق وكنزة صوفية زرقاء مهلهلة . كانت ملابسه تتهدل حوله كأنها أشياء مستعارة . وكان ما فقده من وزنه يبدو مفزعا . كان شعره قصيرا بشكل غير لائق ، ووجهه أكثر شحوبا وأكبر سنا ، تكسوه ظلال تحت عينيه . جلس متهاويا ، وقد ثبت يديه بين ركبتيه ، فى حين راحت بيرل تحك شريحة من الخبز المحترق فى الحوض . كانت تسأله ، « مربى أم عسل ، أيهما ؟ جينى ، انظرى من هنا ! إنه عزرا ، سليما وبصحة طيبة ! دعنى أصب لك المزيد من القهوة يا عزرا » . لم يتكلم عزرا ، لكنه ابتسم لجينى ابتسامة

متعبة .

كان قد سُرِّح ، كما اتضح . بسبب المشى أثناء النوم . لم يكن يتذكر شيئا عن مشيه أثناء النوم ، لكنه كان يحلم نفس الحلم ، كل ليلة : أنه يسير فى أرض لا تتغير من مسطحات طينية متشققة بلا شجرة أو نصل عشب ، والسماء فوقه وعاء أزرق مصمت . كان يضع قدما أمام الأخرى ويمشى ويمشى ويمشى . وفى الصباح ، كانت عضلاته تؤلمه . كان يظن أن ذلك بسبب سيره فى اليقظة ، حتى قالوا له كلاما مختلفا . قالوا له إنه كان يتجول فى المعسكر طوال الليل ، وقد أوغل فى السير بين صفوف الأكواخ . كان الجنود يتنبهون ويجلسون منتصبين فى أسِرَّتهم ويقولون ، « تل ؟ هل هذا أنت ؟ » فيرحل . لم يكن ليجيب ، أو ليستيقظ ، لكنه ببساطة يذهب إلى مكان آخر . كان صمته مخيفا بالنسبة لبعض الجنود ، الحديثى السن . وكانت هناك بعض الشكاوى . أرسل إلى طبيب أعطاه علبة من الحبوب الصفراء . وظل على مشيه رغم الحبوب ، وإنما ليقع من آن لآخر ويرقد حيث وقع حتى الصباح . ولابد أنه سقط على وجهه فى إحدى المرات ؛ فعندما أيقظوه كان أنفه يدمى وظنوا أنه يحتمل أن يكون مكسورا . لم يكن ، ولكن لعدة أيام كانت هناك دوائر أرجوانية تحت عينيه . ثم أرسلوه إلى الكاهن الخاص بالجنود ، الذى سأله إذا كان عقله مشغولا بشىء معين . هل كانت هناك متاعب فى البيت ، ربما ؟ متاعب نسائية ؟ مرض فى العائلة ؟ قال عزرا لا . أخبر الكاهن أن الأمور على ما يرام ، وأقسم له بحياته أنه لا يعرف تفسيرا لما يجرى .

سأله الكاهن إذا كان الجيش يروق له ، وأجابه عزرا ، حسنا لم يكن الجيش شيئا يروق لك أو لا يروق لك ؛ كان شيئا عليك أن تشق فيه طريقك ، ذلك لب الموضوع . قال إن الجيش لا يوافق أسلوبه ،

بالضبط ـ بكل الصياح والضجيج فيه ـ لكنه رغم ذلك يحاول أن يتكيف معه . كان يظن أنه موفق . قال الكاهن له : أن يحاول فقط ألا يمشى فى نومه ، ثانية ، فى تلك الحالة ؛ لكن فى الليلة التالية تماما مشى عزرا إلى قلب المدينة مباشرة ، مسافة أربعة أميال ونصف فى ثيابه الداخلية الصفراء المخضرة اللون وعيناه مفتوحتان على اتساعهما لكنهما مسطحتان مثل النوافذ ، وكان على نادلة تعمل فى مطعم أن توقظه وأن تطلب إلى أخى زوجها أن يعيده بسيارته إلى المعسكر . وفى اليوم التالى استدعوا طبيبا آخر ، وسأله الطبيب سلسلة من الأسئلة ووقع بعض الأوراق وأرسل إلى البيت . قال عزرا بصوت لا نغمة فيه ، « وها أنذا . سُرِّحت » .

قالت أمه ، « ولكن بشرف » .

ـــ « أوه ، نعم » .

ـــ « يالله ! وطوال الوقت الذى كان هذا يجرى فيه ، لم تقل كلمة مطلقا » .

قال ، « حسنا ، وكيف كان يمكنك مساعدتى ؟ »

بدا السؤال كما لو كان يصيبها بالشيخوخة . ارتخت .

وبعد الإفطار صعد إلى الطابق العلوى وتهاوى على سريره ونام اليوم بطوله ، واضطرت جينى إلى إيقاظه لتناول العشاء . وحتى عندئذ أمكنه أن يظل مفتوح العينين بصعوبة . جلس يتأرجح مترنحا ، لا يكاد يأكل شيئا ، ورأسه يسقط فى منتصف امتلاء فمه بالطعام . ثم عاد إلى فراشه . تجولت جينى فى أرجاء المنزل وهى تعبث متململة بأربطة الستائر . هل كان هذا ما سيصير إليه الآن ؟ هل تغير إلى الأبد ؟

ولكن ما أن حل يوم الاثنين ، حتى أصبح عزرا الذى تعرفه مرة أخرى . سمعت فلوته الصغير المصنوع من خشب شجر الكمثرى

يعزف ، « الأكمام الخضراء » حتى قبل أن ترتدى ثيابها . وعندما هبطت إلى الطابق السفلى وجدته يخفق البيض بالطريقة التى تروق لها ، مع الجبن وقطع من الفلفل الأخضر ، فى حين كانت بيرل تقرأ جريدة الصباح . وعلى الإفطار قال ، « أظن أننى سأذهب لاستعادة وظيفتى » . ألقت عليه بيرل نظرة من فوق جريدتها لكنها لم تقل شيئا . سأل عزرا جينى ، « كيف حدث أنك لم تقومى بزيارة مسز سكارلاتى ؟ لقد كتبت وقالت انك لم تذهبى أبدا » .

قالت جينى ، « أوه ، حسنا ، كنت أنوى أن ... » .

أرخت عينيها وأمسكت بأنفاسها ، وهى تنتظر . حان الوقت ليتكلم عن جوسيا الآن . لكنه لم يفعل . رفعت رأسها ورأته يدهن شريحة خبز بالزبد ، وتنفست الصعداء . فلن تتأكد مطلقا مما يعرفه عزرا ، أو ما لم يكن يعرفه .

ـ ٢ ـ

ما أن جاء الوقت الذى أصبحت فيه جينى على أعتاب الدراسة بالكلية ، حتى غدت الجميلة التى تنبأ بها الجميع . أو هل كان الأمر فقط أنها أصبحت ترتدى الأزياء الحديثة ؟ كانت مرآتها تبين نفس الوجه ، فى حدود ما يمكن أن تقطع به ، ولكن بدا أن معظم المكالمات التليفونية فى عنبر نومها كانت لها . ولولا أعباءها الكثيرة فى محيط الدراسة (تقوم على خدمة الطلبة أثناء الأكل ، تطوى الغسيل ، تضع الكتب فى رفوف المكتبة) لأمكنها أن تخرج كل ليلة . فقد فقدت سيماؤها قليلا من تزمتها ، بعيدا عن بلتيمور . تركت شعرها يطول ونمت فى نفسها

مظهرا لاهثا يميل إلى عدم التروى . لكنها لم تنس أبدا كلية الطب . كان مستقبلها واضحا دائما أمامها : طريق مستقيم إلى مزاولة طب الأطفال فى مدينة متوسطة الحجم ، ويستحسن ألا تكون بعيدة عن أحد الشواطىء . (كانت تحب أن تشعر أنها بإمكانها الخروج فى أى وقت . ألا يشعر سكان الغرب الأوسط بالخوف من الأماكن المغلقة ؟) كانت صديقاتها يشاكسنها بشأن أسرها لفكرة واحدة لا تحيد عنها . اعترضت زميلتها فى الغرفة على ضوء استذكار جينى ، شعرت بالسخط على الطريقة النيقة التى كانت تصف بها كتبها على الدرج . لم تتغير جينى فى هذا الخصوص على الأقل .

فى تلك الأثناء ، كان أخوها كودى قد حقق نجاحا - شق طريقه قدما فى مختلف الشركات ، أساسا بسبب أفكاره عن استغلال وقت العمال بشكل أفضل ؛ ثم انفصل ليعمل لحسابه بصفته خبيرا فى الكفاية . وظل عزرا يعمل لدى مسز سكارلاتى ، لكنه ترقى هو الآخر . أصبح يدير المطبخ حقا الآن ، فى حين راحت مسز سكارلاتى تلعب دور المضيفة فى الجزء الأمامى من المطعم . كتبت أم جينى إليها تقول إنه عار ، جريمة وعار . **أقول له إنه كلما طال الوقت الذى يضيعه سدى فى مطعم مسز سكارلاتى وجد من الأصعب عليه أن يعود إلى الطريق السليم ، تعرفين أنه كان ينوى دائما أن يذهب إلى الكلية ...**

كانت بيرل لا تزال تعمل موظفة كتابية فى متجر البقالة لكنها أصبحت أفضل هنداما ، وأكثر خلوا من الهموم ، منذ أسعفت منحة جينى الدراسية واشتغالها بعض الوقت إنهاكها المالى . كانت جينى تراها مرتين فى السنة - فى عيد الميلاد ، وقبل بداية الدراسة مباشرة كل سبتمبر . كانت تقدم أعذارا عن العطلات الأخرى ، وخلال فصول الصيف كانت تعمل فى محل ملابس فى بلدة صغيرة قرب كليتها . لم

يكن هذا لأنها لا تريد رؤية أمها . فقد كانت تفكر فى معظم الأحيان فى طاقتها المحكمة الفتل ، وقوة العزيمة التى أظهرتها فى تربية أطفالها بمفردها ، واهتمامها الذى لا يكل بتقدمهم .

لكن ما أن كانت جينى تعود ، حتى يثبط عزمها جو المنزل فى الحال تقريبا ـ حاجته إلى الضوء ، الشعور بالضيق الذى تولده حجراته التى تكتسى جدرانها بالورق ، هزال جهم من نوع ما . تساءلت تقريبا إن كانت تعانى من حساسية ما . كانت تبدو مثل علة تنفسية ؛ وأحيانا كانت تعتقد أنها تختنق . شعرت برأسها كما لو كان فى حاجة إلى هواء نقى ، مثلما كان يحدث حين تذاكر مدة أطول من اللازم دون توقف . أصبحت نزقة مع الناس . حتى عزرا أصبح يثير أعصابها ، بهدوئه ولين عريكته .

ولذا تباعدت ، وبعد أن كانت تفتقد عائلتها فترة بدأت تنبذ مجرد التفكير فيهم . أصبحت أكثر حيوية ، وانشغالا وسرعة . كانت خطابات عزرا ـ وهى مضجرة مثل حديثه ، وتميل إلى جانب البلادة قليلا ـ تظهر مطوية على حافة حوض الحمام أو متجعدة بين طيات غطاء السرير حيث وضعتها جينى جانبا فى منتصف جملة . كان عقلها قد انجرف فقط ، هذا كل ما فى الأمر . توقف كودى مرتين ، خلال السنتين الأوليين فى الكلية ، ليراها أثناء ترحاله خلال بنسلفانيا فى عمل ، وفى المرتين شعرت بالسعادة من توقع وصوله (إذا كان مفعما بالحيوية ووسيما ، وكانت فخورة بالتباهى به) ، لكنه ما أن يصل حتى تشعر أنها قد خمدت تدريجيا . لم يكن خطأها ؛ كان خطأه .. بدا أن كل ما كانت تقوله يحمل له صدى أمهم ، فتراه يتصلب . كانت تعرف ما يفكر فيه بالضبط . فهو يسألها ، « كيف حالك بالنسبة للنقود ؟ هل أنت بحاجة إلى ثوبين جديدين ؟ » فتقول ، « لا ، شكرا ، أنا على

ما يرام » ـ وهى تعنى ذلك حقا ، لا تحتاج شيئا ؛ لكنها كانت ترى من تعبير وجهه ما فهمه من كلامها ، « لا ، لا » ، بصوت بيرل الحاد ، « لا تبالى بشأنى ... » . لم تكن تستطيع أن تسوى ربطة عنقه ، أو أن تثنى على حلته ، أو تسأل عن حياته الحالية بدون أن تستثير تلك النظرة المتحفظة فى وجهه . جعلها هذا تشعر أنها متهمة بغير وجه حق . هل كان يظن حقا أنها متسلطة ، أو موبخة ، أو متطفلة إلى هذا الحد ؟ حاولت ذات مرة ، « اسمع . لنبدأ من جديد . لم أكن أعنى ما ظننت أننى أعنيه » . لكن نظرته الجانبية الحذرة أخبرتها أنه شك حتى فى هذا . لم يكن هناك سبيل إلى تحرير أنفسهم من الشرك . تركته يرحل . وعندما عادت إلى غرفتها فى العنبر راحت تفحص صورتها فى المرآة ، تأرجح شعرها الداكن وقدها الضيق الخصر . ثم تصرفت بمرح أكثر من المعتاد ، لفترة ، وداخلها إحساس بأن تصفق بيديها لتحررهما من غبار كثيف يلتصق بهما .

فى أواخر عامها الدراسى النهائى ، وقعت فى الحب . كانت قد ارتبطت عاطفيا من قبل ، بالطبع ـ مرة مع طالب يتخصص فى الانجليزية أصبح شديد التملك بمرور الوقت ؛ ومرة مع نجم كرة قدم غليظ الرقبة بدا لها الآن ، وهى تنظر إلى الخلف ، عرضا من أعراض جنون مؤقت . لكن هذا كان مختلفا . كان هذا هو هارلى بينز ، عبقرى ، فتى ذو ذكاء خارق إلى حد أنه حتى نظارته الملطخة ذات الإطار الذى يشبه درع السلحفاة ، وبشرته البيضاء النقية ، وصوته الأخنف كانت تبعث الرهبة فى رفاق دراسته . لم يكن خارج مجموعة جينى بقدر ما كان فوقها ، فيما وراءها ـ مجموعة فى حد ذاته . كان من الشائع عنه أنه كان يستطيع أن يحصل على درجة الدكتوراه وهو بعد فى سن الثانية عشرة ، لكن والديه منعاه من ذلك لأنهما أرادا له أن

يستمتع بطفولة سوية . وفى العام القادم سيكون فى جامعة بولام ، خارج فيلادلفيا ليقوم ببحث متقدم فى حقل علم الوراثة . كانت جينى ستذهب إلى بولام بدورها ؛ فقد قبلت فى كلية الطب بها . كان ذلك ما جعلها تتنبه إلى هارلى بينز . نظرت عبر الحرم الجامعى ، وهى آمنة فى منتصف مجموعتها الصاخبة (التى لن تكون مجموعتها لفترة أطول ، إذ سرعان ما تتبعثر بالتخرج ، وتتركها بلا حماية) ، ورأت هارلى بينز يمر بمشيته التى تشبه مشية طائر اللقلق ، وهو يرتدى سروالا من الصوف الناعم له طية لا يتمشى مع أحدث موضة ، وسترة ضخمة من الواضح أن أمه حاكتها له بالإبر . كان شعره الذى كان بحاجة إلى غسله بالصابون السائل ، فاحم السواد بوجه خاص . تساءلت إن كان يعلم أنها ستلتحق بجامعة بولام . تساءلت إن كان ليهتم ، إن كان يجد الفتيات لا يستأهلن اهتمامه . هل كان لا يمكن النفاذ اليه ؟ لا يمكن استمالته ؟ اضطرت صديقاتها إلى مناداة اسمها عدة مرات ، وهن يضحكن من تعبيرها الذاهل .

كان الوقت ربيع ١٩٥٧ - ربيع متأخر على غير المعتاد ومتدرج . فتح الأساتذة نوافذ غرف الفصول بأعمدة طويلة خطافية ، فانسابت رائحة زهور الليلك . كانت جينى ترتدى بلوزات بلا أكمام وتنورات فضفاضة وأحذية خفيفة مما تلبسه راقصات البالية . وضع هارلى بينز سترته المحاكة بالإبر جانبا . كانت ذراعاه ، وهما عاريتان ، مفتولتين ، وقد غطاهما شعر أسود كثيف . وهو يرتدى حول عنقه قرصا ذهبيا أو نحاسيا أصفر من نوع ما . تحرقت شوقا إلى معرفة كنهه . سألته عنه ذات يوم فى محاضرة اللغة الألمانية . قال إنها ميدالية فاز بها فى معرض علمى بالمدرسة الثانوية ، لقيامه بتجربة على معدل التمثيل الغذائى عند الفئران البيضاء . فكرت أنه شىء مضحك أن يستمر فى ارتدائها كل هذا الوقت ، لكنها لم تقل ذلك . وبدلا من ذلك لمست

الميدالية بخفة بأطراف أصابعها . كانت تتدلى داخل قميصه ، وكانت حارة تقريبا .

سألته فى وقت آخر (وقد لحقت به فى أحد الممرات ، بينما كانت تدبر للوقوف خلفه فى طابور الطعام بالكافيتريا) ما إذا كان يتعجل الذهاب لجامعة بولام ، وأى نوع من الإسكان سيدبره هناك ، وما سمعه عن نظام المواصلات العامة فى بولام . وفيما هى تعرض هذه الأسئلة بنبرة صوت هادئة لا تشى بمقصدها ، شعرت كأنها أحد مدربى السيرك الذين يحرصون على أن يظهروا للحيوان فقط ظهور أياديهم المتكورة ، معربين بهذا عن أنهم لا يشكلون خطرا . لم تشأ أن تفزعه . لكن هارلى لم يتصرف على أنه شعر بالفزع على الإطلاق ، وأجابها بشكل مهذب واقعى . (هل كان ذلك أمرا طيبا أم سيئا ؟) وعندما بدأت الامتحانات ، جاءت إليه بمذكراتها عن علم الوراثة وسألته إن كان يمكنه أن يساعدها على استيعابها . جلسا فى الهواء الطلق على العشب ، أمام مبنى اتحاد الطلبة ، على غطاء سرير من القطيفة الزرقاء له ذوائب ناتئة جلبته من حجرتها . كان رفاقهما فى الدراسة يجلسون متهدلين على أغطية أخرى حولهم - بما فيهم بعض صديقات جينى اللاتى ألقين عليها نظرات مذهولة مستريبة ثمَ عبرنها بنظراتهن بسرعة . كانت تأمل أن يمشين اليهما ، وأن يجعلا هارلى جزءا من المجموعة . لكن بعد مراجعتها لنفسها ، أمكنها أن ترى أن ذلك لن يحدث .

وبينما راحت تصيغ أسئلتها (وهى تتصرف بحيث لا تبدو بطيئة الفهم فينبذها ، وإن كانت مازالت فى نفس الوقت فى حاجة إلى مساعدته) ، أصغى هارلى وانتزع نصلا من العشب . كان يرتدى حذاء ثقيلا على أحدث طراز بدا فى غير محله على غطاء السرير . أخذ نصل العشب فى يده الخبيرة مظهر تجربة علمية . أجابها باتزان ، بدون

علامات استفهام بعد جُمَلِهِ ؛ واعتبر فهمها له أمرا مسلما به . وهو ما فعلته ، فى الحقيقة ، وكانت لتفعله حتى لو لم تعرف موضوعها مسبقا . كان منطقه يتواصل بشكل ثابت من « أ » إلى « ب » إلى « جـ » . وفى تمهله وتعمقه ، ذكّرها بعزرا - على الرغم من أنهما ، فيما عدا هذا ، كانا مختلفين تماما ! وعندما انتهى ، سألها إذا كان كل شىء واضحا الآن . قالت ، « نعم ، أشكرك » ، وأومأ برأسه ونهض ليمضى . هل هذا هو حاله ؟ نهضت أيضا ، وشعرت فجأة أنها مترنحة - لا من وقوفها ، كما ظنت ، ولكن من الحب . فقد تمكن من صرعها وإرباكها . تساءلت : ماذا كان ليفعل لو أنها طوقته بذراعيها وتداعت عليه ، ووضعت رأسها على صدره الناصع البياض ، وأحرقت وجنتها على ميداليته العلمية ؟ سألته ، بدلا من ذلك ، « هل تساعدنى فى طى غطاء السرير . من فضلك ؟ » انحنى ليرفع طرفا ، ورفعت هى الطرف الآخر . وشرعا فى مهمتهما . أعطاها طرفه ثم نفض برزانة كل ذؤابة عشب ، وكل بتلة زهرة وبذرة حبة لقاح من على جانب الغطاء المواجه له . وبعد ذلك أخذ الغطاء مرة ثانية ، ومن الواضح أنه يفترض أنها ستنفض الجانب المواجه لها . رفعت عينيها إلى وجهه . خطا إلى الأمام ، ونخع الغطاء حوله كأنه عباءة ذات غطاء ، ولفها داخل ظلمته وقبّلها . اصطدمت نظارته بأنفها . كانت قبلة ساذجة على أية حال . مقتضبة جدا ، ولم تملك إلا أن تتخيل صورتهما - عمودا من القطيفة الزرقاء ذات الذوائب فى وسط حرم الجامعة ، ومومياء فى حجم توأمين . ضحكت . أسقط الغطاء ودار على عقبيه وانطلق مبتعدا بسرعة . راحت ذؤابة من شعره تهتز خلف رأسه كأنها ذيل ديك .

عادت جينى إلى غرفتها وأخذت حماما وغيرت ثوبها بثوب

متموج . مالت خارج نافذتها المفتوحة ، وهى تدندن . لم يحضر هارلى ، وفى آخر الأمر ، ذهبت لتناول العشاء ، لكنه لم يكن فى الكافيتريا أيضا . وفى اليوم التالى ، عقب امتحانها الأخير ، اتصلت تليفونيا بعنبر النوم الذى يقيم فيه . أجابها فتى بصوت أجش ناعس . قال ، « لقد رحل بينز إلى بيته » .

ـــ « بيته ؟ لكننا لم نتخرج بعد ؟ »

ـــ « إنه لا يخطط لإنجاز ذلك » .

قالت جينى ، « أوه » . لم تكن قد فكرت فى التخرج على أنه « إنجاز » أى شىء ، رغم أنه من الصحيح أنك لا يمكنك ببساطة أن تحصل على شهادتك بالبريد . افترضت أن الدرجة الجامعية ، بالنسبة لناس مثل هارلى بينز ، غير مهمة . (فى حين أن عائلة جينى كانت تتجشم مشقة الطريق قادمة إلى سمرفيلد لهذا الحدث) . قالت ، « حسنا ، أشكرك على أية حال » ، ووضعت السماعة ، وهى تأمل ألا يبدو صوتها بائسا لرفيق غرفة هارلى مثلما بدا لها .

عملت مرة أخرى ، بعد التخرج فى ذلك الصيف ، فى متجر ملابس « موللى » فى البلدة الصغيرة بجوار الكلية . كانت تبدو لها دائما وظيفة لطيفة ، لكنها فى هذه السنة أصابها الاكتئاب من الخطوط السائدة فى أزياء النساء المتزوجات واتجاهها للتحرر ـ سراويلهن البرميودا القصيرة للعب الجولف وتنوراتهن الكاكى المنتفخة عند الردفين . كانت تحدق بعيدا دون أن تجيبهن حين كانت العميلات يسألنها ، « هل يلائمنى هذا ؟ هل تظنين أنه شبابى أكثر مما ينبغى ؟ » . فى هذا الوقت من العام التالى ستكون فى بولام . تساءلت متى يأتى الحين الذى يمكنها أن تشرع

فيه فى ارتداء المعطف الأبيض المنشى .

فى يوليو وصلها خطاب من هارلى بينز ، حولته لها أمها من البيت . عندما عادت جينى بعد العمل إلى المنزل الذى تعيش فيه ، وجدته على الطاولة فى الصالة . وقفت تنظر اليه لحظة ، ثم دفعته فى حقيبة يدها القشية ، وصعدت الدرج . دخلت غرفتها ، ألقت بحقيبتها على السرير ، وفتحت النافذة . أخرجت علبة مربعة من الصفيح من أحد الأدراج وأطعمت سمكتى الزينة فى الوعاء الموجود على خزانة ملابسها الصغيرة . كل هذا قبل أن تفتح خطاب هارلى .

هل خمنت ، مقدما ، ما كان سيقوله ؟

فيما بعد ، تخيلت أنها لابد قد خمنت .

كان خطه منمنما ومنفصلا كأنه حروف آلة كاتبة . كانت لتتوقع شيئا أكثر اندفاعا من عبقرى . استخدم نقطتين واحدة فوق الأخرى بعد التحية ، كما لو كان خطاب عمل .

١٨ يوليو ، ١٩٥٧

عزيزتى جينى :

أساءنى بشكل مفرط ما كان ، فى الحقيقة ، رد فعل طبيعى من جانبك . لابد أننى بدوت سخيفا .

كان ما انتويته ، قبل سوء التفاهم بيننا ، هو أننا قد نتعارف بشكل أفضل خلال الصيف ثم نتزوج فى الخريف . ومازلت أجد الزواج وضعا قابلا للتطبيق . أعرف أن هذا لابد أن يبدو فجائيا . فلم يكن لنا بالضبط فترة خطوبة أمريكية اعتيادية . لكننا ، فى نهاية الأمر ، سواء أنت أو أنا ، لسنا طائشين .

خذى فى حسبانك أن كلينا سنكون فى بولام فى العام القادم ، ويمكننا أن

نشترك فى شقة واحدة ، ونشترى البقالة بالجملة الاقتصادية ، الخ . . . أيضا ، أشعر أن أوضاعك المالية قد كانت مشكلة ما ، ويسرنى أن أتولى تلك المسئولية .

المكتوب أعلاه يبدو عمليا أكثر مما كنت أنتوى . وفى الواقع ، إننى أجد أنى أحبك ، وانتظر ردك بالسرعة الممكنة .

المخلص ، هارلى بينز

ملحوظة : أعرف أنك ذكية . ولم تكونى بحاجة إلى اختراع كل تلك الأسئلة عن علم الوراثة .

كانت الملحوظة ، فى رأيها ، أكثر أجزاء الرسالة تأثيرا . وقد كتبت بخط أقل تماسكا ، كما لو كانت قد كتبت على نحو مندفع ، فى حين بدا باقى الرسالة منسوخا وربما أعيد نسخه من مسودة . قرأت الخطاب ثانية ، ثم طوته ووضعته على سريرها . عبرت الغرفة لتفحص سمكتى الزينة ، اللتين تركتا الكثير من الطعام طافيا على سطح الماء . كان عليها أن تختصر حصص الطعام المخصصة لهما . راحت تتدرب ، **عزيزى هارلى ، كانت دهشتى عظيمة أن** ... لا . إنه لن يأبه بالمبالغة فى الحماسة . **عزيزى هارلى : لقد فكرت فى شروطك و** ... كان ما تريد أن تقوله هو « نعم » . كانت المشاعر التي أحست بها تجاهه فيما سبق تشدها بدرجة ضئيلة جدا (وهى ما بدت الآن باهتة وضحلة ، افتتان تلميذة صنعه الشعور بالرهبة تجاه من هو أكثر ذكاء) . راقها فى الموقف زاويته ـ الوثبة الهائلة فى الفضاء مع شخص تكاد لا تعرفه . ألم يكن ذلك ما ينبغى أن يكون عليه الزواج ؟ مثل كارثة من الكوارث التى نراها على شاشة السينما ـ غرق السفن أو الزلازل أو سجون الأعداء ـ حيث يبدى فرقاء جمعتهم الأقدار فجأة على نحو متلاحم نقاط قوتهم ونقاط ضعفهم الحقيقية .

كانت حياتها قد بدت مؤخرا كما لو كانت تضيق . وكان بإمكانها

أن تتنبأ بسهولة بالغة بمراحل كلية الطب المتعاقبة ، ومرحلة الطبيب المقيم ، ومرحلة التدريب الطبى التخصصى فى مستشفى . كانت قد نظرت فى مرآة ، منذ فترة ليست بعيدة ، وأدركت فورا وبلا مقدمات أن الجلد الصافى الهش حول عينيها سوف يتطور يوما ما إلى تجاعيد . كانت ستهرم مثل أى شخص آخر .

أخذت ورقا من درج الخزانة الصغيرة ، وجلست على سريرها ، ورفعت غطاء قلمها الحبر . كتبت ، **عزيزى هارلى** : ، انتزعت شعرة دقيقة للغاية من على سن القلم . فكرت لحظة . ثم كتبت ، **حسنا** ، ووقعت باسمها - وهو أبلغ ما يعبر عن رأيها دون لغو أو هراء : حتى هارلى ما كان ليجد هذا غير عادى .

فى مساء اليوم التالى ، قبل العشاء مباشرة ، وصلت جينى إلى بلتيمور . كانت قد أحرقت كل جسورها : تركت وظيفتها ، وتنازلت عن سمك الزينة ، وحزمت كل ما فى حجرتها . كان هذا أقصى سلوك لا مبالى أظهرته على الإطلاق . جلست معتدلة القامة بعظمة فى الحافلة ، وهى تهز بعيدا عنها من آن لآخر العسكرى الذى كان يغط فى نومه ويميل متدليا عليها . عندما وصلت إلى محطة الوصول المركزية نادت على عربة أجرة ، بدلا من أن تنتظر حافلة المدينة ، واتجهت إلى البيت فى أبهة .

لم تكن قد أخبرت أحدا أنها قادمة ، ولذا حيرتها حقيقة أنها فى أثناء دفع الأجرة للسائق ، فُتِح باب البيت الأمامى على اتساعه وتقدمت أمها عبر الشرفة وهبطت الدرج وهى مرتدية ثوبا منسابا منقوشا بالزهور ، وحذاء بكعب عال ذا شرائط ، وقبعة ذات بقع أشبه بالوحمات على نقابها

الشبكى الأسود . ومن خلفها جاء عزرا فى ملابس غير مكوية منقوشة أكثر من اللازم قليلا ، وأخيرا كودى ، أسمر ووسيما ، ويبدو كأحد أبناء نيويورك مرتديا حلة رمادية ناعمة النسيج على مقاسه بالضبط وربطة عنق حريرية مخططة . ولثانية تخيلت جينى أنهم متجهون إلى جنازتها . هكذا كانوا يبدون ـ مرتدين ملابسهم الرسمية وممتنعين عن الدخول فى معارك ـ لو أن جينى لم تعد موجودة بينهم . ثم طردت الخاطر من رأسها وابتسمت ونزلت من العربة الأجرة .

توقفت أمها على الرصيف ، قالت ، « ياللنجوم ! عزرا ، عندما تقول عشاء عائليا فأنت **تعنى** عشاء عائليا ! » . رفعت نقابها لتقبل وجنة جينى « لماذا لم تخبرينا أنك قادمة ؟ عزرا ، هل دبرت الأمر على هذا النحو ؟ »

قال عزرا ، « لم أكن أعلم شيئا عنه . فكرت فى أن أكتب إليك ، يا جينى ، لكننى لم أظن أنك كنت ستأتين كل هذه المسافة فقط من أجل العشاء » .

سألته جينى ، « عشاء ؟ »

قالت بيرل لها ، « إنها إحدى أفكار عزرا . فقد اكتشف أن كودى كان سيمر على البلدة ، وربما يقضى الليلة ، وقال ، « أريدكما أنتما الاثنين أن ترتديا أحسن ثيابكما ــــ » .

قال كودى ، « أنا **لن** أقضى **الليلة** . إننى أمر هنا وفقا لبرنامج زمنى ، متى تفهمون ذلك ؟ لا ينبغى لى حتى أن أبقى للعشاء . علىّ أن أكون فى ديلاوير » .

قالت بيرل وهى تنزع خيطا من على رداء جينى ، « لدى عزرا ما يود أن يقوله ، شىء يريد أن يعلنه ، وهو يأخذنا إلى مطعم

سكارلاتى . على الرغم من أننى أعتقد أن ورقة خس هى تقريبا كل ما يمكننى أن أتناوله فى مثل هذا القيظ . جينى ، يا حبيبتى ، أنت هزيلة مثل عصا ! وماذا لديك فى هذه الحقيبة ؟ كم تنوين أن تمكثى معنا ؟ »

قالت جينى ، « أوه ، حسنا ... ليست مدة طويلة » . شعرت بالخجل بخصوص اطلاعهم على النبأ . « ربما ينبغى أن أبدل ثيابى . فلست مرتدية أحسن ثيابى مثلكم » .

قال لها عزرا ، « لا ، لا ، أنت على خير مايرام » .

كان يفرك يديه معا ، بالطريقة التى كان يفعل بها هذا حين يكون مسرورا . قال ، « أوه ، الأمر يسير على خير وجه . عشاء عائلى حقيقى ! إنه أشبه بالقدر » .

حمل كودى حقيبة ملابس جينى إلى داخل المنزل . وفى تلك الأثناء أثارت أمها جلبة : وهى تمسد شعر جينى ، وتطقطق بلسانها لمرأى ساقيها العاريتين . « بلا جوارب ! فى وسيلة نقل عامة » . عاد كودى وفتح باب سيارة زرقاء لامعة تقف عند الرصيف . ساعد بيرل على دخولها ، وهو يمسك مرفقها بكفه . قال لجينى ، « ما رأيك فى سيارتى ؟ »

— « هى لطيفة للغاية . هل اشتريتها جديدة ؟ »

قال ، « وماذا تكون غير ذلك ؟ بونتياك . شمى رائحة تلك السيارة الجديدة » . دار حولها إلى مقعد السائق . استقر عزرا وجينى فى المقعد الخلفى ؛ تدلى رسغا عزرا الناتئان بين ركبتيه .

قال كودى وهو ينطلق فى حركة المرور ، « بالطبع ، لم أسدد ثمنها بعد ، لكن سرعان ما سأقوم ذلك » .

قالت أمه ، « كودى تل ! أنت لم تتورط فى الدين من أجل هذا . أليس كذلك ؟ »

ـــ « ولم لا ؟ فأنا ازداد ثراء ، صدقينى . بعد خمس سنوات من الآن يمكننى أن أدخل على تاجر سيارات ، أى تاجر ـ كاديلاك ـ وأطرح نقدا حلالاً على النضد وأقول ، « سوف آخذ ثلاثا . أو بعد مراجعة نفسى ، أجعلها أربعا » . »

قالت بيرل ، « لكن ليس الآن . ليس بعد . أنت تعرف رأيى بخصوص الشراء فى التوقيت المناسب » .

قال كودى ، « إن الوقت هو أهم عملائى » . ضحك ، وأنار ضوءا عنبريا مفاجئا . « ماذا يمكن أن يكون أكثر ملاءمة ؟ بعد عشر سنوات أخرى ، سوف تركبين سيارة ليموزين » .

ـــ « ولم أريد أن أفعل شيئا كهذا ؟ »

ـــ « ويستطيع عزرا أن يذهب إلى جامعة برنستون ، إذا رغب . ويمكننى أن أشترى لجينى عيادة خاصة بها وحدها . وأستطيع أن أدفع ثمن تخصصها فى كل مجال ، واحدا بعد الآخر » .

أحست جينى أن اللحظة حانت لكى تتحدث عن هارلى ، لكنها راحت تراقب المناظر ولم تقل شيئا .

وفى مطعم سكارلاتى ، اقتيدوا إلى مائدة فى الركن ، عند نهاية غرفة الطعام الطويلة التى كسيت بقماش مقصب . كان الوقت باكورة المساء ، ولم تظلم الدنيا بعد ، والمطعم خاو تقريبا . تساءلت جينى أين كانت مسز سكارلاتى . شرعت تسأل عنها ، لكن عزرا كان مشغولا بالإشراف على وجبتهم . كان جليا أنه قد طلب الطعام سلفا ، ويريد الآن

إعلامهم أن أربعة أفراد لا ثلاثة سيأكلون . « معنا أختى أيضا . سوف يكون عشاء عائليا حقيقيا » . أومأ النادل ، الذى بدا مغرما بعزرا ، وذهب إلى المطبخ .

عاد عزرا إلى الجلوس وابتسم للآخرين . كانت بيرك تلمّع شوكة بفوطتها ، وكودى لا يزال يتكلم عن المال . قال ، « أنوى أن أشترى مكانا فى مقاطعة بلتيمور فى المستقبل القريب . فليس هناك سبب معين يفرض علىّ أن أتخذ نيويورك قاعدة لى . فقد كنت أريد دائما تلك العزبة المنبسطة فى مريلاند ، وربما أربى جيادا » .

قالت بيرل ، « جياد ! أوه ، كودى ، حقا ، هذا ليس أسلوبنا إطلاقا . ماذا تريد من الجياد ؟ »

قال كودى ، « أمى ، أسلوبنا هو أى شىء . ألا ترين ؟ ليس هناك حد . أمى ، هل تعرفين من زارنى طلبا لخدماتى فى الأسبوع الماضى ؟ شركة تانر » .

وضعت بيرل شوكتها . حاولت جينى أن تتذكر أين سمعت ذلك الاسم من قبل . ذكرها بشىء باهت الملامح ؛ كان مثل شىء ما وضيع فى المنزل لا تنظر اليه مطلقا ، وتلاحظه فقط عندما تعود بعد سنوات من الغياب . سألت كودى ، « تانر ؟ ما هذا ؟ »

— « إنه حيث كان أبونا يعمل » .

— « أوه ، أجل » .

— « وحيث لايزال يعمل ، ربما ، فى حدود علمى . لكن يا جينى ، كان يجب أن تريها تلك الشركة الوضيعة ... أعنى ، ليست صغيرة ، يا الله يا رحيم ، بتلك المجموعة المختلطة من مكاتب الفروع المتداخلة والمتصارعة ، لكنها ... مهملة للغاية . حقيقة ، كان من

السهل تطويقها . وكنت أفكر : تخيل ، بهذه السهولة ، إنهم فى قبضة يدى . شركة تانر ! شركة تانر العظيمة القديرة . وفى عصر ذلك اليوم ، خرجت وطلبت سيارتى البونتياك » .

قالت بيرل ، « لم يكن هناك مطلقا أضأل شىء مهمل فى شركة تانر » .

وصلت المشهيات على أطباق مبردة ، ومعها زجاجة نبيذ رشيقة خضراء فاتحة . صب النادل رشفة لعزرا ، الذى تذوقها كما لو كانت شيئا نفيسا . قال ، « طيب » . (كان من الغريب أن تراه فى وضع قيادى) . « كودى ، جرب هذا النبيذ » .

قالت بيرل ، « لم يكن هناك مطلقا أى شىء وضيع فى شركة تانر حتى لو كان أتفه الأشياء وأبخسها قيمة فى هذا العالم » .

قال لها كودى ، « أوه ، يا أمى ، واجهى الأمر . إنها كومة من القمامة . وسوف أجردها حتى العظام » .

كنت لتظنه يتكلم عن شىء حى - حيوان ، مخلوق يمكن أن يعانى من الألم . ولابد أن بيرل ظنت هذا أيضا . قالت ، « كودى ، لماذا ينبغى لك أن تتصرف بهذه الطريقة تجاهى ؟ »

ــــ « أنا لا أتصرف بأى طريقة » .

ــــ « هل ظلمتك عن قصد أبدا ؟ آذيتك على الإطلاق ؟ »

قال عزرا ، « من فضلكم . أمى ؟ كودى ؟ هذا عشاء عائلى ! جينى ؟ لنشرب نخبا » .

رفعت جينى كأسها بسرعة . قالت ، « نخب » .

ــــ « أمى ؟ نخب » .

رحلت عينا بيرل على مضض إلى وجه عزرا . قالت بعد لحظة صمت ، « أوه ، شكرا ، يا عزيزى ، لكن النبيذ فى كل هذا القيظ سوف يستقّر فى معدتى كأنه صخرة » .

قال عزرا ، « إنه نخب لى ، يا أمى . لمستقبلى . نخب للشريك الكامل الجديد فى مطعم سكارلاتى » .

ـــ « شريك ؟ ومن يكون ذلك ؟ »

ـــ « أنا ، يا أمى » .

عندئذ فتح البابان المزدوجان اللذان يؤديان إلى المطبخ ودخلت مسز سكارلاتى ، فاتنة كالعهد بها ، وهى تخطو على ساقين ممشوقتين ، متسمتين بحرية فى الحركة وهى تطوح تسريحة شعرها غير المتناسقة إلى الخلف . لابد أنها كانت تنتظر إشارة البدء - تتسمع خلسة ، فى الحقيقة . قالت وهى تضع يدا على كتف عزرا ، « إذن ! ما رأيكم فى فتاى هذا ؟ »

قالت بيرل ، « أنا لا أفهم » .

ـــ « حسنا ، تعلمون أنه كان ساعدى الأيمن لمدة طويلة ، منذ أن مات ابنى ، أفضل من ابنى حقا ، حتى أصدقكم القول ؛ فبيلى المسكين لم يكن يهتم البتة اهتماما كبيرا بشغل المطعم ... »

كان عزرا ينهض ، كما لو كان شىء بالغ الخطورة على وشك أن يحدث . وفى حين راحت مسز سكارلاتى تواصل الكلام بصوتها الخشن المستهلك - تخبر أمه ذاتها كم كان عزرا ملاكا ، حبوبا ، موهوبا للغاية ، على هذا القدر من الاحترام للطعام ، للطعام اللائق الذى يقدم بشكل لائق ، وغريزته « الإلهية » (هكذا قالت) فى التوابل - أخرج هو من جيبه محفظته الجلدية التى يحفظ فيها الأوراق النقدية . حدق فيها ، وبدا

قلقا للحظة ، ثم قال ، « آه ! » ورفع ورقة نقدية رثة بدولار . قال ، « مسز سكارلاتى ، بموجب هذا الدولار اشترى نصيب المشارك فى مطعم سكارلاتى » .

قالت مسز سكارلاتى ، وهى تتناول الورقة النقدية ، « هو لك ، أيها العزيز الغالى » .

سألت بيرل ، « ما الذى يحدث هنا ؟ »

قالت مسز سكارلاتى ، « لقد وقعنا الأوراق فى مكتب محامى عصر الأمس . حسنا ، هذا معقول ، أليس كذلك ؟ فلمن أترك هذا المكان اللعين عندما أرحل ؟ إن عزرا يعرفه عن ظهر قلب الآن . عزرا ، صب لى كأسا من النبيذ » .

قالت بيرل لعزرا ، « لكننى كنت أظنك ستذهب إلى الكلية » .

ـــ « أنا ؟ »

ـــ « كنت أظنك تنوى أن تكون مدرسا ! ربما أستاذا جامعيا . لا أفهم ماذا حدث . أوه ، أعرف أن هذا ليس شأنى . فلم أكن أبدا النوع الذى يتدخل . فقط دعنى أقل لك هذا : سوف يبدو هذا الأمر غريبا جدا ، جدا لقوم ليست لديهم كل الحقائق . تتقبل مثل هذه الهدية ! ومن امرأة ، علاوة على هذا ! إنها منّة ؛ فالمشاركات لا تكلف دولارا ؛ سوف تصبح جميلا فى عنقك طيلة حياتك . عزرا ، نحن آل تل نعتمد على أنفسنا ، على بعضنا البعض فقط . لا نستنجد ببقية العالم طمعا فى عون من أى شخص . كيف تسلم نفسك لهذا ؟ »

قال عزرا ، « أمى ، إننى يروق لى أن أعد وجبات للناس » .

قالت مسز سكارلاتى ، « إنه أعجوبة » .

ـــ « لكن المنّة ! »

قال كودى ، « دعيه وشأنه ، يا أمى » .

استدارت إليه بسرعة ، كانت حركتها أشبه بوثبة . قالت ، « أعلم أنك مستمتع بهذا » .

ـــ « إنها حياته » .

ـــ « فيم تهمك حياته ؟ أنت تريد فقط أن ترانا ننحل ، نذوب فى العالم الخارجى » .

قال عزرا ، « أرجوك » .

لكن بيرل نهضت ومشت باتجاه الباب . صاح عزرا ، « لكنك لم تأكلى » . لم تتوقف . رأت جينى فى وضعها المستقيم الظهر أولى علامات شيخوخة أمها ـ أوتار عضلاتها الليفية وعظامها القابلة للكسر . قال عزرا ، « يالله ! أردت أن تكون هذه وجبة طيبة للغاية » . اندفع خلف بيرل . رفع متناولو العشاء المبعثرون رءوسهم ، فكروا للحظة ، ثم عاودوا الأكل .

ترك هذا كودى وجينى ومسز سكارلاتى . لم يبد على مسز سكارلاتى أنها مكتئبة بوجه خاص . قالت بلطف ، « الأمهات » . دست ورقة الدولار النقدية فى صدر ثوبها الكتانى .

قال كودى ، « حسنا ، هل ينهى هذا الأمر ؟ لأننى كان ينبغى لى أن أكون فى ديلاوير منذ ساعة . هل يمكننى توصيلك ، يا جينى ؟ »

قالت جينى ، « أظن أننى سأمشى » .

كان آخر ما شاهدته من مسز سكارلاتى هو وقوفها هناك وحدها تماما ، وهى تمسح بعينيها المشهيات التى لم تمس بتعبير مُتَسلٍ على وجهها .

بعد أن قاد كودى سيارته مبتعدا ، مشت جينى ببطء باتجاه البيت . لم تر بيرل وعزرا فى أى مكان أمامها . كان شفقا - أمسية لزجة ، لها رائحة الإطارات الساخنة . وبينما هى تهيم متجاوزة المحلات فى ثوبها الواقى من الشمس ، بدأت تشعر كأنها فتاة أحلام شخص ما . جربت أن تحلم حلم يقظة بهارلى بينز ، لكنها لم تفلح . ما الذى كانت جينى تعرفه عن الزواج ؟ لماذا تود حتى أن تتزوج ؟ كانت مجرد طفلة ؛ وستكون طفلة دائما . بدت خططها للزواج بديلا مؤقتا ومدبراً - تمثيلية قصيرة . شعرت بأنها حمقاء . حاولت أن تتذكر قبلة هارلى لكنها كانت قد اختفت تماما ، ولم يعد هارلى يمثل بالنسبة لها أكثر من رجل تحتل صورته حيزا ضيقا على إحدى صفحات كتالوج السلع التى تطلب بالبريد .

راح طفلان يتنازعان فى متجر الحلوى فى حين راحت أمهما تضغط جبينها بيدها . ثم مرت أمام الصيدلية ثم محل قارئة الطالع - نافذة زجاجية ملطخة تحمل **مسز إيما باركنز - قراءات ونصائح** مكتوبة بحروف ذهبية مجعدة تقشرت حول أطرافها . كانت هناك لافتات كتبت باليد على قاعدة النافذة كأنها فكرة طارئة خطرت فيما بعد : **السرية التامة ولا تقاضى للأتعاب إن لم ترض تماما** . كانت مسز باركنز نفسها تذرع الغرفة فى الضوء المنبعث من مصباح كروى كساه الغبار - وهى امرأة عجوز بدينة كئيبة تحمل مروحة من الورق المقوى مثبتة على عصا حلوى .

وصلت جينى إلى الناصية ، وتوقفت ، واستدارت . عادت إلى باب قارئة الطالع . هل ينبغى لها أن تطرق الباب ، أو أن تدلف للداخل فقط ؟ جربت المقبض . انفتح الباب وصلصل جرس صغير فوقه . أخفضت مسز باركنز مروحتها وقالت ، « قولى لى ! عميلة » .

ضمت جينى حافظتها إلى صدرها .
سألتها مسز باركنز ، « هل تتدفئين ؟ »

قالت جينى ، « أجل » . ظننت أنها اشتمت رائحة دواء سعال ، من النوع المر ، الداكن الذى له نكهة الكرز .

قالت مسز باركنز ، « لماذا لا تجلسين ؟ »

كان هناك مقعدان منتفخان ، يواجه أحدهما الآخر عبر المنضدة المستديرة الصغيرة التى تحمل المصباح . جلست جينى فى المقعد الأقرب إلى الباب . جذبت مسز باركنز ثوبها من خلف فخذيها وجلست متأوهة ، وهى مازالت تمسك بمروحتها . قالت ، « يقول الراديو إن الجو سيكون صحوا غدا ، لكننى لا أدرى إن كنت سأتمكن من البقاء طوال هذا الوقت الطويل . يبدو أن الحرارة تصيبنى بشكل أشد كل عام عن سابقه » .

غير أن يدها ، حين مدتها لتمسك بيد جينى ، كانت باردة وجافة ، وبأطراف أصابعها ضمادات صغيرة خشنة . راحت تروّح نفسها وهى تفحص كف جينى . جعل هذا عملها يبدو مبتذلا . همهمت ، كأنها تقلب بإبهامها أوراق ملف ، « عمر مديد ، وخط مهنى طيب ... » استرخت جينى .

قالت مسز باركنز ، « أظن أن هناك شيئا معينا تريدين معرفته » .
ــــ « أوه ، حسنا ... »
ــــ « لا فائدة من اللف والدوران » .
قالت جينى ، « هل ينبغى لى ... حسنا ... أن أتزوج ؟ »
قالت مسز باركنز ، « تتزوجين » .

ــــ « أعنى أنه بإمكانى . لدىّ هذه الفرصة . وقد عُرض علىّ

الزواج » .

واصلت مسز باركنز إنعام النظر فى يد جينىّ . ثم أومأت لطلب اليد الأخرى ، التى لم تكد تنظر إليها حتى اعتدلت فى جلستها وراحت ترَوّح على نفسها مدة أطول ، وهى تحدق فى السقف .

وقالت أخيرا ، « تتزوجين ، حسنا ، سوف أقول لك . بإمكانك هذا وليس بإمكانك . إذا لم تتزوجى ، فسوف تتلقين عروضا أخرى . لكن هاك نصيحتى : امضى فى سبيلك وافعليها » .

ــــ « ماذا ، أتزوج ؟ »

قالت مسز باركنز ، « انظرى .. إذا لم تتزوجى ، سينفطر قلبك كثيرا . وتصادفين كثيرا من المتاعب فى حياتك العاطفية . من أناس مختلفين متعددين . ما أعنى أن أقوله ، هو أنك إذا لم تمضى فى سبيلك وتتزوجى ، فسوف يدمرك الحب » .

قالت جينى ، « أوه » .

ــــ « سيكون هذا لقاء دولارين ، من فضلك » .

وبينما كانت تفتش فى حافظتها ، خامرها خاطر مثير . فبمعدل عزرا فى الصرف النقدى ، كان بإمكانها أن تشترى مطعمين بنفس قدر هذه النقود .

تزوجت هارلى فى أواخر أغسطس ، فى الكنيسة المعمدانية الصغيرة التى كان آل تل يترددون عليها من آن لآخر . زفها كودى إلى عريسها ، وكان عزرا يقود الناس إلى أماكنهم بالكنيسة . كان الضيوف الذين قادهم إلى الداخل : بيرل ، مستر ومسز بينز ، وخالة من طرف أم هارلى . كان هارلى يرتدى حلة سوداء ، وقميصا أبيض ذا أزرار

بطول صدره ، وحذاء أسود كئيبا له أنف أفطس . وكانت جينى ترتدى فستانا أبيض ذا عيون صغيرة وحذاء صيفيا خفيفا . راحت جينى تنظر إلى حذاء هارلى طوال طقوس الزفاف . كان يذكرها بكرات العر اسوس الجيلاتينية .

لم تذرف بيرل دمعة واحدة ، لأنها كما قالت ، كانت مسرورة للغاية أن سارت الأمور على هذا النحو ، على الرغم من أن أشخاصا معينين كان ينبغى لهم أن يخبروها قبل ذلك بوقت مبكر . كان من بواعث الراحة أن ترى ابنتها تُزف سالمة ، أو كما قالت ـ عبئا يزول . بكت مسز بينز بصورة متصلة ، لكن ذلك كان طابع هذا النوع من النساء الذى تنتمى إليه . قالت لجينى بعد الزفاف إن هذا لم يكن يعنى بالتأكيد أنها كانت ضد الزواج .

ثم استقل هارلى وجينى قطارا إلى جامعة بولام ، حيث استأجرا شقة صغيرة . لم يكن لديهما أثاث بعد وقضيا ليلة زفافهما على الأرضية . كانت جينى قلقة بخصوص عدم خبرة هارلى . كانت واثقة أنه كان دائما فوق مستوى تلك الأشياء كالجنس ؛ لم يكن ليعلم ماذا عليه أن يفعل ، ولا هى ، ولسوف ينتهى بهما الأمر إلى الإخفاق فى شىء كان باقى العالم يدبره دون أن يفكروا فيه . لكن الواقع أن هارلى كان يعلم يقينا ما يجب عمله . داخلها شك فى أنه بحث فى الأمر . تولدت لديها صورة لهارلى وهو جالس فى مكتبة عامة ، يقارن نظريات الخبراء ، ويدون مذكرات بهمة فى شكل تخطيط مبدئى ملائم .

- ٣ -

راحت جينى تحدق فى المناظر التى تمرق أمام نافذتها فى القطار وهى تدندن ، « على قمة جبل الأوليمب العتيق الشديدة الحرارة ، راح فنلندى وألمانى يجمعان بعض حشائش الدينار » .

كان من المفروض أن يذكرها هذا بأعصاب الجمجمة : الشمية ، السمعية ، ومحركة العين ... قطبت جبينها وراجعت كتابها التعليمى . كان ذلك فى ١٩٥٨ - بداية أول عطلة نهاية أسبوع فى مايو ، لكنها عطلة لا يمكنها الاستغناء عنها . كانت تقوم بزيارة لبلتيمور فى حين يجب أن تبيت بياتا شتويا فى بولام ، لتدرس . كانت قد اتصلت بأمها تليفونيا عن طريق « الترنك » . « هل لك أن تسألى عزرا أن يقابلنى على محطة القطار ؟ »

— « كنت أظن أن لديك عملا كثيرا » .
— « يمكننى أن أعمل هناك أيضا » .
— « هل تحضرين هارلى ؟ »
— « لا » .
— « هل هناك ما يسوء ؟ »
— « بالطبع لا » .
— « لست مطمئنة إلى هذا الموضوع ، أيتها السيدة الشابة » .

كان صوت بيرل على الهاتف خافتا وراكدا ، يمكن التعامل معه بسهولة . كانت جينى قد قالت ، « أوه ، يا أمى ، حقا » . لكن عندما كان القطار يدنو من بلتيمور الآن ، جعلها منظر مداخن المصانع العالية ، والآجر الذى سوده الهباب ، ولوحات الإعلانات تتقشر فى المطر - وهى مناظر طبيعية كانت ترى فيها موطنها - تشعر أنها أقل ثقة فى

نفسها . تمنت لو أن عزرا قابلها وحده . صنعت بأناملها بقعة نظيفة على النافذة وحدقت فى المزارع الممتدة على طول طريق السكك الحديدية ، ثم فى أول الأعمدة المعدنية التى كانت تمرق أمامها بسرعة بالغة ، ثم فى أعمدة أقل سرعة ، وأكثر تحديدا ، ومجموعة من الدرجات المظلمة . صرخ القطار وارتج متوقفا . أغلقت جينى كتابها . نهضت ، وتحركت بحرص مجتازة امرأة نائمة ، والتقطت حقيبة ملابس صغيرة من الرف أعلاها .

كانت هذه المحطة تبدو دائما كما لو كانت تجرى بها أعمال إنشائية معينة ، هكذا قالت لنفسها . عندما وصلت إلى أعلا الدرج ، سمعت أزيز أداة تعمل بالكهرباء ـ منشارا أو حفارا كهربائيا . بدا الصوت ضائعا تقريبا تحت السقف العالى للمحطة . وقف عزرا ينتظرها ، مبتسما لها ، ويداه فى جيوب سترته الجلدية . سألها ، « كيف كانت رحلتك ؟ »

ــ « على مايرام » .

أخذ حقيبتها . « هل هارلى بخير ؟ »

ــ « أوه ، أجل » .

شقا طريقهما وسط جمهرة ضئيلة من الناس يرتدون معاطف المطر . قال عزرا ، « مازالت أمى فى العمل ، لكن ينبغى أن تكون قد عادت للبيت حالما نصل إلى هناك . وقد اتصلتُ بكودى تليفونيا . فكرت أننا قد نتناول جميعا العشاء فى المطعم ليلة الغد ؛ وهو من المفروض أن يمر من هنا مرورا عابرا » .

ــ « كيف حال المطعم ؟ »

بدا عزرا تعيسا . قاد جينى خلال الباب ، إلى شبورة تسيل منها قطرات من المطر لها ملمس بارد على الجلد . قال ، « هى ليست بحال

طيب إطلاقا » .

تعجبت جينى لِمْ كان يسمى المطعم « هى » ، كما لو كان سفينة . لكنه قال عندئذ ، « إن العلاج يجعلها أسوأ حالا . فلا شيء يستقر فى معدتها » . وفهمت أن لابد أنه يعنى مسز سكارلاتى . ففى الخريف الماضى دخلت مسز سكارلاتى المستشفى لإجراء جراحة سرطان ـ وهى جراحتها الثانية ، على الرغم من أن أحدا لم يكن يعرف شيئا حتى الآن عن جراحتها الأولى . وكان وقع الأمر على عزرا سيئا للغاية . قال وهو يجرر قدميه حزنا على طول صف من عربات الأجرة ، « إنها لا تكاد تشكو مطلقا ، لكننى أعرف أنها تعانى » .

ـــ « هل تدير المطعم وحدك ، إذن ؟ »

ـــ « أوه ، نعم ، وقد ظللت أفعل ذلك منذ نوفمبر . كل شيء : تأجير العمال وتسريحهم ، واستجلاب آخرين عندما يترك بعضهم الخدمة . فالمطعم ليس فقط طعاما ، كما تعرفين . أحيانا يبدو الطعام أهون الأمور فيه . أشعر أن المكان ينهار فوق رأسى ، لكن مسز سكارلاتى تقول لى ألا أقلق . تقول إن مثل هذه الأمور تحدث دائما . تقول إن الحياة عملية إسناد بدعامات دائمة ، ضد شيء أو آخر يتآكل ويتقوض . وقد بدأت أعتقد أنها على حق » .

وصلا إلى سيارته ، سيارة شيفروليه رمادية مخدوشة . فتح لها الباب ورفع حقيبتها بصعوبة ووضعها فى مؤخرة السيارة ، التى كانت حافلة سلفا بفوضى من المجلات الأسبوعية لأصحاب المطاعم ، والملابس المتسخة ، ونوع معين من الملاقط والأسياخ موضوعة فى حقيبة تسوق . قال بعد أن انزلق خلف عجلة القيادة ، « آسف على الفوضى » . أدار المحرك وتراجع إلى الخلف خارجا من مكان الانتظار

أمام الماكينة الشقبية التى تعمل بإسقاط قطعة نقدية فى شقب فيها . « ألم تتعلمى القيادة بعد ؟ »

ـــ « أجل ، علمنى هارلى . وأنا الآن أقود له سيارته فى كل مكان ؛ فهو يحب أن يكون حرا حتى يفكر » .

وصلا إلى شارع تشارلز . كانت قطرات المطر دقيقة للغاية حتى أن عزرا لم يكترث بأن يشغل مسّاحات حاجز الريح ، وبدأ الزجاج يتغبش . حدقت جينى أمامها . سألت عزرا، « هل تستطيع الرؤية ؟ »

أومأ برأسه .

قالت ، « فى أول الأمر يريدنى أن أقود ، ثم ما يلبث أن ينتقد كل شيء ضئيل بخصوص الكيفية التى أفعلها بها . إنه ماهر جدا ؛ وأنت لا تعرف إلى أى مدى يمكن لمهارته أن تصل . أعنى ، أنه لا يعرف فقط عن الرياضيات وعلم الوراثة ، ولكن أيضا عن أكثر درجات الحرارة ملاءمة لطبخ اللحم المقلى فى وعاء بالفرن ، وعن أفضل طريقة لتنظيم مطبخى ـ كل شيء مخطط فى عقله . عندما أقود يقول ، « والآن يا جينيفر ، تعلمين تمام العلم أنه على بعد ثلاث بنايات من هنا يوجد موقف العبور حيث ينبغى لك أن تتجهى إلى اليسار ، إذن ماذا تفعلين فى الحارة اليمنى ؟ عليك أن تخططى سلفا أكثر من هذا » . أقول ، « بعد ثلاث بنايات ! يا للأسى ! سوف أتجه للحارة اليسرى عندما أصل اليها » . وأقول له ، « بين هذه النقطة وموقف العبور قد يحدث أى شيء » . فيقول ، « ليس حقا . لا . ليس حقا . ففى كل التقاطعات الثلاثة هناك حارة استدارة إلى اليسار ، كما تذكرين ، حتى لا تضطرى أن تنتظرى ... » لا شيء يمضى بلا تخطيط عند هارلى . يمكنك أن ترى الصفحات المرقمة وهى تقلب فى رأسه . ليس هناك خطأ واحد » .

قال عزرا ، « حسنا ، أظن أنها وجهة نظر مختلفة تمام الاختلاف ، أن يكون الإنسان عبقريا » .

قالت جينى ، « لا أدعى أننى لم أتلق تحذيرا ، لكننى لم أدرك أنه كان تحذيرا . كنت أصغر من أن أقرأ الإشارات المحذرة . ظننت أنه كان مثلى فقط ، كما تعرف - شخصا **حريصا** ؛ فقد كنت حريصة دائما ، ولكننى الآن بالمقارنة مع هارلى لا أبدو حريصة على الإطلاق . كان ينبغى لى أن أخمن حين ذهبت لمقابلة والديه قبل الزفاف ، وكانت كل كتبه مرتبة فى غرفته تبعا لارتفاعها ودرجات اللون . كان بإمكانى أن أفهم أن تكون مرتبة حسب الحروف الأبجدية ؛ أو مقسمة حسب الموضوع . لكن هذا النسق التعسفى الثابت للأشياء ، قدم من الكتب الحمراء ، قدم من الكتب السوداء ، لا كتب ذات أغلفة سميكة تختلط بكتب ذات أغلفة خفيفة ... إنه أسوأ من أدراج خزانة أمى الصغيرة . إن الأمر أشبه بالقفز من مقلاة التحمير إلى النار ! فى أول مرة قبّلنى هارلى ، كان عليه أن ينفض غطاء السرير الذى كنا نجلس عليه مقدما . ألا ترى أن هذا كان يجب أن ينبئنى بشىء ؟ فى كل ليلة الآن يجلس على حافة السرير قبل أن يأوى للفراش وينفض باطنى قدميه . ما الذى يمكن أن يوسخهما ... تلكما القدمان البيضاوان العاريتان اللتان لم يمسهما شىء ؟ وهو يرتدى حذاء فى كل لحظة يسهر فيها ، وخفا إذا خطا خطوة فى الليل . لكن لا ، إنه يجلس هناك ، منهجيا للغاية ، مضبوطا تماما ، كل شىء فى تتابعه الملائم ، ينفض وينفض ... أحيانا أعتقد أننى سأضربه . إننى مبهورة ، أقف هناك أراقبه وهو ينفض قدمه اليسرى أولا ، وقدمه اليمنى ثانية ، ولا يدع أيهما تمس الأرض ما أن ينتهى منها ، وأظن « أننى سأسحق لك رأسك ، يا هارلى » . »

تنحنح عزرا وقال ، « إنه التلاؤم . نعم ، ذلك هو : التلاؤم . السنة

الأولى من الزواج . أنا واثق أن هذا كل ما فى الأمر » .

قالت جينى ، « حسنا ، ربما كان كذلك » .

ودت لو أنها لم تتكلم كثيرا إلى هذا الحد .

لذلك فإنهما عندما وصلا إلى البيت ـ حيث كانت أمهما قد وصلت لتوها ـ لم تقل جينى شيئا على الإطلاق عن هارلى . (كانت بيرل تعتقد أن هارلى رائع ، جدير بالإعجاب ـ ربما لم يكن من السهل إجراء حديث معه لكنه أنسب رجل للزواج من ابنتها) . قالت بيرل بعد أن قبّلتها ، « الآن خبرينى . كيف حدث أنك لم تحضرى زوجك معك ؟ لم ينشب بينكما شجار سخيف ما » .

ـــ « لا ، لا . إنه بسبب عملى فقط . إرهاق العمل . أردت أن آتى واستريح ، ولم يكن بإمكان هارلى أن يترك معمله » .

كان صحيحا أن البيت بدا مريحا ، فجأة . وبعد أن رحل عزرا إلى مطعم سكارلاتى ، قادت بيرل ابنتها إلى المطبخ وأعدت لها قدحا من الشاى . كان الشيء الوحيد الذى لا تتعجله بيرل مطلقا هو الشاى . كانت تتحرك فى أرجاء الغرفة ، تسخن ابريق الشاى البنى المنقط ، وهى تدندن بترنيمة قديمة متهدجة . كان الجو الرطب قد جعد شعرها فى شكل بريمة نزع السدادات وصبغ البخار وجنتيها بلون أرجوانى ؛ بدت جميلة تقريبا . (أى نوع من الزواج مرت به ؛ لابد أن شيئا فظيعا أصابه ، لكن جينى لم تملك إلا أن تتخيله كاملا ، وحدة واحدة ، ذلك الزواج الذى ربط بين والديها بشكل دائم . كانت حقيقة أن أباها قد رحل مجرد ضربة حظ سيىء ـ بعض سوء التفاهم الذى لم ينقشع بعد) .

قالت أمها ، « كنت أفكر فى أن نتناول عشاء خفيفا جدا . ربما سلطة أو شيئا من هذا القبيل » .

قالت جينى ، « هذا يبدو حسنا » .

ـــ « شيئا سهلا وبسيطا » .

كان السهل والبسيط هو ما تريده جينى بالضبط . تحررت ؛ كانت آمنة أخيرا ، فى المكان الوحيد حيث الناس يعرفون بالضبط من هى ويحبونها على أية حال .

لهذا كان من الغريب أن تشعر بعد العشاء ، وهى تجوب البيت ، بومضة إشفاق على عزرا حين ألقت نظرة على غرفته . مازالت هنا ! هكذا قالت لنفسها وهى ترى بطانيته الصبيانية الصوفية المقلمة على السرير ، وفلوته البالى على حافة النافذة ، والصينية المعدنية المدموغة على خزانته الصغيرة وقد تكومت فيها بنسات عتيقة ذات صبغة خضراء . كيف يمكنه أن يحتملها ؟ تساءلت ، وهبطت الدرج ثانية ، وهى تهز رأسها وتتعجب .

كان ذلك ما جلبته جينى معها : مجموعة ملابس للغيار ، كتاب التشريح ، خطاب هارلى الذى يعرض عليها فيه الزواج ، وصورته فى إطار فضى أصيل .

وضعت الصورة بشكل حازم على مكتبها ، وهى تفرغ محتويات حقيبتها ، وراحت تفحصها . كانت قد أحضرتها معها لا لأسباب عاطفية ولكن لأنها تنوى أن تمعن التفكير فى هارلى ، أن تصل لحكم محدد بشأنه ، ولم ترد أن تغير المسافة من حكمها . أدركت سلفا أنها قد تُضلل إلى حد أن تفتقده . وسوف تذكرها هذه الصورة ألا تفعل ذلك . كان رجلا متصلبا ورجعيا ؛ كان بإمكانك أن ترى هذا فى خط فكه الغليظ وفى نظرته المحدقة المعتمة من خلال نظارته التى كان يصوبها نحو

الكاميرا . لم يكن يقر طريقتها فى التفكير . قال إنها متسرعة وعفوية للغاية . لم يكن يحب صديقاتها الثرثارات . كان يرى أن ملابسها تفتقر للأناقة . كان ينتقد سلوكها على المائدة . كان ليقول لها ، « خمس وعشرون مضغة للقضمة . تلك هى نصيحتى . فهى ليست فقط صحية أكثر ، ولكنك ستجدين أنك لا تأكلين كثيرا بهذا الشكل » . كان يستحوذ عليه الخوف من أن تسمن . ولما كانت جينى تستطيع أن تعد كل ضلع من ضلوعها ، فقد تساءلت إن كان لديه نوع من الجنون فى نقطة ما . إذا لم يكن مجنونا تماما جنونا كاملا ، ولكن فى منطقة واحدة منعزلة . لعله كان يخشى عدم القدرة على التحكم ؛ لم يكن يروق له أن يرى جينى تنتفخ ، وأرطال اللحم تتجمع بلا ضوابط ، لم يكن يروق له أن يراها تخرج عن نطاق السيطرة . لابد أن هذا هو الحال . لكنها شرعت تتساءل إن كانت تزداد وزنا وأخذت تخطو بقدميها فوق الميزان كل صباح . وقفت أمام المرآة التى تعكس القامة بالكامل ، وهى تمتص معدتها للداخل . هل كان من المحتمل أن ردفيها يزدادان اتساعا ؟ لاحظت ، رغم ذلك ، أن النساء البدينات كن النساء اللاتى يجتذبن عين هارلى حين يكونان فى مكان عام . النساء المتبرعمات ذوات الغمازات ، الشقراوات ، والمتوردات الخدود قليلا . كان فى الأمر سرا غامضا ، حقا .

لم تكن تقديرات جينى طيبة جدا . لم تكن ترسب ، أو أى شىء من هذا القبيل ؛ لكنها لم تكن تحصل على تقديرات ممتازة ، وكان عملها المعملى غير دقيق . أحيانا كان يبدو لها أنها كانت مجوفة ، طوال هذه السنين ، وأنها كانت تتقوض أخيرا . لقد اكتشفوا أمرها : ففى أعماقها كانت فارغة .

بينما كانت تحزم أمتعتها لهذه الرحلة (التى رآها هارلى مضيعة

للوقت والمال) ، عبرت غرفة النوم حيث كانت صورته تقف على الخزانة . كان هارلى واقفا أمامها . قالت له ، « تحرك جانبا من فضلك » . بدا عليه الاستياء وخطا جانبا . ثم ... حسنا انبسط وجهه - يمكنك أن تقول هذا - حين رأى ما تريده . اكتسبت حملقته الغاضبة نعومة ، وانفرجت شفتاه ليتكلم . تأثر . وتأثرت هى لأنه تأثر . لم يكن هناك أى شىء بسيط ؛ كانت هناك دائما هذه التعقيدات . لكن ما قاله كان ، « أنا لا أفهمك . لقد أفزعتك أمك وأساءت معاملتك طيلة حياتك ، وتريدين الآن أن تزوريها لغير سبب ظاهر » .

من الممكن أن ما أراد أن يقوله هو ، « أرجوك ألا تذهبى » .
كان عليك أن تكون حلال شفرات مدرب حتى تقرأ الرجل .

فردت خطابه الذى طلب فيه الزواج منها . أنظر كيف كتب التاريخ : ١٨ **يوليو** ، ١٩٥٧ - وهو شكل استوقفها على أنه مدع ، ما لم يكن بالطبع انجليزيا . تساءلت كيف أمكنها أن تغفل اللغة الطنانة ، **الخطوبة الأمريكية** (كما لو كان ذكاؤه الخارق قد وضعه على قارة كاملة قائمة بذاتها) . وفوق كل ذلك ، الخطاب نفسه ، حقيقة أنه كتب ، وهو يقدم مشروع الزواج كأنه يعرض لعملية يتم فيها دمج شركتين .

حسنا ، لقد أغفلته **بالفعل** . اختارت ألا ترى . كانت تعرف أنها تصرفت بشكل ملتو فى هذا الأمر كله - قرارها أن تكسبه ، وأن تتزوجه لأسباب عملية . لم تنظر للأمر إلا من زاوية حساباتها ، كانت تلك هى الحقيقة . لكنها شعرت أن العقاب أعظم من الجريمة . لم تكن جريمة نكراء إلى هذا الحد . لم تكن لديها أية فكرة (وهل لدى أى شخص غير متزوج ؟) . أى أمر خطير كانت تعبث به ، إلى أى مدى يدوم ، وإلى أى عمق يضرب . والآن ، أنظر : أصبحت هى الأضحوكة . فبعد أن

حصلت على ما سعت اليه ، وجدت أنها هى التى حُصِل عليها . ولا تحدثنى عن الحسابات ! كان سيدير دفة حياتها ، ويرتبها تماما حسب الارتفاع واللون . كان سيجلس فى المقعد المجاور لمقعد السائق بذلك التعبير الناقد المرتسم على وجهه ويملى عليها كل دوران تسلكه ، وكل تغيير فى ناقل السرعة .

ذهبت لزيارة المطعم فى وقت متأخر من المساء ، لأنها كانت تعرف أن ذلك سيسعد عزرا . كان المطر قد توقف ، ولكن مازالت الشبورة هناك . شعرت أنها تمشى تحت الماء ، فى حلم من تلك الأحلام حيث يستطيع الفرد أن يتنفس بنفس السهولة التى يتنفس بها على الأرض . كان هناك بضعة أشخاص فقط فى الخارج - كلهم يسرعون ، مغلقون على أنفسهم ، مكفنون فى معاطف وملافع من البلاستيك ؛ وكانت انعكاسات أضواء السيارات الأمامية ترتعش على أرضيات الشوارع .

بدا مطبخ المطعم مزدحما عن آخره ؛ كانت معجزة أن يخرج منه طبق طعام مقبول . كان عزرا يقف عند الموقد يشرف على قشد بعض الحساء أو المرق ، وفتاة صغيرة ترفع مغارف مليئة بسائل يتصاعد منه البخار وتفرغها فى وعاء . كان عزرا يقول ، « عندما تفرغين ــــ » ، ثم قال ، « أوه ، مرحبا ، يا جينى » وجاء إلى الباب حيث تنتظر . فوق سرواله الجينز الخشن كان يرتدى مئزرا أبيض ؛ بدا مثل أى من الطباخين . دار بها ليعرفها بالآخرين ؛ رجال يسيل عرقهم يفرمون أو يُصفون أو يحركون . كان يقول ، « هذه شقيقتى ، جينى » ، ثم ينصرف ذهنه إلى تفصيل ما ويقف هناك يناقش الطعام . سألها أخيرا ، « هل يمكننى أن أقدم لك شيئا تأكلينه ؟ »

ــــ « لا ، تناولت العشاء فى البيت » .
ــــ « أو مشروبا من البار ؟ »
ــــ « لا ، شكرا » .
ــــ « هذا رئيس الطهاة ، أوكس . وهذا جوسيا بيسون ؛ أنت تذكرينه » .

رفعت عينيها لأعلى ثم لأعلى ليستقرا على وجه جوسيا . كان مرتديا ثيابا بيضاء كلها ، بالغة النظافة (كيف وجدوا بزة نظامية تلائمه ؟) ، لكن شعره كان لايزال منتصبا بشكل مفرط . ولم يكن من الأيسر الآن عما كان قبلا أن ترى أين كان يوجه نظرته المحدقة . لا إليها ، كان ذلك مؤكدا . كان يتجنبها . بدا أعمى تماما عن رؤيتها .

كان عزرا يقول لأوكس ، « عندما يأتى آل بويس أخبرهم أن لدينا قشدة حساء بلح البحر . هناك منه ما يكفيهما فقط ؛ وتجده على الموقد الخلفى » .

سألت جينى ، « كيف حالك ، يا جوسيا ؟ »
ــــ « أوه ، لا بأس » .
ــــ « إذن فأنت تعمل هنا الآن » .
ــــ « أنا المسئول عن السلطة . وفى الأغلب أقطع الأشياء » .

كانت يداه العنكبوتيتان تلتويان أمامه .. وبدت الثنية التى فى جبينه أكثر عمقا عن ذى قبل .

قالت جينى ، « لقد كنت أفكر فيك فى أغلب الأحيان » .

لم تكن تعنى هذا فى بادىء الأمر . لكنها فهمت عندئذ ، بفيض سال فى رأسها كان أشبه بمرض ؛ أنها كانت تقول الصدق : أنها كانت تفكر فيه دون أن تدرى طوال كل تلك السنين . ويبدو أنه لم يغادر ذهنها مرة

واحدة . رأت أنه حتى هارلى كان مجرد نوع من جوسيا معكوسا ، جوسيا وقد قُلِبَ بطنا لظهر : غريبا مثله ، أبيض وأسود ، لا يمكن لأحد أن يفهمه سوى جينى .

سألته ، « هل أمك بخير ؟ »

ـــ « لقد ماتت » .

ـــ « ماتت ! »

ـــ « منذ زمن طويل . خرجت تتسوق وماتت . وأنا أعيش فى البيت وحدى تماما » .

قالت جينى ، « أنا آسفة » .

لكنه مع ذلك لم ينظر فى عينيها .

استدار عزرا عن أوكس وسأل ، « هل أنت متأكدة أننى لا أستطيع أن أقدم لك وجبة خفيفة ، ياجينى ؟ »

قالت له ، « علىّ أن أنصرف » .

وفى رحلتها إلى البيت ، تساءلت لم بدا المشى لها طويلا للغاية ؟ كانت تشعر بثقل غير عادى فى قدميها ، وفى داخل صدرها ألم قديم صدىء غائر .

كان فلوت عزرا يعزف **أيكة الرماد** ، **كم هى رشيقة** ، **كم تغنى بحلاوة** ... وبينما كانت تمشى ببطء تغلفها نتف من أحلام ، وجدت جينى أن من الغريب أن يرسل فلوت من خشب شجر الكمثرى هذه الأنغام الساحرة - أنغام رشيقة صافية عذبة تصل مُراقة على سريرها . جلست وفكرت للحظة . ثم رفعت بطانيتها ومدت يدها تتناول ملابسها .

عندما غادرت البيت كان عزرا يعزف « كفتة السمك » .

سارت على طول هذا الشارع ، ثم ذلك الشارع ، ثم شارع آخر اتضح أنه خطأ . رجعت من حيث أتت . كانت الأرصفة لاتزال مبللة ، لكن الشمس كانت تشرق فى سماء أرجوانية متلألئة فوق المداخن . سيكون يوما جميلا . دفعت يديها فى جيوب معطفها . قابلت رجلا ينزه كلبا كثيف الشعر ، ولا أحد غيره ، وحتى هو مر بلا صوت واختفى .

عندما بلغت الشارع الذى تريده ، لم يبد أى شىء مألوفا وكان عليها أن تسلك الزقاق . كان بإمكانها أن تتعرف على البيت من الخلف فقط ، تعرفت على ذلك الهيكل الإضافى الرمادى الملحق بالمطبخ ، والدرجات المنبعجة التى كانت تتهاوى تحت قدميها ، والباب الخشبى الذى بلى معظم طلائه . بحثت عن جرس البيت ولكن لم يكن هناك واحد ؛ كان عليها أن تطرق . كان هناك صرير أثاث فى مكان ما داخل البيت - وأرجل الكراسى تدفع . وعندما جاء جوسيا ، كان طويلا لدرجة أنه أظلم النافذة التى كانت تحدق من خلالها .

فتح الباب . قال ، « جينى ؟ »

ـــ « أهلا ، يا جوسيا » .

تطلع فيما حوله ، كما لو كان يفترض أنها جاءت لترى واحدا آخر . لاحظت طعام إفطاره على مائدة المطبخ : شريحة خبز أبيض دهنت بزبد الفول السودانى . قرأت الإهمال واليأس فى مشمع الأرضية البالى والحوض الملىء بأطباق قذرة ، وفى سرواله الجينز الخشن وسترته البنية التى نسل نسيجها . شدت معطفها حولها بإحكام أكثر .

قال ، « لماذا أنت ، لماذا أنت هنا ؟ »

قالت له ، « لقد أفسدتُ كل شىء » .

ـــ « عم تتكلمين ؟ »

ـــ « لابد أنك تشعر أننى مثل الآخرين ! مثل الآخرين الذين تريد أن تهرب منهم بعيدا فى الغابات مع كيس نومك » .

قال ، « أوه ، لا ، يا جينى . ما كنت لأعتقد مطلقا أنك على شاكلتهم » .

ـــ « ما كنت لتعتقد ؟ »

ـــ « ولا كان أحد ليعتقد ؛ إنك جميلة للغاية » .

قالت : « لكننى أعنى ـ »

وضعت يدا على كمه . لم يسحبها بعيدا . ثم خطت لتصبح أقرب إليه وطوقته بذراعيها . كان بإمكانها أن تشعر ، حتى من خلال معطفها ، كم كان قفصه الصدرى نحيلا ناتىء العظام ، وكم كان يدفىء سترته الهزيلة . وضعت أذنها لصق صدره ، ورفع يديه ببطء وتردد إلى كتفيها . قالت ، « كان ينبغى لى أن أواصل تقبيلك . كان ينبغى لى أن أقول لأمى ،« اذهبى . دعينا وحدنا » . كان ينبغى لى أن أدافع عنك وألا أكون جبانة بهذا الشكل » .

سمعته يقول ، « لا ، لا . أنا لا أفكر فى هذا الأمر . لا أفكر فيه » .

تراجعت ورفعت عينيها إليه .

قال ، « أنا لا أتكلم عن هذا الأمر » .

قالت ، « جوسيا ، ألن تقول لى على الأقل إن كل شىء على ما يرام الآن ؟ »

قال ، « مؤكد . إنه على ما يرام يا جينى » .

بعد ذلك ، لم يكن هناك حقا شيء آخر يناقشانه . وقفت على أطرف أصابعها لتقبله مودعة ، وظننت أنه نظر مباشرة إليها حين ابتسم وتركها تمضى .

قال كودى وهو يرفع كأسه ، « فى صحة الجميع . فى صحة طعام عزرا . فى صحة مطعم سكارلاتى » .

قال عزرا ، « فى صحة عشاء عائلى سعيد » .

ـــ « أوه ، وذلك أيضا ، إذا شئت » .

شرب الجميع ، حتى بيرل ـ أو ربما أن الرشفة الضئيلة التى تناولتها كانت مجرد إيهام . كانت ترتدى قبعتها الشبكية وطقما لونه بيج حيك عند خياطة ، جديد إلى حد أنه فشل فى أن يتخذ هيئته حين مالت إلى الخلف فى كرسيها . كانت جينى ترتدى تنورة وبلوزة عاديتين ، لكنها مع ذلك شعرت أنها ترتدى أحسن ثيابها . كانت فى حقيقة الأمر تشعر شعورا رائعا ـ غير منزعجة تماما . ظلت تشع ابتساما للآخرين ، سعيدة بأن يكونوا حولها .

لكن هل كان الجميع هناك حقيقة ؟ فى حالة جينى المزاجية الجديدة ، بدت لها عائلتها صغيرة للغاية . قالت لنفسها ، هؤلاء الشبان الثلاثة وهذه الأم المنكمشة لم يكونوا كافين لدعم المناسبة . كان بإمكانها أن تستخدم عدة أعضاء أكثر ـ مهرج العائلة ، مثلا ؛ وشخصا حقيقيا أقل احتراما من باقى العائلة ، أقل احتراما من كودى ؛ وربما أختا من تلك الأخوات الإداريات التى تلم شمل مجموعة بالقوة . أما والحال على ما هو عليه ، فقد كان عزرا هو من يلمهم معا . ولم يكن يؤدى مهمته بكفاءة . كان منشغلا بالطعام أكثر من اللازم . وفى تلك اللحظة بالذات كان يتشاور

مع النادل ، وهو يومىء باتجاه الحساء ، الذى وصل باردا قليلا ، كما قال ــــ رغم أنه بدا لجينى على ما يرام . كانت بيرل تتناول حقيبتها الآن وتدفع كرسيها إلى الخلف .

قالت لجينى وهى تغمغم ، « ذاهبة للتواليت » . كان عزرا ليشعر بانزعاج أكبر ، ما أن يلاحظ أنها قد اختفت . فقد كان يحب أن تكون العائلة ملتئمة فى مجموعة ، متعنقدة ، ويكره عادة بيرل فى تجديد زينتها فى مطعم ، مثلما يكره أن يدخن كودى سيجاره الرفيع فيما بين ألوان الطعام التى تقدم واحدا بعد الآخر . كان يقول دائما ، « أود لو أننا أمكننا مرة واحدة أن نواصل وجبتنا من البداية للنهاية » . وكان ليقولها مرة أخرى ما أن يكتشف أن بيرل غير موجودة . لكنه كان الآن يقول للنادل ، « لو أن آندرو حافظ على الأطباق الصينى ساخنة ـ » .

ــــ « أقسم لك أنه يفعل ذلك فى أغلب الأحيان ، لكن موقد التدفئة انكسر » .

همس كودى وهو يقترب بوجهه من وجه جينى ، « ما رأيك ؟ هل نام عزرا مع مسز سكارلاتى ؟ أولم يفعل ؟ »

فغرت جينى فمها .

سألها ، « حسنا ؟ »

ــــ « كودى تل ! »

ــــ « لا تقولى لى أن هذا لم يخطر لك . أرملة ثرية وحيدة ، أو مهما كانت ؛ وفتى وسيم بلا أمكانيات نجاح ... »

قالت له جينى ، « ذلك مقزز » .

قال كودى برقة ، « إطلاقا » ، وهو يميل إلى الخلف فى كرسيه .

كانت له طريقة فى إلقاء نظرة فاحصة على الناس من تحت أجفان نصف مغمضة وهو ما أكسبه مظهرا متسامحا وخبيرا . قال ، « ليس فى هذا ما يسوء ، فى استغلال حظك . وعليك أن تقرى بأن عزرا محظوظ ؛ وُلِد محظوظا . هل لاحظت أبدا ما يحدث عندما أحضر صديقاتى ؟ إنهن يفتن به . ولقد كن كذلك منذ أن كنا أطفالا . ما الذى يرينه فيه على أية حال ؟ كيف يفعلها ؟ هل هو الحظ ؟ أنت امرأة ؛ ما سره ؟ »

قالت جينى « حقا ، يا كودى ، أود لو أنك كففت عن هذا » .

أنهى عزرا كلامه مع النادل . سأل ، « أين أمى ؟ أدير ظهرى لحظة فاذا بها تختفى » .

قال كودى ، وهو يشعل سيجارا ، « فى التواليت » .

ـ « أوه ، لماذا تفعل ذلك دائما ؟ فمزيد من الحساء فى الطريق ، طازجا من على الموقد ، يتصاعد منه البخار هذه المرة » .

سأله كودى ، « هل سيأتى به عداءون حفاة الأقدام هذه المرة ؟ »

قالت جينى ، « لا تقلق ، يا عزرا . سأذهب لأناديها » .

شقت طريقها بين المناضد ، باتجاه الممر الذى يحمل لافتة « خروج » فوق المدخل المقوس . ولكن قبل غرفة السيدات تماما ، أمام باب دوار مغطى بالجلد ، لمحت جوسيا . كان يرتدى زيه الأبيض ويحمل وعاء ماء من البلاستيك ملىء بأوراق الهندباء البرية ، قالت ، « جوسيا » .

توقف وأضاء وجهه . قال ، « هاى ، جينى » .

وقفا يبتسمان كل منهما للآخر ، بلا كلام . مدت يدها لتلمس رسغه .

صاحت أمها ، « أوه ، لا » .

جذبت جينى يدها واستدارت .

قالت بيرل ، « أوه ، جينى . أوه ، يا إلّهى » . لم تعد عيناها رماديتين ؛ كانتا سوداوين ، وقبضت على حقيبتها السوداء اللامعة . قالت ، « حسنا ، أنا أفهم كل شىء الآن » .

قالت جينى ، « لا ، انتظرى » . كان قلبها يدق بعنف حتى أنها بدت كما لو كانت تتذبذب حيث تقف .

قالت بيرل ، « تأتين لزيارتنا دون سبب واضح ، وتتسللين خارجة هذا الصباح لتقابليه مثل متشردة ، متشردة صغيرة رخيصة — »

قالت لها جينى ، « أمى ، لقد أسأت الفهم ! إنه لا شىء ، ألا ترين ؟ » شعرت أنها كانت تلهث . راحت تومىء تجاه جوسيا ، الذى وقف هناك فقط فاغر الفم ، وهى تشهق طلبا للهواء . « إنه مجرد .. مجرد أننا التقينا فى الردهة و ... ليس الأمر على هذا النحو على الإطلاق . إنه لا يعنى شيئا بالنسبة لى ، ألا ترين ؟ »

لكنها كانت مضطرة لأن تقول هذا لظهر بيرل ، وهى تهرع خلفها خلال قاعة الطعام . وصلت بيرل الى المنضدة وقالت ، « عزرا ، لا يمكننى البقاء هنا » .

نهض عزرا ، « أمى ؟ »

قالت ، « ببساطة لا أستطيع » . التقطت معطفها وانصرفت .

سأل عزرا ، وهو يستدير إلى جينى ، « ولكن ماذا حدث ؟ ما الذى يضايقها ؟ »

قال كودى ، « ذلك الحساء الفاتر ، بلا شك » ، وتأرجح إلى الخلف براحة فى كرسيه وبين أسنانه سيجار .

قال عزرا ، « أود لو أننا أمكننا ولو مرة واحدة أن ننهى وجبة من البداية للنهاية » .

قالت له جينى ، « أشعر بوعكة » .

والحقيقة أن شفتيها كانتا خدرتين . كان ذلك عرضا يبدو أنها تتذكره من قبل ، من لحظة طال نسيانها لها ، أو ربما من كابوس .

نسيت معطفها خلفها ، وهرعت خلال قاعة الطعام وانطلقت خارجة إلى الشارع . فى أول الأمر ، ظنت أن أمها قد اختفت . ثم عثرت عليها على بعد نصف بناية أمامها ـ قدا مناضلا يسير بنشاط وحيوية . أوه ، ماذا لو أنها حتى لم تلتفت ؟ أو ما هو أسوأ ، لو أنها التفتت وانقضت ، تصفع ، تعض ، وخاتم اللؤلؤ المخلبى ، ووجهها العليم .. لكن جينى عدت لتلحق بها ، على أية حال . قالت . « أمى » .

وفى الضوء المنبعث من نافذة متجر الخمور ، رأت أمها ووجهها يتخذ تعبيرا جديدا ـ فيكتسى بنظرة باردة هادئة .

قالت جينى لها ، « لقد أسأت فهم الأمر كله . لست متشردة ! لست رخيصة ! أمى انصتى إلىّ » .

قالت بيرل بأدب ، « لا يهم » .

ـــ « بالطبع يهم ! »

ـــ « أنت فوق الواحدة والعشرين . إذا لم تميزى بين ما هو طيب وما هو ردىء الآن ، فلم يعد هناك ما أستطيع أن أفعله » .

قالت جينى ، « شعرت بالأسف من أجله » .

عبرنا طريقا ، وشرعنا نقطعان البناية التالية .

قالت جينى ، « قال لى إن أمه قد ماتت » .

انحرفنا حول مجموعة من الفتية المراهقين .

ـــ « كانت كل ما لديه ـ أبوه متوف أيضا . كانت مركز حياته » .

قالت بيرل ، « حسنا ، أظن أن الأمر لم يكن سهلا بالنسبة لها » .

ـــ « لا أدرى كيف سيدبر أمره الآن وقد رحلت » .

قالت بيرل ، « أعتقد أننى رأيتها فى متجر البقالة ذات مرة . أليست امرأة ذات شعر بنى ؟ »

ـــ « ممتلئة نوعا ما » .

ـــ « ممتلئة الوجه ؟ »

قالت جينى ، « مثل طائر الغابة المغرد » .

قالت بيرل ، « أوه ، جينى » ، وأطلقت ضحكة قصيرة ، « الأشياء التى تصدر منك ، أحيانا » .

اجتازنا متجر الحلوى ، ثم الصيدلية ، تناغمت خطى جينى وأمها . اجتازتا نافذة قارئة الطالع . كان نفس المصباح المغبر يتوهج على المنضدة . قالت جينى لنفسها ، وهى تلقى نظرة بالداخل ، إن مسز باركنز لم تكن عرّافة جيدة . وكيف لها وقد كان عليها حتى أن تنصت إلى الراديو من أجل طقس الغد ! وكان عليها أن تخمن من اللحظة الأولى ، من أقصر نظرة خاطفة أن جينى لم تكن قابلة لأن يدمرها الحب .

[٤]

إشاعات القلب

لم يجد عزرا عناء فى زيارة مسز سكارلاتى ، فى المرات الأولى القليلة التى أقامت فيها فى المستشفى . لكن المرة الأخيرة كانت أكثر صعوبة . كانت الممرضة لتسأله ، « قريب ؟ »

ـ « لا ، آه ، أنا شريكها فى العمل » .

ـ « آسفة ، الأقارب فقط » .

ـ « ليس لها أى أقارب . أنا كل ما لديها ، انظرى ، هى وأنا نملك المطعم معا » .

ـ « وما هذا الذى فى البرطمان ؟ »

ـ « حساؤها » .

قالت الممرضة ، « حساء » .

ـ « أنا أعمل الحساء الذى تحبه » .

ـ « مسز سكارلاتى لا يستقر شىء فى معدتها » .

ـ « أعرف ذلك ، لكننى أردت أن أعطيها شيئا » .

كان هذا يجعلها تنظر إليه نظرة مائلة ، قبل أن تقوده بشكل فظ داخل حجرة مسز سكارلاتى .

فى الماضى ، كانت لتختار أن تقيم فى عنبر . (كانت امرأة اجتماعية للغاية) . كانت لتجلس معتدلة القامة مرتدية رداءها الخارجى المفتوح الأسود المثير ، تخفى شعرها ملفعة زاهية الألوان ، وكانت تقول حين يدخل ، « يا عزيزى العذب » . وللحظة كانت النساء الأخريات يسترقن السمع وينظرن باهتمام ، حتى يدركن كم كان شابا - صغير السن للغاية بالنسبة لمسز سكارلاتى . لكنها الآن أصبحت لها غرفة خاصة ، وأقصى ما يمكن أن تفعله حين يصل أن تفتح عينيها ثم تغمضهما بضجر . لم يكن حتى واثقا أنه موضع ترحيب بعد ذلك .

كان يعلم أن شخصا ما كان ليرمى حساءه بعد أن يرحل . لكنه كان حساء القوانص الخاص الذى يروق لها دائما . كان به عشرون فصا من الثوم . كانت مسز سكارلاتى تزعم أنه يروِّق معدتها ، ويلطف أعصابها ـــ تقول إنه يغير إدراكها الحسى لليوم . (لم يكن ، على أية حال ، على قائمة المطعم لأنه كان « قويا » - وهى كلمتها - ولأن مطعم سكارلاتى كان مطعما مرفها ورسميا للغاية . كان ذلك يؤذى مشاعر عزرا قليلا) . عندما كانت حالتها تتحسن بما يكفى لأن تذهب للبيت ، كان فى أغلب الأحيان يعد حصصا مفردة من الحساء فى مطبخ المطعم ويحملها إلى شقتها فى الطابق العلوى . وحتى فى المستشفى ، فى تلك المرات القليلة الأولى ، كان بإمكانها أن تتحمل ملء وعاء صغير الحجم منه . لكنها الآن كانت قد تجاوزت هذا . كان يحضر الحساء فقط بدافع من يأسه ؛ كان ليفضل أن يركع بجوار سريرها ويريح رأسه على ملاءاتها ، أن يتناول يديها بين يديه ويقول لها ، « مسز سكارلاتى ، عودى » . لكنها لم تكن امرأة يروق لها مثل هذا الهراء ؛ كانت لتبدو

عليها صدمة . كل ما أمكنه أن يفعل هو أن يقدم لها حساءه .

جلس فى ركن من الغرفة فى كرسى من البلاستيك الأخضر له ذراعان معدنيتان . كان الوقت أكتوبر وقد أهلّت الحرارة والرطوبة . وللهواء ملمس حاد وجاف . وكان سرير مسز سكارلاتى قد رفع قليلا إلى أعلى لمساعدتها على التنفس . كانت تقول من وقت لآخر ، دون أن تفتح عينيها ، « أوه ، يا الله » . وكان عزرا ليسألها ، « ماذا ؟ ماذا بك ؟ » . وكانت لتتنهد (أو ربما كان ذلك مبرد الهواء) . لم يحضر لها عزرا أبدا شيئا تقرؤه ، ولم يتبادل الحديث مع الممرضات اللاتى كانت نعالهن المطاطية تصدر صريرا وهن يدخلن أو يخرجن . كان يجلس فقط ، ينظر إلى يديه الشاحبتين بحجمهما الكبير ، اللتين كانتا ترقدان متراخيتين على ركبتيه .

كان قد ازداد وزنا قبل ذلك . لم يكن قريبا من البدانة ، لكنه قد لان وتمدد بذلك الشكل المخفف الذى يحدث للرجال الشقر . نقص الوزن الآن . كان يجد صعوبة الآن فى إبقاء الأشياء فى معدته ، شأن مسز سكارلاتى . كانت ملابسه الواسعة اللينة تغطى هيكلا عريضا ليناً يبدو ذا بعدين بشكل شاذ ، مسطحا مثل الورق حين تنظر إليه من جانبه ، عريض من الأمام وعريض من الخلف . وكان شعره يتدلى إلى الأمام فى حزمة ، شأن القمح . لم يكن يعبأ بدفعه إلى الخلف .

لقد مر هو ومسز سكارلاتى خلال الكثير معا ، لو أنه سئل لكان قد قال هذا ـ لكن ماذا بالضبط ؟ كان لها زوج سيىء (مسألة حظ ، كما صورتها ، مثل زجاجة نبيذ فاسدة) وتخلصت منه ؛ وقد فقدت ابنها الوحيد ، فى عمر عزرا ، خلال الحرب الكورية . لكنها عانت كلا الحدثين وحدها ، قبل أن تبدأ مشاركتها لعزرا . وعزرا نفسه : حسنا ، لم يكن قد مر بأى شىء بالفعل بعد . كان فى الخامسة والعشرين ومازال

بلا زوجة أو أطفال ، ومازال يعيش فى البيت مع أمه . وقد استطاع كل منهما ، كما كان يبدو ، أن يصمد سنة تلو الأخرى أمام بقاء الوضع على ما هو عليه . وقد كان أن وحّدا حياتها التى انطوت فى مكان ما في الماضى ، وحياته التى ظلت تؤجل وصولها ، وظلا يدعمان أحدهما الاخر فى الفضاء . كان عزرا ممتنا لمسز سكارلاتى لإنقاذه من وجود لا مبال ولا هدف له ، وتعليمه كل ما كانت تعرفه ؛ وأكثر من هذا لحقيقة أنها كانت تعتمد عليه . فلولاها ، لمن كان سيلجأ ؟ كان أخوه وأخته بعيدين فى العالم ؛ كان يحب أمه بإعزاز لكن كان بها شيء من الانفعال العاطفى يبقيه أبدا حريصا . وبمعايير الناس الآخرين ، حتى هو ومسز سكارلاتى ما كانا ليبدوان حميمين بشكل خاص . كان يناديها دائما « مسز سكارلاتى » . وكانت تنادى عزرا بفتاها ، ملاكها ، لكنها فيما عدا ذلك كانت متباعدة بشكل ملحوظ ، ولا تسأل أسئلة عن حياته خارج المطعم أبدا .

كان يعرف أن المطعم سيؤول إليه بالكامل حين تتوفى . فقد قالت له ذلك ، قبل هذه الإقامة الأخيرة فى المستشفى بالضبط . وقد قال ، « أنا لا أريده » . صمتت . لابد أنها فهمت أن تلك كانت فقط طريقته فى الكلام . وبالطبع ، لم يكن **يريده** ، بمعنى الطمع فيه (فلم يكن يقدر المال كثيرا أبدا) ، ولكن ماذا كان ليفعل غير هذا ؟ على أية حال ، لم يكن لها أى شخص آخر تتركه له . رفعت يدها وتركتها تسقط . لم يذكرا الموضوع مرة أخرى .

وذات مرة ، أقنع عزرا أمه أن تأتى لزيارتها . كان يحب أن يتفق الناس المختلفون فى حياته ، على الرغم من أنه يعرف أن ذلك صعب التحقيق فى حالة أمه . كانت تتكلم عن مسز سكارلاتى بارتياب ، بل

بغيرة . « لا يمكننى أن أتخيل ماذا ترى فى مثل هذه المرأة . فهى صارمة الوجه تماما ، هذا ما هى عليه ، على الرغم من ثيابها التى تتفق وأحدث صيحات الموضة . يبدو أن وجهها لا يحاول أن يبدل فى ملامحه . هل تعرف ما أعنيه ؟ كما لو كانت لا تهتم بأن تبذل مجهودا . لا شىء من أحمر الشفاه ، وتلك الخطوط السوداء الفحمية حول عينيها ... وهى لا تكاد تبتسم للناس » .

لكن أما وقد أصبحت مسز سكارلاتى مريضة للغاية الآن ، فقد احتفظت أمه بأفكارها لنفسها . ارتدت ثيابها بعناية من أجل زيارتها وارتدت قبعتها الشبكية ، مما جعل عزرا سعيدا . فقد كان يربط بين تلك القبعة وبين المناسبات العائلية السعيدة . كان مسرورا أنها اختارت معطفها الأسود الذى ترتديه أيام الأحد ، رغم انه لم يكن دافئا مثل معطفها الأحمر الداكن الذى كانت ترتديه كل يوم .

قالت لمسز سكارلاتى فى المستشفى ، « ماذا ، أنت تبدين فى أتم عافية ! ما كان أحد ليخمن أبدا » .

لم يكن هذا صحيحا . لكن كان لطيفا منها أن تقول هذا .

قالت مسز سكارلاتى بصوتها الخشن ، « لابد أن ينتقل عزرا إلى شقتى بعد أن أموت » .

قالت أمه ، « الآن ، دعينا من ذلك الحديث الأحمق » .

سألتها مسز سكارلاتى ، « أيهما أحمق ؟ » لكنها عندئذ غلبها الإرهاق ، وأغمضت عينيها . أساءت أم عزرا الفهم . لابد أنها فكرت أنها كانت لتسأل عما كان أحمق فى هذا القول . كان ذلك سؤالا بلاغيا ، فسوت تنورتها حولها بابتهاج وقالت ، « حمق كامل ، لم أسمع أبدا مثل هذا الهراء » . فهم عزرا فقط ما تعنيه مسز سكارلاتى . أيهما أحمق ،

كانت تسأل ـ موتها أو انتقال عزرا ؟ لكنه لم يهتم بتفسير ذلك لأمه .

ومرة أخرى ، حصل على إذن خاص من مكتب الممرضات بإحضار بضعة رجال من المطعم ـ تود دكيت ، جوسيا بيسون ، وريموند صانع الصلصة . كان بإمكانه أن يرى أن مسز سكارلاتى كانت مسرورة لرؤيتهم ، على الرغم من أنها كانت زيارة محرجة . وقف الرجال حول حواف الغرفة وتنحنحوا مرارا وتكرارا ولم يقبلوا الجلوس .

قالت مسز سكارلاتى ، « حسنا ، هل مازلتم تشترون كل الأشياء طازجة ؟ » أدرك عزرا كم فقدت اتصالها بالواقع من انعدام ملاءمة السؤال (فلم يكن أى منهم مرتبطا بعملية الشراء) لكن هؤلاء الناس ، أيضا ، كانوا لبقين . سعل تود دكيت سعلة مغمغمة ثم قال ، « أجل ، يا سيدتى ، تماما مثلما كنت لتحبين » .

قالت مسز سكارلاتى ، « أنا متعبة الآن » .

في آخر القاعة رقدت امرأة نحيلة في غيبوبة ، ورجل موغل فى الهرم مع زوجة ضئيلة القد سمح لها أن تنام فى سرير خفيف فى غرفته ، وشخص أجنبى أسمر تضفى جماهير زواره من الأقارب على المكان مظهر سيرك غجرى . علم عزرا أن المرأة الفاقدة الوعى تعانى من السرطان ، والرجل العجوز من مرض نادر فى الدم ، والأجنبى من مشكلة قلبية ما ـ لم تكن طبيعتها واضحة . قالت له طفلة داكنة البشرة وغريبة الطباع من المؤكد أنها كانت أصغر من أن تقوم بزيارة فى مستشفى ، « إشاعة فى القلب » .

كانت تقف خارج باب غرفة المريض الأجنبى ، وهى تلف بنعومة

لعبة اليويو .

ـــ « **لغط** فى القلب ، ربما » .

ـــ « لا ، إشاعة » .

كان عزرا قد بدأ يشعر بالوحدة هنا ويود لو صادق أحدا . وكانت الممرضات يطردنه دائما بينما هن يقمن بعمل شىء غامض لمسز سكارلاتى ، فيقضى جل وقت أى زيارة وهو يستند مغتما إلى الحائط خارج غرفتها ، أو يحدق من نوافذ المستنبت الزجاجى الذى يقع فى نهاية الممر . لكن لم يبد أن هناك من يمكن الاقتراب منه . كان هذا الجناح مختلفا عن الأجنحة الأخرى ـ أكثر سكونا ـ وكل من يلقاهم لهم مظهر منعزل منفر . الطفلة الأجنبية وحدها هى من تكلمت معه . قالت ، « أظن أنه سيموت » . لكنها لم تلبث أن عادت إلى لعبة اليويو . تسكع عزرا فترة أطول ، لكن من الواضح أنها لم تجده مثيرا جدا .

كانت سلال الخضراوات : خس بيب ، خس بوسطون ، هندباء هندية ، بقل الهندباء ، تنقط ماء على النضد فى وسط المطبخ . فى حين أن خضراوات المطاعم الأخرى كانت تقوم بتسليمها شاحنات مجهولة الهوية ، شديدة الرطوبة ، تفوح منها رائحة القمامة ، كان لمطعم سكارلاتى رجل يدعى بيردى ، يتسوق بشخصه لهم كل صباح قبل شروق الشمس . كان يحضر كل شىء إلى المطبخ فى سلال منفصلة ، حوالى الثامنة صباحا ، وكان عزرا حريصا على أن يكون هناك حتى يعرف أنواع الأطعمة التى عليه أن يتعامل معها فى ذلك اليوم . أحيانا لم يكن هناك باذنجان ، وأحيانا ضعف العدد المطلوب . وفى فترات كهذه ـ نوفمبر الكاسد ، الآن ـ لم يكن أى شىء يزرع محليا ، وينبغى

لمستر بيردى أن يلجأ إلى خضراوات تزرع فى أماكن أخرى ، جزر رخو وخيار شمعى يشحن من خارج الولاية . والطماطم ! كانت فى حالة سيئة . قال مستر بيردى وهو يلتقط واحدة ، « الق مجرد نظرة ، يقول لى الفتى ، « مزروعة على تعريشات الكروم » . مزروعة على تعريشات الكروم ، نعم . أود أن أراها مزروعة على أى شىء آخر . أقول ، « لكنها أنضجت ؟ بأى طريقة أنضجت ؟ » ويؤكد لى الفتى ، « أنضجت على تعريشات الكروم ، أيضا » . حسنا ، ربما . لكننى فى هذه الأيام لا أدرى ، كلها لها طعم كما لو كانت قد قضت ستة أسابيع على حافة نافذة . كما لو كانت قد صنعت من حافة نافذة ، أو السليولويد أو الممحايات . حسنا ، أقول لك يا عزرا : إننى أعتذر . يدمى قلبى أن أجلب لك مثل هذه القمامة ؛ وأفضل ألا أجىء على الإطلاق » .

كان مستر بيردى رجلا مهذبا ، ضئيل الحجم ، يرتدى حلة عمال وقميصا أبيض ، ومعطفا أسود لامعا . كان له وجه ضيق يبدو عليه أبدا عدم الاستحسان ، حتى أثناء موسم الزراعة . غير أن عزرا كان يعلم فى قرارة نفسه أن الرجل يحيط به شىء معضّد وكريم . كان مستر بيردى يبتهج بالطعام قدر ابتهاج عزرا به ، ولنفس الأسباب ـ لا ليأكلها هو نفسه وإنما ليقدمها للآخرين . كان مرة قد دعا عزرا إلى بيته ، مقطورة فضية اللون على طريق ريتشى الزراعى ، وقدم له وجبة تتألف فقط من نبات الهليون ، الذى اتفق كل من عزرا والرجل على أن له طعم المحار الذى يراود المرء كثيرا . كان مسز بيردى ، وهى امرأة باسمة الثغر ، مستديرة الوجه تجلس فى كرسى للمقعدين ، قد ادعت أنهما يتكلمان مثل المجانين ، لكنها أتت على طبقين من الحجم الكبير بينما راح الرجلان يراقبانها بحنان . كان مما يبعث على الرضا أن يريا كيف كانت تلتهم طبقها المكسو بالزبد .

قال عزرا ، « لو أن هذا المطعم كان فقط ملكى ، لما قدمت طماطم فى الشتاء . فاذا طلب الناس طماطم لقلت لهم ، « فيم يمكن أن تفكروا ؟ ليس هذا موسمها » ، ولأعطيتهم شيئا أفضل » .

قال مستر بيردى ، « كانوا ليرقصون خارجين » .

ـ « لا ، فقد يصيبونك بالدهشة . وكنت لأضع سبورة ، أكتب عليها كل يوم مجرد طبقين طيبين أو ثلاثة . طبعا ! إنهم يفعلون ذلك فى فرنسا طوال الوقت . أو ما كنت لأقدم اختيارا قط ؛ أتفحص الناس وأقول ، « تبدو متعبا قليلا . سوف أحضر لك يخنى عكاوى ». »

قال مستر بيردى.، « كانت مسز سكارلاتى لتموت » .

حلت لحظة صمت . حك لحيته المنتصبة الشعر ، ثم صحح نفسه ، « كانت لتتقلب فى قبرها » .

تسكعا حول المكان قليلا .

قال عزرا ، « أنا لا أريد مطعما حقا ، على أية حال » .

قال مستر بيردى ، « مؤكد . أعلم ذلك » .

ثم ارتدى قبعته الجوخية السوداء ، وغرق فى التفكير لحظة ، وانصرف .

كانت الطفلة الأجنبية نائمة فى الممستنبت الزجاجى ، ورأسها مستند إلى ذراع كرسى معدنية من الصلب الذى لا يصدأ مثل الكرسى الذى يوجد بغرفة مسز سكارلاتى . جعل هذا عزرا يجفل . أراد أن يطوى معطفه وأن يدسه تحت وجنتها ، لكن أقلقه أن يوقظها هذا . ولذا فإنه

ظل بعيدا ، ووقف عند واحدة من النوافذ يحدق فى المارة بعيدا هناك تحته . كم كانت أقدامهم تبدو صغيرة وواثقة ، تنبثق من هيئتهم المُقصّرة ! أدهشة فجأة قدرة الجنس البشرى على المثابرة .

دخلت امرأة الحجرة ـ واحدة من الأجانب . كان لون بشرتها فاتحا أكثر من الآخرين ، لكنه عرف أنها أجنبية من خفيها اللذين كانا متناقضين مع ثوبها الصوفى الغالى الثمن . كانت العائلة بأكملها ، كما لاحظ ، تغير أحذيتها بأخفاف ما أن تصل كل صباح . كانوا يتصرفون على راحتهم بكل طريقة ممكنة ـ يعرضون أكياس اللب والفول السودانى وأطعمة تفوح برائحة التوابل ، بل إنهم ذات مرة راحوا يخمرون ربع جالون من اللبن الزبادى على شبكة أنابيب التدفئة فى المستنبت الزجاجى . كان الرجال يدخنون السجائر فى الصالة ، والنساء يهمهمن معا وهن ينسجن بالإبر سترات فاقعة الألوان .

دنت المرأة من الطفلة الآن ، مالت فوقها ، ودست شعرها إلى الخلف . ثم رفعتها بين ذراعيها واستقرت فى الكرسى . لم تستيقظ الطفلة . استكانت فقط لصقها وتنهدت . كان بإمكان عزرا ، إذن ، أن يضع معطفه تحت رأسها . لقد ضاعت منه فرصة . كمن فاته القطار ـ أو ما هو أهم ، شيء لن يعود ثانية أبدا . لم يكن هناك تفسير للحزن الذى ملأه فجأة .

قرر أن يشرع فى تقديم حساء القوانص الخاص به فى المطعم . جعل النادلين يعلنون عنه للعملاء حين يقدمون لهم قائمة الطعام . « بالإضافة إلى أصناف الحساء التى ترونها هنا ، يسرنا أن نقدم الليلة ... » كان أحد النادلين قد تغيب واستأجر عزرا امرأة لتحل محله ـ وهو ضد

سياسة مسز سكارلاتى تماما . (كانت تقول إن النادلات ينتمين إلى حانة موقف الشاحنات) . أحسنت المرأة فى تعاملها مع الحساء أكثر من الرجال . كانت تقول ، « جربوا حساءنا من القوانص . فهو ساخن حقا وبه ثوم ومصنوع بحب » . فى الخارج كان الجو قارس البرد ، وكانت المرأة دافئة ومعينة للغاية ، فأخذ باقتراحها قوم أكثر وأكثر . فكر عزرا أن يستأجر امرأة ثانية ، فى المرة القادمة التى يترك العمل فيها نادل ، وربما واحدة أخرى بعد ذلك ، وهكذا .

فى الأسبوع التالى قام بإجراء تجربة طبق سرطان البحر بالبهارات من اختراعه ، ثم طبق حساء سبانخ دسم ، وعندما اشتكى النادلون من كل ما كان عليهم أن يتذكروه انطلق أخيرا واشترى سبورة . كتب أعلاها « أطباق مخصوصة » . ولكن عندما سألت مسز سكارلاتى فى المستشفى كيف كانت الأمور تسير ، لم يذكر أيا من هذا . جلس مائلا إلى الأمام ، بدلا من ذلك ، وعقد يديه وقال ، « على ما يرام . أم ... على ما يرام » . وإذا كانت قد لاحظت أى شىء غريب فى صوته ، فإنها لم تعلق عليه .

كانت مسز سكارلاتى دائما امرأة نحيلة ، سمراء ، مترهلة الحركة ، ذات أسلوب مزدر بدرجة طفيفة . صحيح أنها ، كما قالت أم عزرا ، تعطى الانطباع بأنها لا تكترث بما يراه الناس فيها . لكن ذلك كان جزءا من سحرها - عيناها الناعستان ، لا تكادان تتجشمان عناء أن تظلا مفتوحتين ، ونبرة صوتها اللامبالية . وكانت الآن تغالى . اتخذ جلدها مظهر الحجر الشاحب ، وبدأ وجهها يأخذ سمت أبى الهول ، كله مسطحات مستوية وخطوط مستقيمة . حتى شعرها بدا أشبه بشعر أبى

الهول - وتد قصير أسود ، **كتلة** من الشعر ، كليلة وخشنة . أحيانا كان عزرا يعتقد أنها لم تكن تحتضر وإنما تتحجر . وجد مشقة فى تذكر ضحكتها الخافتة ، وصلفها العرضى . (اعتادت أن تقول ، « يا عزيزى العذب » وهى تصدر له أمرا بالقيام بمهمة ، وهى ترعش أصابع واهنة . « أيها الفتى الملاك ... ») . لم يشعر أبدا أنه كان أكثر من فتى فى الثانية عشرة فى حضورها ، لكنه كان الآن عتيقا ، والدها أو جدها . كان يسرى عنها ويداعبها . لم يكن كل ما تقوله هذه الأيام واضحا تماما . همست ذات مرة ، « على الأقل ، لم أجعل نفسى أبدا موضع سخرية ، يا عزرا ، أليس كذلك ؟ » .

سألها ، « موضع سخرية ؟ »

ــ « معك » .

ــ « معى ؟ بالطبع لا » .

تحير ، ولابد أنه أظهر شيئا من هذا ؛ ابتسمت وأرجحت رأسها على الوسادة . قالت له ، « أوه ، كنت دائما طفلا محبوبا للغاية » . لابد أن هذا كان طوافا عقليا وقتيا . (فهى لم تعرفه طفلا) . قالت ، « إنك تأخذ الأمور على علاتها » . ربما كانت تخلط بينه وبين بيلى ، ابنها . أشاحت بوجهها عنه وأغمضت عينيها . شعر بالقلق فجأة . تذكر ذلك الوقت الذى كادت أمه تموت فيه ، عندما أصابها سهم انطلق بشكل سيىء بجرح ـ خطأ عزرا كلية ؛ عزرا ، الشخص المتعثر فى العائلة . كان قد صاح ، « آسف جدا ، آسف ، آسف » لكن الاعتذار لم يقبل مطلقا لأن أخاه ناله اللوم بدلا منه ، كما نال أباه الذى اشترى لعبة إطلاق السهام . وأفلت عزرا ، طفل أمه المفضل ، دون لوم . ترك دون صفح ـ دون راحة ، كما يمكنك أن تتوقع ، لكنه مثقل الضمير إلى

الأبد . قال الآن ، « أنت مخطئة » . وارتعشت جفون مسز سكارلاتى فى تجعيدة لكنها فشلت فى أن تنفرج . قال ، « أود لو أنك فهمتنى فهما صحيحا . أن ترى من **أنا** ، أنا عزرا » . ثم (دون سبب منطقى) مال لصقها وقال ، « مسز سكارلاتى . هل تذكرين حين تركت الجيش ؟ سُرِّحت بسبب المشى أثناء النوم ؟ وأعدت إلى البيت ؟ مسز سكارلاتى ، لم أكن فى الواقع نائما طول الطريق . أعنى ، أننى كنت أعرف ما أفعله . لم **أخطط** كى أمشى أثناء النوم ، لكن جزءا منى كان واعيا ، يلاحظ ما يحدث ، وبإمكانى أن أوقظ الباقى منى لو حاولت . كان لدىّ ذلك الشعور أننى أتفرج على حلم ، حيث تستطيعين أن تبدديه فى أى لحظة . لكننى لم أفعل ؛ كنت أريد أن أعود للبيت . كنت أريد فقط أن أترك الجيش ، يا مسز سكارلاتى . ولهذا لم أوقف نفسى » .

لو أنها سمعت (وابنها الوحيد بيلى قد تمزق إلى شظايا فى كوريا) لنهضت ، رغم مرضها ، وصاحت ، « اغرب ! اغرب عن حياتى ! » ولذا فلابد أنها قصرت عن فهمه ، لأنها أرجحت رأسها فقط مرة أخرى وابتسمت وواصلت نومها .

بعد صلاة عيد الشكر مباشرة ماتت المرأة التى كانت فى غيبوبة ، والرجل العجوز الضئيل إما مات أو عاد لبيته ، لكن الأجنبى بقى وظل أقاربه يزورونه . أما وقد عرفوا عزرا الآن بالرؤية ، فإنهم كانوا يرحبون به حين يمر . كانوا ينادونه « تعال ! » وكان يدخل ، خجولا ومسرورا ، ويقف معهم عدة دقائق وقبضتاه محبوستان فى إبطيه . كان الرجل المريض مصفرا وغائر الوجنتين ، مثبتا إلى عدد من الأنابيب ، لكنه كان يحاول دائما أن يبتسم لدى دخول عزرا . تولد لدى عزرا انطباع بأنه لا يعرف الانجليزية . كان الآخرون يتكلمون الانجليزية

طبقا لأعمارهم ـ الطفل بطلاقة ، والشبان بلكنة قوية جذابة ، والكبار بشرائح ممزقة . ورغم ذلك فإنه حتى أكثرهم طلاقة كان ينتهى به الأمر إلى نسيان نفسه والانجراف إلى لغته الأصلية ـ لغة موسيقية ، ذات حروف متحركة مستديرة تكسب شفاههم شكلا عضليا ، ناتئا ، أسيانا ، كما لو كانوا يستهجنون الأشياء بشكل دائم . راق لعزرا أن ينصت إليهم . قال لنفسه إنك عندما لا تستطيع أن تفهم ما يقوله الناس ، فكم من الروابط والصلات فى علاقتهم تصبح بارزة ! كان وجه امرأة يضىء ويتفتح وهى تستدير نحو رجل معين ؛ كان صوت ألم شائك ينبعث من المريض فتنثنى زوجته على نفسها . وعندما تنزعج الطفلة فإنها كانت تربت ساعة معصم أمها الذهبية التماسا للعزاء .

وذات مرة راحت فتاة صغيرة ذات ضفائر تغنى أغنية بلا لحن تقريبا . كانت تنتقل من نغمة إلى نغمة كأنما بالصدفة . ثم ألقى رجل ذو شارب أسود كثيف ما كان بالضرورة قصيدة . كان يتكلم بجزالة وبلا حرج حتى أن المارة ألقوا نظرة إلى الداخل ، وعندما انتهى ترجمها لعزرا ، « أيا أيها الميت ، لماذا مت وقت الربيع ؟ أنت لم تذق بعد العصير ، أو سلطة الخيار » . ياالله ، حتى شعرهم كان يصور أمورا تمس شغاف قلب عزرا .

وبحلول شهر ديسمبر كان قد أحل نادلات حانيات مرحات محل النادلين الذين يرتدون حللا سوداء ، وتخلص من قوائم الطعام البيج السميكة وشرع يدون قائمة بأطباق كل يوم على السبورة . وكان هذا يعنى أن كل الطباخين قد رحلوا ، بطبيعة الحال (فلم تكن أى من الأطباق أطباقهم ، أو النوع الذى يفضلونه) ، ولذا فإنه قام بمعظم عمليات الطهو بنفسه ، بمساعدة امرأة من نيوأورليانز وأخرى

مكسيكية . كان للاثنتين وصفات خاصة بهما أيضا ، بعضها لم يذقه عزرا من قبل مطلقا ؛ أخذته النشوة . صحيح أن الزبائن بدت عليهم الدهشة ، لكنهم تلاءموا ، كما ظن عزرا . أو تلاءم معظمهم .

أصبح الآن محموما بأفكار جديدة ، يستيقظ فى الليل تواقا إلى أن يشاركه فيها أحد . لم لا يكون المطعم مليئا بالثلاجات ، حيث يأتى الناس ويختارون الطعام الذى يريدونه ؟ كان بإمكانهم أن يعدوه بأنفسهم على موقد طويل ، طويل يبطن حائطا من حوائط قاعة الطعام . أو ربما كان بإمكانه أن يقوم بتركيب شواية ضخمة بعجل كامل يدور ببطء على سفود . كان بإمكانك أن تقطع ما تريد من شرائح على طبقك وتجلس حولها فى مقاعد بمساند وتتحدث مع الضيوف بصورة عامة . ثم ربما يمكنه أيضا أن يشرع فى تقديم طعام الشوارع . طبعا ! سوف يطهى ما يشعر الناس بالحنين إليه فى موطنهم ـ كعكات مطوية مقلية بها قطع صغيرة من اللحم والخس مثل الكعكات التى تشتريها من عربات البائعين فى كاليفورنيا ، والتى كانت المرأة المكسيكية تتحرق شوقا إليها ؛ وذلك الكباب المدهش بالخل من كارولينا الشمالية الذى كانت أم تود دكيت تضطر إلى أن تجلبه له معها عدة مرات فى السنة فى أكواب من الكرتون . وسوف يزيل اللافتة السوداء المذهبة القديمة ...

لكنه عندئذ رأى اللافتة ، **مطعم سكارلاتى** ، فتأوه وضغط عينيه إلى أصابعه وتقلب فى سريره .

قالت المرأة ذات البشرة الفاتحة ، « إن لديكم بلدا جميلا » .

قال عزرا ، « شكرا » .

ـــ « وكل تلك الخضرة ! وطيور كثيرة للغاية . فى الصيف

الماضى ، قبل أن يمرض حماى ، كنا نستأجر بيتا فى نيوجيرسى . يسمونها ولاية الحدائق . كانت هناك ورود فى كل مكان . كنا نجلس على النجيل بعدّ العشاء ونصغى إلى طيور العندليب » .

قال عزرا ، « الـ ... ماذا ؟ »

ــــ « العندليب » .

ــــ « العندليب ؟ فى نيوجيرسى ؟ »

قالت ، « بالطبع . أيضا راق لنا التسوق . على الأقل محل كورفيت . فزوجى يحب الـ ... ماذا تسمونها ؟ الحلل التى يتساقط منها الماء حتى تجف » .

أنَّ الرجل المريض وتقلب فى فراشه ، وكاد يزيح أنبوبا يدخل ظهر رسغه . مالت عليه زوجته ، وهى امرأة طاعنة فى السن أشبه بورقة ، وربتت على يده . تمتمت بشىء ، ثم استدارت إلى المرأة الشابة . رأى عزرا أنها كانت تبكى . لم تحاول أن تخفى دموعها لكن بكت علنا ، والدموع تسيل على وجنتيها . قالت المرأة الشابة ، « آه » ، وتركت جانب عزرا ومالت فوق الزوجة . احتضنتها مثلما احتضنت الطفلة قبل ذلك . عرف عزرا أن عليه أن يرحل ، لكنه لم يفعل . فبدلا من ذلك استدار وراح يحدق من النافذة ، وهو يميل برأسه قليلا ويبدو غير مكترث ، مثلما يفعل بعض الرجال عندما يرنون جرس باب ويقفون فى الشرفة الخارجية ، ينتظرون أن يلاحظهم أحد وأن يدعوهم للدخول .

جلست جينى ، أخت عزرا ، إلى مكتبها فى حجرة نومها القديمة ، تقرأ كتابا علميا باليا . كانت أخاذة الجمال ، حتى وهى ترتدى نظارة قراءة ، ورداء الحمام المبطن بشكل متجعد الذى حال لونه وكانت تتركه

دائما على خطاف فى خزانتها لتستخدمه عند زيارتها لموطنها . توقف عزرا عند مدخل حجرتها وحدق فى الداخل . سألها « جينى ؟ ما الذى تفعلينه هنا ؟ »

قالت ، « ظننت أن علىّ أن أنعم بمتنفس » . نزعت نظارتها وألقت عليه نظرة غاشية ينقصها التركيز .

ــ « لم تحن بعد عطلة نصف السنة الدراسية ، أليس كذلك ؟ »

ــ « عطلة نصف السنة الدراسية ! هل تظن أن طلبة الطب لديهم وقت لمثل هذه الأشياء ؟ »

ــ « لا ، حسنا » .

لكنها في الآونة الأخيرة كانت تعود إلى البيت في أغلب الأحيان ، هكذا بدا الأمر له . ولم تكن تذكر هارلى ، زوجها ، أبدا . فلم تشر إليه مرة طوال الخريف ، وربما حتى طوال الصيف .

كانت أمه قد قالت مؤخرا ، « رأيى أنها تركته . أوه ، لا تدع الدهشة ! فلابد أن هذا خطر لك . ها هى تنتقل فجأة إلى عنوان جديد ـ أقرب إلى الكلية ، كما تزعم ـ ثم لا يمكنها أن تقبل أن نزورها ، فى أى وقت أعرض ذلك ؛ وهى دائما مشغولة أو تستعد لاختبار مفاجىء ، وعندما أتحدث إليها هاتفيا ، فليس هارلى هو من يجيب أبدا ، ليس هارلى هو من يرفع السماعة مرة واحدة مطلقا . ألا يبدو لك هذا غريبا ؟ لكننى غير قادرة على مفاتحتها فى الموضوع . أعنى أنها تراوغنى ، إذا كنت تعرف ما أعنيه . بشكل ما لا أستطيع تماما أبدا ... يمكنك أنت رغم ذلك . فقد كانت دائما تشعر أنها أقرب إليك منى أو من كودى . ألا تسألها فقط عن حقيقة الأمر ؟ »

لكنه الآن وهو يتسكع فى المدخل ، محاولا أن يجد سبيلا ما لينفذ

الى حديث ، أعادت جينى نظارتها إلى مكانها وعادت إلى كتابها . شعر أنها تطرده . قال ، « أم ، كيف حال الأشياء فى بولام ؟ »

قالت ، وعيناها تفحصان الأحرف المطبوعة ، « على ما يرام » .

ـــ « هل هارلى بخير ؟ »

حل صمت عميق متفحص .

قال عزرا ، « يبدو أننا لم نعد نراه مطلقا » .

قالت جينى ، « هو بخير » .

قلبت صفحة .

انتظر عزرا فترة أطول ، ثم اعتدل فى وقفته عند المدخل ونزل الى الطابق السفلى . وجد أمه فى المطبخ ، تفرغ أصناف بقالة . سألته « حسنا ؟ »

ـــ « حسنا ، ماذا ؟ »

ـــ « هل تحدثت مع جينى ؟ »

ـــ « آه ... »

كانت لا تزال ترتدى معطفها ؛ دست يديها فى جيوبها وواجهته مباشرة ، وكعكة شعرها تنزلق على خلف رأسها . قالت له ، « لقد وعدت . أقسمت أن تحادثها » .

ـــ « أنا لم أقسم ، يا أمى » .

قالت ، « حلفت يمينا مغلظا » .

قال آملا ، « لاحظت أنها مازالت تلبس خاتما » .

قالت أمه ، « ماذا إذن » وعادت إلى مشترياتها من البقالة .

ـــ « لم تكن لتلبس خاتما لو أنهما هى وهارلى منفصلان ، أليس كذلك ؟ »

ـــ « إنها لتلبسه إذا أرادت أن تستغفلنا ؟ »

ـــ « حسنا ، لا أدرى ، إذا أرادت أن تستغفلنا فربما ينبغى أن نتصرف على أننا أستُغفِلنا . لا أدرى » .

قالت أمه ، « لقد حاول الناس طوال حياتى أن يستبعدونى . حتى أولادى . على الأخص أولادى . فلو سألت تلك الفتاة مجرد سؤال كيف حالها ، لأجفلت كما لو كنت أستعلم عن أعمق وأظلم جزء فيها . والآن ، لم ينبغى لها أن تكون متباعدة ؟ »

قال عزرا ، « ربما يهمها أكثر ما تظنينه أنت عما يظنه الناس » .

قالت أمه ، « ها » ، رفعت كرتونة بيض من كيس البقالة .

قال عزرا ، « يقلقنى أننى لا أعرف كيف أتصل بالناس » .

ـــ « هممم ؟ »

ـــ « أخشى عندما أقترب كثيرا أن يقولوا إننى أتجاوز حدى . سوف يقولون إننى متطفل ، أو ... عاطفى ، تعرفين . لكننى إذا ابتعدت فقد يقولون إننى لا أكترث . أعتقد أننى ، حقا وصدقا ، أفتقد قاعدة ما يأخذها كل من عداى قاعدة مسلما بها ؛ لابد أننى كنت متغيبا عن المدرسة فى ذلك اليوم . هناك خط ضيق ضئيل فاصل لم أحدده مطلقا بشكل ما » .

قالت أمه ، « هراء ؛ لا أدرى عم تتكلم » . ثم رفعت بيضة ، « هل تنظر إلى هذه ؟ من بين دستة بيض ، هناك أربع مشروخة ، واثنتان

مهشمتان . لا أتخيل ما سيصبح عليه حال الإخوة سوينى ، هذه الأيام » .

انتظر عزرا لحظة ، لكنها لم تقل شيئا آخر . وأخيرا، انصرف .

هدم الحائط بين مطبخ المطعم وحجرة الطعام ، ومؤديا معظم العمل فى ليلة واحدة . كان يطوح مطرقة ثقيلة بايقاع منتظم ، ثم يشق كتلا من الجص حتى استقر غبار أبيض كثيف على كل شىء . ثم وصل إلى كتلة من الأنابيب والأسلاك الكهربائية واضطر إلى استدعاء مهنيين لينهوا العمل . كان التلف شاملا للغاية حتى اضطر إلى أن يغلق أبواب المطعم أربعة أسابيع متتالية ، مضيعا قدرا كبيرا من المال .

تخيل أنه يحسن به ، وهو ما يزال منهمكا فى العمل ، أن يعيد طلاء قاعة الطعام . راح ينقل النوافذ بسرعة ونزع الأجواخ المقصبة المتيبسة ، أزاح السجاد وأقنع فرقة كاملة من العمال أن يصقلوا ألواح الأرضية ويقوموا بتلميعها .

وما أن حل مساء اليوم الرابع ، حتى كان متعبا لدرجة أنه كان يشعر بكل عضلة تدور حول مفصل . ومع ذلك ، فإنه غسل اللون الأبيض من على شعره وغير سرواله الجينز الأزرق الخشن وذهب لزيارة مسز سكارلاتى . كانت ترقد فى وضعها المعتاد ، مسندة قليلا ، لكن تعبير وجهها كان يقظا بل إنها أمكنها أن تبتسم حين دخل . همست ، « خمن ماذا ، يا ملاكى . غدا يسمحون لى أن أغادر » .

ـــ « تغادرين ؟ »

ـــ « سألت الطبيب ، وسوف يدعنى أغادر إلى البيت » .

ــــ « البيت ؟ »

ــــ « يقول ، طالما أنني سأستأجر ممرضة ... حسنا ، لا تقف هناك هكذا ، يا عزرا . أريدك أن تبحث عن ممرضة . لو أنك ألقيت نظرة على الطاولة بجوار السرير ... »

كانت تتكلم أكثر مما فعلت فى أسابيع . شعر عزرا أنه يكاد يبتهج بأمل جديد ؛ ففى أعماقه يبدو أنه قد داخله اليأس بشأنها . لكنه ، بطبيعة الحال ، كان قلقا بشأن المطعم . ما الذى تظنه عندما تراه ؟ ماذا تقول له ؟ بإمكانه أن يتخيل ، « لابد أن يعود كل شىء إلى سابق عهده ، إلى سابق عهده تماما . حقا ، يا عزرا . أقم ذلك الجدار فى الحال ، وأحضر سجاجيدى وستائرى » . تشكك فى أن ذوقه سيىء جدا ، دون ذوق مسز سكارلاتى بكثير . كانت لتقول ، « يا قلبى الغالى ، كيف أمكنك أن تكون سيىء الذوق إلى هذا الحد ؟ » ـ إحدى كلماتها المفضلة . تساءل إن كان بإمكانه أن يحول دون اكتشافها ، إن كان بإمكانه أن يقنعها بالبقاء فى شقتها حتى يعيد الأشياء إلى طبيعتها .

شكر حظه لأنه لم يغير اللافتة المعلقة بالخارج .

كان عزرا هو من دفع الفاتورة فى مكتب المحاسبة ، فى الصباح التالى . ثم تحدث باقتضاب مع طبيبها ، الذى تصادف أن قابله فى الممر . قال عزرا ، « رائع ما أسمعه عن مسز سكارلاتى . لم أكن أتوقعه حقا » .

قال الطبيب ، « أوه ، حسنا » .

ــــ « كدت أصاب بنوع من الإحباط ، إن كنت تريد الصدق » .

قال الطبيب ثانية ، « حسنا » ، ومد يده مصافحا بسرعة إلى درجة أن استجابة عزرا استغرقت ثانية كاملة . وبعد ذلك ، انصرف الطبيب . شعر عزرا أن هناك الكثير والكثير الذى كان بإمكان الرجل أن يقوله ، فى حقيقة الأمر .

عادت مسز سكارلاتى إلى بيتها فى عربة الإسعاف . قاد عزرا سيارته خلفها ، وهو يلمحها من خلال النافذة الملونة بلون خفيف . رقدت على النقالة ، وإلى جوارها نقالة أخرى تحمل رجلا وضعت ساقاه كاملتين فى الجبس . كانت زوجته تجلس إلى جواره ، وهى تتكلم بغير انقطاع بشكل واضح . كان بإمكان عزرا أن يرى الريشات على قبعتها تهتز إلى أعلى وأسفل مع كلماتها .

أنزلت مسز سكارلاتى أولا . أنزلها رجال عربة الإسعاف فى حين كان عزرا يقف وهو يشعر أنه عديم الجدوى . قالت مسز سكارلاتى ، « أوه ، استنشق ذلك الهواء . أليس منعشا وجميلا » وفى الواقع ، أنه كان هواء بشعا ـ شتويا وممطرا وقاسيا بما يحمله من هباب .

قالت ، وهم يجرونها على عجلات خلال مدخل المبنى الأمامى ، « أنا لم أقل لك هذا ، يا عزرا ، لكننى لم أكن أعتقد حقا أننى سأرى هذا المكان ثانية . شقتى الصغيرة ومطعمى ... » . ثم رفعت كفا ـ إيماءتها القديمة القاطعة ، موجهة نحو رجال عربة الإسعاف . كانوا يستعدون لتوجيه نقالتها خلال الباب الأيمن ليصعدوا بها الدرج . قالت لأقرب واحد إليها ، « يا عزيزى ، هل لك أن تفتح ذلك الباب إلى اليسار وتدعنى ألقى نظرة ؟ »

حدث الأمر بشكل سريع للغاية إلى درجة أن عزرا لم يكن لديه وقت للاحتجاج . مد الرجل يده إلى الخلف ، كما لو أنه كان يفكر فى ذلك

مسبقا ، وفتح الباب المؤدى إلى المطعم . ثم استانف فحصه للدرج ؛ كانت هناك زاوية أعلاه سوف تخلق مشكلة . فى هذه الأثناء أدارت مسز سكارلاتى وجهها ببعض الجهد وحدقت خلال الباب .

مرت لحظة ، مجرد خفقة ثانية ، حين تجرأ عزرا أن يأمل أنها قد تستحسن ذلك فى نهاية الأمر . لكنه حين تجاوزها ببصره ، أدرك أن ذلك كان مستحيلا . كان المطعم مستودعا ، جرنا ، صالة للألعاب الرياضية ـ كارثة كلية . المناضد والكراسى المقلوبة مكومة فى ركن واحد ، تحت نوافذ قاحلة غير مزخرفة . جسور من الألواح الخشبية الملتوية تمتد عبر الأرضية المطلية ، التى جمعت بشكل ما طبقة رقيقة جدا من الغبار الأبيض ، وجدار المطبخ الغائب مروع مثل ابتسامة من فم بلا أسنان . مجرد عمودين عريضين من الجص يفصلان المطبخ عن قاعة الطعام . كل شىء معروض ـ الأحواض وصفائح القمامة ، والموقد المسود ، والقدور المعلقة بقعورها التى فقدت بريقها ، وتقويم يظهر فتاة فى ثوب نوم أسود شفاف ، وحافة نافذة تحمل نباتين ميتين ووسادة معدنية للتلميع ، وجهاز الاستنشاق ضد الربو الخاص بتود دكيت .

قالت مسز سكارلاتى ، « أوه ، يا إلهى » .

رفعت عينيها ونظرت فى عينيه . بدا وجهها عاريا . قالت ، « كان من الممكن على الأقل أن تنتظر حتى أموت » .

قال عزرا ، « أوه ! لا ، أنت لا تفهمين ؛ لا تعرفين . لم يكن الأمر ما تظنين . كان مجرد ... لا أستطيع الشرح ، فقد جمح بى الخيال بشكل ما » .

لكنها رفعت كفها كعادتها وانزلقت صاعدة الدرج إلى شقتها . حتى وهى راقدة مسطحة ، كان يحيط بها سيماء السرعة والقوة .

لم ترفض أن تراه ثانية ـ لا شيء من ذلك . كان يزورها كل صباح ، وتسمح له ممرضة النهار بالدخول ، فيجلس على حافة الكرسى اللائق بسيدة فى غرفة النوم ، ويقدم لها تقريرا عن الفواتير والتفتيش الصحى وتسلم المفارش . وكانت مسز سكارلاتى مهذبة دائما ، تومىء فى كل الأماكن الصحيحة ، لكنها لم تكن تقول شيئا مطلقا مقابل هذا . وفى نهاية الأمر كانت تغمض عينيها علامة على انتهاء الزيارة . كان عزرا يغادر عندئذ ، وغالبا ما يرتطم بسريرها بالصدفة أو يقلب كرسيها . لقد كان دائما رجلا ينقصه الحذق ، لكنه أصبح الآن أقل حذقا من المعتاد . بدت له يداه ضخمتين للغاية ، تعترض طريقه أبدا . لو أنه يستطيع أن يفعل شيئا بشأنها ! كان يود أن يعد لها وجبة ـ وجبة تشد من أزرها ، عميقة النكهات ، وجبة معقدة تتطلب يوما كاملا لتقطيع الأشياء إلى قطع صغيرة وسحقها ومزجها . كان عزرا يصبح نفسه فى المطبخ ، كما لا يمكن أن يكون فى أى مكان آخر ، مثل شخص مقعد على الأرض الجافة لكنه رشيق بلا جهد ما أن يثب فى الماء . على أية حال ، لم تزل مسز سكارلاتى لا تأكل ، لم يكن هناك ما يمكنه أن يقدمه لها .

أو كان ليود أن يمسك بها من كتفيها ويصيح ، « أنصتى ! أنصتى ! » لكن شيئا مغلقا فى وجهها كان يوقفه . كانت تقول له ، بكلمات واضحة تقريبا ، أنها تفضل ألا يفعل مثل ذلك . ولذا لم يفعل .

كان يهبط إلى الطابق السفلى ، بعد أى زيارة ، ويلقى نظرة على المطعم ، الذى كان فى هذه الساعة خاويا يردد الصدى . قد يفحص ثلاجة التجميد ، أو يمسح السبورة ، ثم قد يتجول برهة ، يلمس هذا وذاك . كان ورق الحائط فى القاعة الخلفية غير منتظم فمزقه عن الحائط . انتزع حاملات المصابيح المذهبة المزخرفة من على الجدار

بجوار التليفون . خلع الصور الظلية البالية الطراز من على أبواب غرف الراحة . أحيانا كان يحدث تلفا بالغا الى حد أنه لم يكن هناك وقت لإخفائه قبل فتح المطعم ، لكن كان كل واحد يبدأ العمل فينتهى بطريقة أو بأخرى دائما . فما أن تحل الساعة السادسة ، حين يصل أول الزبائن ، حتى يكون الطعام قد طُهى والموائد قد مدت ، والنادلات هادئات ومبتسمات . كل شىء يمضى بنعومة .

توفيت مسز سكارلاتى فى مارس ، ذات عصر بارد قاس . عندما اتصلت الممرضة بعزرا هاتفيا ، داخله إحساس ساحق بالصدمة كما لو أن موتها كان غير متوقع . قال ، « أوه ، لا » ووضع السماعة ، وكان عليه أن يعاود الاتصال ليسأل الأسئلة الملائمة . هل كانت النهاية هادئة ؟ هل كانت مسز سكارلاتى مستيقظة ؟ هل قالت أى كلمات معينة ؟ قالت الممرضة ، لا شىء . حقا ، لا شىء على الإطلاق ؛ مجرد أنها انسلت بعيدا ، على حد القول . أضافت ، « لكنها ذكرتك هذا الصباح . ولقد تعجبت تقريبا ، تعرف ؟ بدا الأمر كما لو كانت قد أحست به . قالت ، « أخبرى عزرا أن يغير اللافتة » .»

ــــ « لافتة ؟ »

ــــ « قالت ، « إنه لم يعد مطعم سكارلاتى » ، أو شيئا من هذا القبيل . « إنه ليس مطعم سكارلاتى » . أظن أن هذا هو ما قالته » .

من الألم الذى شعر به ، كان بإمكان مسز سكارلاتى أن تمد ذراعها أيضا من الموت وأن تصفعه على وجهه . كان هذا ليجعل الأمور أسهل ، بشكل ما . غضب تقريبا ؛ أحس بالراحة تقريبا لأنها رحلت . لاحظ كيف تألقت الأشجار فى الخارج كأنما دبت فى أوصالها فجأة دماء جديدة .

كان هو من قام بالترتيبات ، وهو يعمل من قائمة أعطتها له مسز سكارلاتى قبل شهور . كان يعرف بأى محل فراشة يتصل وأى راعى كنيسة ، وأى معارف كانت تريدهم فى الصلاة . الشىء الغريب ، فكر فى الاتصال هاتفيا بالمستشفى ودعوة العائلة الأجنبية . بالطبع لم يفعل ، لكنه من الصحيح أنهم كانوا ليشكلون معزين رائعين . ومن المؤكد أنهم كانوا ليتصرفون بشكل أفضل من أولئك الذين جاءوا ، والذين وقفوا فيما بعد متخشبين حول قبرها المتجمد . كان عزرا ، أيضا ، متخشبا ـ رجلا حزينا متعبا ، يرتدى معطفا فضفاضا ، وهو يمسك بذراع أمه . أوجعه شىء خلف عينيه . لو أنه بكى ، لقالت مسز سكارلاتى ، « ياالله ، يا عزرا . بحق الله ، يا عزيزى العذب » .

وبعد ذلك ، كان مسرورا بعودته إلى المطعم . فقد ساعده على أن ينشغل ـ وهو يقلب ويتبل ويتذوق ، ويتعثر فى الرقعة التى في الأرضية حيث كان النضد الأوسط يقوم . وفيما بعد ، راح يدور بين الآكلين مثلما اعتادت مسز سكارلاتى أن تفعل . راح يزين لهم اليخنى الذى يعمله من المحار ، وسلطة الخرشوف ، وحساء السبانخ وحساء الفاصوليا الحار ، وحساء القوانص الذى عمله بحب .

[٥]

الطاهيــة الريفيــة

كان لكودى تل دائما صديقة ، صديقة بعد أخرى ، وكانت كل الفتيات يهمن به حبا ، حتى يلتقين بأخيه ، عزرا . كان هناك بعزرا شيء يخطف انتباههن ، فيما يبدو . كن يكتسبن فى وجوده مظهرا متألقا ، يقظا ، متنبها ، كما لو كن ينصتن إلى صوت لم يصل إلى الأخريات بعد . لم يلحظ عزرا حتى هذا . لاحظه كودى ، بالطبع . كان يطلق تنهيدة مبالغا فيها ، متظاهرا بأنه يتسلى . عند ذاك كانت الفتاة تستجمع نفسها . غير أن السيف يكون قد سبق العذل ؛ فلم يكن كودى ليمنحها فرصة ثانية . كان يملك الموهبة على الانسحاب عقليا . فقد كان باستطاعته ، حين يحاول ، أن يبدو بلا تعبير تماما ، شأن موديل ملابس من الجص ، وهو الرجل ذو الوجه الهندى ، بشعره الأسود الأملس ، وملامحه المتزنة المسطحة . وفى تلك الأثناء ، كانت ذاته البالية ، القذرة ، الأصغر سنا وغير المحبوبة ، التى كانت تحصل على تقديرات راسبة ، وعلى أدنى تقدير فى السلوك ، تضم قبضتها وتعوى ، « لماذا ؟ لماذا عزرا دائما ؟ لماذا ذلك العزرا المخنث الشاحب مدع الفضيلة ؟ »

غير أن عزرا كان يكتفى بالتحديق فى الفراغ من خلف عينيه الرماديتين الصافيتين ، من تحت كتلة شعره الأشقر الناعم ، ويواصل التأمل فى أفكاره الخاصة . بإمكانك أن تقول هذا عن عزرا : إذ يبدو

بكل صدق غير واع بتأثيره على النساء . لكن هذا جعل الأمر أكثر سوءا ، بطريقة ما .

كان كودى يميل إلى تصديق أن عزرا به نقص ما ـ نقص يعمل فى صالحه ، يجعله محصنا ، ويميزه عن الرجال العاديين . كان به شيء يكاد يكون نسكيا . لم تفلح النساء حقيقة أبدا فى اختراق تأملاته ، على الرغم من أنه كان دائما دمثا معهن ، ومجاملا . كان من المحتمل أن يتأملهن فى صمت لمدى زمنى غير ملائم ، ثم يسألهن شيئا غير متوقع . مثلا ، « كيف أدخلت تلك الدوائر الذهبية الصغيرة خلال أذنيك ؟ » كان مضحكا ـ أن يصل رجل إلى سن السابعة والعشرين دون أن يكون قد سمع عن الأقراط المثقوبة . على أية حال ، ربما لم يبد مضحكا للمرأة التى يخاطبها . كانت ترفع اصبعا إلى شحمة أذنها بطريقة مذهولة منومة مغناطيسيا . كانت مفتونة . هل كان الأمر فجائية عزرا ؟ ضيق بؤرته ؟ (فقد غض الطرف عن ثوبها الذى يكشف عن نحرها ، عن شق نهديها الذى ذرت عليه المساحيق ، وساقيها الطويلتين الحريريتين) . أو براءته ، ربما . كان سائحا على كوكب أنثوى ، هكذا يبدو ما يقوله . لكنه لم يكن يدرك أنه يقول هذا ، ويفشل فى فهم مغزى النظرة التى ألقتها عليه . أو لم يكن يأبه ، إذا فهم .

واحدة فقط من صديقات كودى لم تنجذب إلى أخيه . كانت أخصائية اجتماعية تدعى كارول ، أو ربما كارين . عندما التقت بعزرا ، وجهت إليه نظرة مباشرة ثابتة ، نظرة محدقة باردة . وفيما بعد ، أبدت ملاحظة لكودى أنها لم تكن تحب الرجال الذين يتسمون بصفات الأمومة . قالت ، « دائما يُطْعِمون ، يحومون حولك (كان ذلك لأنها التقت به فى مطعمه) ، لكنهم يتصرفون بفجاجة وخجل ، وفى النهاية تكون أنت من يرعاهم . هل لاحظت ذلك أبدا ؟ » . غير أنها لم تكن لتؤخذ فى الاعتبار

تقريبا ؛ فسرعان ما فقد كودى اهتمامه بها فيما بعد .

وقد تتساءل لماذا استمر يقدمهن إليه ، إذا أخذنا فى الاعتبار تجاربه السيئة الحظ ـ أقدمها يرجع إلى السنة التى بلغ فيها الرابعة عشرة ، وأحدثها لا يتعدى شهرا مضى . ففى نهاية الأمر ، كان يعيش فى مدينة نيويورك وعائلته تعيش فى بلتيمور ؛ فلم يكن مضطرا حقا إلى إحضار هؤلاء النساء إلى موطنه فى عطلات نهاية الأسبوع . والحقيقة أنه غالبا ما كان يقسم أن يتوقف عن هذا . لسوف يلتقى بواحدة ما ، يتزوجها ، ولا يذكرها حتى لأمه . لكن هذا كان ليعنى أن يقضى عمره وراء أسوار القلق . فسوف يظل يراقب زوجته بلا راحة ، بتشكك . وسوف يظل ينتظر المحتوم ـ مثل والدى « الجمال النائم » ، وهما ينتظران الإبرة التى كان مقدرا لها أن تشك إصبعها على الرغم من حذرهما .

كان قد بلغ الثلاثين الآن ، وهو ناجح فى عمله ، ومن المؤكد أنه مستعد للزواج ، يعتبر شقته فى نيويورك شقة مؤقتة ، مسألة وسيلة راحة ثانوية . كان قد اشترى مؤخرا بيتا فى مزرعة فى مقاطعة بلتيمور مع أربعين فدانا من الأرض . وفى عطلات نهاية الأسبوع ، كان يبدل حلته الرمادية النحيلة بحلة من النسيج القطنى المضلع لكى يجوب ضيعته ، ويضع خططا . كان هناك فناء خلفى مشمس يمكن لزوجته أن تتخذ منه حديقة لمطبخها ؛ وحجرات نوم تنتظر أن تمتلىء بالأطفال . كان يتخيلهم يهرولون خارجين لاستقباله عصر كل يوم جمعة حين يعود للبيت . شعر أنه ثرى جليل . عزرا المسكين : كان كل ما لديه ذلك المطعم غير المنظم ، فى قلب المدينة الضيق ، المعوق النمو .

وذات مرة ، دعا كودى عزرا ليصطاد الأرانب معه فى الغابات خلف مزرعته . لم يكن صيدا ناجحا . أولا ، سقط عزرا فى عش الزنابير الصفراء . ثم بلل بندقيته فى الجدول . وعندما توقفا على قمة تل لتناول

الغداء ، استل فلوته الرث وشرع يصفر « الأكمام الخضراء » ، مفزعا كل المخلوقات الحية فى نصف قطر يبلغ خمسة أميال ـ وربما كان هذا قصده . لم يكن كودى حتى يخاطبه ، فى النهاية . كان على عزرا أن يثرثر وحده . ومشى كودى أمامه متشامخاً فى صمت تام ، محاولا أن يتذكر لم بدت هذه النزهة فكرة طيبة . راح عزرا يغنى « السيد أرنب » . غنى بسعادة نشازا ، « كل روح صغيرة ، لابد أن تتألق ، تتألق ...»

لا عجب أن كودى كان ممن يمضغون إهابهم ، يذرعون غرفهم ، يهرشون رءوسهم . لا عجب أنه كان يقرض أسنانه بشدة ، عندما ينام بالليل ، إلى درجة أن فكيه كان يوجعانه كل صباح .

* * *

فى بواكير ربيع عام ١٩٦٠ كتبت أخته جينى إليه خطابا . قالت إن طلاقها سيتم فى يونيو ـ بعد شهرين ، وعندئذ ستكون حرة فى أن تتزوج سام وايلى . لم يكن رأى كودى فى وايلى طيبا ، فنفض هذا الخبر جانبا مثل بعوضة صغيرة وواصل القراءة . قالت ، **على الرغم من أنه يبدو أن عزرا سوف يسبقنى إلى ممشى الكنيسة . اسمها روث لكننى لا أعرف أكثر من ذلك** . ثم قالت إنها تفكر تفكيرا جديا فى ترك كلية الطب . قالت إن تعقيدات حياتها الخاصة تستنفد الكثير من طاقتها إلى حد أنها لم يبق منها شىء لأى شىء آخر . أيضا ، أن وزنها قد زاد ثلاثة أرطال فى الأسابيع الستة الأخيرة وأنها بدينة تماما ، حوت ، وتعيش الآن على أوراق الخس وعصير الليمون . كان كودى معتادا على حميات جينى المجنونة (كانت نحيفة إلى درجة مؤلمة) ، ولذا فإنه مر على ذلك الجزء مرور الكرام . أنهى الخطاب وطواه .

روث ؟

فتح الخطاب مرة ثانية .

قرأ ،... **أن عزرا سوف يسبقنى إلى ممشى الكنيسة** . حاول أن يفكر فى نوع آخر من الممشى ـ الطائرة ، المتجر الكبير ، دار السينما ـ لكنه فى النهاية اضطر إلى تصديقه : كان عزرا سيتزوج . حسنا ، يستطيع كودى ، الآن على الأقل أن يحتفظ بفتياته . (ولسبب ما ، وخزه هذا وخزة اضطراب) . لكن عزرا ! متزوجا ؟ ذلك الحادث الذى يمشى على قدمين ؟ تخيله فى حفل زفاف رسمى ـ وهو ينسى ترخيص الزواج ، الخاتم ، والترديدات ، وهو يفقد متابعة سير المراسم فى حين يروح يبتسم لطائر طنان خارج النافذة . تخيله فى السرير مع امرأة (زفر كودى) تصور المرأة سمراء وتوراتية ، بسبب اسمها : روث ، ذات عينين مكحلتين وبشرة قشدية . سيول من الشعر الأسود المحلول . كان كودى ضعيفا أمام النساء ذوات الشعر الأسود ؛ لم يكن يحب الشقراوات على الإطلاق . تصورها بكتفين عاريتين ، ورداء نوم من الساتان الأحمر ، وكوّر خطاب جينى بخشونة وألقى به فى سلة المهملات .

راحت صورة روث تحوم فوقه ، وهو فى عمله فى اليوم التالى . كان يجرى دراسة على الزمن والحركة فى مصنع لمثاقب تعمل بالكهرباء فى نيوجيرسى ، مكان ديناصورى . كان ليقتضى الأمر منه أسابيع حتى يرتب كل شىء . **توصيل الشىء ك بالشىء ل : إفراغ وسيلة النقل اليمنى ، البحث ، السيطرة ، شحن وسيلة النقل** ... مر إلى آخر خط التجميع بلوح الكتابة الذى يحمل أعلاه مشبكا لتثبيت الأوراق ، وهو يجتذب نظرات عدائية . كان شعر روث الأسود يتلاطم كالموج فى العوارض الخشبية فى السقف المائل . **تأخيرات لا يمكن**

تجنبها : ٣ . تأخيرات يمكن تجنبها : ٩ . لا شك أن عينيها لهما شكل البرقوق ، مائلتان قليلا . لا شك أن أصابعها مثقلة بالخواتم ، بأظافر طويلة ، بيضاوية مطلية بلون قرمزى .

عندما عاد إلى شقته ذلك المساء ، وجد خطابا من عزرا . كانت دعوة إلى مطعمه ليلة السبت المقبل . كانت عبارة : **أنت مدعو بكل الود** فى منتصف الصفحة كأنها شيء محفور ـ فكرة عزرا عن المداعبة . (أو ربما لا ؛ ربما كان يعنيها جديا) . أوه ، يا الله ، لا عشاء آخر من وجبات عشاء عزرا . ستكون هناك أنخاب وخطبة متلعثمة ، عاطفية تمهد لإعلان خطير ما ـ فى هذه الحالة خطبته . فكر كودى فى رفضها ، لكن أى خير في هذا ؟ سيكون عزرا بائسا لو أن شخصا واحدا تغيب ، وسوف يلغى الأمر كله ويعيد جدولته لما بعد ، ويظل يعيد جدولته حتى يقبل كودى . يحسن بكودى أن يذهب وينتهى من هذا .

وبالإضافة إلى ذلك ، فما كان ليكترث مطلقا بلقاء هذه الروث .

كان عزرا يصغى إلى عميل ـ أو من كان عميلا ذات يوم ، من مظهر الأشياء . كان الرجل يقول ، « كان لهذا المكان منزلة رفيعة . هل تتابعنى ؟ »

أومأ عزرا برأسه ، وهو يراقبه بتعبير متعاطف وارتياح حتى أن كودى تساءل إن لم يكن عقله فى مكان آخر تماما . قال الرجل ، « كان هناك مطبخ فرنسى رائع ، ولهب بتوهج على المناضد . وثريات . وفتاة لمراجعة القبعات . ونادلون بربطات عنق سوداء . ما الذى حدث لنادليك ؟ »

قال عزرا ، « كانوا يزعجون الناس . يبدو أنهم كانوا يفترضون أن

الزبائن يتعرضون لامتحان من نوع ما ، لا مجرد أنهم يطلبون وجبة . كانوا مغرورين » .

ـ « كنت أحب نادليك » .

قال عزرا ، « إن هيئة العاملين هذه الأيام أكثر تبسطا » ، وأومأ باتجاه نادلة تمر ـ فتاة طويلة القامة ، منحنية الظهر ، لا لون لها ، فاغرة الفم ، تركيزها منصب بضراوة على قدح القهوة الذى تحمله بكلتا يديها . كانت تسير ببطء عبر أرض الحجرة ، وهى تتنفس بصوت أخنف . واصلت سيرها بين عزرا والعميل . تراجع عزرا ليفسح لها الطريق .

قال العميل ، « كنت أقول لزوجتى نيتِّى ، « عليك فقط أن ترى مطعم سكارلاتى » . أقول لها ، « لا تنتقدى بلتيمور ، حتى ترى مطعم سكارلاتى » . ثم نفاجأ به وحتى اللافتة قد اختفت . تسميه الآن « مطعم المشتاقين للأهل » أى اسم هذا ؟ والديكور ! يا سلام ، إنه يشبه ... يا سلام ! مطعما ضخما قائما على جانب الطريق ! »

كان على حق . وافقه كودى . جدران قاعة الطعام مبطنة بمعلبات منزلية ، المطبخ مفتوح على مصراعيه للجمهور ، طباخون أشعثون يتحركون بغير نظام فى أرجاء المكان يصنفون أطباقهم المفضلة (طعام صحى ، طعام شوارع ، طعام أجنبى ، أى شيء يرد إلى ذهنهم) ... فمنذ أن ورث عزرا هذا المكان ـ عن امرأة ، ألا تعلم ـ وهو يحطمه بشكل منهجى . كان قادرا تماما على أن يقدم طبقا رئيسيا واحدا طوال الأمسية الواحدة ، يحضره بنفسه إلى المنضدة ما أن تجلس . وفى ليال أخرى كان ليقدم اختيارات أكثر ، أربعة أو خمسة اختيارات كتبت بالطباشير على السبورة . ورغم ذلك فقد لا تحصل على ما طلبته . تقول

« لحما من فخذ خنزير سميثفيلد » ، فيصلك يخنى البامية . كان عزرا يشرح ، « بسعالك هذا ، أعلم أن هذا سيلائمك بشكل أفضل » ، ولكن حتى إذا كان قد حكم حكما صحيحا ، فهل كانت تلك طريقة لإدارة مطعم ؟ أنت تطلب لحما من فخذ خنزير ، ولحما من فخذ خنزير هو ما ينبغى أن يصلك . وإلا ، فيحسن بك أن تتناول عشاءك فى البيت . كان كودى قد تنبأ ، « سوف تفلس فى ظرف عام » . وكاد عزرا يفلس حقا ؛ فمعظم العملاء الدائمين اختفوا . تمسك بعضهم : ورحل آخرون . كان هناك عديد من العجائز الذين يأكلون كل ليلة ، وهم يجلسون وحدهم إلى مناضدهم الدائمة فى قاعة الطعام ذات الأرضية من الألواح الخشبية ، الشبيهة بالجرن . كان بإمكانهم أن يدفعوا الثمن لأن الأسعار لم تكن تكتب ولكن يخبرك بها العمال بأنفسهم ، تبعا للنزوة بكل وضوح ، تتغير بتغير العميل . (ألم يكن ذلك مخالفا للقانون ؟) كان عزرا قلقا بشأن ما يفعله هؤلاء العجائز فى أيام الآحاد ، حين يغلق المطعم . وكان كودى ، من الناحية الأخرى ، قلقا بشأن دفاتر حسابات عزرا ، لكنه لم يعرض أن يفحصها . فلسوف يجد كارثة ، كان متأكدا ـ أخطاء وديون معدومة ، إن لم يكن تلاعبا ساذجا صريحا . الأفضل ألا يعرف ؛ الأفضل ألا يقحم نفسه فى الأمر .

كان عزرا يقول لزبونه السابق ، « صحيح حدثت بعض التغييرات ، لكن لو أنك فقط جربت طعامنا ، لرأيت أننا مازلنا مطعما بارعا . فالليلة طبق واحد فقط ـــ لحم بقرى مطهى فى قدر مقفلة » .

ـــ « لحم بقرى مطهى فى قدر مقفلة ! »

ـــ « نوع خاص حقا ـ يجلب الراحة » .

قال الرجل ، « أستطيع أن أحصل على لحم القدور فى البيت » . ثبت قبعة جوخية على رأسه وانصرف .

قال عزرا لكودى ، « أوه ، حسنا . لا يمكنك إرضاء الجميع ، فيما أظن » .

شقا طريقهما الى الركن البعيد ، حيث وضعت علامة « محجوز » على المائدة التى كان عزرا يتخيرها دائما لعشاء الأسرة – لم تكن جينى وأمها قد وصلتا بعد . فقد طلبت جينى ، التى وصلت بقطار بعد الظهر ، من أمها أن تساعدها فى تسوق ثوب لزفافها . كان عزرا الآن قلقا أنهما قد يتأخران . قال ، « كل شىء مخطط للسادسة والنصف . ما الذى أخرهما ؟ »

ـــ « حسنا ، ليست هناك مشكلة إذا كان الأمر فقط لحما بقريا مطهيا فى قدر مقفلة » .

قال عزرا ، « ليس فقط لحم قدور » . جلس فى كرسيه . كانت لحلته طريقة فى التهدل حوله ، كما لو كانت قد اشتريت لرجل أكبر حجما . « هذا شىء أكثر . أعنى أن لحم القدور ليس حقا الاسم الصحيح ؛ إنه أشبه بما ... تتوق إليه عندما تكون حزينا وكل واحد يرهقك . أنظر ، هناك هذه الطاهية ، هذه الطاهية الريفية الحقيقية ، ولحم القدور هو أقل ما تفعله . هناك أيضا بطاطس مقلية ، ولوبيا ، وبسكويت مطروق طُرِق حقا على جدعة شجرة بظهر – »

قال كودى ، « ها هما قد حضرتا » .

كانت جينى وأمها تسيران لتوهما عبر قاعة الطعام . لم تكونا تحملان علبا ملفوفة ، ولكن شيئا فيهما أشار إلى أنهما كانتا من الواضح تتسوقان – ربما النظرة الغاضبة المهترئة التى يتقاسمانها . كان طلاء أحمر شفاه جينى قد بلى عضا . وقبعة بيرل ملتوية وشعرها أكثر تجعدا عن أى وقت مضى . سألهما عزرا ، وهو يثب واقفا ، « ما الذى

أخركما ؟ لقد بدأنا نقلق » .

قالت بيرل ، « هذه المدعوة جينى وأفكارها . قوام مقاس ثمانية ولا ألوان فاقعة ، لا أجزاء ململمة أو مجعدة أو زركشة ، لا شيء يجعلها تبدو بدينة ، كما تقول ... لماذا أعددتم خمسة أماكن ؟ »

أخذهم جميعا السؤال على غرة . رأى كودى أن هذا صحيح . كان هناك خمسة أطباق وخمس كئوس نبيذ .

سألت بيرل عزرا ، « لماذا ؟ »

ـــ « أوه ، ... سوف أصل إلى ذلك حالا ، اجلسى ، يا أمى ، هناك » .

لكنها ظلت واقفة . قالت ، « ثم أخيرا نجد الشيء المناسب . ثوبا رماديا ناعما لطيفا له رقبة حيكت بإبرة معقوفة ، كما لو كان لو صمم خصيصا من أجل جينى . أقول لها ، « إنه ذوقك تماما » ؛ وخمنا ماذا تفعل . تنتابها نوبة غضب فى وسط متجر هتزلر المتعدد الأجنحة » .

قالت لها جينى ، « **لا نوبة غضب** ، يا أمى . قلت فقط – »

ـــ « قالت ، « إنها ليست جنازة ، يا أمى ؛ أنا لن أرتدى ثياب الحداد » . كنت لتظن أننى قد اخترت ثياب حداد أرملة . كان هذا ثوبا رماديا فاتحا لطيفا ، يليق بسيدة تماما ، مناسباً جدا لزواج ثان » .

قالت جينى لكودى ، « أنثراسايت » .

ـــ « عفوا ؟ »

ـــ « أنثراسايت هو ما أسمته البائعة . بعبارة أخرى : فحم . أمنا تظن أنه من المناسب أن تزوجنى فى ثوب زفاف فى سواد الفحم » .

قال عزرا ، وهو يتطلع فيما حوله إلى الذين يتناولون عشاءهم ، « آه ، ربما ينبغى أن نجلس الآن » .

لكن بيرل وقفت وقامتها أكثر اعتدالا . قالت لابنيها ، « **وعندئذ** ، عندئذ ، بدون أدنى تفكير ، وهى تفعل ذلك نكاية فىّ ، تندفع إلى أقرب حامل ملابس وتنتزع شيئا أبيض كالثلج » .

قالت جينى ، « كان لونه أصفر شاحبا » .

ـــ « أصفر شاحب ، أبيض – ما الفرق ؟ كلاهما غير ملائم ، إذا كنت تتزوجين للمرة الثانية ولم تحصلى بعد على طلاقك والرجل ليست له وظيفة ثابتة . تقول ، « سوف آخذ هذا الفستان » ، وهو ليس حتى المقاس الصحيح ، كبير بأميال ، وكان لا بد من تركه فى المتجر لإحداث تغييرات به » .

قالت جينى ، « تصادف أنه راق لى » .

ـــ « كنت ضائعة فيه » .

ـــ « جعلنى أبدو نحيفة » .

قالت أمها ، « ربما كان بإمكانك أن ترتدى شالا أو شيئا ، بنيا . قد يطفىء هذا اللون قليلا » .

ـــ « لا يمكننى أن أرتدى شالا فى حفل زفاف » .

ـــ « ولم لا ؟ أو سترة صغيرة ، ولنقل سترة كتانية بنية » .

ـــ « أبدو بدينة فى السترات » .

ـــ « لا فى سترة قصيرة ، من طراز شانيل » .

ـــ « أكره الشانيل » .

قالت بيرل ، « حسنا ، يمكننى أن أرى أن لا شىء يرضيك » .

قالت جينى ، « أمى ، أنا راضية سلفاً . أنا راضية عن ثوبى بلونه الأصفر الشاحب ، على ما هو عليه . أحبه . هل تسمحين أن تكفى عن مناكدتى ؟ »

سألت بيرل ابنيها ، « هل سمعتما ذلك ؟ حسنا ، لست مضطرة إلى الوقوف هنا وتقبل هذا » . واستدارت ومشت مبتعدة عبر قاعة الطعام ، منتصبة القامة مثل دمية ملىء زنبركها .

قال عزرا ، « هه ؟ »

أخرجت جينى علبة تجميل صغيرة من البلاستيك ، نظرت فيها ، ثم أغلقتها بعنف ، كما لو كانت لمجرد أن تتأكد أنها مازالت هناك .

قال عزرا ، « من فضلك ، يا جينى ، ألا تذهبين خلفها ؟ »

ــــ « لا حتى ولو كانت حياتك متوقفة على هذا » .

ــــ « أنت من تشاجَرتْ معها . أنا لا أستطيع أن أسترضيها » .

قال كودى ، « أوه ، عزرا دعنا لمرة واحدة ننتهى من هذا ، لا أظن أننى قادر على تحمل كل هذا » .

ــــ « ماذا تقول ؟ ألا نتناول العشاء على الإطلاق ؟ »

قالت له جينى ، « يمكننى أن آكل فقط أوراق الخس على أية حال » .

ــــ « لكن هذا مهم ! لقد دبرتها لتكون مناسبة . أوه ، فقط ... انتظرا دقيقة ، هل تسمحان ؟ »

استدار عزرا وهرع إلى المطبخ . ومن بين حشد الطاهيات المتنوعات عند النضد الطويل ، أمسك بشخص صغير الحجم يرتدى حلة عمل . خمن كودى أنها فتاة - فتاة ضئيلة القد ذات شعر أحمر لها وجه ابن عرس . تبعت عزرا مفعمة بالسعادة ، متيبسة الساقين تقريبا ، وهى تمسح كفيها على ردفيها . قال عزرا ، « أود أن تقابلا روث » .

قال كودى ، « روث ؟ »

— « سوف نتزوج فى سبتمبر » .

قال كودى ، « أوه » .

ثم قالت جينى ، « حسنا ، تهانئى » ، وقبلت وجنة روث المنمشة ، ناتئة العظام . وقال كودى ، « آه ، أجل » وصافحها ، كانت هناك جسآت (كاللو) مثل الحصى على كفها . قالت له ، « كيف الحال » . فكر فى تعبير **الدجاجة صغيرة الحجم** ، على الرغم من أنه لم ير أبدا دجاجة صغيرة الحجم . أو ربما كانت أقرب الى ديك . كان شعرها الرشيق بلون الجزر مقصوصا قصيرا إلى حد أنه بدا ضئيلا بالنسبة لجمجمتها ، وعيناها مستديرتان مثل البِلْى ، وجلدها نحيل ومشدود (كما لو كان قد صيغ بتقتير ، شأن شعرها) إلى حد أنه استطاع أن يرى غضروف أرنبة أنفها . قال ، « روث ، إذن » .

سأله عزرا ، « هل دهشت ؟ »

— « نعم ، دهشت جدا » .

— « كنت أريد أن أفعلها بالشكل الصحيح ؛ وكنت سأعلنها مع المشروبات ثم أدعوها لتنضم إلى العشاء العائلى . لكن يا حبيبتى » ، قال عزرا وهو يستدير إلى روث ، « أظن أن أمى كانت منهكة . ولم يجر

الأمر بالطريقة التى خططتها » .

قالت له روث ، « هراء ، هذا على ما يرام » .

قال كودى ، « مؤكد . بالتأكيد . يمكننا أن نفعل هذا فيما بعد » .

ثم شرعت جينى تسأل عن الزفاف ، واستأذن كودى قائلا إنه يظن أنه سيذهب ليرى كيف كانت أمه . وفى الظلام فى الخارج ، داخله أغرب شعور بالضياع ، وهو يقطع الشارع باتجاه البيت . كان الأمر كما لو أن شخصا ما قد مات ، أو تركه إلى الأبد - روث فتاة أحلامه الجميلة ، ذات الشعر الأسود .

قالت بيرل لكودى ، « كنت أعرف ما سيكون عليه أمر ذلك العشاء ، الليلة . فلست غبية . لقد تورط فى خطوبة ؛ وسوف يتزوج الطاهية الريفية . كنت أعرف ذلك على كل حال ، لكننى أدركت الأمر كله حين دخلت المطعم ورأيت الأطباق الخمسة تلك والأكواب . حسنا ، لقد تصرفت بشكل سيىء . سيىء جدا . لست مضطرا الى أن تخبرنى ، يا كودى . حقيقة الأمر أننى رأيت تلك الأطباق وجرح شيء بداخلى . قلت لنفسى ، « حسنا ، حسن جدا ، إذا كان الأمر على هذا النحو ، لكن ليس الليلة ، فقط ليس الليلة ، يا آلهى ، فيكفينى شراء ثوب الزفاف رقم اثنين لابنتى الوحيدة » . وهكذا إذن ، حسنا ، أصابنى الجنون وانفجرت مما تسبب فى إلغاء العشاء ، بالضبط كما لو كنت قد خططت الأمر كله سلفا ، وهو ما لم أفعله بالطبع . أنت تصدقنى ، أليس كذلك ؟ فأنا لست عمياء . أعرف متى أكون غير معقولة . أحيانا أقف خارج نفسى وأراقب كل شيء ، منفصلة تماما . أقول لنفسى ، « توقفى الآن » ، لكن الأمر يبدو كما لو كنت ... اتيه عجبا بنفسى ؛ علىّ أن أهاجم ، أن

أواصل . أفكر ، « أجل ، أجل ، سأتوقف ، فقط لأقل شيئا واحدا آخر ، مجرد هذا الشيء الواحد الآخر ... »

« كودى ، ألا تعتقد أننى أريدكم أنتم الثلاثة أن تكونوا سعداء ؟ بالطبع أريد . أمر طبيعى . لم ، ما كنت لأكبل عزرا لأى اعتبار ، إذا كان مصمما على الزواج من تلك الفتاة - رغم أننى لا أعرف ماذا يراه فيها ، فهى نفاية ومستهترة ؛ أظن أنها من مقاطعة جاريت أو مكان ما مثل هذا ولا تكاد ترتدى حذاء - ينبغى أن ترى باطنى قدميها يوما ما - لكن ما أريد أن أقوله هو ، أننى لم أكن مطلقا أما من أولئك الأمهات اللاتى يحاولن أن يحتفظن بأولادهن لأنفسهن . فأنا آمل بكل صدق أن يتزوج عزرا . أعنى ذلك بإخلاص . أريد أن تعنى به واحدة ، **خصوصا** هو . فأنت تستطيع أن تدبر أمر نفسك لكن عزرا ، لا أعرف ... لا يمكنه الدفاع عن نفسه ... بالطبع أحبكم جميعا بنفس القدر ، بنفس القدر تماما ، لكن ... حسنا ، عزرا طيب للغاية . هل تعرف ؟ على أية حال ، لديه الآن تلك المدعوة روث وقد غير هذا وجهة نظره كلها ؛ راقبه مرة ما حين تدخل حجرة ، أو تختال ، أو مهما كان ما تسميه . إنه يعبدها . إنهما يمرحان معا ، مثل جروين . أجل ، غالبا ما يذكراننى بالجراء ، يتضامان التماسا للدفء ويقهقهان ، أو يتواثبان حول المطبخ ، أو يصغيان الى تلك الموسيقى التى يعشقها سكان الجبال والغابات والتى تبدو روث مجنونة بها للغاية . لكن ، كودى . عدنى ألا تقول هذا لأحد . هل تعد ؟ كودى ، أحيانا أقف هناك أراقبهما وأرى أنهما يعتقدان أنهما متميزان تماما ، أول ناس ، الناس الوحيدون الذين يشعرون بالطريقة التى يشعرون بها . ويعتقدان أنهما سيعيشان فى التبات والنبات ، وأن كل الزيجات الأخرى التى تتم حولهما - تلك الترتيبات العادية ، المستهلكة ، المسطحة - كلها لا شيء بالقياس لما

سيحصلان عليه . فهما لن يرتضيا لنفسيهما هذا القليل . وهذا يجعلنى أجن . لا حيلة لى ، يا كودى . أعرف أن هذه أنانية ، لكن لا حيلة لى . أريد أن أسألهما ، « من تظنان نفسيكما ، على أية حال ؟ هل تتخيلان أنكما متفردان ؟ هل تظنان حقا أننى كنت دائما هذه المرأة العجوز الصعبة ؟ »

« كودى ، أنصت الّى . لقد كنت إنسانة خاصة ، ذات يوم ، بالنسبة لشخص ما . كان بإمكانى أن أمد يدى ، وأضع أنملى على ذراعه بينما هو يتكلم فيصمت فى الحال ، ويصيبه الاضطراب من قمة رأسه إلى أخمص قدميه . كانت لدى آمال ، وقد خُطب ودى ؛ وكان لى أجمل عرس . وحملت ثلاث مرات حملا ممتعا ، حيث كنت استيقظ كل يوم وأنا أعلم أن شيئا رائعا سوف يحدث بعد تسعة شهور ، ثمانية شهور ، سبعة . . . ولذا بدا لى أننى كنت ممتلئة ضوءا ؛ كان الضوء والخطط هى ما يملؤنى . وبعدئذ حينما كنتم أيها الأطفال صغارا ، كنت أنا مركز عوالمكم ! كنت كل شىء بالنسبة لكم ! كنت تجدنى فى كل أموركم وتفاصيلكم الصغيرة ، و « أين أمى ؟ إلى اين ذهبت ؟ » وفى اللحظة التى كنتم تعودون فيها من المدرسة ، « أمى ؟ هل عدت إلى البيت ؟ » ليس هذا عدلا ، ياكودى . ليس هذا عدلا فى الواقع ؛ الآن أنا عجوز وأمشى دون أن يلاحظنى أحد . يبدو لى هذا ظلما ، ياكودى . لكن لاتخبر الآخرين أننى قلت هذا ».

وفى عمله فى الأسبوع التالى ، وهو يرسم خريطة للخطوات التى تركب بها المثاقب التى تعمل بالكهرباء فى علبها ، راح كودى يراقب روث القديمة السمراء تتلاشى من العوارض الخشبية فى الأسقف المائلة والمداخل ، حتى اختفت تماما فى النهاية ونسى لماذا أثارت مشاعره

هكذا . ظهرت روث أخرى الآن . كانت تعدو وهى تقهقه على طول خط التجميع وعزرا يعدو فى أعقابها بضراوة ، وهى ناتئة العظام ، صبيانية ، وحلة العمل ترف حول قصبتى رجليها . كان شعر عزرا مشعثا . (لم يكن محصنا على الإطلاق ، فيما يبدو ، لكنه كان ينتظر فقط بطريقته الواثقة العنيدة وصول الشخص المناسب) . أمسك بها فى مكتب المشرف وراحا يجرّان أقدامهما . . . نعم ، مثل جروين . تواثبت خصلة شعر مرفوعة فوق جبين روث على قمة رأسها . كانت شفتاها متصدعتين ومتشققتين . كانت قد قرضت أظافرها بحيث أصبحت وسادات أرجوانية دقيقة ، وكانت هناك كشطات وحروق على مفاصل أصابعها، ندوب من طهيها الريفى .

اتصل كودى بأمه هاتفيا وقال إنه سيحضر فى عطلة نهاية الأسبوع . وهل ستكون روث هناك ، فيما تظن ؟ قال ، فى نهاية الأمر ، حان الوقت الذى يجب عليه فيه أن يعرف زوجة أخيه فى المستقبل .

وصل صباح السبت وقد أحضر معه زهورا وورودا نحاسية اللون . وجد عزرا وروث يلعبان « الكونكان » على أرضية غرفة المعيشة . نزلت به حقيقة روث ، بعد أسبوع من حلمه بها ، كأنها ضربة . بدت أوضح ، أبسط ، أكثر نتوءا فى العظام عن أى واحدة عرفها . كانت ترتدى سروالا من الجينز خشنا أزرق وقميصا من مربعات قبيحة ، وهى منهمكة فى لعبتها حتى أنها لم تكد ترفع بصرها عندما دخل كودى . قال ، « روث » ومد إليها الزهور ، « هذه لك » .

نظرت إليها ، ثم سحبت ورقة . سألته ، « ماهى ؟ »

ــــ « حسنا ، ورود » .

ــــ « ورود ؟ فى هذا الوقت المبكر من السنة ؟ »

ــــ « ورود مستنبت زجاجى . طلبت اللون النحاسى الأصفر خصيصا ، ليتمشى مع شعرك » .

قالت ، « دع شعرى خارج هذا الموضوع » .

قال لها عزرا ، « حبيبتى ، لقد عنى بها إطراء » .

ــــ « أوه » .

قال كودى ، « بالتأكيد . انظرى ، إنها طريقتى فى الترحيب . مرحبا بك فى عائلتنا ، يا روث » .

ــــ « أوه . حسنا ، شكرا » .

قال عزرا ، « كودى ، كان هذا لطيفا منك للغاية » .

قالت روث ، « كونكان » .

فى وقت متأخر من عصر ذلك اليوم ، عندما حان موعد الذهاب إلى المطعم ، سار كودى مع روث وعزرا . فقد أمضى يوما طويلا ساكنا بلا حراك ـ وهو يقف خارج حياة الآخرين ، فى المقام الأول ـ وكان بحاجة إلى التمرين .

كانت السماء قد ظلت تمطر ، من آن لآخر ، وهناك برك ماء صغيرة موحلة على الرصيف . مشت روث بخطى واسعة خلال كل منها ، وهو ما كان حسنا حيث كان حذاؤها يغطى الساقين ومصنوعا من الجلد البنى مما يستعمل فى القتال . تساءل كودى إذا كان ارتداؤها الحذاء قرارا مدروسا . ماذا كانت لتفعل لو أنه ، مثلا أعطاها صندلا للمساء بكعب عال ؟ بدأ السؤال يبهره . استحوذت عليه الفكرة ؛ تولد فيه عطش جسمانى تقريبا لرؤية قدميها الصغيرتين المتبلدتين فى شرائط فضية .

لم يكن هناك تفسير لتوقه إلى ساعة المعصم الضخمة - ذات الميناء الأسود المعايرة بشكل معقد ، والقادرة على تحمل الغوص فى أعماق البحر - والتى كان سوارها القابل للتمدد والمصنوع من صلب لايصدأ يتدلى مفككا من رسغها النحيل القوى .

كان مع عزرا فلوته المصنوع من خشب شجر الكمثرى . راح يعزف عليه أثناء سيره ، وهو جاد ومنهمك ، وقد أرخى رموشه على وجنتيه . عزف « حساء السمك » ، نظر إليه المارة وابتسموا . راحت روث تدندن مع بعض الأنغام ، وتغرق فى أفكارها مع أنغام أخرى . ثم وضع عزرا فلوته فى جيب سترته الرثة العتيقة ، وشرع هو وروث يناقشان قائمة الطعام . قالت روث ، طيب أن يقدموا طبق الأرز ؛ كان ذلك يسعد الأسرة العربية دائما . دفعت أصابعها خلال شعرها الأحمر البازغ . شعر كودى ، وهو يسير على الجانب الآخر منها ، بجسدها يميل بعيدا حين طوقها عزرا بذراع وجذبها إليه .

أثارت زوبعة فى المطعم ، راح عزرا يطهى حالما ، يتذوق ويفكر ؛ والآخرون (وكلهم خاسرون ، فى رأى كودى) يهيمون فى أرجاء المطبخ بشكل مبهم ، لكن روث كانت تدور حول الطعام وتنقض وتلكز كأنها فى معركة . كانت تتولى أمر طبق دجاج وشىء له مظهر كعك البطاطس . راح كودى يراقبها من ركن لايعوق أحدا ، ومع ذلك بدا الناس كما لو كانوا يتعثرون فوقه .

سأل روث ، « أين تعلمت الطهى ؟ »

قالت ، « فى لا مكان » .

ـــ « هل طبق الدجاج هذا شىء إقليمى ؟ »

ـــ « تذوق » ، ردت بحدة ، وطعنت قطعة ومدت يدها بها إليه .

قال ، « لا أستطيع » .

ـــ « لم لا ؟ »
ـــ « أشعر أننى ممتلىء تماما » .

والحقيقة أنه كان ممتلئا بها هى . فقد ظل يحاول تطويقها اليوم كله ، يلتهمها . كل حركة ناتئة ـ صفق أغطية القدور ، كل حركة رأس مفاجئة ـ كانت تغذيه .. وبينما كان يدرس ظهرها الضيق ، واتته ـ كأنها هدية ـ فكرة أنها ترتدى بالفعل قميصا داخليا ، واحدا من القمصان الرجالى الداخلية المشغولة بالإبرة والتى يتذكرها من طفولته . كان يستطيع تمييز وصلاته تحت القميص البنى ذى المربعات . حفظ المعلومة فى ملف ذاكرته بعناية ، ليدخرها لوقت يكون فيه وحده .

فتح المطعم وبدأ الزبائن يفدون . أجلستهم المضيفة الضخمة ذات الابتسامة المشعة جميعا فى مساحة واحدة ، كما لو كانت تدسهم تحت جناحها .

قال عزرا لكودى ، « ابحث عن منضدة . سآتيك ببعض من طهى روث » .
قال كودى ، « بكل صدق لست جائعا » .
قالت روث ، وهى تبصق الكلمة ، « إنه **ممتلىء** » .
ـــ « حسنا ، ماذا ستفعل ، إذن ؟ أليس هذا مملا لك ؟ »
قال كودى ، « لا ، لا ، هذا مثير لاهتمامى ».

كان بإمكانه أن ينظر عبر النضد الطويل إلى داخل قاعة الطعام ، حيث جلس الناس يمضغون ويبلعون ويشربون ، يربتون أفواههم بفوط ، ويكسرون قطعا غليظة قصيرة من الخبز . تعجب كيف يمكن لعزرا أن يحتمل أن يقضى عمره فى هذا .

عندما انتهت فورة العمل الأولى الحقيقية ، جلست روث وعزرا

إلى الطاولة الخشبية المكشوطة فى منتصف المطبخ ، ولحق كودى بهما . تناول عزرا شيئا من طبق دجاج روث . أشعلت روث سيجارة بنية صغيرة ومالت إلى الخلف فى كرسيها لتراقبه . بدت رائحة السيجارة كما لو كانت تحترق بالصدفة - مثل شيء انسكب على أرضية موقد ، أو التصق بقاع قدر . راح كودى يمتص الدخان ، وهو جالس أمامها .

قال عزرا وهو يحثه ، « كلْ ، يا كودى ، كلْ » . هز كودى رأسه فقط ، وهو لا يريد أن يفقد ملء رئتيه من دخان روث .

فى تلك الاثناء ، كان الطهاة يروحون ويغدون ، بعضهم يجلس أيضا ليَلتهِم تشكيلات غريبة من الطعام فى حين كانت غلاياتهم تغلى برفق دون أن يلتفت لها أحد . ظهر صديق صبا عزرا ، جوسيا ، وقد تحول إلى رجل ناضج كفؤ يرتدى ثيابا بيضاء منشاة ، وتجاذب هو وروث الحديث حول تقشير التفاح لعمل فطيرتها . لم يكن كودى ليكترث بفطيرتها البتة ، لكن طريقتها العامية الخشنة فى الكلام استرعت انتباهه . كانت تمسك بسيجارتها بين الابهام والسبابة ، ومرفقها مستند إلى قفصها الصدرى . مالت إلى الأمام مستقرة على فخذيها لتفكر مليا فى قرار ما ، وتحت حاجبيها المقطبين كانت عيناها زرقاوين فاتحتين إلى درجة جعلته يجفل .

غادروا المطعم قبل أن يغلق أبوابه . قال عزرا إن جوسيا سوف يقفله . سلكوا طريقا دائريا إلى البيت ، على طول شارع هادىء باتجاه واحد ليتركوا روث عند المنزل الذى كانت تستأجر فيه غرفة . عندما صحبها عزرا إلى أعلى الدرج الأمامى ، وقف كودى ينتظر على الرصيف . راقب عزرا وهو يقبلها قبلة ما قبل النوم - قبلة متخبطة غير كافية ، كما حكم عليها كودى ؛ وشعر بشيء من الرضا . ثم انضم

عزرا إليه وسار إلى جانبه مزهوا ، ضخم القدمين ومبتهجا . سأل عزرا كودى ، « أليست شخصا ذا شأن ؟ ألا تملك غير أن تحبها ؟»

همهم كودى ، « مم » .

ـــ « لكن هناك الكثير الذى أحتاج إلى معرفته منك ! أريد أن أعنى بها كثيرا ، لكننى لا أعرف كيف . ماذا عن تأمين الحياة ؟ وأشياء من هذا القبيل ! فالأزواج ينتظر منهم الكثير ، يا كودى . هل لك أن تساعدنى فى تقدير هذه الأمور ؟ »

قال كودى ، « يسرنى أن أفعل ذلك » . كان يعنيها ، أيضا . أى شىء : أى شق صغير يوفر له مدخلا .

همد عزرا فى نهاية الأمر ، على الرغم من أنه ظل يعطى الانطباع بالبقبقة والقهقهة الداخليين . ومن آن لآخر ، كان يدندن ببضع نغمات من شىء ما بصوت خافت . ثم ماذا يفعل عندما أوشكا على الوصول إلى البيت ـ وهما يمران على منازل غارقة فى الظلام ، حيث كان الجميع قد خلدوا إلى النوم من وقت طويل ـ سوى أن يخرج ذلك الفلوت اللعين ويشرع فى العزف . كان ذلك محرجا . كان مثيرا للغضب : « حساء السمك » مرة أخرى . قال كودى لنفسه ، ثق بأن عزرا سيخرج بأغنية تدور فكرتها حول وصفة لطبق من طعام البحر . سار إلى جانبه فى صمت ، وهو يأمل فى أن يستدعى بعضهم الشرطة . أو على الأقل ، أن يفتحوا النوافذ ، « أنت يا من هناك ! هدوءا ! » لكن أحدا لم يفعل . كان ذلك شيئا نمطيا . عزرا ، الفتى الذهبى ، الأثير لدى الجميع ، يصفر على طول الطرقات ، بلا عقاب .

فى صباح يوم الأحد ، قدم كودى نفسه عند باب روث - أو بالأحرى ، عند باب السيدة الثرية شاحبة اللون التى تمتلك البيت الذى تقيم فيه روث . عبثت السيدة بالقلادة التى تتدلى حول عنقها على نحو يشى بالخوف حتى أن كودى وجد نفسه مضطرا إلى أن يتراجع خطوة إلى الخلف ، ليثبت أنه لم يكن ممن يطرقون الأبواب بغرض السرقة . أبدى لها أكثر ابتساماته تهذيبا . قال ، « صباح الخير . . هل روث بالبيت ؟ »

ـــ « روث ؟ »

أدرك أنه لم يكن يعرف اسم عائلة روث . قال ، « أنا شقيق عزرا تل » .

قالت ، « أوه ، عزرا » وتنحت إلى الخلف لتدعه يدخل .

تبعها إلى أعماق الداخل ، متجاوزا خليطا مضطربا من الأثاث المكدس ، والفاكهة الشمعية التى يعلوها الغبار وأكوام من المجلات . فى المطبخ ، كانت روث تجلس بترهل إلى المائدة تغرف الرقائق المصنوعة من دقيق الذرة بملعقة ، وتقرأ جريدة مسندة إلى علبة الوجبات الجاهزة المعدة للفطور . كان هناك رجل شاحب قصير مكتنز يقف محدقا فى ثلاجة مفتوحة . ترك المكان لدى كودى انطباعا بالقصور الذاتى والحياة الضائعة . شعر بنفسه مشحونا بطاقة . ينبغى أن يكون من السهولة بمكان الفوز بها بعيدا عن كل هذا !

قال ، « صباح الخير » ، رفعت روث رأسها . تراجع الرجل القصير المكتنز من خلف باب الثلاجة .

قال كودى ، « أرجو ألا تكونى قد قطعت شوطا طويلا فى تلك الوجبة . فقد جئت لأدعوك إلى الإفطار » .

قالت روث ، وهى تعبس ، « لماذا ؟ »

ـــ « حسنا . . . بلا أى غرض . فقد خرجت للمشى فقط وفكرت أنك قد تودين أن تتمشى معى ، وأن نتوقف لتناول لقمة القاضى والقهوة فى مكان ما » .

ـــ « الآن ؟ »

ـــ « طبعا » .

ـــ « ألا تمطر ؟ »

ـــ « قليلا فقط » .

قالت ، « لا ، شكرا » .

عادت عيناها إلى جريدتها .

حركت صاحبة البيت القلادة على طول سلسلتها محدثة صوتا ضئيلا يشبه صوت إغلاق سوستة .

سألها كودى ، « ماذا يحدث فى العالم ؟ »

قالت روث « أى عالم ؟ »

ـــ « الأخبار . ماذا تقول الجريدة ؟ »

رفعت روث عينيها ، ورأى كودى الصفحة التى تحولت إليها . قال ، « أوه ، الرسوم الهزلية » .

ـــ « لا ، برجى » .

ـــ « برجك » . نظر الى صاحبة البيت ينشد العون . اتجهت صاحبة البيت بنظرة محدقة باتجاه خزانة مليئة بأكواب الجيلى . سأل

كودى روث ، « حسنا ، أى .... أمّ ، رمز أنت ؟ »

غمغمت ، « همم ؟ »

ـــ « أى رمز من رموز علم التنجيم ؟ »

صححت له ، « علامة » . تنهدت ونهضت ، وقد اضطرت أخيرا إلى الاعتراف بوجوده . مشت بتشامخ إلى قاعة الاستقبال ، بعد أن اختطفت جريدتها من على المنضدة . أفسح كودى لها الطريق ثم تبعها . خمن أنها اشترت سروالها الجينز الخشن الأزرق من متجر لملابس الصبية الصغار . فلم يكن لها أرداف البتة . وكانت سترتها الصوفية شفافة عند المرفقين .

قالت من فوق كتفها ، « أنا من برج الثور ، لكن هذا كله هراء ، على أية حال . قمامة تماما » .

قال كودى ، وقد داخله إحساس بالراحة ، « أوه ، أوافقك » .

توقفت ، فى منتصف قاعة الاستقبال واستدارت إليه . قالت ، « انظر إلى هنا » ، ووخزت بإصبعها سطرا فى ورق الجريدة . « **سيأتى حليف قوى لإنقاذك . التأكيد اليوم على الأمور المالية الحاسمة** » ، أنزلت الجريدة . « أعنى من يحسبون أنهم يتعاملون معه ؟ أى عمل تجارى يفترضون أننى منهمكة فيه ؟ »

قال كودى ، « سخف » . كان منوما تنويما مغناطيسيا بحاجبيها . كانتا فى لون شراب البرتقال ، وكانت حينما تتكلم بأى قدر من الحرارة يصبح الجلد حولهما أرجوانيا ، داكنا أكثر من حاجبيها .

قرأت ، « **تجاهلى التلميحات من عدو قديم** » ، وهى تمرر

اصبعها أسفل العمود . قالت ، « أو أصغ إلى هذه النبوءة الأخرى : **لقاء سرى يمكنه أن يميط اللثام عن الغموض** . ياالله القدير » ، وطوحت الجريدة إلى مقعد . « ينبغى لك أن تعيش حياةِ حافلة حتى يصدق معك أى شيء من قراءة طالعك » .

قال كودى ، « حسنا ، لست أدرى . ربما كان أصدق مما تدركين » .

ــ « ماذا قلت ؟ »

ــ « ربما يقول إنك **ينبغى** لك أن تعيشى مثل هذه الحياة . ينبغى أن تكونى مغامرة أكثر ، لا مجرد أن تشقى فى مطعم ما ، أن تضيعى وقتك سدى فى نزل كئيب . . . »

قالت روث وهى ترفع ذقنها ، « إنه ليس كئيبا إلى هذا الحد » .

ــ « حسنا ، لكن . . . »

ــ « وعلى أية حال ، لن أكونِ هنا دائما . فأنا وعزرا بعد زواجنا سوف ننتقل إلى الشقة التى تقع فوق مطعم المشتاقين للأهل . وما أن تتوافر لنا بعض النقود فإننا ننوى شراء بيت » .

قال كودى ، « ومع ذلك ، لن يكون لك مكان يدانى ما يدعوك إليه طالعك هذا . لماذا ، هناك العالم الخارجى كله ! نيويورك ، مثلا . هل ذهبت أبدا إلى نيويورك ؟ »

هزت رأسها بالنفى ، وهى تراقبه بدقة .

ــ « يجب أن تأتى ؛ فالوقت ربيع هناك » .

قالت ، « وهنا ربيع » .

ـــ « لكنه نوع مختلف » .

قالت له ، « لا أفهم ما ترمى اليه » .

ـــ « حسنا ، كل ما أريد أن أقوله ، ياروث ، هو : لماذا تتعجلين الاستقرار ، فى حين أن هناك الكثير الذى لم تشاهديه بعد ؟ »

قالت ، « أتعجل ؟ إننى على مشارف عامى العشرين . وقد ظللت اتحرك محدثة جلبة من مكان لآخر ، اشق طريقى بنفسى ، منذ عيد ميلادى السادس عشر . الشيء الوحيد الذى أريده هو أن استقر ، وكلما كان مبكرا كان ذلك أفضل » .

قال كودى ، « أوه » .

ـــ « حسنا ، تمتع بنزهة طيبة على الأقدام » .

ـــ « أوه ، أجل ، المشى . . . »

قالت بفظاظة ، « لا تغرق » .

وعند الباب استدار . قال ، « روث ؟ »

ـــ « ماذا ؟ »

ـــ « أنا لا أعرف اسم عائلتك » .

ـــ « سبيفى » .

ظن أنه أجمل صوت سمعه فى حياته على الإطلاق .

* * *

فى عطلة نهاية الأسبوع التالية ، أقلها فى سيارته لترى مزرعته .

قالت ، « لقد رأيت كل المزارع التى يهمنى أن أراها » . لكن عزرا قال ، « أوه ، يجب عليك أن تذهبى ، ياروث . فهى جميلة فى هذا الوقت من السنة » . كان على عزرا نفسه أن يبقى ؛ كان يشرف على تركيب ثلاجة جديدة لحفظ اللحوم فى المطعم . وكان كودى قد علم بذلك قبل أن يدعوها .

اشترى لها هذه المرة باقة من النرجس الأسلى . قالت ، « لا أعرف فيم أريد **هذه** ؛ هناك مقادير كبيرة منها مختلطة عندنا فى الممر » .

ابتسم لها كودى .

أجلسها فى عربته الكاديلاك ، التى كانت لها رائحة الجلد الجديد . لم يبد عليها أنها تأثرت . وبسوء نية مقصود ، كانت ترتدى تنورة ، فى المناسبة التى كان السروال الجينز الأزرق الخشن أكثر ملاءمة . كانت ساقاها بيضاوين جدا ، طباشيرية تقريبا . ولم يكن قد رأى جوارب قصيرة مثل جواربها منذ أيام التلمذة ، وحذاؤها الخفيف الرث صغير وخشن مثل حذاء طفل .

وفى الطريق ، تكلم عن مشروعاته للمزرعة . قال ، « إنها المكان الذى أود أن اعيش فيه . المكان الذى أريد أن أربى فيه أطفالى . فهو مكان مثالى للأطفال » .

سألته ، « ما الذى يجعلك تفكر على هذا النحو ؟ عندما كنت طفلة ، كان كل اهتمامى منصبا على الذهاب إلى المدينة » .

— « أجل ، ولكن الهواء الطلق والخضراوات المزروعة فى البيت ، والحيوانات . . . الآن بالذات ، يرعى الرجل الذى يعيش فى آخر الشارع قطيعى من المواشى ، ولكن ما أن أنتقل إلى هناك للإقامة

بشكل متصل فسوف أعمل كل هذا بنفسى » .

قالت روث ، « ذلك ما أود أن أراه . هل لوثت أبدا خنزيرا بالوحل ؟ أو جرفت اسطبلا ؟»

قال لها ، « يمكننى أن أتعلم » .

هزت كتفيها باستهجان ولم تتكلم أكثر .

عندما بلغا المزرعة ، جال بها لترى المساحة المحيطة بالمنزل والتابعة لها ، حيث حدقت فى بقرة حتى أرخت البقرة عينيها ، ورمقت مجموعة من الدجاج بنظرة حاسدة . ثم قادها إلى داخل البيت . كان قد اشتراه بما فيه ـ كاملا بأريكة فخمة غير مزخرفة ، وموقد يعمل بالكيروسين فى قاعة الاستقبال ، وطاولة مطبخ مزعزعة بدرجها المليء بأدوات مائدة فضية صدئة ، وتقويم عام ١٩٥٨ على الحائط يحمل إعلانا عن مزيج محار مالاردى الغنى بالكالسيوم . كان الرجل الذى عاش هناك ـ وهو أرمل ـ قد توفى فى الطابق العلوى فى السرير ذى الأعمدة الأربعة . وقد بدل كودى فراش السرير بفراش جديد ، ملاءات ولحاف ووسادات محشوة بالزغب ، لكن ذلك كان التغيير الوحيد الذى أدخله . قال لروث ، « أنوى أن أصلح الأشياء ، لكننى انتظر حتى أتزوج . وأعرف أن زوجتى قد تود أن يكون لها رأى فى هذا » .

فتحت روث قفل نافذة من على إطارها الخشبى المفتت بسهولة تفحصته وأنعمت النظر فى جانبه السفلى .

قال كودى ، « أريد زوجة بشدة » .

أعادت القفل إلى وضعه الأصلى . قالت ، « أكره أن أكون من

يخبرك ، ولكن هل تشم هذه الرائحة ؟ رائحة حلوة نوعا ما ؟ لديك عفن جاف هنا » .

قال ، « روث ، هل تكرهينني لأى سبب ؟ »

— « هه ؟ »

— « موقفك . الطريقة التى تتهربين بها منى . إن رأيك فىَّ غير طيب ، هل هذا صحيح ؟ »

ألقت عليه نظرة جانبية مائلة ، مراوغة ، وتحركت باتجاه الدرج . قالت ، « أوه ، إنك تروق لى بقدر لا بأس به » .

— « صحيح ؟ »

قالت ، « لكننى أعرف طرازك » .

— « أى طراز ؟ »

قالت ، « كان هناك الكثير ممن على شاكلتك فى مدرستى . أوه ، مؤكد ! بعض منهم فى كل فصل ، فى كل فريق - طوال القامة ووسماء حقا ، أنيقون ، رياضيون ، حاضرو البديهة . فتيان ذوو سلوك ناعم يسعى إليهم كل شيء دائما بسهولة ، يعرفون دائما الطريقة الملائمة لعمل الأشياء ، ولم يكونوا يضربوا موعدا أبدا إلا مع الفتيات اللاتى يتزعمن الهتاف للفريق ، أو ملكة حفل الخريجين ، أو وصيفات شرفها على أقل تقدير . يمرون بى فى القاعات دون أن يعرفوا حتى من أنا ، أو يخمنوا أننى موجودة . أو يهزأون بى أحيانا ، أنا متأكدة من ذلك تقريبا - يضحكون على فقر ثيابى ويسخرون من نمش وجهى وشعرى الأحمر الرث » .

ـــ «يضحكون ! متى فعلت مثل هذا على الإطلاق ؟ »

قالت ، « أنا لا أقصدك أنت بالتحديد ، لكن من المؤكد أنك تذكرنى بنمط » .

قال ، « روث . ما كنت لأسخر منك . وأعتقد أنك رائعة . أنت أجمل امرأة وقعت عليها عيناى » .

سألته ، « هل ترى هذا ؟ » ورفعت ذقنها ، واستدارت ، وهبطت الدرج . ولم تجب عن أى شىء قاله لها ، طوال رحلة العودة .

كانت حملة ، هكذا كانت ـ حملة قتالية طويلة وشاقة ، ممتدة خلال أبريل ومايو كله . كانت هناك لحظات داخله فيها اليأس . لقد بدأ بداية متأخرة جدا ، كان خارج السباق ؛ قد ضيع وقته مع أولئك الفتيات السمراوات الواضحات اللاتى ينقصهن الجدة واللاتى ظن أنه كان من المهارة بحيث يتصيدهن فى حين أن عزرا ، حتى دون أن يحاول ، كان قد أقتنى بطريقة ما الجوهرة الحقيقية . عزرا المحظوظ ! كانت حياته كلها تقوم على الحظ ، ولعل كودى لن يتمكن من أن يقدر كيف كان يفعلها .

وفى أغلب الأحيان كان كودى يغمغم لنفسه وهو يحث خطاه ، بعد أن يترك روث . كان يضرب كفا بقبضة يده أو بركل عربته . لكنه فى نفس الوقت لديه إحساس رائع بالبهجة . أجل ، كان عليه أن يعترف أنه لم يشعر مطلقا بأنه أكثر حياة ، ولا أكثر تشوقا أبدا الى كل يوم جديد . فهم الآن لماذا فقد اهتمامه بكارول أو كارين ، أيا كان اسمها ، الاخصائية الاجتماعية التى لم تجد عزرا فاتنا . فقد جعلت الأمر سهلا

أكثر من اللازم . كان ما يروقه هو المنافسة ، والأمل في الخروج منتصرا من هذا السباق الضارى المتعادل مع عزرا ، أقدم أعدائه . بل إنه يروق له أن ينتظر صابرا حتى تواتيه الفرصة ، أن يمارس ضبط النفس ، أن يخفى مشاعره عن روث حتى اللحظة المواتية . (هل كان الصبر سر عزرا ؟) لأن هذه لم تكن ، بطبيعةِ الحال ، منافسة مكشوفة . كان عزرا يقول ، « ياالله ، يا كودى ، لقد كان لطيفا أن نحظى بك هنا كثيرا مؤخرا » . ويقول لروث ، « اذهبى ، اذهبى ؛ فسوف تستمتعين بذلك » حين يدعوها كودى إلى أى مكان .

وذات مرة ، سرق كودى إحدى سجائر روث البنية ، ليضع الطعم لعزرا ، ودخنها في بيت المزرعة . (ملأت رائحة القطران المحترق غرفة نومه . ولو كان لديه هاتف ، لنسى كل خططه الاستراتيجية ودعاها في تلك اللحظة ليعترف لها أنه يحبها) . سحق عقب السيجارة في منفضة من البلاستيك إلى جوار سريره . وفيما بعد دعا عزرا ليلقى نظرة على عجوله الجديدة ، وصحبه إلى الطابق العلوى ليتباحث معه بشأن تسريب في السطح ، وقاده إلى الطاولة الصغيرة إلى جوار السرير حيث كانت المنفضة . لكن عزرا قال فقط ، « أوه ، هل كانت روث هنا ؟ » وانطلق يمتدح حديقة أعشاب كانت تزرعها فوق المطعم . لم يستطع كودى أن يصدق أن أى واحد يمكن أن يكون أعمى إلى هذا الحد ، ساذجا إلى هذا الحد . وأيضا كان ليدفع حياته ثمنا لامتياز أن تزرع روث له أعشابا . فكر في الفناء الذى يقع خلف البيت ، حيث كان دائما يتصور حديقة مطبخ زوجته . اكليل الجبل ! الريحان ! الليمون العطرى !

سأل كودى عزرا ، « لماذا لم تأت إلىّ ؟ بإمكانها دائما أن تزرع أعشابها في مزرعتى » .

قال عزرا ، « أوه ، حسنا ، كلما كان أقرب إلى البيت كان أكثر طزاجة . لكن لطيف منك أن تعرض ، يا كودى » .

وأثناء قيامه بتشحيم بندقيته تلك الليلة ، فكر كودى جديا فى إطلاق النار على قلب عزرا .

عندما كان يطرى روث كانت تتخذ مظهرا عدوانيا . وعندما كان يحمل إليها الهدايا التى اختارها بمكر (سلاسل ذهبية ، وقنينات عطر من الكريستال ، وصناديق موسيقية ، وزهور حريرية ، وكلها كان يقصد بها إظهار تناقضها مع مرقاق العجين القبيح من الرخام المرقش الذى قدمه عزرا ، وقد لف بشكل فج ، فى عيد ميلادها العشرين) ، فإنها كانت تفقدها عموما فى الحال أو تتركها حيثما يتصادف أن توجد . وعندما كان يدعوها إلى أماكن ، فإنها كانت تأتى ابتغاء النزهة . كان يأخذ ذراعها فتقول ، « يالله ، لست امرأة عجوزا » . كانت تتسلق الصخور وتندفع خلال الغابات فى حذائها العسكرى ، وكودى يتبعها ، مشدوها مبهورا ، عليلاً بالحب بكل ما فى الكلمة من معنى . فقد ثمانية أرطال من وزنه ، ولم يستطع أن يأكل ـ وهو ما كان يفكر فيه دائما على أنه خرافة ـ وكان ينام بالكاد بالليل . وعندما ينام ، يرغب فى أن يحلم بروث لكنه لم يفعل أبدا ؛ كانت غائبة بشكل عفاريتى ، متحد ، وفى النهار عندما كان يلقاها بعد ذلك يظن أنه يرى شيئا ساخرا فى النظرة التى تلقيها عليه .

وغالبا ما كان يجد من الصعب أن يحافظ على استمرار الحديث بينهما . وقد داخله أحيانا ـ فى وسط الأسبوع ، عندما يكون بعيدا عن بلتيمور ـ أن الفكرة كلها مخبولة . فلن يكونا أى شىء أبدا سوى غريبين . فأى اهتمام مشترك ، حتى ، كان يجمعهما ؟ لكن فى عطلة نهاية كل أسبوع ، كانت مشيتها المختالة ، وذقنها المولع بالقتال وتقطيبة

جبينها المحببة تصعقه . كانت رائحتها النفاذة الصبيانية تثير مشاعره ؛ تخيل كيف يمكن لجسدها الصغير أن يستكين فى جسده . أوه ، كانت روث ذاتها هى الشىء المشترك بينهما . كان يمد يده ليلمس مهاميز مفاصل يدها . وكانت تنزعج وترتد الى الوراء ، وتسأله ، « ماذا تفعل ؟ » ولم يكن يجيب .

قالت له أمه ، « أعرف ما تدبره » .

ــــ « عفوا ؟ »

ــــ « أنفذ فيك ببصرى كأنك لوح زجاج » .

سألها ، « حسنا ؟ ما الذى أدبره ، إذن ؟ » . كان يأمل حقا أن يسمع ؛ فقد بلغ المرحلة التى يحتال فيها ويتستر لمجرد أن يجعل أحدا ينطق اسم روث .

قالت أمه ، « أنت لا تخدعنى لحظة . لماذا أنت على النقيض إلى هذا الحد ؟ ليس بك أية حاجة إلى تلك الفتاة . فهى ليست طرازك مطلقا ؛ إنها تنتمى إلى أخيك عزرا ، وهى الشىء الوحيد فى هذا العالم الذى أراده إطلاقا . ولو فزت بها ، قل لى ماذا كنت لتفعل بها ! لسوف تسقطها فورا . ستقول ، « أوه ، يالله ، ما الذى أفعله **بهذه** الإنسانة الضئيلة ؟ »

قال كودى ، « أنت لا تفهمين » .

قالت له أمه ، « قد يكون فى هذا صدمة لك ، لكننى أفهمك تماما ، فقد لا أكون ذكية بالقياس لبقية العالم ، لكن مع أبنائى الثلاثة لا يفوتنى أقل شىء . أعرف كل ما تسعى إليه . وأرى كل شىء فى قلبك ، يا كودى تل » .

قال كودى ، « هل تتطلعين على السرائر ؟» .

وافقته ، « تماما » .

أعد عزرا عشاء احتفال عشية عرس جينى - يوم جمعة . لكن جينى اتصلت بكودى ليلة الخميس هاتفيا فى شقته . كانت مكالمة محلية ؛ قالت إنها لم تكن تبعد عنه بعشر بنايات ، وهى تقيم فى فندق مع سام وايلى . قالت ، « تزوجنا صباح الأمس ، ونحن الآن فى شهر العسل . ولذا فلن يكون هناك عشاء فى نهاية الأمر » .

سألها كودى ، « حسنا ، كيف حدث كل هذا ؟ »

ـــ « حدث خلاف صغير بين أمى وسام » .

ـــ « فهمت » .

ـــ « قالت أمى ... وقال سام لها ... وقلت ، « أوه ، سام ، لم لا تدعنا فقط ... » غير أننى مستاءة بشأن عزرا . أعرف كم تجشم من عناء » .

قال كودى ، « ينبغى أن يكون الآن معتادا على هذا » .

ألم يلاحظ عزرا (تساءل كودى) أن العائلة ككل لم تنه أبدا وجبة من وجبات عشائه ؟ إنهم ليتشاجرون وينصرفون وهم يدقون الأرض خلال الوجبة ، أو أحيانا لا يتمكنون حتى من الجلوس فى المقام الأول ؟ حسنا ، لابد أنه لاحظ بالطبع ، ولكن هل كان هذا واضحا بالنسبة له كنسق ، أو فكرة رئيسية ؟ لا ، ربما كان ينظر إلى كل وجبة على أنها وحدة قائمة بذاتها ، لا ترتبط بالوجبات الأخرى . ربما لم يربط بينها فى عقله ، مفترضا أنه كان أبلة تماما .

صحيح أنهم ذات مرة - عندما اجتمعوا للاحتفال بعمل كودى التجارى الجديد - نجحوا فى أن يكملوا الوجبة كلها حتى وصلوا إلى الحلوى ؛ ولذا إذا كانوا لم يطلبوا الحلوى يمكنك أن تقول إنهم أكملوا الوجبة . لكن الحقيقة أنهم طلبوا الحلوى بالفعل ، التى تُركت حتى تهدل قوامها على الأطباق حين اتهمت أمهم كودى بأنه أقام محل عمله أبعد ما يمكن عن البيت . حدثت مشاجرة صغيرة عنيدة . انهار الحديث . غادر كودى المكان . وهكذا لا يمكنك اعتبار حتى تلك الوجبة منتهية ، من الناحية الفنية . لماذا واصل عزرا المحاولة ؟

لماذا استمر الآخرون فى الحضور ، كان ذلك هو لب الموضوع . والواقع ، أنهم ربما كانوا يرون أحدهم الآخر أكثر مما تفعل العائلات السعيدة . بدا الأمر تقريبا كما لو كان عليهم أن يظلوا يعودون إلى ما لا يستطيعون إنجازه على النحو الصحيح . (ولذا فلو أنهم أنهوا عشاء فى أى مرة ، فهل كانوا ينهضون ويودعون أحدهم الآخر إلى الأبد ؟)

ما أن وضعت جينى السماعة ، حتى جلس كودى على الأريكة وراح يتصفح بريد الصباح . شىء ما جعله يشعر بعدم الاستقرار . تعجب كيف أمكن لجينى أن تتزوج سام وايلى - طراز ضئيل أعجف من الفنانين ، ذو عين حولاء مراوغة . تساءل إن كان عزرا سيلغى عشاءه فى مجموعه أو يؤجله فقط إلى ما بعد شهر العسل . تخيل روث فى مطبخ المطعم ، وأصابعها الصغيرة المتغضنة تربت الدقيق على أفخاذ الدجاج . فحص إعلانا عن التأمين على الحياة ، وتساءل لم لا يعتمد عليه أحد - ولا حتى بما يكفى لأن يطلب أموال تأمينه على حياته لو حدث أنه مات .

شق مظروفا يحمل عبارة « عرض مذهل ! » ووجد ثلاث عينات

من ورق الكتابة وطلبا مصقولا خاليا من الكتابة . كانت إحدى العينات زرقاء تحمل « ل م ر » مزينة بنقوش ناتئة فى أعلاها ، وعينة أخرى تحمل كلمة « بولا » بشكل مخرم ، وحرف « ب » مضفر مع كرمة نجمة الصباح ، والعينة الثالثة واحد من تلك الخطابات التى تتشكل مظاريفها حين تطوى . وقد طبع على لسان المظروف فراشات ومسز **هارولد الكسندر الثالث ، ٢١٩ سانت بيولا بوليفار ، دالاس ، تكساس** . درس ذلك للحظة . ثم تناول قلما من جيب قميصه ، وشرع يكتب بخط مائل الى اليسار على غير المعتاد .

عزيزتى روث ،

مجرد سطر لأقول لك « أهلا » نيابة عنا جميعا . كيف حال عملك ؟ ما رأيك فى بلتيمور ؟ هارولد طلب أن أسألك إذا كنت قد التقيت بشاب بعد . فقد حلم أغرب حلم ليلة الأمس ، حلم أنه رآك مع واحد طويل القامة ، له شعر أسود وعينان رماديتان وحلة رمادية . قلت حسنا ، من المؤكد أنه حلم آمل أن يتحقق !

كلنا على خير ما يرام على الرغم من أن ليندا تغيبت عن المدرسة يوما فى الأسبوع الماضى . حالة بدت لى على أنها « التهاب اختبار الرياضيات » ، هاها ! تطلب منى أن أرسل لك كثيرا من العناق والقبلات . اكتبى لنا سطرا فى القريب العاجل ، هل تسمعين ؟

شعر كودى أنه عثر لتوه على النبرة الصحيحة قرب النهاية ؛ أسف لأن المساحة قد نفدت . وقّع الخطاب مع حبى ، سو (مسز هارولد

الكسندر الثالث) ، ولصقه ووضع عليه طابع البريد ، وكتب العنوان . ثم وضعه فى مظروف عمل تجارى ، وكتب مذكرة إلى رفيق غرفته القديم فى الكلية فى دالاس ، وطلب منه أن يتكرم بأن يضع الخطاب المرفق فى أقرب صندوق بريد .

لم يذهب إلى موطنه فى عطلة نهاية الأسبوع تلك ، وكانت مكافأته أن يحلم بروث تنتظر قطارا قادما عليه . رآها على رصيف المحطة ، تحدق فى نوافذ كل عربة وهى تنزلق على مقربة منها . كان تواقا إلى الوصول إليها ، ليراقب تعبير وجهها وهو يتحرر من القلق حين تلمحه ، إلى حد أنه نادى اسمها بصوت عال وأيقظ نفسه . سمع صداه يتردد فى الظلام - لا اسمها ، فى النهاية ، ولكن صوت نوم لا معنى له . ظل يحاول لساعات بعد ذلك أن يحفر جحرا يعيده إلى داخل الحلم ، لكنه كان قد فقده .

وفى الصباح التالى بدأ خطابا آخر ، على الورقة التى تحمل فى أعلاها كلمة « بولا » . كتب بخط ملتف على سبيل التزيين :

عزيزتى روثى ،

أنت أيتها العجوز ، هل انقطعت عن الاتصال بصديقاتك ؟ لقد قلت لأمى فى أحد الأيام ، ماما إن تلك المدعوة روث سبيفى قد نسيت كل شىء عنا فيما أعتقد . لم تكن الأمور هنا تسير على نحو طيب . أظن أنك سمعت أننى قد انفصلت عن نورمان . أعرف أنه كان يروق لك ، لكن لم تكن لديك أية فكرة كم يمكن أن يكون متعبا ، فهو دائما بطىء وهادىء ، كان يضغط على أعصابى . روثى ابتعدى عن ذلك

النوع الشاحب الاشقر المستغرق فى التفكير من الرجال ، فهم خيبة أمل حقيقية . حاولى الحصول على شخص ما أسمر ومثير يصحبك إلى أماكن كثيرة لم تريها أبدا . أنا جادة ، أعرف ما أقول .

ماما ترسل لك تحياتها وتسأل إن كنت تريدينها أن تحيك لك أى شىء . هى مقعدة الآن حقا بالتهاب مفاصل ركبتيها وتستطيع أن تجلس فقط فى كرسيها ، ولديها وقت وافر للحياكة .

إلى اللقاء ، بولا

أرسل هذا الخطاب بالبريد من بنسلفانيا ، حين قام بزيارة مصنع لكرتونات التعبئة يوم الثلاثاء التالى . وفى يوم الأربعاء أرسل الورقة الزرقاء التى تحمل « ل م ر » فى أعلاها ، من نيويورك .

عزيزتى روث ،

تناولت الغداء مع دونا فى أحد الأيام وأخبرتنى أنك ترافقين شابا لطيفا حقا . كانت ضبابية نوعا ما فيما يتعلق بالتفصيلات لكنها حين قالت إن اسمه هو تل وأنه من بلتيمور عرفت أنه لابد أن يكون كودى . فكل واحد هنا يعرف كودى ، وكلنا نحبه تماما ، فهو حقا رجل طيب القلب وقد أسىء الحكم عليه لسنين طويلة من جانب أناس لا يفهمونه . حسنا ، يا روثى ، أعتقد أنك أذكى مما كنت أظن ، فقد كنت دائما أظن أنك سوف يستقر رأيك على واحد من أولئك الأنماط الشقراء « العشرة بقرش » لكننى أرى الآن أننى كنت مخطئة .

فى انتظار أن تخبرينى بالتفاصيل .

مع حبى ، لورى ميبى

قالت له روث ، « لقد تماديت بخطابك الأخير » .

ــــ « لا أعرف عم تتكلمين » .

كان يجلس على كرسى مطبخ عال بلا مساند ، يراقبها وهى تقطع اللحم إلى مكعبات . وقد جاء إلى المطعم مباشرة فى يوم السبت هذا ـ متجاهلا البيت ، متجاهلا المزرعة ـ وهو يأمل أن يجدها قد تغيرت بشكل ما ، متحيرة ، وربما تلقى عليه نظرة متأملة من وقت لآخر . بدلا من ذلك كانت تبدو نزقة . ضربت ساطورها بعنف على لوح التقطيع . سألته ، « هل تدرك أننى انطلقت وأجبت عن تلك الرسالة الأولى ؟ فقد أعدتها وقلت إنها ليست لى ، وأن هناك خطأ ما ، لأننى لم أكن أريد لأحد ما أن يقلق ؛ وخرجت خصيصا واشتريت طابعا لأرسلها بالبريد . وكنت لأعيد الثانية أيضا ، إلا أنها لم تكن تحمل عنوانا أعيدها إليه . ثم تصل الثالثة ؛ حسنا ، لقد تماديت كثيرا » .

قال كودى بندم ، « إننى أميل إلى فعل هذا » .

قذفت روث بالساطور بصوت مدو . خشى كودى أن يتساءل الآخرون ـ وكانوا تود دكيت وجوسيا فقط فى هذا الوقت المبكر ـ ما الخطب ، لكنهما لم يلتفتا حتى . كان عزرا بالخارج أمام المطعم ، يكتب قائمة الطعام بالطباشير .

سألته روث ، « ما هى **مشكلتك** بالضبط ؟ هل لديك شىء ضدى ؟ تظن أننى فتاة ريفية من مقاطعة جاريت لا تريدها أن تتزوج أخاك ؟ »

قال كودى ، « بالطبع لا أريدك أن تتزوجيه . فأنا أحبك » .

ــــ « هه » .

لم تكن هذه هى اللحظة التى خطط لها ، لكنه اندفع على أية حال ،

كما لو كان مخمورا . قال ، « أعنى ذلك ، وأشعر أننى لا حول لى ولا قوة . أشعر أننى منجذب . لابد أن تكونى لى . أنت كل ما أفكر فيه » .

كانت تحملق فيه ، مندهشة ، وإحدى يديها مكورة لتجرف مكعبات اللحم إلى مقلاة .

قال لها ، « أظن أننى لا أقولها بشكل صحيح » .

ــ « تقول ماذا ؟ ما الذى تتكلم عنه ؟ »

ــ « روث . إننى حقا وصدقا أحبك . أنا مريض بك . لا أستطيع أن آكل . انظرى إلىّ ! لقد فقدت أحد عشر رطلا » .

مد ذراعيه ، موضحا لها . كانت سترته تتهدل عند الجانبين . وقد زحزح حزامه مؤخرا ثلمة أخرى . لم تعد حلله تطابق مقاييس جسمه بنعومة بل تبدو مجعدة ، متجمعة ، متضامة .

قالت روث ببطء ، « صحيح أنك هزيل نوعا ما » .

ــ « حتى حذائى أشعر به أكبر من اللازم » .

سألته ، « ما خطبك ؟ »

ــ « أنت لم تسمعى كلمة مما قلت ! »

ــ « قلت مريض بى . لابد أنك تسخر » .

قال ، « أقسم ، يا روث ــ » .

ــ « أنت معتاد على فتيات مدينة نيويورك ، عارضات الأزياء ، الممثلات ؛ يمكنك أن تنال أيا منهن » .

ـــ « إنه أنت من سأنال » .

تفحصته للحظة . وبدا الأمر كما لو كان قد أفلح في الاختراق أخيرا ؛ كانا يتبادلان حديثا . ثم قالت ، « علينا أن نعيد إليك ذلك الوزن » .

أنّ .

قالت ، « انظر هناك ؟ أنت لا تأكل أبدا شيئا أقدمه إليك » .

قال لها ، « لا أستطيع » .

ـــ « لا أعتقد أنك تذوقت طهوى مرة واحدة أبدا » .

نحت المقلاة جانبا واتجهت إلى الغلاية الطويلة السوداء التى كانت تغلى برفق على الموقد . قالت ، وهى ترفع الغطاء ، « خضراوات ريفية » .

ـــ « حقا ، يا روث . . .»

ملأت وعاء فخاريا صغيرا ووضعته على المائدة . قالت ، « اجلس . كلْ . عندما تنتهى من تجربته ، سأخبرك بتركيبته السرية » .

ارتفع البخار من الوعاء ، برائحة عميقة متبلة إلى حد أنه شعر سلفا أنه متخم . تقبل الملعقة التى مدت بها يدها . غمسها فى الحساء بامتعاض وأخذ رشفة .

سألته ، « حسنا ؟ »

قال ، « شهى جدا » .

كان ، فى حقيقة الأمر ، لذيذ الطعم ، إذا كنت مهتما بهذه الأشياء .

فهو لم يتذوق حساء بهذه الجودة . كانت هناك قطع صغيرة من الخضراوات الطازجة ، وكان المرق دسما وثقيلا . أخذ ملء فمه مرة أخرى . وقفت روث فوقه ، وإبهاماها معقودتان فى جيوب سروالها الجينز الأزرق الخشن . قالت ، « أرجل الدجاج » .

ـــ « عفوا » .

ـــ « أرجل الدجاج هى التركيبة السرية » .

أخفض الملعقة ونظر فى الوعاء .

قالت له ، « أكمل أكله . ضع بعض اللحم على عظامك » .

غمس الملعقة فى الحساء ثانية .

وبعد ذلك أحضرت له سلطة مصنوعة من أعشاب زرعتها على السطح وسلة مليئة بأقراص خبز خبزتها عصر ذلك اليوم - وصفة من موطنها ، هكذا قالت . أكل كودى كل شىء . راحت تراقبه طوال الوقت وهو يأكل . وعندما جاءته بزبد أكثر لأقراصه ، مالت فوقه وشعر بالدفء المنبعث منها .

كان طاهيان آخران قد وصلا الآن ، وكان صبى صينى يقلى بعض عيش الغراب الأسود فى قليل من الدهن ، وعزرا يدير خلاطا قرب الحوض . جلست روث إلى جانب كودى ، وهى تشبك حذاءها العسكرى على رافدة كرسيه وتحتضن ضلوعها . غاص كودى بسكينة فى قطعة مثلثة الشكل ضخمة من الفطير وصرف تفكيره إلى الطعام - إلى معناه المشحون غير القابل للتفسير فى حياة الناس الآخرين . تساءل ، ألا يمكنك تصنيف شخص فقط من خلال دراسة موقفه من الطعام ؟ انظر إلى أم كودى - أم غير مُطْعِمة ، إذا كانت أما على

الاطلاق . حتى فى طفولتهم الماضية ، حين كانوا يعتمدون عليها فى تغذيتهم ... لماذا ، انكر أمامها أنك جائع فتتصرف فجأة كأن أحدا يتعجلها ، يزعجها ، وهى نكدة لاهثة الأنفاس ، ذاهلة . تتذكر عودتها إلى البيت من العمل فى المساء واندفاعها النزق فى أرجاء المطبخ . كانت العلب الصفيح تتساقط من الخزانات وتسقط فوقها كلها ـ علب لحم الخنزير والفاصوليا ، وسمك التونة بالزيت ، والبسلة المعلبة ذات اللون البنى الأخضر . كانت تطبخ وهى مرتدية قبعتها ، معظم الوقت . كانت تتذمر حين تحرق أشياء . كانت تحرق أشياء ما كنت تتخيل أن من الممكن حرقها وتقدم أشياء أخرى نصف نيئة ، وهى تضيف أشياء إضافية متنافرة من تصميمها هى مثل الأناناس المعصور فى البطاطس المهروسة . (أى شىء طالما كان متبقيا من وجبات سابقة ، يحسن أن يلقى به فى المقلاة مع أى شىء آخر) . كانت تتبيلاتها الوحيدة هى الملح والفلفل . وصلصة مرق اللحم الوحيدة هى زبدة حساء عيش الغراب من انتاج كامبل ، بلا تخفيف . وحتى كبر كودى ، كان يفترض أن اللحم البقرى المشوى لابد أن يكون ليفيا ـ لا شيئا تقطعه إلى شرائح ، لكن شىء جلدى جاف تفصله بشوكة ، جديلة من الأخرى ، وتسقطه فى طبقك بصوت معدنى مكتوم .

على الرغم من أنك كنت تستطيع الاعتماد عليها ، كما يذكر ، أثناء مرضك ، فى أن تأتيك بالسوائل . شاى ساخن : كانت جيدة فى ذلك . ومرق اللحم المعلب . أشياء نحيلة ، أشياء مائية . ثم لتقف بالباب وذراعاها معقودتان وأنت تشربها . تتذكر أن تعبير وجهها ، حين كان الآخرون يأكلون أو يشربون ، كان ينقل انطباعا بالنفور . كانت هى نفسها تأكل قليلا ، وغالبا ما تعبث بطعامها ؛ وتضمن كلامها بعض النقد لأولئك الذين يتصرفون على أساس أنهم جائعون أو مهتمون أكثر من

اللازم بما يقدم لهم . العوز : كانت تستنكر العوز فى الناس . وحينما يحدث جدل عائلى ، كانت فى الأغلب تختار أن تثيره على مائدة العشاء .

وأثناء قضمه لقشرة رغيف روث الرقاقى الذى يتكسر نتفا ، راح كودى يفكر فى أبناء أمه الثلاثة - جينى ، مثلا ، بحمياتها التى تتألف من عصير الليمون وأوراق الخس ، لا تسمح لنفسها أبدا بقطعة من الحلوى ، وتسقط وجبات بكاملها ، كما لو كانت دائما تضع نصب عينيها تعبير أمها الرافض لذلك . ولم يكن كودى نفسه مختلفا كثيرا ، عندما تصل إلى هذه النقطة . لم يكن الطعام يبدو مهما ، فى حد ذاته ؛ كان شيئا يتطلبه الآخرون ، حتى أنه من أجل خاطرهم كان ليطلب لنفسه وجبة تفضلا منه - فى لقاءاته ، ووجبات غداء العمل - لمجرد أن يلازمهم . لكن كان كل ما يمكن أن تجده فى ثلاجته هو القشدة من أجل القهوة ، والليمون من أجل كأسه من الجين والشراب المنشط . فهو لم يتناول إفطارا قط ؛ وغالبا ما كان ينسى العشاء . وأحيانا كان يشعر بمعدته تقرصه عند العصر فيرسل سكرتيرته لتأتيه بطعام . كانت تسأله : « أى نوع من الطعام ؟ » ويقول ، « أى شىء . لا يهم » . كانت تأتى له بشطيرة من الجبن أو بقرص خبز بالبيض ، أو سجق بالكبدة المفرومة على رغيف من دقيق الجودار ؛ لم يكن يهتم . لم يكن حتى ليلاحظ ما يأكله حتى يصل إلى نصفه - فيقضم قضمة ، ويواصل الإملاء ، ويترك الباقى لتتخلص منه عاملة النظافة . وقد زعمت امرأة تناول معها الغداء ذات مرة أن هذا كان علامة على خلل ما . فبينما هى تراقبه وهو يشرِّح سمكته لكنه يعجز عن أكلها ، وتلاحظ كيف يرفض الحلوى ثم ينتظر برقة وتسامح أن تنتهى من قطعة حلوى الموسية بالشكولاته كبيرة الحجم ، اتهمته بـ .... ماذا أسمته ؟ انعدام الاستمتاع .

انعدام القدرة على إمتاع نفسه . لم يفهم ، عند ذاك ، كيف أمكنها أن تستخلص كل هذه التضمينات من وجبة واحدة . ومع ذلك لم يوافقها على رأيها .

أجل ، عزرا فقط ، كما كان ليقول ، تمكن من الإفلات من كل هذا . كان عزرا لا يمكن النفاذ إليه - غبيا للغاية فى الواقع ؛ لا يمسه شىء أبدا . كان يأكل بشهية سائغة سواء كان ذلك طهى أمه أم طهيه هو . كان يقبل على كل ما يقدم له ، وبالذات الخبز - وكان عليه أن يراقب وزنه وهو تتقدم به السن . لكنه قبل كل شىء آخر ، مُطْعِما . كان ليضع طبقا أمامك ثم يقف هناك بوجه يشيع فيه الترقب ، ويداه معقودتان بإحكام تحت ذقنه ، وعيناه تتبعان شوكتك .. كان هناك شىء رقيق ، محب تقريبا يحيط بموقفه تجاه الناس الذين يأكلون ما طهاه لهم .

قال كودى لنفسه إنه مثل روث .

طلب منها شريحة أخرى من الفطير.

وفى أوقات الصباح كان يتصل بها الآن من نيويورك ، وغالبا ما يوقظ صاحبة البيت من نومها ؛ وحين تجيبه روث يكون صوتها مازال به صرير النوم - أو هل كان ذلك من الحيرة ، حتى الآن ؟ كان اهتمامها بأسئلته يتزايد كل مرة على مضض ، وهى تتكلم باقتضاب فى أول الأمر . أجل ، كانت على مايرام . المطعم على مايرام . سار أمر العشاء ليلة البارحة سيرا حسنا . ثم (وهى تدع جملها تمتد بالتدريج إلى جمل أطول ، كما لو كانت تستسلم له مرة أخرى من جديد) تخبره أن هذا المنزل قد بدأ يرهقها - النزلاء الزاحفون يمشون خفافا فى أرجاء البيت فى كل الساعات ، ولا أحد **يذهب** أبدا إلى أى مكان ، وصاحبة

البيت منزرعة بشكل أبدى أمام التليفزيون . وصاحبة البيت هذه، وهى أرملة ، تعتقد أن حاجبى بيرى كومو يتلاعبان إلى أعلى بهذا الشكل لأنه بطبيعته ذو صوت غليظ ، وغناء مثل هذه النغمات العالية يسبب له ألما مستمرا ؛ وقد سمعت أن آرثر جودفرى ، أيضا ، كان يتحمل ألما مستمرا لسنوات ، وهو يبتسم ابتسامة شجاعة ويدور فى مقعده المتحرك لأن أقل خطوة كانت لتطعنه مثل سكين . أجل ، كل شىء ، بالنسبة لمسز بولينج ، ألم مستمر ، **الحياة** ألم مستمر ، وقد بدأت روث تتطلع فيما حولها وتتساءل كيف تحتمل هذا المكان .

وفى عطلات نهاية الأسبوع - ليالى الجمعة والسبت - كانت روث تندفع فى مطبخ المطعم تصفع أفخاذ لحم البقر وتخفق بياض البيض . كان عزرا يعمل بشكل أكثر هدوءا ، وكودى يجلس إلى الطاولة الخشبية . ومن آن لآخر ، كانت روث تضع أمامه طبقا جديدا ما فيأكله كودى طائعا . كل لقمة إعلان عن الحب . كانت روث تعرف ذلك . كانت متوترة ويقظة ، تلقى عليه نظرات جانبية نافذة حين يلتقط بشوكته واحدة من الزلابية التى تعملها ، وهو حريص على ألا يترك شيئا فى طبقه .

ثم فى صباح كل أحد ، وهو صباح صيفى أصفر ، فى النزل الذى تعيش فيه ، كان يرن جرس بابها ويجذبها إليه حين تفتح الباب . وفى كل مرة يقبِّلها فيها ، كان بداخله انطباع غريب بأن ذاتا أخرى من ذواتها مازالت تتحرك خلال البيت خلفها ، نشيطة وجذلة ولا يمكن الإمساك بها بعد ، تفتش أسفل أغطية القدور وتصفق أبواب الخزانات ، تدندن وتقذف رأسها بحركة مفاجئة وتمسح يديها على سروالها الجينز الأزرق الخشن .

قال له عزرا ، « أنا لا أفهم » .

قال كودى ، « دعنى أبدأ من جديد » .

قال عزرا ، « هل هذه نكتة ما ؟ هل هذا هو الأمر ؟ ما هو ؟ »

بدأ كودى ، « روث وأنا ـ » .

لكن روث قالت ، « عزرا ، يا حبيبى ، أنصت » ، خطت إلى الأمام . كانت ترتدى الحلة الزرقاء الداكنة التى اشتراها لها كودى لتضعها عليها حين ترحل ، وحذاء بكعب عال ذا شرائط رقيقة . وعلى الرغم من أنه كان يوما ساطعا من أغسطس ، إلا أن جلدها اتخذ مظهرا باردا ، جافا ، ومكسوا بالمساحيق ، وبرز نمشها بشكل حاد قالت ، « عزرا ، من المؤكد أننا لم نخطط لهذا . لم تكن لدينا أقل نية ، لا أنا أو كودى ولا أينا » .

انتظر عزرا ، وهو لا يزال لا يفهم كما هو واضح جلى . كان مستندا بظهره إلى موقد المطعم القديم الضخم ، كما لو كان يتراجع أمام أنبائهما .

قالت روث ، « مجرد أنه حدث ، كما يمكن القول » .

قال عزرا ، « أنت لا تعرفين ما تقولين » .

ـــ « عزرا ، حبيبى ـ »

ـــ « أنت لا تفعلين هذا أبدا . هذا غير صحيح » .

ـــ « انظر ، لا أدرى كيف حدث لكننى أنا وكودى ... وكان ينبغى أن أخبرك فى وقت مبكر لكننى ظللت أفكر ، أوه ، ليس هذا إلا ... أعنى أن الأمر سخيف ؛ فهو محنك للغاية ، فهو ليس بالنسبة

لى شخصا ما ؛ هذا ليس إلا ... حلم يقظة ، فهمت ... »

قال عزرا ، « يلزم أن يكون هناك تفسير » .

ـــ « أشعر شعورا سيئا حقيقة بهذا الشأن ، يا عزرا » .

قال ، « أنا متأكد أننى سأفهم حالا .. فقط امهلينى بعض الوقت . فقط انتظرى دقيقة . دعينى أمحص الأمر » .

انتظرا ، لكنه لم يزد على ماقاله . ضغط اصبعين على جبهته ، كما لو كان يحل لغزا ما معقدا . وبعد هنيهة ، لمس كودى ذراع روث . قالت ، « حسنا ، يا عزرا ، وداعا ، فيما أظن » ، ثم رحلا هى وكودى .

بكت قليلا فى السيارة ـ دون أن تحدث جلبة لكنها راحت تنشق فى هدوء وقد أدارت وجهها باتجاه النافذة الجانبية . سألها كودى ، « هل أنت على ما يرام ؟ »

أومأت برأسها .

ـــ « أنت متأكدة أنك مازلت تريدين مواصلة الأمر » .

أومأت برأسها ثانية .

كانا ينويان السفر بالقطار ـ فكرة روث ؛ فلم تكن قدمها قد وطئت قطارا ـ إلى مدينة نيويورك ، حيث يتزوجان فى احتفال مدنى . قالت إن أهلها كان معظمهم قد توفى أو ما كانوا ليبالون ؛ ولذا فلم يكن مهما أن يتم العرس فى مسقط رأسها . وكان من البديهى أن أهل كودى ... حسنا . فقد يحسن بهما أن يمكثا فى نيويورك ، للفترة القصيرة القادمة . وعما قريب ، سوف تهدأ الأمور .

نزعت روث أحد قفازيها ، وقد تحول إلى اللون الرمادى عند الوصلات سلفا ، وجعدته فى شكل كرة وجففت عينيها .

وبالقرب من محطة بن ، وجد كودى موقفا لانتظار السيارات يعرض أسعارا أسبوعية . كان السفر بالقطار يحمل الكثير من المتاعب ، لكنه يستأهلها من أجل خاطر روث . كانت قد بدأت تبتهج سلفا . سألته إن كان يظن أن به عربة للطعام . أسمتها « عربة أكل » ، قال كودى إنه يظن ذلك . تسلم التذكرة التى أعطاها له المشرف على موقف الانتظار وانزلق من خلف عجلة القيادة ، وهو يتأوه قليلا ؛ كان قد بدأ يكتنز بضعة أرطال من اللحم حول وسطه . تناول حقيبة ملابس روث من صندوق السيارة . لم تكن روث معتادة على الكعب العالى فراحت تعرج بشكل غير مستقر ، وبين الحين والآخر تصدر صوت احتكاك عال على الرصيف . قالت لكودى ، « أرجو أن اكتسب براعة فى هذه الأشياء قبل وقت طويل » .

ـــ « تعرفين ، لست مضطرة إلى ارتدائها » .

قالت ، « أوه ، من المؤكد أننى مضطرة إلى ذلك » .

قادها إلى داخل المحطة . ويبدو أن البرد المعتدل الفجائى الذى كان يتردد فى جنبات المحطة أذهلها فأدى بها إلى الصمت . وقفت تتطلع فيما حولها فى حين ذهب كودى إلى شباك التذاكر . كانت هناك سيدة على رأس الطابور تجادل فى تكاليف أجرة السفر . دار رجل يرتدى حلة بيضاء متجعدة بعينيه فى اتجاه كودى ، وهو يلمح إلى تململه من الانتظار . تظاهر كودى بأنه لم يلاحظه . استدار متظاهرا بأنه يتفحص طول الطابور خلفه ، وابتسمت امرأة مدملجة تحمل طفلا فى الحال ، وهى مستعدة تماما ، وقالت ، « كودى تل !»

ـــ « أم ـ »

ـــ « أنا جين لاورى . هل تذكرنى ؟ »

ـــ « أوه ، جين لاورى ! حسنا ، جميل أن أراك ، كم هو لطيف أن ... وهل هذه ابنتك الصغيرة ؟ » .

ـــ « أجل ؛ قولى مرحبا لمستر تل ، يابتسى . كان مستر تل ومامى يذهبان إلى المدرسة معا » .

قال كودى ، « إذن فقد تزوجت» ، وهو يتحرك إلى الأمام فى الطابور ، « حسنا ، يالها من ـ »

سألته ، « هل تذكر اليوم الذى جئت فيه لزيارتك ، دون أن تدعونى ؟ » ضحكت ، ورأى ، فى ميل رأسها ، ومضة من الفتاة الصغيرة التى كان يعرفها . تذكر الآن أنها كانت تعيش فى شارع بوشنل ، كان لها أجمل شعر ، لايزال يبدى رقائق من الضوء الذهبى ، على الرغم من أنها قد قصرته الآن . قالت ، « كنت مفتونة بك تماما . ياإلهى ، جعلتنى أبدو بلهاء تماما . » .

ذكّرها ، « لعبت مباراة فى الضامة مع عزرا » .

ـــ « عزرا ؟ »

ـــ « أخى » .

ـــ « هل كان لك أخ ؟ »

ـــ « من المؤكد أننى كان لى أخ ، ومازلت . لعبت معه الضامة طوال العصر » .

ـــ « كم هذا غريب ؛ كنت أعتقد أن لك أختا فقط . ماذا كان

اسمها ؟ جينى . كانت نحيفة للغاية ، وظللت أحسدها سنين طويلة . كان بإمكانها أن تأكل أى شىء تريده ولا يبدو عليها . ما الذى تفعله جينى الآن؟ »

ـــ « أوه ، هى فى كلية الطب . وعزرا : إنه يدير مطعما » .

قالت جين ، « فى تلك الأيام ، كانت أعز أمنياتى أن أستيقظ ذات صباح وأجد أننى قد تحولت إلى جينى تل . لكننى قد نسيت أن لك أخا » .

فتح كودى فمه ليتكلم ، لكن الرجل الذى يرتدى حلة بيضاء كان قد مضى وجاء دور كودى عند الشباك . وما أن اشترى تذكرتيه ، حتى كانت جين قد تحولت إلى الطابور الآخر وهى منهمكة فى شراء تذكرتيها .

لم يرها ثانية - على الرغم من أنه بحث عنها فى القطار - لكن كان من الغريب كم غمرته فى الماضى . باغتته شظايا من ذكريات دفينة ، وهو يتأرجح فى مقعده إلى جوار روث ، ويمسك بيدها الصغيرة الخشنة لكنه لايجد إلا أقل القليل ليقوله لها . رائحة الطباشير فى حصة الجبر ، الشعور المنعش المشحون فى آخر يوم فى المدرسة كل ربيع ، طقطقة مضرب البيسبول على أرض الملعب . رأى نفسه فى أمسية صيفية عند كشك لبيع الهامبرجر للسيارات ، بأضوائه الباهرة يحيط بها الظلام ، ورائحة البطاطس المحمرة الحارة ، المالحة الدهنية التى تنبعث منه ، وكل أصدقائه يمزحون مزاحا خشنا عند الرصيف . كان بإمكانه أن يسمع صديقة قديمة من الأيام الخوالى ، وصوتها بنبرته الرتيبة المستاءة ، « تطلب منى أن أذهب معك إلى السينما وأقول أجل ، ثم تغير رأيك وتطلب منى أن نلعب البولنج بدلا من ذلك وأقول أجل ، لكنك تقول

انتظرى ، لنؤجلها إلى ليلة أخرى ، كما لو كان أى شىء يمكنك أن تناله هو شىء يتضح أنك لا تريده ... » سمع أمه تخبر جينى ألا تترهل فى جلستها ، وتخبر كودى ألا يسب ، وتسأل عزرا لماذا لا يواجه بشجاعة الفتى المتسلط فى الناحية . كان عزرا قد قال ، « إننى أحاول أن أمضى فى الحياة مثل مادة سائلة » . وضحك كودى (الذى يحاول أن يمضى فى الحياة مثل حجر) ؛ كان بإمكانه أن يسمع نفسه حتى الآن . سمع عزرا يسأل ، « لماذا لم يعد الخيار شائكا » ؟ و« كودى ؟ ألا تريد أن تسير معى إلى المدرسة ؟ » رأى عزرا يصوب سهما أحمر الريش ، ورسغه الطفولى المشقق يصوب بزاوية غير بارعة ؛ رآه يهرع إلى الهاتف - « سأرد عليه ! سأرد عليه ! » - وهو مفعم بالأمل والبهجة ، أصغر بسنوات وسنوات . تذكر كارول ، أو هل كان اسمها كارين ، وهى تسرد أخطاء عزرا - قالت ، رجل أمومى ؛ ماذا قالت ؟ - وخطر له أنه تركها بسبب أنها لم تفهم عزرا حقا ؛ لم تقدر كنهه . ثم ضغطت روث يده وقالت ، « أنوى أن أركب القطارات إلى الأبد ؛ إنه أفضل بكثير جدا من الحافلة . أليس كذلك ، يا كودى ؟ كودى ؟ أليس كذلك ؟ » دار القطار حول منحنى بصوت مدو ، حاد ، صافر أخذه على غرة . أعتقد بكل صدق ، للحظة ، أن ما سمعه كان موسيقى - لحنا يُزَمر ، بقبقة أنغام ، معزوفة صغيرة من لحن تسبح مع نسمات الريح وتخترق شغاف قلبه .

[٦]

شواطئ على القمر

إنها تذهب إلى المزرعة ، مرتين وربما ثلاثا فى السنة ، لتتأكد أن الأمور تسير بانتظام . تطلب من ابنها عزرا أن يقلها بالسيارة إلى هناك ، وتأخذ معها مقشة ، جاروفا ، خرقا ، كيس بقالة للقمامة ودلوا وعلبة مسحوق تنظيف . يسألها عزرا لماذا لا يمكنها أن تحتفظ بهذه الأشياء فى بيت المزرعة ، لكنها تعرف أنها لن تكون آمنة . فسوف يأخذها من ينتهكون حرمة المكان . أوه ، المنتهكون - الصبية الصغار والعشاق المخطوبون وعصابات المراهقين . إن تفكيرها فيهم يصيبها بالجنون . ما أن تنحرف السيارة عن الطريق الرئيسى ، وهى تقعقع على أرض الممر اللينة ، حتى ترى قمامتهم المتناثرة - علب البيرة ملقاة بين الحشائش القصيرة ، قصاصات ورق الحمام تتدلى من الشجيرات . فقد هُجرت هذه الأرض والزراعات جافة وبرية ، خشنة ، شائكة ، ولا ظل مطلقا من الشمس المتقدة . والزجاجات المطمورة فى وحل الطريق تنبعث من أغطيتها ومضات لامعة . والفناء (الذى لا يجز حقا ولكن يحصده جيرد بيرز ، مرة أو مرتين فى الصيف) تحتشد فيه أطباق وأكواب ومناديل من الورق ، وأكياس الشطائر ، وفوط ، وأنابيب امتصاص الشراب ذات الخطوط الحمراء ، وتلك الديدان الورقية المطوية المعمِرة بشكل خاص والتى كانت الأنابيب ملفوفة فيها .

يوقف عزرا السيارة تحت شجرة بلوط . تقول بيرل وهى تنزل من السيارة ، « إنه لعار ، خزى وعار» . هى ترتدى ثوبا قطنيا مخططا قابلا للغسل ، وأقدم حذاء لديها . على رأسها قبعة عريضة الحواف من القش ، كانت لتقى شعرها من الغبار ـ شعرها كله سوى جعدة شقراء باهتة تحاذى صدغيها . تقول ، « إنها جريمة وطنية » ، وتقف تتطلع فيما حولها فى حين يفرغ عزرا تجهيزاتها للتنظيف . البيت ذو طابقين . هو بيت رمادى شبحى محيت معالمه . عارضة السقف الأفقية ترتخى ، والشرفة الأمامية قد انبعجت وكثير من ألواح زجاج النوافذ قد انكسر ـ وكل مرة تأتى فيها تجد عددا أكبر من الألواح المكسورة .

تتذكر حين صحبها كودى لرؤية هذا المكان أول مرة . قال ، « تخيلى ما يمكن أن نفعله به . تصورى الاحتمالات » . كان يخطط لأن يتزوج وينشىء أسرة هنا ـ أن يزودها بكثير من الأحفاد . بل إنه احتفظ بالمواشى ، وهو يدفع أجراً لجيرد بيرز ليعتنى بها حتى ينتقل كودى للإقامة بالمكان .

كان ذلك من سنوات خلت ، وكل ما تبقى الآن من تلك الحيوانات زوج مهمل من الدجاج أصبح بريا ، يقاقى فى شجرة التوت هناك بالخارج خلف مخزن الحبوب .

لديها مفتاح للباب الخلفى المنفتل لكنها ليست بحاجة إليه . فالقفل مفقود ومشبك الباب الصدىء يتدلى مفتوحا . تقول ، « ليس مرة أخرى » . تدير المقبض وتدخل ، بحرص . (وفى أحد هذه الأيام ، سوف تفاجىء شخصاً وتتسبب فى أن ينسف رأسها ثمنا للعناء الذى تتجشمه) . المطبخ يفوح برائحة راكدة وباردة ، رغم حرارة اليوم . هناك ذبابة تطن فوق المنضدة ، وبقعة صدأ تلطخ الجزء الخلفى من حوض الغسيل ، ومزقة واحدة من ستار مغبش من البلاستيك تتجرجر

على الأرض بجوار النافذة . ومشمع الأرضية بال بلا رسوم بالقرب من المناضد الطويلة .

يتبعها عزرا ، مثقلا بالتجهيزات المنزلية . يضعها على الأرض ويقف وهو يمسح وجهه على كم قميصه المخصص للعمل . وقد أخبرها أكثر من مرة أنه يعجز عن فهم فائدة هذا : تنظيف المكان لتنظفه مرة أخرى ، فى المرة التالية التى يأتيان فيها . يريد أن يعرف ، ما الفائدة . لماذا تتجشم كل هذا العناء ، ماذا يدور برأسها ؟ لكنه رجل مجامل ، وعندما تصر ، فإنه لا يتمادى فى الكلام . يمرر أصابعه فى شعره ، الذى أحاله العرق إلى لون أصفر داكن مقلم . يجرب حنفية المطبخ . فى البداية صوت انفجار يعقبه نزول سيل هزيل من ماء نحاسى اللون .

هناك نصف دستة من الزجاجات الفارغة ترقد على أرضية الغرفة - « الديك الرومى البرى » ، « الغراب العجوز » ، « الراجة الجنوبية » . تقول بيرل ، « انظر ! وانظر ! » تدفع باصبع قدمها علبة سجائر مارلبورو . تكشط حرقا على الطاولة . تشيح بنظرها بكياسة وهو يمسك ، كما لو كان بخطاف ، شيئا مطاطيا لا يصح ذكره ، بيد المقشة ويلقى به فى كيس القمامة .

اعتادت أن تقول ، « كودى ، يمكنك أن تستأجر رجلا ليأتى وينقل هذا الأثاث فى عربة ليلقى به فى مقلب النفايات . من المؤكد أنك لا تريده لنفسك . كودى ، هناك حلة ليوم الأحد فى خزانة غرفة النوم . هناك أحذية أعلى الدرج المؤدى إلى القبو - أحذية حديقة قديمة مكتنزة موحلة . ينبغى أن تستأجر رجلا ليأتى وينقلها فى عربة نيابة عنك » . لكن كودى لم يعرها اهتماما - كان لا يكاد يذهب إلى هناك . كان أغلب

الوقت فى نيويورك ؛ وفيما بينها وبين نفسها ، كانت بيرل تتوقع أن يكون ذلك هو المكان الذى يقيم فيه . فأى من صديقاته أولئك توافق غلى الحياة فى الريف ؟ كانت قد قالت له ، «يحسن بك أن تتروى فيمن تتخذها زوجة لك . فلا واحدة من صديقاتك رأيتها تصلح لك ـ تلك الأنماط السوداء الشعر ، المبهرجات ، ملكات الجمال » .

ولكن لو أنه فقط تزوج واحدة منهن ! لو أنه فقط رضى بذلك ! فبدلا من ذلك ، جاء عزرا عصر أحد الأيام إلى المطبخ ، ووقف هناك يبدو عليه الإعياء . سألته ، « ما خطبك ؟ » كانت تعلم أن فى الأمر شيئا . « عزرا ؟ لماذا تركت عملك ؟ »

قال ، « إنه كودى » .

ـــ « كودى » .

قبضت على صدرها بإحكام ، وهى تتصوره ميتا ـ أصعب أطفالها مراسا ، وأكثرهم بعدا عنها ، والآن لم يكن عليها مطلقا أن تكون مسئولة عنه .

لكن عزرا قال ، « لقد رحل ليتزوج » .

قالت ، « أوه ، يتزوج » ، وأسقطت يدها ، « حسنا ؟ ممن ؟ »

قال ، « من روث » .

ـــ « روث فتاتك ؟ »

ـــ « فتاتى » .

قالت ، « أوه ، يا حبيبى » .

لا لأنها لم يكن لديها فكرة غامضة . فقد كانت ترى ذلك وشيك

الحدوث لعدة أسابيع ، كما اعتقدت ، على الرغم من أنها لم تتوقع الزواج بالضبط - الأكثر احتمالا ، نزوة عابرة ، غزل عابث ، مشاكسة أخرى من مشاكسات كودى . هل كان ينبغى لها أن تلمح لعزرا ؟ لم يكن لينصت إليها . كان سهل الانخداع للغاية ، وغارقا فى الحب لأذنيه . كانت روث مركز عالمه ، لسبب ما . وعلى أيه حال ، من كان ليظن أن كودى سوف يدع الأمر يصير جديا إلى هذا الحد ؟ قالت لعزرا ، « إنه يفعل ذلك لمجرد أن يكون دنيئا ، ياحبيبى » . كانت محقة ، أيضا ، مثلما كانت محقة فى المرات الأخرى التى قالتها فيها - أوه ، تلك المرات الأخرى ! تلك المشاحنات غير المنطقية ، تلك المشاجرات الطفولية ، المناقشات ، المداعبات السمجة ! اعتادت أن تقول له ، « كودى ، كف عن هذا فى الحال . أنت لا تظن أننى لا أرى ما أنت بصدده ؟ دع أخاك المسكين وشأنه . عزرا ، لا تلق إليه بالا . إنه دنىء فقط » . فى تلك الأيام البعيدة ، كان عزرا ينصت ويومىء برأسه ، آملا أن يصدقها ؛ كان شغوفا بأخيه الأكبر . لكنه الآن قال ، « فيم يهم لماذا فعلها ؟ فقد فعلها ، هذا كل ما فى الأمر . لقد سرقها منى » .

— « إذا كان فى إمكانها أن تُسرق ، ياحبيبى ، لماذا ، أنت لست فى حاجة إليها على أية حال » .

نظر إليها عزرا فقط - رجلا مكتئب الوجه ، متجهما ، متألما يمشى على قدمين . كانت تعلم كيف يشعر . ألم تمر بهذا ؟ تذكرت وقت رحيل زوجها - جرحا كانت ، فجوة عميقة مفرغة ، تحيط بها مزق من ذاتها السابقة .

تكنس كل النفايات إلى منتصف الأرضية ، تجمع الزجاجات وعلب السجائر . وفى هذه الأثناء ، يلصق عزرا مربعات من الورق المقوى

على ألواح الزجاج المكسورة . يعمل بشكل ثابت ، وعناد . ترفع عينيها مرة وترى كيف رسم العرق عبر ظهره بقعة فى شكل النسر . هناك مربعات أخرى من الورق المقوى على ألواح أخرى ، كسرت قبل ذلك . ويخطر لها أنهم ، فى غضون بضعة فصول أخرى ، سيعملون فى الظلام . يبدو الأمر كما لو كانوا يسدون على أنفسهم بالداخل ، لوح زجاج بعد لوح زجاج .

عندما عاد كودى مع روث ، بعد شهر العسل ؛ كان أكثر وسامة عن ذى قبل ، أملس الشعر وأسمر وحسن الهندام ، لكن روث كانت ذاتها البسيطة : فتاة مثل فأر المسك الصغير ذات شعر أحمر ونمش ، وجلدها ذلك النوع الرقيق رقة النسيج عرضة للقروح والبقع الأرجوانية ، وجسدها الغصنى الصغير غير رشيق فى حلة بنية وفورة لابد أنها اشتريت خصيصا لهذا المناسبة . (على الرغم من أن بيرل كانت لتكتشف ، فيما بعد ، أن كل ثياب روث تستوقفها بذلك الشكل ؛ فلم يبد شىء مطلقا طبيعيا مثل الثياب المصنوعة من قماش خشن التى اعتادت أن ترتديها مع عزرا) . راحت بيرل تراقب الاثنين بحدة ، عن كثب ، حريصة على أن تصل إلى استنتاج بشأن زواجهما ، لكنهما لم يبوحا بأية أسرار . جلست روث وهى تضغط كفيها معا ؛ احتفظ كودى بذراعه على ظهر الأريكة ، لا يلمسها لكنه يظهر انتسابها له ، على الأقل . أفاض فى الحديث عن المزرعة . كان سيتجهان إلى هناك مباشرة ، ليستقرا فيها تلك الليلة . كان وقت زراعة الحديقة قد فات لكن بإمكانهما على الأقل أن ينظفا المكان ، ويضعا خططا للربيع القادم . كانت روث ستشرع فى القيام بهذا فى حين يعود كودى إلى نيويورك . أومأت روث برأسها موافقة على هذا ، وتنحنحت وفتشت جيب سترة حلتها بارتباك . ظنت بيرل أنها كانت تحاول العثور على واحدة من

سجائرها الصغيرة ، لكنها بعد لحظة توقفت عن التفتيش ووضعت كفيها معا مرة أخرى . وفى الحقيقة ، لم ترها بيرل أبدا تدخن واحدة من تلك السجائر .

ثم وصل عزرا - وهو لا يصفر ، هادئا بشكل غريب ، مثلما كان حاله منذ أن رحلت روث . وقف داخل الباب ونظر إليهم . قال كودى بسهولة « عزرا » ، ونهضت روث ومدت يدها . بدت خائفة . جعل هذا بيرل تحبها قليلا .. (فقد أقرت روث ، على الأقل ، بعظم ما أقدمت عليه) . قالت روث ، وصوتها يرتجف ، « كيف حالك ، ياعزرا ؟ » وقال عزرا ... أوه ، شيئا أو آخر ، تمكن من أن يقول شيئا ؛ ووقف هنيهة ينتقل من قدم إلى قدم ويجيب على ثرثرتهم . وهكذا بدا أنهم ، على السطح ، قد يلطفون من حدة الأمر فى النهاية . أجل ، ففى نهاية الأمر ، كان اختيار الزوج مرحلة بالغة الصغر والقصر فى حياة العائلة .

لكن عزرا لم يعد يعزف ألحانه على فلوته ، وظل يبدو مضنيا ومهزوما ، وكان يأوى إلى الفراش كل ليلة بلا أكثر من « عمت مساء ، يا أمى » . كانت حزينة من أجله ، تتوق إلى أن تقول ، « عزرا ، صدقنى ، هى لا شىء ! أنت تساوى دستة من روث سبيفى ! دستة من كليهما ، لأكون صريحة ، حتى ولو كان كودى ابنى ... » على الرغم من أنها تحب كودى بإعزاز ، لكنه منذ طفولته ، قد أطاح بها بعيدا ؛ وكانت أخته مراوغة للغاية ، بشكل ما ؛ إذن فمن بقى بعد ذلك سوى عزرا ؟ كان عزرا كل ماالديها . كان الوحيد الذى يسمح لها بالدخول . أحيانا ، فى طفولته ، كانت قلقة من أن يموت صغيرا - واحدة من تقلبات الحياة الساخرة ، أن تسلبك ما تعطيه أكبر قيمة . وقد راقبته وهو يمشى مجهدا على طول الطريق إلى المدرسة ، ورأسه بلون زغب البط

الأصفر محنيا مستغرقا فى التفكير ، فيتملكها شعور داخلى بأن هذا كان آخر ما ستراه منه . ثم حين كان يعود ، مليئا بالأخبار عن أصدقائه ومباريات الكرة ، كم يبدو صلبا ، كم يبدو عاديا - بل كم يبدو مثيرا للسخط ! وأحيانا ، من زمن بعيد حين كان صغيرا ، قد يتسلق إلى حجرها ويطوق عنقها بذراعيه النحيلتين الصغيرتين ، وهى ترشف رائحة البسكويت الدافئة التى تنبعث منه وتفكر ، « حقا ، هذه حقيقة الأمر . هذا ما أعيش من أجله » . ثم كانت على مضض تسمح له أن ينزلق مبتعدا عنها ثانية . (كانوا يزعمون أنها محبة للتملك ، ضاغطة . لم يعلموا إلا أقل القليل) . وفى طفولته ، كان له أسلوب مرح فى الكلام باعث على البهجة للغاية ، يرن فى أرجاء البيت مثل رعشة الماء ... متى بدأ ذلك يتغير ؟ وفى صباه أصبح خجولا ومنطويا ، يحدق من عينين رماديتين لامعتين ولا يقول كثيرا . أصابها القلق حين لم يواعد فتيات . « ألا تود أن تصطحب أحدا إلى البيت ؟ أن تدعو أحدا إلى عشاء يوم الأحد ؟ » كان يهز رأسه ، وقد ألجم لسانه . كان وجهه يتورد خجلا ويرخى رموشه الطويلة . تساءلت بيرل ، حين رأت حمرة الخجل ، ما إذا كان يفكر كثيرا فى الفتيات وما إلى ذلك . كان أبوه قد رحل بحلول ذلك الوقت ولم يكن كودى عونا ، وهو الأكبر بثلاث سنوات ، وهو يمارس إباحيته الجنسية فى مكان ما أو آخر . ثم فى رجولته ، كان عزرا ... حسنا ، لتكون صادقة ، لم يختلف كثيرا عما كان عليه وهو صبى . كان صبيا **أبديا** ، بشكل ما ، لم يصبح متبجحا ووقحا مثل أغلب الرجال لكنه ظل رقيقا ، مكتئبا ، يدير مطعمه ذلك بقناعة ويعود إلى البيت مسالما ومتعبا .

كانت صدمة حين قدمها إلى روث . أى فتاة مثيرة للمتاعب كانت ! لكن من الواضح أن عزرا كان يعبدها . « أمى ، أودك أن تقابلى - أن

تقابلي روث » . في أول الأمر ، توقفت بيرل فجأة قليلا . ربما عجزت عن أن تتصرف بشكل ملائم مرحبة بها . حسنا ، من كان ليلومها ؟ والآن ، بعد رؤية ما آلت الأمور اليه ، من يستطيع أن يقول إنها مخطئة ؟ لكنها لا تملك إلا أن تتساءل ، على أية حال ... لو أنها كانت مشجعة أكثر قليلا ، فربما تزوجا في وقت أسرع . ربما تزوجا قبل أن ينزل كودى به أذاه . أو لو أنها سمحت لنفسها أن تدرك ... أجل ، تتساءل مرارا وتكرارا : لو أنها ذكرت مؤامرة كودى لعزرا ، لوضعت حدا لذلك الموقف الذى لم يكن خطبا للود بقدر ما كان انهيار صخور ، نوعا من تجمع الأحداث وسقوطها ...

من السخف ، بالطبع ، أن تتخيل أن أى شيء تفعله يمكن أن يكون ذا بال . فما يحدث ، يحدث . وليس الخطأ خطأ أحد . (أو أنه خطأ كودى فقط ، لأنه كان دائما مضايقا ومزاحما ، ألعبانا بالسليقة ، لابد أن يكسب كل شيء على الاطلاق ، حتى ما لايريده مثل فتاة حمراء الشعر ضئيلة قزمة دون مستوياته العادية بكثير) .

تفتح قاعة استقبال بيت المزرعة لتهويته . تفوح رائحتها مثل رائحة حيوان الظربان المنتن . تترك الباب الأمامى مواربا ، حريصة على ألا تخطو إلى الشرفة الأمامية ، التى يمكنها بسهولة أن تنهار تحتها . تتذكر كيف طلبت من عزرا ، قرب نهاية الأسبوع الأول بعد شهر العسل ، أن يحمل إلى روث بضع نثريات من أجل المزرعة - بعض المقلايات الاضافية ، بعض الملاءات ، مكنسة سجاد لم تكن بحاجة إليها . هل كان هناك دافع خفى فى اقتراحها ؟ وإن لم يكن ، لماذا لم ترافقه ، لتزور العروس مثل أية حماة طيبة ؟ قال عزرا ، « أرجوك ، لا أريد » ، لكنها قالت ، « حبيبى . اذهب » . لم يكن لديها مقصد واع - حقا ، لا مقصد على الإطلاق - لكنها فى الواقع فيما بعد ذلك الصباح ،

وهى تتلكأ فى غسل الأطباق ، سمحت لنفسها بحلم يقظة صغير : عزرا يقترب من خلف روث ، ويطوقها بذراعيه ، وروث تحتج لفترة قصيرة فقط قبل أن تلقى بنفسها بين ذراعيه ... أوه ، ألا يجب أن يكون ممكنا أن نبطل ما حدث ؟ ما فعلوه جميعا ؟

لكن عزرا حين عاد كان مغلوبا على أمره كالعادة ، وقال فقط إن روث تشكر بيرل على المقلايات والملاءات لكنها تعيد مكنسة السجاد حيث أن بيت المزرعة ليس به سجاد .

ثم جاء كودى ، يوم السبت ، عاصفا يحمل كل ما أُخذه عزرا إلى روث . سأل بيرل ، « ما هذا كله ؟ »

ـــ « لماذا ، يا كودى ، مقلايات وملاءات ، كما يمكنك أن ترى بالتأكيد » .

ـــ « كيف حدث أن أتى بها عزرا إلى هناك » .

قالت ، « أنا طلبت منه ذلك » .

ـــ « لن أقبل هذا ! لن أقبل أن يتسكع فى أرجاء المزرعة » .

قالت له ، « كودى . كان بناء على طلبى . صدقنى » .

قال ، « أصدقك » .

حاولت أن تحمل عزرا على الذهاب ثانية فى الأسبوع التالى ـ حاملا السجادة من غرفة الطعام ومكنسة السجاد ، مرة أخرى ـ لكنه لم يكن ليذهب . قال ، « لا أشعر بالراحة هناك . ليس هناك داع . ما الداعى ؟ » افترضت أنه على حق . قالت لنفسها ، أجل ، دعى روث تتساءل أى شأو بلغ ! فالناس الذين يتركوننا سوف يندمون فى النهاية .

تخيلت روث وحيدة فى بيت المزرعة ، تتجول من غرفة إلى غرفة وتحدق بحزن من النوافذ العارية .

وفى عطلة نهاية الأسبوع التالية ، طلبت بيرل من عزرا أن يقلها إلى هناك . لم يكن باستطاعته أن يرفض ؛ كانت تلك وسيلة مواصلاتها الوحيدة . ارتدى كلاهما ، دون مناقشة ، ملابس يوم الأحد - ملابس رسمية ، مثل ملابس الضيوف - وجدا البيت يبدو مسدودا ومهجورا . كان كلب صيد وحيد يلكز عظمة فى الفناء ، لكن من المؤكد أنه لا ينتمى للمكان .

وعندما عاد إلى البيت ، طلبت بيرل مكالمة لكودى فى نيويورك « هل كففت عن المجىء إلى المزرعة ؟ »

ـــ « الأمور مشغولة نوعا ما » .

ـــ « ألن تكون روث هناك خلال الأسبوع ؟ »

قال ، « أريدها هنا معى . ففى نهاية الأمر ، لقد تزوجنا لتونا » .

ـــ « حسنا ، متى سنراكما ؟ »

ـــ « سريعا جدا ، لن يمر وقت طويل ، أنا واثق أننا سنأتى بعد فترة ... »

لكنهما لم يأتيا ؛ أو أنهما إذا أتيا ، فإنهما لم يخبرا بيرل ، وكانت هى أكثر كبرياء من أن تسألهما ثانية . انتهى الصيف ، وغيرت أوراق الأشجار كل ألوانها ، لكن عزرا ظل يجرر قدميه دون تغيير . قالت له بيرل ، مثلما كانت تفعل فى صباه ، « حبيبى ، أليس هناك من تحب أن تصحبه إلى البيت ؟ صديقة على العشاء ؟ أى واحدة » . قال عزرا لا .

من وقت لآخر ، كانت بيرل تتصل بكودى هاتفيا فى نيويورك . كان مجاملا ومراوغا . وكانت روث ، إذا تكلمت ، تجيب إجابات مرتبكة ولم يبد عليها أنها تحتفظ بيقظتها العقلية . ثم مر أسبوعان كاملان ، فى أكتوبر ، حين لم يكن أحد يرد على التليفون مطلقا . تساءلت بيرل إذا كانا قد ذهبا إلى المزرعة ، وتوسلت إلى عزرا أن يحقق فى الأمر . لكنه عندما وافق أخيرا ، لم يجد أحدا هناك . قدم لها تقريرا قائلا ، « حطم أحدهم أربع نوافذ . ألقى أحجارا عليها ، أو أطلق عليها الرصاص » . جعل هذا بيرل تشعر بالخوف . كان العالم يطبق عليهم ؛ حتى هنا فى شوارعها المألوفة ، لم تعد تشعر بالأمان . ومن ذا الذى يعرف ما يمكن أن يكون قد نزل بروث وكودى ؟ كان من الممكن أنهما يرقدان ميتين فى شقتهما ، ضحيتين لسطو أو حادث شاذ من حوادث نيويورك ، ولا تكتشف جثتاهما لعدة أسابيع . أوه ، هذا ما يحدث عندما تقطع كل الروابط مع أسرتك ! لم يكن هذا تصرفا صحيحا ؛ فمع أسرتك ، إن لم يكن مع أى واحد آخر ، عليك أن تواصل المحاولة .

اتصلت بشكل مسعور ، يوما بعد يوم ، وغالبا ما تدع الهاتف يرن ثلاثين أو أربعين مرة . كان هناك شيء مريح حول ذلك الصوت البعيد الذى يشبه خرير المياه . كانت على الأقل ، متصلة - حتى وإن كان ذلك بشيء فى شقة كودى .

ثم رد . كان ذلك فى أواخر أكتوبر . صدمت إلى حد أنها لم تعرف ماذا تقول . ويبدو أن رنين الهاتف الرتيب قد أصبح كافيا بالنسبة لها . قالت ، « أوم ، كودى ... »

- « أوه ، أمى » .

- « كودى ، أين كنت ؟ »

- « كانت لدىّ مهمة علىّ أن أعنى بها فى أوهايو . اصطحبت روث معى » .

- « لم ترد على الهاتف لمدة أسابيع ، وبحثنا عنك هناك فى المزرعة وكانت بعض النوافذ مكسورة ».

- « اللعنة ! كنت أظن أننى أدفع أجرا لجيرد ليمنع حدوث مثل هذه الأشياء » .

- « لا يمكنك أن تتخيل كيف شعرت ، يا كودى . عندما سمعت عن النوافذ شعرت ... أنك تدع هذا المكان يخرب ولن نعود نراك مطلقا » .

- « لدىّ عمل أؤديه ، يا أمى » .

- « كنت أظن أنك ما أن تتزوج ، ستنتقل إلى بلتيمور . كنت ستعيد طلاء بيت المزرعة وتزرع حديقة وما إلى ذلك » .

- « أجل ، بلا ريب . هذه إمكانية مؤكدة . اطلبى من عزرا أن يسد هذه النوافذ بالشرائط اللاصقة ، لو سمحت ، وأخبريه أن يتكلم مع جيرد . فلا يمكن أن أسمح بأن تنخفض قيمة المكان » .

قالت ، « حسن جدا ، يا كودى » .

ثم سألته عن عيد الشكر . « هل ستحضر ؟ تعلم كم يحب عزرا أن يدعونا إلى المطعم » .

- « أوه ، عزرا ومطعمه ... »

قالت ، « أرجوك . فنحن لا نكاد نراك » .

- « حسنا ، ربما » .

وهكذا عادا فى نوفمبر - كودى يبدو أنيقا فى ملابس غير رسمية ، وروث متنافرة ترتدى ثوبا فضفاضا أزرق مزخرفا . كان شعرها قصيرا وكثيفا ، ورأسها صغيرا للغاية ، حتى أن الثوب بدا كما لو كان يغرقها . راحت تتعثر فى حذائها ذى الكعب العالى . ومازالت تتهرب من نظرة عزرا المحدقة .

سألت بيرل روث ، وهم يركبون فى عربة كودى الكاديلاك فى سبيلهم إلى المطعم ، « ماذا كنتما أنتما الاثنان تفعلان ؟ »

- « أوه ، ليس بالكثير » .

- « هل تطليان شقة كودى ؟ »

- « نطلى ؟ لا » .

قال كودى ، « لم نكد نراها ، فأنا أضطلع بأعمال طويلة المدى . ففى ديسمبر أبدأ فى إعادة تنظيم مصنع للنسيج فى جورجيا ، عملية كبيرة ، خمسة أو ستة شهور . فكرت أن روث ربما تأتى معى ؛ يمكننا استئجار منزل صغير من نوع ما . فليست هناك فائدة كبيرة فى القيام برحلات يومية إلى مكان العمل ومنه » .

قالت بيرل ، « ديسمبر ؟ لكنك عندئذ تفوتك أعياد الميلاد » .

بدت الدهشة على وجه كودى . قال ، « ولم تفوتنا ؟ »

- « أعنى ، هل تقوم رغم هذا بالرحلة إلى بلتيمور ؟ »

قال ، « أوه . حسنا ، لا ، لا أظن . لكننا قد حضرنا لأجل عيد الشكر ، أليس كذلك ؟ »

صممت ألا تضيف شيئا إلى ما قالته . فقد كانت لها كرامتها .

جلسوا إلى مائدة العائلة الاعتيادية ، يحيط بهم حشد لا بأس به حجما . (فى تلك الأيام - بداية الستينيات - كان بعض الشباب الخشن قد اكتشف لتوه مطعم عزرا بخشبه العارى وطعامه الطازج الصافى ، ويحتشدون هناك كل مساء) . من المحزن أن جينى لم يمكنها الحضور ؛ فهى تقضى العطلة مع والدى زوجها . لكن روث ، على الأقل ، أكملت عددهم . ابتسمت بيرل لها عبر المائدة . قالت روث ، « إنه لشعور غريب أن آكل حيث اعتدت أن أطهى » .

سألها عزرا ، « هل تودين زيارة المطبخ . إن المساعدين سوف يبتهجون برؤيتك » .

قالت ، « لا بأس إذا فعلت ذلك » . كانت المرة الأولى منذ زواجها التى نظرت فيها إليه مباشرة - أو المرة الأولى التى عرفت بها بيرل .

وهكذا دفع عزرا كرسيه إلى الخلف محدثا صريرا ونهض ، وقاد روث إلى المطبخ . كان بإمكان بيرل أن تدرك أن كودى لم يكن راضيا . توقف وهو يبسط فوطته وحدق خلفهما ، بل إنه جذب نفسا كما لو كان يستعد للاعتراض . ثم لابد أنه أعاد النظر فى الأمر . نفض الفوطة بغضب ، ولم يقل شيئا .

قالت بيرل ، « إذن ، متى تنتقلان إلى المزرعة ؟ »

قال ، « المزرعة ؟ أوه ، لا أدرى . لقد تغير كل شىء كثيرا ؛ تغيرت طبيعة عملى كلها » . نظر باتجاه المطبخ مرة أخرى .

قالت ، « لكنك قد خططت لتنشئة عائلة هناك . كان هذا كل ما كنت تتكلم عنه أبدا » .

قال ، وكأنه لم يسمعها ، « أجل ، حسنا ، وهذه العقود الطويلة الأجل » .

قالت بيرل ، « إنها تملك عليك كل فؤادك » .

لكنه ظل يراقب الآخرين . لم يكن مهتما أقل القليل بما قد تقوله . كان المطبخ مكشوفا تماما ، ولم يكن بالإمكان أن يخفى أصغر سر . إذن فلماذا كان كودى عصبيا ؟ وقف عزرا وروث يتحادثان مع واحدة من الطاهيات ، وظهراهما إلى قاعة الطعام . كان عزرا يصدر إيماءات وهو يتكلم . رفع ذراعيه بشكل واسع ، إحدى ذراعيه خلف روث لكنها لا تلمسها ، لا تمس كتفها ، وبالتأكيد لا يطوقها أو أى شىء من هذا القبيل . ومع ذلك ، نهض كودى على نحو مفاجىء من كرسيه . قالت بيرل ، « كودى » . مشى بخطى واسعة فى اتجاه المطبخ ، وفوطته مجعدة فى قبضة يده . نهضت بيرل وأسرعت خلفه ، ووصلت فى الوقت المناسب لتسمعه يقول ، « لنذهب ، يا روث » .

ـــ « نذهب ؟ »

ـــ « لم أحضر إلى هنا لأراقبك أنت وعزرا وأنتما تتبادلان الحب فى المطبخ ».

بدا الفزع على روث . بدا وجهها كما لو كان قد أصبح أكثر بروزا .

قال كودى ، « هيا » ، وأمسك بمرفقها . قال لبيرل وعزرا ، « وداعا » .

قالت بيرل ، وهى تعدو خلفهما ، « أوه ! أوه ، كودى ، ما الذى يمكن أن يدور بذهنك ؟ كيف يمكنك أن تتصرف بمثل هذا الحمق ؟ »

انتزع كودى معطف روث من على خطاف نحاسى بشكل عارض . فتح الباب الأمامى وجذب روث إلى الشارع وأغلق الباب خلفهما .

قال عزرا ، « أنا لا أفهم » .

قالت بيرل ، « لماذا ينتهى الأمر إلى هذا دائما ؟ كيف يحدث أن ننتهى دائما إلى شجار ؟ ألا نحب جميعا أحدنا الآخر ؟ إذا نحينا كل شيء جانبا ، ألا نرغب جميعا فى أفضل شيء لأحدنا الآخر ؟ »

قال عزرا ، « من المؤكد أننا نفعل » .

كانت إجابته مباشرة وحازمة إلى درجة أنها أحست بالراحة . كانت تعرف أن الأمور سوف تستتب يوما ما . تركته يقودها إلى المائدة مرة أخرى ، وتناول الاثنان عشاء بائسا من الديك الرومى على امتداد المفرش الأبيض الواسع .

فى الطابق العلوى أربع غرف للنوم ،أثثت بشكل ضئيل ، بال . الأسرّة غائرة المظهر ، ومن الواضح أنه حتى العشاق لم يقعوا تحت تأثير إغرائها . فهى لم تمس ، والألحفة الكئيبة القذرة ما تزال ملساء . لكن طائرا ميتا كان يرقد تحت نافذة . وبيرل تنادى من أعلى بئر السلم . « عزرا ؟ عزرا ، تعال هنا حالا ، أحضر المكنسة وكيس النفايات » .

يصعد الدرج طائعا . تنظرّ إلى أسفل وترى ، بغصة ، أن شعره الأشقر الجميل يرق خلف رأسه . فهو فى السابعة والثلاثين ، وسيبلغ الثامنة والثلاثين فى ديسمبر . وربما لن يتزوج أبدا . لن يفعل شيئا سوى إدارة ذلك المطعم الغريب الذى يملكه ، بطعامه العجيب ، ونادلاته غير الماهرات ، وطاهياته الأجنبيات بأوراقهن الرسمية المشكوك فيها

أمرها . يمكنك أن تقول ، بمعنى ما ، إن عزرا قد عانى مأساة ، على الرغم من أنها مأساة صغيرة للغاية فى عيون العالم . يمكنك أن تقول إنهما هو وروث معاً ، قد عانيا مأساة . فعل العالم بهما شيئا ؛ انتزع منهما شيئا وهما ضائعان . ولا يفيد مطلقا أن كودى رجل لطيف للغاية فى الحقيقة - أنه ذكى ومضحك وشفوق أصلا ، على الجميع ما عدا عزرا .

يمكنك أن تقول تقريبا أن كودى ، أيضا ، قد عانى مأساة .

عندما ذهبت ، فى ١٩٦٤ ، إلى إلينوى لزيارتهما ، شعرت فى بيتهما بالجو الواهى المشدود الذى يميز زواجا تعيسا . لا زواج فظيع حقا - فلا علامة تدل على الكراهية ، أو الضغينة ، أو العنف - مجرد إحساس بشىء مفتقد . عجز ما عن الاتصال بين الاثنين كليهما . بدا كل شىء نحيلا . أو هل كان ذلك خيالها ؟ ربما كانت مخطئة . ربما كان المنزل نفسه - بيت مزرعة فى بقعة فى مرحلة تطوير ، استؤجر لمدة الشهور الأربعة أو زهائها التى يحتاجها كودى لإعادة تنظيم مصنع بلاستيك فى شيكاغو . من الواضح أن المكان كان غاليا ، بسجاد يمتد من الحائط للحائط ، وأثاث طويل ، منخفض ، حديث ؛ لكن لم تكن هناك أشجار فى أى مكان قريب ، ولا حتى شجيرة أو أجمة - مجرد ذلك المكعب من الآجر الفج يرتفع صارما من الامتداد المنبسط . وفى الخارج ، كان الجو شديد الاتقاد ، حار إلى درجة لا تحتمل ، إلى درجة أنهم كانوا يلازمون المنزل بهوائه المبرد الصناعى . كان البيت **يسجنهم** ، وهم يعتمدون عليه مثل رجال الفضاء فى سفينة فضاء ، وعندما يخرجون فما كان ذلك إلا لكى يندفعون خلال ثقل حرارة ساحق إلى سيارة كودى المرسيدس المكيفة الهواء . كان تعبير وجه روث ، وهى تقوم بأداء أعمالها المنزلية كل يوم ، تعبيرا محكما لشخص مصر

على البقاء على قيد الحياة مهما كان الثمن . كان كودى يعود إلى البيت فى المساء وهو يلهث طلبا للأوكسجين - وهو يكاد يزحف فوق عتبة الباب ، هكذا تخيلت بيرل - لكنه لا يبدو عليه مطلقا أنه مرتاح لوصوله . عندما كان يحيى روث ، كان خداهما يتلامسان ثم ينفصلان ثانية .

كانت المرة الأولى التى زارتهما فيها بيرل على الإطلاق ، المرة الأولى والوحيدة ، وهذا بعد سنوات من الاتصال القليل بأية حال . نادرا ما كانا يحضران إلى بلتيمور . لم يعودا أبدا إلى المزرعة . ولم يكن كودى يكتب خطابات تقريبا ، رغم أنه كان يتصل هاتفيا فى أعياد الميلاد والعطلات . كان أقرب شبها بأحد المعارف ، هكذا قالت بيرل لنفسها . أحد المعارف غير الحميمين جدا .

ذات مرة كانت هى وعزرا يركبان السيارة على طول طريق فى فرجينيا الغربية ، فى نزهة إلى عبّارة هاربر ، حين تصادف أن وصلا خلف رجل يرتدى سراويل هرولة قصيرة . كان يجرى على طول حافة الطريق السريع ، رجل طويل القامة أسمر ، يؤرجح كتفيه أرجحة سهلة واثقة من نوع ما ... كودى ! هنا بالخارج وسط لا مكان ، بالصدفة المحضة ، كودى تل ! ضغط عزرا على الفرامل بعنف ، وقالت بيرل ، « حسنا ، هل حدث أبدا » . لكن المهرول عندئذ ، وقد سمع سيارتهما ، أدار وجهه ولم يكن كودى فى نهاية الأمر . كان شخصا مختلفا تماما ، ذا فكين بدينين ، لا يدانى كودى وسامة . عاد عزرا يسرع بالسيارة . قالت بيرل ، « كم كان هذا سخفا منى ، أعلم تمام العلم أن كودى فى ؛ آه ... »

قال عزرا ، « إنديانا » .

ـــ « إنديانا ؛ لا أدرى لم ظننت ... »

ظل كلاهما صامتا لعدة دقائق بعد ذلك ، وفى تلك الدقائق تخيلت بيرل المنظر لو كان كودى حقا ـ لو أنه استدار ، مندهشا وهما يمران بجانبه . ومن الغريب حقا ، أنها لم تتخيل توقفا . فكرت فى كيف سيفغر فمه وهو يتعرف على وجهيهما خلف الزجاج ؛ وكيف كانا سيحدقان فيه ، ويبتسمان ويلوحان ، ويواصلان طريقهما .

حينما كان يتصل هاتفيا كان مبتهجا وجذلا . « كيف حالك ، يا أمى ؟ »

ـــ « لماذا ، كودى ! »

ـــ « هل كل شىء على ما يرام ؟ كيف حال عزرا ؟ »

أوه ، كان لطيفا للغاية بشأن عزرا وهو على الهاتف ، مهتما وحنونا مثل أى أخ آخر . وفى المناسبات النادرة عندما كان هو وروث يمران خلال بلتيمور ـ متجهين إلى مكان ما آخر ، ويتوقفان فقط لزيارة قصيرة ـ كان يبدو مسرورا لمصافحة عزرا وتربيت ظهره ويسأله ماذا كان يفعل . فى أول الأمر .

فى أول الأمر فقط .

ثم : « روث ! فيم تتكلمان أنت وعزرا ، هناك ؟ » أو : « عزرا ؟ هل تسمح بألا تقف قريبا إلى هذا الحد من زوجتى ؟ » فى حين أن عزرا وروث لا يكادان يتكلمان ، حقا . كانا حريصين كل منهما مع الآخر ، حتى أن مراقبتهما تؤلم .

كانت بيرل لتسأله ، « كودى . من فضلك . ما الذى تتخيله ؟ » عندئذ كان يستدير إليها : « طبيعى ، ما كنت أنت لترين ذلك . طبيعى ، هو لا يمكنه أن يرتكب خطأ ، يا أمى ، هل يمكنه . فتاك الغالى . هل

يمكنه ».

كانت قد كفت ، أخيرا ، عن توقع دعوتها لزيارتهما أبدا . وعندما اتصل بها كودى وأخبرها أن روث حامل ، بعد سنتين أو ثلاث من الزواج ، قالت بيرل ، « أوه ، كودى ، إذا كانت تحب على الإطلاق ، أعنى عندما يصل الطفل ... إذا كانت تحب أن آتى لأعنى بالأمور ...» لكن من الواضح أنهما لم يكونا بحاجة إليها . وعندما اتصل ليقول إن لوك قد ولد ـ تسعة أرطال وثلاث أوقيات ؛ وكل شيء على ما يرام ـ قالت ، « لا أستطيع الانتظار حتى أراه . لا أستطيع بكل صدق أن أنتظر » ، لكن كودى ترك هذا يمر .

أرسلا إليها صورا : لوك فى مقعد أطفال ، أشقر وعابسا . لوك يزحف بطريقة الدب عبر السجادة ، على يديه وقدميه بدلا من ركبتيه . (كان كودى قد زحف بتلك الطريقة أيضا) . لوك يسير غير واثق من نفسه ، وفى كل قبضة سمينة مشبك غسيل . كتبت روث تقول ، كان ينبغى أن يحصل على مشابك الغسيل ، لأنه عندئذ يظن أنه يتشبث بشيء . وإلا ، فإنه يقع . أما وقد كانت الصور ترد الآن ، فقد وصلت خطابات أيضا ، تكتبها روث بشكل عام . كان عدم درايتها بقواعد اللغة والهجاء الصحيح للكلمات يصيبك بصدمة . قالت ، **أنا وكودى نعتقد أن عيني لوك تظلان « زرقاوان »** ، والمفروض أنها « زرقاوين » ولكن فيم كانت قواعد اللغة تهم بيرل ؟ احتفظت بكل خطاب ووضعت صور لوك على مكتبها فى إطارات صغيرة مذهبة اشترتها من محل كريسج .

كتبت ، **أظن أننى يجب أن أحضر لأرى لوك قبل أن يكبر** لم يرد أحد . كتبت ثانية . **هل يكون يونيو مناسبا** ؟ عندئذ كتب كودى يقول

إنهم سينتقلون إلى إلينوى فى يونيو ، لكنها إذا كانت تريد حقا فربما يمكنها الحضور فى يوليو .

ولذا ذهبت إلى إلينوى فى يوليو ، مسافرة مع ملء قطار من جنود فتيان بوجوه نضرة فى طريقهم إلى فيتنام ، وقضت أسبوعا فى ذلك المنزل القفر من الأشجار المسدود بمتاريس ضد عناصر الطبيعة . كانت صدمة ، حتى لها ، كيف أحبت حفيدها فى الحال وبعمق . لم يكن قد بلغ الثانية تماما عندئذ ، طفل جميل برأس يبدو كرأس رجل ناضج فى شكله - محدد بدقة ، والشعر الذهبى مشذب بشكل دقيق ومرتب . بدت شفتاه المستقيمتان الحازمتان شفتى رجل ناضج أيضا ، وكانت له طريقة فى المشى لا تشبه طرق الأطفال . كان هناك تهدل ضئيل فى وقفته ، وتدل قليل فى كتفيه ، لا شىء خاطىء جسمانيا ولكن مظهر استسلام كوميدى تقريبا فى شخص صغير الحجم إلى هذا الحد . كانت بيرل تجلس معه على أرضية الغرفة لساعات ، تلعب بشاحناته وعرباته . « فروم . فروم . دحرجه ثانية إلى جدتك ، الآن » . كان سكونه يمس شغاف قلبها . كان يمتلك عددا كبيرا من الكلمات لكنه يستخدمها فقط عند الضرورة ؛ لم يكن مسرفا . كان حريصا ؛ ينقصه المرح . هل كان سعيدا ؟ هل كانت هذه حياة ملائمة لطفل ؟

لاحظت أن كودى لديه نثار من الشعر الرمادى فى سالفيه ، وسيماء جلدية فى وجنتيه ؛ لكن روث لا تزال شيئا ضئيلا محبا للخصام ، بشعر قصير للغاية وثياب غير ملائمة . لم تصبح أنعم أو أكثر امتلاء مع تقدم العمر . كانت مثل خضراوات متاجر كبيرة معينة تتحول من اللون الأخضر إلى الذبول دون أن تنضج أبدا . فى الأمسيات ، حين يعود كودى إلى البيت من عمله ، كانت روث تقعقع فى أرجاء المطبخ وهى تطبخ كميات هائلة من الطعام الريفى الذى لا يكاد كودى يلمسه ؛ وكودى

يمسك بكأس الجين والمشروب المنشط يشاهد نشرة الأخبار . كان كلاهما يسأل الآخر ، « كيف كان يومك ؟ » و « هل كل شيء على ما يرام ؟ » لكن لم يبد عليهما أنهما يصغيان إلى الإجابات . وكان باستطاعة بيرل أن تعتقد أنهما ، حين يستيقظان في الصباح في سريرهما الضخم ، يسألان بأدب ، « هل نمت نوما هانئا ؟ » شعرت بغم وضيق ، ولكن بدلا من أن تحول نظرتها المحدقة كانت مرغمة لسبب ما على التنقيب في حياتهما إلى أعماق أكبر ؛ أرسلتهما ذات ليلة إلى السينما ، وهي تعد أن تراقب لوك ، ثم فتشت كل أدراج المكتب بدقة لكنها وجدت فقط ايصالات ضرائب ، وكشوف حساب من البنك ، وألبوم صور يخص الناس الذين كانوا يعيشون هنا حقا . على أية حال ، لم يكن بإمكانها أن تقول عم كانت تبحث .

وفي عودتها إلى البيت ، وهي ترتج في القطار وسط مجموعة أخرى من الجنود ، شعرت بالإنهاك واليأس . وصلت إلى بلتيمور متأخرة سبع ساعات ، بصداع موجع . ثم حين دخلت المحطة ، رأت عزرا يسير باتجاهها بطريقته المتهادية وشعرت بطعنة من ... حسنا ، التعرف . كانت مشية لوك ، لوك الصغير الرزين . قالت لنفسها إن الحياة مفعمة بالحزن ، إلى درجة أنها لم تكن تستطيع بالكاد تحملها . لكنها وهي تقبل عزرا ، شعرت بأساها يباغته شيء أشبه بالضيق . تساءلت لم يتحمل هذا ، لم ترك الأمور تمضي في هذا السبيل . هل يمكن أن يكون الأمر هو أنه يجد بعض الرضا في حزنه ؟ (كما لو كان يدفع ثمن شيء ، هكذا خطر لها . ولكن ما الذي كان يدفع ثمنه ؟) سألها وهما في السيارة « كيف أحببت لوك ؟ » وقالت ، « ألا تفكر أبدا في مجرد الذهاب إلى هناك ومحاولة استعادتها ؟ »

قال ، « ما كنت لأستطيع » ، وهو غير مندهش ، وراح يحرك

السيارة بجهد من مكان انتظارها أمام الماكينة الشقبية .

قالت له ، « حسنا ، أنا لا أفهم لم لا » .

ـــ « ليس هذا صحيحا . هذا خطأ» .

لم تكن معتادة على الفلسفة ، لكنها أثناء القيادة باتجاه البيت راحت تحملق فى مناظر بلتيمور المكسوة بالهباب وتفكر فى مسألة الخطأ والصواب : فى الفضيلة النظرية ، التى توجد فى فراغ ؛ فيما إذا كان لها هدف على الإطلاق . عندما وصلا إلى البيت ، نزلت من السيارة ودخلت المنزل دون كلمة ، وصعدت الدرج إلى غرفتها .

يجرف عزرا الطائر الميت على قطعة من الورق المقوى ويدسه فى كيس النفايات . ثم يلصق الورق المقوى علي لوح الزجاج المكسور الذى لابد أن الطائر دخل منه . وفى تلك الأثناء تكنس بيرل شظايا الزجاج . تتركها فى كومة هرمية وتهبط الدرج لتحضر الجاروف . وترى سلفا أن البيت قد دبت فيه بعض الحياة ـ نَسَق أوراق الأشجار المشمسة تتلألأ على أرضية غرفة الاستقبال أمام الباب المفتوح ، رائحة النجيل الحار تندفع عبر الحجرات . قال كودى على الهاتف مؤخرا ، « إنه لم يكن عمليا إلى هذا الحد أبدا » مشيرا إلى المزرعة . « كانت فكرة نصف مختمرة فقط خطرت لى وأنا صغير » . لكنه إذا كان يعنى ذلك حقا ، فلم لا يتقدم ويبيعها ؟ لا ، لم يكن من المحتمل أن يستطيع ؛ لقد قضت وقتا طويلا للغاية تكنس هذا المكان ، تعده له ، تفتح وتغلق أدراج الخزانة الصغيرة كما لو كانت ستجد أسراره هناك . يمكنها أن تتخيل روث فى هذا المطبخ ، وكودى بالخارج يعاين خطوط السياج أو أياً ما كان يقوم الرجال به فى المزارع . تستطيع أن تتخيل لوك يجرى خلال الفناء فى حلة عمل من قماش قطنى متين . هو كبير الآن بما يكفى

حتى يذهب لصيد السمك ، وحتى يسبح فى الخليج الصغير فيما وراء المرعى ، بل ربما حتى يرعى الحيوانات . سوف يبلغ الثامنة فى أغسطس . هل هى الثامنة ؟ أو التاسعة . لقد عجزت عن أن تظل على صلة بالمعلومات عنه . فهى لا تكاد تراه أبدا ، وعليها أن تقهر خجله من جديد حين يمر هو ووالداه خلال بلتيمور . فى كل زيارة له تكون اهتماماته قد تغيرت : من بندقية الفلين إلى البلى إلى جمع الطوابع . فى آخر مرة كان هنا منذ سنتين أو ثلاث . أخرجت ألبوم طوابع زوجها ـ وقد تحولت جلدته من الجلد الزائف الأحمر الداكن إلى اللون الرمادى بفعل العفن الفطرى ـ إنما لتكتشف أن لوك قد تحول باهتمامه إلى موديلات الطائرات . كان يُجمع طائرة نفاثة من خشب البالزا ، كما قال لها ، سوف تطير فعلا . وكان يخطط ليكون رائد فضاء . قال ، « حين أكبر ، سوف يكون رواد الفضاء عاديين . وسوف يركب الناس الصواريخ مثلما تركبين أنت الحافلة ـ سوف يقضون فترات الصيف على كوكب الزهرة . لن يذهبوا إلى مدينة أوشن ؛ سوف يذهبون إلى شواطىء على القمر » . قالت ، « آه ، أليس ذلك رائعا ! » لكنها كانت بالغة الهرم بالنسبة لمثل هذه الأشياء . ولم يكن بإمكانها أن تجاريه ، وجعلتها فكرة السفر إلى القمر ذاتها تشعر بالوحشة .

وهذه الأيام ـ حسنا ، من ذا الذى بمكنه أن يخمن ؟ لابد أن لوك منهمك فى شىء مختلف كلية . لقد مضى وقت طويل للغاية منذ أن كان هنا ، وهى ليست واثقة أنه سيعود أبدا . فى أثناء تلك الزيارة الأخيرة ، أخرج عزرا فلوته القديم المصنوع من خشب شجر الكمثرى من الخزانة وبيَّن للوك كيف يعزف لحنا . إن بيرل تعرف أقل القليل عن آلات الفلوت ، لكن من الواضح أن شيئا يحدث ـ فالخشب يجف ، أو يلتوى ، أو شىء ـ عندما لا تعزف بما فيه الكفاية ؛ وهذه الآلة لم تعزف منذ

عقد ، على الأقل . فقد أصبح صوتها مشروخا . ومشققا . كم كان ليجفلها أن تسمع ثلاث نغمات قديمة تنبعث منها بعد مثل هذا الصمت ! مشى عزرا ولوك جنوبا فى شارع كالفيرت ليشتريا بعض زيت بذر الكتان . وبعد أقل من دقيقتين من مغادرتهما ، سأل كودى عن أين ذهبا . قالت له بيرل ، « لماذا ، ذهبا يشتريان بعض زيت بذر الكتان لفلوت عزرا . ألم ترهما يذهبان ؟ » استأذن كودى وخرج ليذرع المكان جيئة وذهابا أمام المنزل . بقيت روث فى غرفة المعيشة ، تناقش مسألة المدارس . أنصتت بيرل بالكاد . كانت تستطيع أن تنظر من النافذة وأن ترى كودى يذرع المكان ، يستدير ، يذرع المكان ، وسترته تخفق خلفه . كان بإمكانها أن تعرف عندما عاد عزرا ولوك ، حتى قبل أن تراهما ، من الطريقة التى تصلب بها كودى . سمعته يسأل ، « أين كنتما ؟ ما الذى كنتما تفعلانه أنتما الاثنان ؟ »

لم يتعلم لوك أبدا كيف يعزف الفلوت . قال كودى إن عليهم أن يذهبوا . قالت بيرل ، « أوه ، لكن يا كودى ! كنت أظنكم ستقضون الليلة ! »

قال لها ، « خطأ . خطأ مرة أخرى . لا يمكننى أن أبقى هنا ؛ فهذا المكان ليس آمنا . ألا ترين ما يقصده عزرا ؟ »

- « ماذا ، يا كودى ؟ ماذا يقصد ؟ »

سألها ، « ألا ترين أنه يبذل قصارى جهده ليسرق ابنى ؟ بنفس الطريقة التى كان يسرق بها كل واحد ؟ ألا ترين ؟ »

رحلوا ، فى نهاية الأمر . أراد عزرا أن يعطى لوك الفلوت ليحتفظ به ، لكن كودى أمر لوك أن يتركه ؛ فسوف يشترى له واحدا أكثر جدة ، أجمل ، أدق . واحدا لم يكن قد جف تماما ، هكذا قال .

إن بيرل تعتقد الآن أن عائلتها قد أخفقت . فلا واحد من ابنيها سعيد ، وابنتها لا يبدو عليها أنها تستطيع أن تظل متزوجة . وليس هناك من يستحق اللوم لقاء ذلك سوى بيرل نفسها ، التي ربت هؤلاء الأبناء منفردة وارتكبت أخطاء ، أوه ، عددا كبيرا من الأخطاء . ومع ذلك ، فإنها يداخلها الشعور أحيانا أنه القدر لا غير ، وليس أمرا يستحق اللوم مطلقا . تشعر أن كل شيء قد حُدِّد ، قد قُدِّر ؛ ولابد أن يؤدى كلُ دوره . من المؤكد أنها لم يكن فى نيتها أن تشجع ترتيبا من ترتيبات الابن الطيب والابن السيىء ، لكن ماذا يمكنك أن تفعل حين يكون أحد الأبناء طيبا بشكل ثابت والآخر سيئا بشكل ثابت ؟ بل ما الذى يمكن للأبناء أن يفعلوه ؟ لقد صاح كودى قائلا ، « ألا ترين ؟ » وتخيلت ، للحظة ، أنه كان يدعوها إلى أن ترى وجوده كله - سنى عمره من الأذى والحيرة .

وهى تحدق فى أغلب الأحيان ، مثل طفل ينظر من فوق السياج إلى حفل شخص آخر ، بحزن ، فى العائلات الأخرى. وتتساءل ما سرهم . فهم يبدون حميمين . هل ذلك لأنهم أكثر تدينا ؟ أو أكثر صرامة ، أو أكثر لينا ؟ هل يمكن أن يكمن السر فى أنهم يشتركون فى الألعاب الرياضية ؟ يقرأون الكتب معا ؟ يشتركون فى هواية واحدة ؟ لقد سمعت ، مؤخرا ، جارة تناقش خططها ليوم الاستقلال : كانت عائلتها ستقوم برحلة . كل عضو - طفلا كان أو كبيرا - سيطبخ الطبق الذى تخصص أو تخصصت فيه . وأولئك الذين كانوا أصغر من أن يطبخوا يتولون أمر الأطباق الورقية .

شعرت بيرل بموجة من الحنين جعلت ركبتيها تصطكان .

انتهى عزرا من لصق الزجاج بالشريط اللاصق . تنجرف بيرل خلال غرف النوم الأخرى ، تفحص النوافذ الأخرى . فى أصغر غرف النوم ، غرفة نوم طفل ، تقترب عجوز ضئيلة الحجم ترتدى قبعة . إنها بيرل ، فى المرآة المبقعة فوق خوان صغير . إنها تميل مقتربة أكثر وتتبع الخطوط حول عينيها . عمرها لا يدهشها . فقد تعودت عليه الآن . تفكر ، أنت عجوز لوقت أطول بكثير من كونك شابة . حقا ، لا يكاد هذا يبدو عدلا . ثم تفكر ، لا لسبب بنيوى ، فى فتاة كانت تذهب معها إلى المدرسة ، ليندا لو شيء - أو - آخر - فتاة جميلة ، طائشة للغاية ، واحدة كانت تحسدها دائما . اختفت ليندا لو فى منتصف سنة التخرج . كانت هناك إشاعات ، تأكدت فيما بعد - علاقة غرامية مع الرجل الوحيد بين أعضاء هيئة التدريس فى المدرسة ، رجل متزوج ؛ وطفل فى الطريق . كم رُوِّعت رفيقاتها فى الفصل ! استثارهم الأمر : أنهم كانوا يعرفون بالفعل مثل هذه الإنسانة ، استعرن مذكراتها فى التاريخ ، ساعدنها فى إعادة ربط نطاق محلول ، بل ربما لمسن يدها بالصدفة - تلك اليد التى يمكن أن تكون لمست ... حسنا ، من يعرف ماذا . يخطر ببال بيرل ، وهى تنعم النظر فى المرآة ، أن الطفل الذى ولد من تلك الفضيحة لابد أن يكون فى الستين الآن . سيكون أشيب الشعر وبشرته تحمل بقعا بنية مصفرة لعلة فى كبده ، وربما أسنان صناعية ، ونظارة ثنائية البؤرة ، يحمل على كتفيه عبء حياة مملة ومع ذلك لا تزال ليندا لو تتراقص فى عقل بيرل ، وهى ترتدى ثوبا أبيض ، أجمل فتاة فى المدرسة الثانوية .

سألها كودى ، « ألا ترين ؟ » ، وقالت بيرل ، « حبيبى ، أنا لا أستطيع فهمك تماما » .

ثم هز كتفيه ، وعاد تعبيره المتسلى العادى إلى وجهه . قال ،

« آه ، حسنا ، أظن أننى لا أستطيع أنا الآخر . ففى النهاية ، ماذا يهمنى ، الآن بعد أن كبرت ؟ لماذا ينبغى أن يهمنى الأمر بعد الآن ؟ »

هى لا تذكر إن كانت قد نجحت فى الرد على ذلك .

تبتعد عن النافذة . يدخل عزرا ، حاملا كيس النفايات ، يقول ، « انتهى كل شىء ، يا أمى ؟ »

ـ « إنه يبدو أفضل حالا بكثير ، أليس كذلك ؟ »

يقول لها ، « إنه يبدو على ما يرام تماما » .

يهبطان السلم ، ويغلقان الباب ، ويحملان تجهيزاتهما إلى السيارة . وحين يبتعدان بالسيارة تلقى بيرل نظرة خلفية ، مثل أى ربة بيت جيدة تراجع ما قد نظفته ، ويبدو لها أنه حتى تلك الشرفة الأمامية المنبعجة أكثر استقامة وتماسكا . أحست أنها أنجزت شيئا . ربما كان آخرون ليستسلمون ويدعون المنتهكين يعبثون بالبيت ، لكن ليست بيرل أبدا . سوف تأتى ثانية فى الموسم القادم ، والموسم الذى يليه ، والموسم الذى يلى ذلك ، وسوف يواظب عزرا على إحضارها ـ كلاهما يرتج على طول ممر السيارات ، وفيا ومسئولا ، معا إلى الأبد .

[٧]

د . تل
ليست لعبة

قالت جينى ، « أيا كان الأول فى ذكر الطلاق عليه أن يأخذ الأطفال . لقد أبقانا هذا معا عددا من المرات أكثر مما أستطيع إحصاءها » .

كانت تمزح ، لكن القس لم يضحك . ربما كان أصغر سنا من أن يفهمها . كان كل ما فعله هو أن غير اتجاهه بضيق فى كرسيه . فى تلك الأثناء كان الأطفال يدورون حوله مثل شىء يبقبق ، مثل لبن يمخض ، وسال لعاب الطفل على حذائه . سحب قدميه بطريقة غير محسوسة ، كما لو كان يحاول ألا يؤذى مشاعر الطفل .

قال ، وهو يبدو كمن يختار كلماته ، « ومع ذلك فإننى أعتقد أنك أنت نفسكِ قد طُلِّقت ، أليس كذلك ؟ »

قالت جينى ، « مرتين » ، قهقهت ، لكنه بدا عليه القلق . وأضافت ، « ومرة من أجل جو هذا » .

ابتسم زوجها لها من الأريكة .

قالت جينى ، « لو لم يكن عندى بعد النظر فى الاحتفاظ باسمى قبل

الزواج لقُرئت شهادتى الدراسية الطبية مثل دفتر من دفاتر العناوين حين ينتقل الناس كثيرا . أسماء مشطوبة ومضافة ، مشطوبة ومضافة - فوضى ! د . جينى مارى تل بينز وايلى سانت أمبروز » .

كان القس واحدا من أولئك الرجال الشقر جدا ذا شعر يشبه الزجاج ، ولونه قانى الحمرة إلى درجة أن جينى تساءلت عن ضغط دمه . أو ربما كان محرجا فقط . قال ، « حسنا ، مسز ، أوم - أو د . - »

ـــ « تل » .

ـــ « د . تل ، كنت أعتقد فقط أن عدم الـ ... استقرار ، قلة الاستقرار ، قد تسبب مشاكل سليفين . تحول الآباء ، كما قد تقولين » .

سألته جينى ، « الآباء ؟ عم تتكلم ؟ سليفين ليس ابنى . هو ابن جو » .

ـــ « آه ؟ »

ـــ « جو هو أبوه وقد كان أبوه دائما » .

قال القس ، « أوه ، عفوا » .

بل إن لونه أصبح أرجوانيا أكثر - شعرت جينى أن ما حدث له كان ينبغى أن يحدث ؛ لأن سليفين المدملج بشعره المتشرب بلون الرماد كان من الواضح أنه ابن جو . كانت جينى ضئيلة القد وسمراء ؛ وجو رجلا ضخم الجثة ، أشقر ، مثل دب له لحية ، له عينا سليفين الزرقاوان المائلتان (كثيرا ما كانت تشعر بانجذابها إلى رجال مفرطين فى الوزن . كانوا يولدون لديها الشعور بأنها مرتبة) . قالت للقس ، « سليفين هو ابن جو من جريتا ، زوجته السابقة ، وهكذا معظم الأطفال

الآخرين الذين تراهم هنا . كلهم فيما عدا بيكى ؛ فبيكى طفلتى . والستة الآخرون أولاده » . مالت لتأخذ عظمة الكلب من الطفل . « على أية حال ... لكن زوجة جو ، جريتا : لقد رحلت » .

قال القس « رحلت ؟»

قال جو بابتهاج ، « تركتنى منبطحا على الأرض . رحلت بعيدا عن بلتيمور . تركت الأطفال مع إحدى الجارات ذات يوم ، أثناء غيابى فى عملى . استأجرت شاحنة من الشركة المتحدة ورحلت مع كل ما نملك ، كل شيء ماعدا ملابس الأطفال فى أكوام صغيرة مرتبة على أرضية الغرفة » .

قال القس ، « يا للعجب » .

ـــ « بل إنها أخذت أسرّتهم . هل لديك تفسير لذلك ؟ أخذت المهد وطاولة تغيير ملابس الأطفال . الشيء الوحيد الذى يمكننى أن أؤكده ، أنها كانت معتادة على الحياة مع الأطفال حتى أنها لم تستطع أن تتخيل حقا كيف ستبتعد عنهم ؛ افترضت حقا أنها ستحتاج إلى مهد ما أياً ما كان المكان الذى تذهب إليه . كان أول شيء علىّ أن أفعله حين وصلت إلى البيت تلك الليلة هو أن أخرج وأشترى أسطولا من الأسرّة من محل سيرز . لابد أنهم ظنوا أننى سأفتح فندقا على الطريق العام » .

قالت جينى ، « تصور الموقف ، جو يرتدى مئزرا . جو يمزج لبن الأطفال الصناعى . حسنا ، كان ضائعا ، بطبيعة الحال . ضائعا تماما . والطريقة التى التقينا بها : اتصل بى هاتفيا بالبيت فى أحلك ساعات الليل عندما أصيب ابنه بالحصبة الألمانية . هكذا كانت تعوزه الخبرة : فقد مضت عشرون سنة على الأقل منذ أن كان أطباء الأطفال يقومون بزيارات فى المنزل . لكننى جئت ، لا أدرى لماذا ! حسنا ، كان يعيش

على مبعدة بنايتين منى . وكان يائسا للغاية ـ فتح الباب وهو يرتدى بيجاما مقلمة ، ويهز الطفل ـ »

قال جو ، « وقعت فى حبها فى اللحظة التى دخلت فيها » . ربت لحيته ؛ وتطايرت شعيرات متجعدة ذهبية حول أصابعه القصيرة المكتنزة .

قالت جينى ، « اعتبر أننى كنت « السيدة السخية » ، تحمل حقيبة طبية بدلا من سلة طعام . ومن الصعب مقاومة رجل يحتاج إليك » .

قال جو لها ، « لم يكن للحاجة دخل فى هذا » .

ـــ « حسنا ، رجل يعجب بك ، اذن . سألنى إذا كان لدىّ أطفال يخصوننى ، وكيف أدبر أمورى وأنا فى العمل . وعندما قلت إننى أرتجل حلولا مؤقتة للمشكلة ، بجليسات أطفال مراهقات فى لحظة وسيدات مسنات فى اللحظة التالية ، وأمى تشغل الوقت فيما بين الاثنين حين تستطيع أو أخى أو جارة ، أو أحيانا ببساطة تعسكر بيكى فى حجرة الانتظار الملحقة بمكتبى مع واجب الرياضيات المخصص لها ـ »

قال جو للقس ، « إستطعت أن أرى أنها ليست امرأة شديدة البخل . لا صارمة . لا متقلصة . ليست ذلك النوع البالغ الجدية » .

قال القس ، وهو يتطلع فيما حوله ، « لا » . (لم يكن قد مضى يوم حين استطاعت جينى أن تشرع فى ممارسة أعمالها المنزلية) .

قالت جينى ، « قال إن الطريقة التى كنت أدع أطفاله يزحفون بها فوقى كلى تروق له . قال إن زوجته كانت تجدهم مثيرين لأعصابها ، فى السنوات القليلة الأخيرة . حسنا ، أنت ترى كيف بدأ الأمر . كنت قد قطعت على نفسى عهدا ألا أتزوج ثانية أبدا ، وأن بيكى وأنا نفضل

أن ندبر أمورنا بنفسنا ، وكان ذلك ما أجيده تماما ؛ لكننى لا أعرف ، كان جو هناك ، وأولاده . وكانت طفلته صغيرة للغاية وقد هجرتها أمها مؤخرا جدا إلى حد أنها أدارت رأسها وفتحت فمها حين حملتها فى وضع أفقى ؛ كان بإمكانك أن تدرك أنها مازالت تتذكر . على أية حال » ، قالت وابتسمت للقس ، الذى كان حقا شابا لدرجة مذهلة - فتى واسع العينين ، هذا كل ما كان عليه . « كيف تطرقنا إلى هذا الموضوع ؟ »

قال القس ، « أه ، سليفين . كنا نناقش أمر سليفين » .

ـــ « أوه ، أجل ، سليفين » .

كان عصر يوم ممطر ، عاصف من ابريل ، والأشجار تتمايل وتضرب ألواح زجاج النوافذ ، وقد وصلت غرفة المعيشة لتوها إلى تلك الدرجة من لون الشفق التى لا يدرك أحد حتى لحظتها ، أن الوقت قد حان لإضاءة الأنوار . بدا الجو ضبابيا وحبيبيا . كان الأطفال يدورون مثل ساعات حائط صغيرة ويحدثون جلبة طلبا لعشائهم ؛ لكن القس ، الذى لم يكن له أطفال يخصونه ، عجز عن ملاحظة هذا . مال إلى الأمام ، وقد ضغط أنامل يد إلى أنامل اليد الأخرى . قال ، « لقد أقلقنى سلوك سليفين فى اجتماعات منظمة الشباب المسيحى . فهو ليس اجتماعيا على الإطلاق ، ليس له أصدقاء ، يبدو متقلب المزاج ، انطوائيا . يمكن أن يكون الأمر ، بطبيعة الحال ، سنه ، ولكن ... إنه فى الرابعة عشرة ، أليس كذلك ؟ »

قال جو بعد أن فكر مليا ، « ثلاث عشرة » .

ـــ « ثلاث عشرة ، طبيعى صعب ... ما كنت لأذكر الأمر ، إلا لأنه انتزع نفسه وجرى إلى الخارج ، ولم يعد أبدا ، حين اقترحت أن نتحادث . والآن نلاحظ أنك ، يا مستر سانت أمبروز ، أنك تقله إلى

القداس كل يوم أحد ، لكنه فى الحقيقة قد كف عن الدخول ويجلس ببساطة فى الخارج على الدرج الأمامى ويروح يراقب حركة المرور . إنه ، كما يمكنك القول ، يهرب من المدرسة ، ولكن - »

قال جو ، « هات ما عندك . إننى استيقظ خصيصا صباح الأحد لأقله إلى هناك وهو يهرب من المدرسة ؟ »

— « لكن نقطتى هى - »

— « لا أدرى لم يريد أن يذهب على أية حال . فهو الوحيد من بينهم الذى يفعل ذلك » .

قال القس ، « لكن سلوكه الانطوائى هو ما يقلقنى أكثر من حضوره إلى الكنيسة . على الرغم من أنها قد لا تكون فكرة سيئة إذا ، ربما ، صحبته إلى القداس أحيانا » .

— « أنا ؟ يا للجحيم ، أنا لست حتى كاثوليكيا » .

— « أو حتى أنت فيما أظن ، يا د . تل ... »

بدا على الرجلين أنهما ينتظرانها . كانت جينى قلقة بشأن حفاضة الطفل ، التى انتفخت بشكل يثير الشك ، لكنها استجمعت أفكارها وقالت ، « أوه ، لا ، يالله ، ليست لى حقا أضأل - » ضحكت ، وهى تغطى فمها - إيماءة كانت تلازمها . قالت ، « وعلاوة على ذلك ، كانت جريتا أم سليفين ، هى الكاثوليكية » .

— « فهمت . حسنا ، الشىء المهم - »

— « أنا لا أدرى لم يذهب سليفين إلى الكنيسة . وإلى كنيسة جريتا ، كنيستها القديمة ، عبر البلدة تماما » .

ـــ « هل يتصل بأمه الآن ؟ »

ـــ « أوه ، لا ، فهى لم تعد أبدا . حصلت على طلاق سريع فى إيداهو وكان ذلك آخر ما سمعناه عنها ».

ـــ « هل هناك أية ، آه ، مشاكل العائلة الربيبة ؟ »

قالت جينى ، « العائلة الربيبة ؟ حسنا ، لا . أو أجل . لا أدرى . ربما كان هناك ؛ فهذه الأشياء ، بطبيعة الحال ، ليست سهلة أبدا ... غير أن الحياة هنا تدور من حولنا فى عجلة بالغة ، حتى أننا ليس لدينا حقا وقت » .

قال جو للقس ، « إن سليفين مغرم جدا بجينى » .

قالت جينى ، « لماذا ، شكرا ، يا حبيبى » .

ـــ « لقد كسبته إلى صفها فى الحال ؛ وهو يتبعها حيثما تذهب . فهى هادئة الأعصاب وكثيرة المزاح مع الأطفال ، أنت تعرف » .

قالت جينى ، « حسنا ، إننى أحاول ، أبذل جهدا حقا . لكن لا يمكنك أن تكون واثقا . فهذه السن كتوم جدا » .

قال القس ، « ربما سأقترح أن يأتى لزيارتى » .

ـــ « إذا شئت » .

ـــ « لمجرد الثرثرة ، أقول ، أن نتحدث بلا هدف ... »

كان بإمكان جينى أن تدرك أن ذلك لن يؤدى إلى شىء .

صحبته إلى الباب ، وهى تمشى الهوينى ويداها فى جيبى تنورتها . قالت ، « أرجو ألا تكون قد كونت عنا فكرة خاطئة . أعنى أن جو والد

ممتاز ، هو كذلك بكل صدق ؛ وقد كان دائما طيبا مع سليفين » .

ـــ « أجل ، بالطبع » .

قالت جينى ، « أوه ، عندما أقارنه ببعض الآخرين الذين أستطيع ذكر أسمائهم ! » كانت لديها عادة ، مع المستنكرين من الناس ، أن تتكلم أكثر من اللازم ، وكانت تعرف ذلك . وفيما هما يعبران الصالة ، قالت ، « سام وايلى ، مثلا - زوجى الثانى ، والد بيكى . كنت لتموت لو رأيت سام أبدا . كان رساما ، نمطاً من الأنماط الرشيقة المكتنزة الضئيلة الحجم التى لم أعد أثق فيها أبدا منذ ذلك الحين . عديم الحيلة تماما . لا يمكن الاعتماد عليه كلية . تركنى قبل أن تولد بيكى ، انتقل إلى شقة موديل اسمها أدار باجند » .

فتحت الباب الأمامى . اندفعت للداخل شبورة رقيقة طلقة وجذبت نفسا عميقا . قالت ، « أوه ، جميل . لكن أليس ذلك اسما مرحا إلى حد الصخب ؟ ظللت أحاول لأطول وقت ممكن أن أديره ، وأنا أظن أنه لابد أن يكون له معنى لو أننى قرأته معكوسا . وداعا ، إذن ، يا أبت . شكرا على زيارتك » .

أغلقت الباب خلفه وذهبت لتعد عشاء الأطفال .

كانت جينى مغرمة بأن تقول إن هذا البيت من الممكن أن يكون لطيفا للغاية ، فقط لو أن حوض الاستحمام فى الطابق الثالث لم يكن يرشح خلال سقف غرفة المائدة . كان بيتا طويلا أنيقا فى صف بيوت بولتون هيل ؛ كانت قد اشترته فى ١٩٦٤ ، عندما لم تكن الأسعار مرتفعة إلى عنان السماء . فى تلك الأيام ، كان السعر قد بدا هائلا ؛ لكن بعد ذلك بسبع سنوات ، مع ستة أطفال إضافيين ، لم يعد يبدو كبيرا

إلى هذه الدرجة . كان غير مريح ، مثل مكان مكتظ بالسكان ، سيىء الترتيب . كان به الكثير جدا من الأبواب وأنابيب التدفئة ، حتى أنه من الصعب أن تجد فراغا لقطع الأثاث .

كانت تطبخ على موقد لزج يقوم على ركائز ، وتغسل الخضراوات فى حوض اغتسال قد اصفر لونه ، له حاشية من نسيج قطنى مطبوع ، وتصف الأطباق على طاولة نقشت عليها الحروف الأولى من أسماء عائلة أخرى . « هيا ، يا أطفال ، كل واحد يأتى بأطباقه الفضية ، الآن ـ »

ــ « أعطيت جيكوب بسلة أكثر منى » .

ــ « لم تفعل » .

ــ « فعلت أيضا » .

ــ « لم تفعل » .

ــ « فعلت أيضا » .

ــ « خذها ! أنا حتى لا أحبها » .

سألت جينى ، « أين سليفين ؟ »

ــ « من يحتاج إلى سليفين على أية حال ، ذلك النكد العجوز » .

رن جرس الهاتف وجاء جو يحمل الطفلة الرضيعة . « كان ذلك خدمتك الليلية ، يريدون أن يعرفوا ـ »

ــ « ليست لدى نوبة خدمة ؛ إنها نوبة خدمة دان الليلية . لماذا يتصلون بى ؟ »

ــ « هذا ما ظننته ، لكنهم قالوا ـ »

ومضى يتجول ثانية ، وعاد بعد دقيقة ليجلس إلى المائدة والطفلة فى حجره . قالت جينى ، وهى تهرول مبتعدة ، « هاك لحمتها . ملعقتها على الـ ... »

غادرت المطبخ ، صعدت الدرج إلى الطابق الثانى ونادت على الطابق الثالث . « سليفين ؟ » لا جواب . صعدت بقية الطريق ، وهى تصبح لاهثة الأنفاس بسرعة . كم فقدت جمال قدها ! كان صحيحا ، مثلما كانت أمها تخبرها دائما ، أنها قد أهملت نفسها - قالت أمها إنها جريمة بالنسبة لشخص له بهاء طلعة جينى . كان صحيحا أنها قد أصبحت مهزولة ، متراخية بعض الشىء ، أصبح لون جلدها شاحبا وحاجباها أشعثين وفمها الواسع الضاحك جافا بنى اللون وقد توقفت عن طلائه بأحمر الشفاه .

ندبت أمها ، « شعرك ! شعرك الجميل ! » - الذى لم يكن جميلا على الإطلاق : كتلة كثيفة ، متلبدة ، يتخللها الشعر الأشيب وقد قص مقدمه فوق الجبين فى شكل مربعات . كانت بيرل تقول ، « كنت آية فى الجمال » ، فتضحك جينى . وقد نفعها هذا كثيرا ! كانت تحب أن تعتقد أنها تبلى جمالها - تحب أن تعتقد أنها تستهلكه . كان يداخلها بعض الرضا عن هذا ، مثل ربة بيت تشق طريقها بجد خلال جرة من شىء لا تستمتع به ، ولن تشتريه ثانية ، لكنها لا يمكنها أن تنبذه ، بطبيعة الحال .

وصلت إلى الطابق الثالث وهى تلهث ، وتمسك جزءا من تنورتها القطنية بقبضة يدها . كان الطابق الخاص بالأولاد الأكبر سنا ، لا منطقتها ، وله رائحة عفنة كرائحة الغرف التى تقع مباشرة تحت سطح البيت . نادت ، « سليفين ؟ » طرقت الباب . « العشاء ، يا سليفين ! »

فتحت الباب قليلا وأنعمت النظر بالداخل . كان سليفين يرقد على سريره المهوش وساعده فوق عينيه . كان يبين منه شُقة من بطنه عريضة منتفخة ، كما كان يبين دائما ، بين سرواله الجينز وفانلته الخارجية . كان يضع سماعات الأذن ؛ ولذا لم يسمعها . عبرت الغرفة ورفعت السماعات من على رأسه . رنت أغنية دقيقة لجانيس جوبلين بشكل بالغ الصغر : « أنا وبوبى ماكجى » . طرف بعينيه وألقى عليها نظرة متحيرة ، مثل شخص يستيقظ لتوه . قالت له ، « وقت العشاء » .

ـــ « لست جائعا » .

ـــ « لست جائعا ! أى كلام هذا ؟ »

ـــ « جينى ، بصدق ، أنا لا أريد أن أنهض » .

لكنها كانت تجذبه سلفا ليقف على قدميه . فتى ضخم الجسم يكاد يبلغ طول جينى وأثقل وزنا بكثير لكنه لا يزال صبيانيا ، لون بشرته أصفر شاحب . راحت تحثه على السير إلى الباب ، وهى تدفعه من الخلف وكلتا كفيها مسطحتان على أسفل ظهره . قالت ، « أنت الوحيد فيهم الذى يتحتم علىّ أن أحمله جسديا إلى الوجبات » . غنت له وهما يهبطان الدرج :

« أوه كان عليهم أن يحملوا هارى إلى العبّارة ،
وكان عليهم أن يحملوا هارى إلى الشاطىء ... »

قال سليفين ، « بجد ، يا جينى » .

دخلا المطبخ . عمل جو من يديه نفيرا فوق رأس الطفلة الرضيعة

وقال ، « تا ـ را ! تا ـ را ! إنه يتقدم ! » تأوه سليفين . لم يرفع الآخرون عيونهم عن وجبتهم .

شعرت جينى بالرضا ، وهى تجلس في مكانها إلى جوار جو ، وهى تدور بعينيها حول المائدة التى تغص بالأطفال . قررت أنها وهم ، آخذون فى الانسجام معا ـ حتى الأولاد الأكبر سنا ، الذين تصرفوا بحذر وعدوانية حين التقت بهم لأول مرة .

ثم واتتها فكرة مثيرة للقلق : خطر لها أن هذا الموقف لابد سيكون وضعها الدائم . فبعد أن اضطلعت بأمر هؤلاء الأطفال ، وقومت حياتهم المقلوبة وكسبت ثقتهم ببطء وبشكل مطرد ، لم يكن بوسعها أن تخذلهم بضمير مستريح . كان هنا مكانها ، إلى الأبد . قالت لجو ، « من حسن الطالع أننا ننسجم مع بعضنا البعض » .

قال ، « إنه من حسن الطالع للغاية » ، وربت يدها وطلب المسطردة .

ــــ « أليس من المذهل أن تكون للمدرسة دائما رائحة المدرسة » . قالت جينى لمدرسة سليفين . « يمكنك أن تضيفى ما تشائين من الوسائل التعليمية الحديثة ـ الوسائل السمعية والبصرية والكومبيوتر ـ فإنها تظل لها رائحة غراء الكتب وذلك الورق الرمادى الرخيص الذى كانوا يستخدمونه للرياضيات وأيضا ... ما هى تلك الرائحة الأخرى ؟ هناك رائحة أخرى علاوة على ذلك ، أعرفها لكن لا يمكننى أن أسميها تماما » .

قالت المدرسة ، « اجلسى ، يا د . تل » .

قالت جينى ، « غبار جهاز التدفئة » .

ـــ « عفوا ؟ »

ـــ « تلك هى الرائحة الأخرى » .

قالت المدرسة ، « استدعيتك لغرض » ، وهى تفتح ملفا يرقد أمامها . كانت شيئا ضئيل القد ، من المؤكد أنها لم تتعد العشرين . « مغرورة وبوجهها نمش وتلبس نظارة ذات إطار عاجى يجعل أنفها المدبب يبدو أصغر . تعجبت جينى كيف تعلمت أن تكون مرعبة بهذا الشكل بهذه السرعة . « أعرف أنك امرأة مشغولة ، يا د . تل ، لكننى قلقة حقيقة بشأن أداء سليفين المدرسى واعتقدت أن لابد من إبلاغك » .

قالت جينى ، « أوه ، حقا ؟ » قررت أنها كانت لتشعر أنها أفضل حالا لو أنها هى أيضا ترتدى نظارة ، على الرغم من أنها كانت تحتاج إلى نظارتها للقراءة فقط . نقبت فى كيسها وسقطت منها حلمة صناعية أرجوانية من البلاستيك . تظاهرت أن هذا لم يحدث .

قالت المدرسة : « سليفين ذكى جدا ، جدا » ، وحملقت مغضبة فى جينى بشكل من يوجه اتهاما ، « لكنه يترك أعلى الخرائط تماما » .

ـــ « أجل ، حسبت هذا » .

قالت المدرسة وهى تقلب الأوراق ، « لكن متوسطه فى اللغة الانجليزية ... راسب . حسنا ، ربما ضعيف جدا » .

طقطقت جينى بلسانها .

ـــ « الرياضيات : متوسط . التاريخ : دون المتوسط . والعلوم ... والرياضة ... وقد تغيب مرات كثيرة للغاية . وأخيرا سألته

إذا كان يتغيب عن المدرسة بدون عذر . قال ، « نعم ، يا سيدتى » - قالها على الفور تماما . سألته ، « أى شهر تغيبته ؟ » قال ، « فبراير » .»

ضحكت جينى . ونظرت المدرسة إليها .

عدَّلت جينى نظارتها وقالت ، « هل تظنين أنه البلوغ ؟ »

قالت لها المدرسة ، « كل هؤلاء الأطفال يمرون بمرحلة البلوغ » .

ـــ « أو ... لا أدرى ؛ الملل . أنت نفسك قلت إنه ذكى . لماذا ، ينبغى أن تريه فى البيت ! يعبث بالآلات مثل القرود ، يزود أنظمة الصوت المجسم بأسلاك . فلديه مسجل شرائط خاص به ، اشتغل من أجله واشتراه بنفسه ، موديل فخم من نوع ما ، لا أستطيع أن أفكر فى الاسم من الذاكرة . فأنا جاهلة للغاية فى هذه الأشياء ، فعندما تكلم عن منظفات الرءوس ظننت أنه يعنى صابون الشعر السائل ؛ لكن سليفين يعرف كل شىء عنه و ـ »

قالت المدرسة ، « إن مستر ديفيز يقترح ـ هذا ناظرنا المساعد ـ يقول إن سليفين ربما يمر بمشكلات عاطفية نتيجة لعمليات التكيف فى البيت » .

ـــ « أية عمليات تكيف ؟ »

ـــ « يقول إن أم سليفين هجرته ونُقل سليفين إلى منزلك مباشرة تقريبا بعدها ، وكان عليه أن يعتاد على أم وأخت جديدتين تماما » .

قالت جينى ، وهى تلوح بيدها ، « أوه ، هذا » .

ـــ « ومستر ديفيز يقترح أن سليفين ربما يكون بحاجة إلى استشارة متخصص » .

قالت جينى ، « هراء . ماذا يعنيه تكيف بسيط ؟ وعلى أية حال ، لقد حدث هذا من ستة شهور مضت بالكمال والتمام . إن الأمر ليس كما لو ... لماذا ، انظرى إلى ابنتى ! كان عليها أن تعتاد على سبعة أشخاص جدد ولم تفه مطلقا بكلمة شكوى . أوه ، إننا جميعا متمكنون من معالجة الأمور ! وفى الحقيقة إن زوجى كان يقول ، منذ وقت ليس بالبعيد ، إننا يجب أن نفكر فى أن ننجب أطفالا الآن . يجب أن يكون لنا على الأقل طفل واحد مشترك ، لكننى أنا نفسى لست واثقة . فأنا ، فى نهاية الأمر فى السادسة والثلاثين . وربما لا يكون هذا قرارا حكيما » .

ــــ « مستر ديفيز يقترح ـ »

ــــ « على الرغم من أننى أظن أنه إذا كان الأمر يعنى كثيرا بالنسبة له إلى هذا الحد ، فالأمر سيان بالنسبة لى » .

قالت المدرسة ، « سيان ! ماذا عن الانفجار السكانى ؟ »

قالت جينى ، « الـ ... ماذا ؟ أنت تخرجيننى بعيدا عن الموضوع ، هاك ... إن نقطتى هى أننى لا أرى داعيا لإلقاء اللوم على التكيف ، البيوت المتهدمة ، الوالدين السيئين ، وما إلى ذلك . إننا نصنع حظنا بأنفسنا ، صح ؟ عليك أن تتغلبى على نكساتك . أنت لا تستطيعين أن تدعيها تزعجك . سوف أشرح كل ذلك لسليفين . سوف أخبره هذا المساء . وأنا على ثقة أن تقديراته سوف تتحسن » .

ثم انحنت لتلتقط الحلمة الصناعية ، وصافحت المدرسة وانصرفت .

كانت هناك لوحة خشبية مطلية على الحائط فى مكتب جينى : « د .

تل ليست لعبة » . كان جو قد عملها لها في ورشته . فقد أغضبته الخدوش والكدمات التي تصاب بها جيني يوميا من مبارياتها الخشنة مع مرضاها . قال لها ، « اجعليهم يبدون بعض الاحترام . احتفظي بقليل من الكرامة » . لكن اللافتة كانت ضائعة تقريبا بين اللقطات الفوتوغرافية لمرضاها (على الشواطيء ، على الأراجيح ، على مناضد المصورين المغطاة ببطاطين ، أو خلف كعكات أعياد الميلاد المضاءة) ، وصور الوجوه التي رسموها لأنفسهم بأقلام الشمع الملون وأحضروها لها . على أية حال ، كان معظمهم أصغر من أن يستطيع القراءة . جرفت بيلي بيرنام ، وهو ينعق ويقهقه بعصبية ، وحملته إلى الممرضة من أجل حقنة التيتانوس . نادت على مسز بيرنام ، « الآن ، من المحتمل أن يعاني الليلة من احتقان في أيسر الـ ... » . تلوّى بيلي ، وفرقع زرار من على معطف جيني الأبيض .

كان طفل آل أولبرايت قد حان موعده مع حقنة الطعم الثلاثي . وكان عليها أن تغير الوصفة الطبية الخاصة بطفل آل كارول . بدا تَنَشّق لوسي براندون الدائم مثل حساسية ؛ أخبرت جيني مسز براندون أين يمكنها أن تأخذها لإجراء اختبار . كانت لوزتا توأم آل موريس متضخمتين .

طلبت من موظفة الاستقبال أن تطلب لها شطيرة ، لكن موظفة الاستقبال قالت ، « ألن تتناولي طعامك في الخارج ؟ أخوك هنا ؛ وقد ظل ينتظر ساعتين ، على الأقل » .

قالت جيني ، « أوه ، يا إلهي ، لقد نسيته تماما » . دخلت غرفة الانتظار . كان عزرا جالسا على الأريكة البلاستيكية ، محاطا بلعب تعمل بالجر ومكعبات بناء وكتب صور زيتية . كانت هناك عائلة من أطفال يتكلمون الأسبانية ، لعلهم مرضى د . راميريز ، يلعبون تحت

قدميه ، لكنك ما كنت لتخطىء عزرا على أنه والد . كان شعره الأصفر الأشعث ناعما مثل شعر طفل ؛ وهو يرتدى ملابس عمل بهتت ألوانها ، ووجهه عريض ومترقب .

قالت له جينى ، « عزرا ، حبيبى . لقد نسيت تماما . إن موعدى التالى بعد عشرين دقيقة ؛ هل تظن أن بإمكاننا مجرد أن نختطف شطيرة هامبرجر ؟ »

قال عزرا ، « أوه ، مؤكد » .

انتظرها وهى تخلع معطفها الأبيض وترتدى معطف مطر . ثم ركبا المصعد هابطين إلى البهو المبلط بالرخام ، واندفعا خلال الباب الدوار إلى شارع ملبد بالغيوم يتساقط فيه نثار المطر . كانت هناك رائحة مثل الفحم المبتل . كان الناس المحتشدون يهرعون بالقرب منهما والحافلات تئز وأجراس الكاتدرائيات ترن عن بعد .

قالت ، « أشعر بالغباء وأنا أصحبك من دون كل الناس إلى محل هامبرجر » .

كانت تفكر فى مطعمه ، الذى كان يروعها دوما قليلا . كان عزرا ، مؤخرا ، قد أعاد تشكيل المسكن الذى يقع فوقه إلى سلسلة من حجرات الطعام الخاصة الصغيرة الأنيقة مثل تلك الحجرات التى تظهر فى الأفلام القديمة ـ المقصورات التى تتدلى فيها ستائر مخملية حيث يحاول الشرير التغرير بالبطلة . كانت مثالية لأزواج يحتفلون بعيد زواجهم ، هكذا قال عزرا . (فقد كان ، شأن الرجال العُزاب ، حساسا تجاه الزواج بشكل هزلى مثير للضيق) . لكن حتى تلك اللحظة ، لم يطلب استخدام الحجرات سوى مجموعات من رجال الأعمال ، وسياسيون من بلتيمور مثقلون بالجواهر .

قال الآن ، « إن الهامبرجر طيب ؛ وأنا مجنون به » . وعندما مشيا خلال المدخل الزجاجي المطلى ، إلى مساحة ملساء مكسوة بالبلاط تحدها صور متوهجة لحلقات البصل وأكواب اللبن المخفوق بالآيس كريم ، نظر فيما حوله بسعادة . كانت السكرتيرات يتجمعن عند بعض الموائد ، وعمال البناء عند موائد أخرى . قال عزرا ، « إنها تقترب من شكل المزرعة الجماعية . كل هذه الأماكن المتسلسلة التى يفد إليها كل واحد من أجل الإفطار ، والغداء ، والعشاء أحيانا ... مثل مزرعة جماعية أو شيء من هذا القبيل . سرعان ما سوف تختفي المطاعم الخاصة تماما ؛ قومى بزيارة خاطفة فقط إلى محل جينو أو ماكدونالد . إنها تروق لى بشكل ما » .

تشككت جينى إن كان هناك أى محل أكل لا يروق له . إنه ليسره جوع الزبائن الواضح فى مطعم للحساء ، بلا شك ، وأن يكتشف فى حانة تفوح فيها رائحة البول بيضا مخللا رائعا لم يره فى أى مكان آخر . أوه ، إنه ذواقة لكل ما له علاقة بالطعام إلى أبعد الحدود .

وفى حين كان يطلب الشطائر لهما ، جلست إلى مائدة . خلعت معطف المطر ، ملست شعرها وحكت بقعة طعام أطفال من على بلوزتها . جلستها وحيدة أشعرتها بالغرابة ، فدائما كان هناك أحد ما ـ أطفال ، مرضى ، زملاء . أعطتها المساحة الفارغة على كل جانب منها شعورا يتردد صداه بأن لا وزن لها ، كما لو كانت تفتقد ثقل موازنة وأنها قد تطفو إلى أعلى فى أية لحظة .

عاد عزرا بشطائر الهامبرجر . سألها وهو يجلس ، « كيف حال جو ؟ »

ـــ « أوه ، على ما يرام . كيف حال أمى ؟ »

قال ، « بخير ، ترسل لك حبها ... أحضرت لك شيئا » ، نحا شطيرته جانبا لينقب فى جيوب سترته الجلدية . أخيرا أخرج مظروفا أبيض باليا . قال ، « صورا » .

ـــ « صورا ؟ »

ـــ « لقطات فوتوغرافية . أمى لديها كل هذه اللقطات ؛ وقد اكتشفتها لتوى . ظننت أنك قد يهمك أن يكون لك بضع منها » .

تنهدت جينى . عزرا المسكين : كان يتحول إلى كفيل العائلة ، يرعى أمه ويحرس ماضيهم ، ويتصل بأخته هاتفيا بإخلاص ليدعوها على الغداء . قالت ، « لم لا تحتفظ بها ؟ أنت تعرف أننى سأفقدها » .

قال ، « لكن الكثير من هذه لك » ، أفرغ المظروف على المنضدة . « حسبت أن الأطفال قد يحبونها . مثلا ، فى مكان ما هنا ... » خلط نسخا شتى لجينى وهى أصغر سنا ، وأشد صرامة . قال ، « هاك . ألا ترين بيكى فى هذه ؟ »

كانت صورة لجينى وهى ترتدى قلنسوة صوفية من قماش مربعات ، لا تبتسم . قالت ، وهى تُقلّب قهوتها ، « آه » .

قال عزرا ، « كنت بنتا صغيرة لطيفة حقا » . عاد إلى شطيرته لكنه احتفظ بالصورة أمامه . رأت جينى على ظهر الصورة شيئا كُتِب بالقلم الرصاص . حاولت أن تميزه . لاحظ عزرا وقال ، « خريف ١٩٤٧ . طلبت من أمى أن تدون التواريخ . وسوف أرسل بعضها إلى كودى ، أيضا » .

كان بوسع جينى أن تتخيل تماما وجه كودى حين تصله . قالت ، « عزرا ، لكى أقول الصدق ، ما كنت لأبدد أجرة البريد » .

ـــ « ألا تظنين أنه قد يحب أن يقارن هذه الصور بكيف يبدو لوك ، وهو يكبر ؟ »

ـــ قالت ، « صدقنى . سيحرقها . أنت تعرف كودى » .

قال عزرا ، « ربما يكون قد تغير » .

قالت جينى ، « لم يتغير ، وأشك فى أنه سيتغير أبدا . مجرد أن تذكر شيئا ـ ذكرى واحدة صغيرة غير ضارة من طفولتنا ـ ويفغر فمه . أنت تعرف كيف يفعل فمه هذا . قلت له ذات مرة ، قلت ، « كودى ، أنت لست أفضل من آل لوسون » . هل تذكر آل لوسون ؟ انتقلوا إلى ناحيتنا من ناشفيل ، تنيسى ، وفى الأسبوع الأول ذاته أصيب الأطفال الأربعة بالغدة النكفية . قالت مسز لوسون ، « هذه المدينة سيئة الطالع ، فيما أعتقد » . وفى الأسبوع التالى انفجرت ماسورة فى بدروم بيتهم وقالت ، « حسنا ، هذه هى بلتيمور » . ثم كسرت ابنتهم رسغها ... وعندما عادوا ثانية إلى تنيسى ، ذهبت لأودعهم . كان يعبئون صندوق سيارتهم ، وتصادف أن صفقوا الغطاء بعنف على أصابع أصغر أبنائهم تماما . وعندما انطلقوا بالسيارة كان يصرخ ، وصاحت مسز لوسون ، « أليست هذه طريقة ملائمة للرحيل ؟ لقد كنت أقول دائما إن بلتيمور سيئة الطالع » .»

قال عزرا ، « حسنا ، الآن ، إننى أحاول أن أتابعك » .

قالت جينى ، « إنه ما إذا كنت تضيف إلى القائمة أم لا . أعنى أنك إذا كنت تفهرس الضغائن ، فإن أى شيء يبدو سيئا . وكودى يفهرس بالتأكيد ؛ فهو يدير حياته بفهرسة . لكننا فى نهاية الأمر ، كما قلت له ، قد نجحنا ، أليس كذلك ؟ كبرنا . لماذا ، لقد سارت الأمور بنا سيرا حسنا ، سيرا حسنا تماماً ! »

قال عزرا وقد انبسطت أساريره ، « هذا صحيح . أنت على وجه الخصوص ، يا جينى . انظرى إلى نفسك : طبيبة » .

قالت جينى ، « أوه ، هِشْ ، فلست إلا وزَّانة أطفال » . لكنها سُرت ، وعندما نهضا ليمضيا حملت معها الصور لتسعده .

قال جو إنهما إذا أنجبا طفلا ، فإنه يود أن تكون بنتا . تطلع فيما حوله ولاحظ أنهم ليست لديهم كفاية من البنات . سألته جينى ، « كيف يمكنك أن تقول هذا ؟ » عدَّت البنات على أصابعها ، « فيبى ، بيكى ، جين ... »

وعندما تلاشى صوتها ، وقف يراقبها . كانت تتوقع أن يتكلم ، لكنه لم يفعل . سألته ، « حسنا ؟ »

ــــ « هؤلاء ثلاث فقط » .

شعرت بفورة ارتباك صغيرة . « هل أغفلت واحدة ؟ »

ــــ « لا ، لم تغفلى واحدة » . وقال للجدار ، « هل أغفلتْ واحدة ؟ » وزفر مغضبا ، « إنها تسأل إن كانت أغفلت واحدة . ياله من سؤال ! لا لم تغفلى واحدة . كل ما لدينا ثلاث . ثلاث بنات » .

ــــ « حسنا ، لست بحاجة إلى التصرف بنزق بشأن هذا » .

قال ، « لست نزقا ، أنا محبط . أحاول أن أتبادل حديثا هنا » .

ــــ « أليس ذلك ما نفعله ؟ »

ــــ « أجل ، أجل ... »

ــــ « إذن أين المشكلة ؟ »

ليس له أن يجيبها . وقف في مدخل المطبخ وذراعاه معقودتان بإحكام على صدره . راح يحدق في اتجاه جانبي ، عابسا . تحيرت جيني . هل كانا يتشاجران ، أم ماذا ؟ وعندما امتد الصمت ، عادت بالتدريج ، وبشكل غير ملحوظ ، إلى تقطيع الخيار إلى شرائح للعشاء . كانت تنزل بالسكين بأهدأ ما يمكن ، وبلا صوت جرفت أقراص الخيار إلى وعاء . (عندما التقت هي وجو أول مرة ، قال ، « هل تضعين الخيار على بشرتك ؟ » سألته ، مندهشة ، « خيار ؟ » قال لها ، « تبدين باعثة على الشعور بالطراوة ، فكرت في زجاجة لبن الخيار تلك التي كانت عمتي تحتفظ بها على طاولة زينتها »).

كان اثنان من الأطفال ، جيكوب وبيتر ، يلعبان بلوح وحروف لتكوين الكلمات أمام الثلاجة . كان على جيني أن تخطو فوقهما عندما ذهبت لإحضار الطماطم . قالت لهما ، « عفوا . أنتما في طريقي » ، لكنهما تجاهلاها ؛ كانا منكبين على اللوح . سأل جيكوب ، « ماذا سأكون عندما أكبر ؟ » ووضع أطراف أصابعه برقة على المؤشر . « الطبقة الوسطى العليا ، الطبقة الوسطى الوسطى ، أو الطبقة الوسطى الدنيا : أيها ؟ »

ضحكت جيني ، وحدق جو فيها مغضبا ودار حول نفسه وغادر المطبخ وهو يدق الأرض بكعبيه .

في نشرة أخبار المساء ، دفن واحد من طاقم طائرة هليكوبتر قتل في لاوس ، بكل التكريم العسكري . سُلِم علم أمريكي ، مطوى على شكل وسادة مثلثة ، إلى الوالدين - سيد أشيب الشعر ذو ذقن مربعة وزوجته الهشة . كانت الزوجة ترتدي معطف مطر أنيقا وقفازين أبيضين صغيرين . كانت هي من تقبل العلم . كان الزوج قد أشاح

بوجهه وانخرط فى البكاء ، ولم يشأ حتى أن يقول بضع كلمات أمام الميكرفون الذى قدمه إليه شخص ما . سأله أحد المراسلين ، « سيدى ؟ سيدى ؟ »

امتد قفاز أبيض وأخذ الميكروفون . أعلنت الزوجة بصوت جنوبى ناعم ، « أعتقد أن زوجى يعنى أن يقول إننا نشكر كل أولئك الذين اجتمعوا هنا ، ونحن نعرف أننا سنكون على ما يرام . فنحن أقوياء ، وسنكون بخير » .

قال سليفين ، « كلام تافه » .

قالت جينى ، « لماذا ، يا سليفين ؟ لم أكن أعرف أنك سياسى » .

قال لها ، « لست كذلك ؛ هذه مجرد مجموعة من الكلام التافه . ينبغى لها أن تقول ، « خذوا هذا العلم القديم ! إنى أعترض ! أتخلى عنه ! »

قالت جينى بلطف ، « ياالله » . كانت تفرز صور عزرا ؛ مدت يدها بواحدة لتصرف انتباهه . قالت ، « انظر ، خالك كودى ، فى الخامسة عشرة » .

ــــ « إنه ليس بخالى » .

ــــ « بالطبع هو خالك » .

ــــ « هو ليس بخالى الحقيقى » .

قالت جينى « ما كنت لتقول هذا لو أنك عرفته . كنت لتحبه . أود لو أنه جاء لزيارتنا . إنه ... ليس أخويا للغاية أو شيئا من هذا القبيل ؛ لا أدرى . وانظر !» قالت ، وهى تجد مصادفة صورة أخرى ، « أليست

أمى جميلة ؟ »

قال سليفين ، « أنا أعتقد أنها تشبه السحلية » .

ـــ « أوه ، لكنها حين كانت فتاة ، أعنى ... أليس من المحزن كم كانت خلية البال » .

قال سليفين ، « إنها تنسى اسمى نصف الوقت » .

قالت له جينى ، « حسنا ، إنها هرمة » .

ـــ « ليست هرمة إلى هذا الحد . ما تقوله هو إننى لست أهلا لأن تولينى اهتماما . العجوز الخرفة . تجلس على رأس المائدة بقطعة خبز على طبقها وتضع كلتا يديها مسطحتين وتروح تحملق فينا ، تحملق فيما حولها ، ووجهها مثل مروحة من المراوح الدوارة ، وهى تنتظر الزبد لكنها لا تطلبه أبدا ، لا تنطق بكلمة مطلقا . حتى تقولى أو يقول أبى فى آخر الأمر ، « أمى ؟ هل نمرر الزبد إليك » . فتقول ، « آه ، شكرا لكما » ، كما لو كانت تتساءل متى تدركان » .

قالت جينى ، « لم تكن حياتها سهلة » .

ـــ « أود لو أننا مرة واحدة فقط أنهينا الوجبة كلها دون أن يقدم أحد إليها الزبد » .

قالت له جينى ، « لقد ربتنا بمفردها ، تعرف . ألا تظن أن ذلك كان بالضرورة صعبا ؟ فقد هجرنا أبى وتركها حين كنت فى التاسعة » .

سألها سليفين وهو يحملق فيها ، « هل فعل ذلك ؟ »

ـــ « تركها ، بكل ما فى الكلمة من معنى . ولم تقع أعيننا عليه مرة أخرى » .

قال سليفين ، « النذل » .

قالت جينى ، « أوه ، حسنا » قلَّبت بعض الصور الأخرى .

ـ « ياالله ! هؤلاء الناس ! إنهم يحاولون أن يقضوا عليك » .

قالت له جينى ، « إنك تبالغ فى رد فعلك . أنا لا أستطيع حتى أن أتذكر الرجل ، إذا كنت تريد الحقيقة . ولو رأيته ما كنت لأعرفه . ودبرت أمى الأمور على خير ما يرام . سارت كل الأمور بنجاح . انظر إلى هذا ، يا سليفين : هل ترى قصة شعر عزرا البالية الطراز ؟ »

هز سليفين رأسه وحول قناة التليفزيون .

ناولته صورتها بالقلنسوة الصوفية ، « وانظر كيف كنت أبدو فى سنك » .

ألقى نظرة . قطب جبينه . قال ، « من قلت إنها هذه ؟ »

ـــ « أنا » .

ـــ « لا ، لست أنت » .

ـــ « أجل ، إنه أنا . أنا فى الثالثة عشرة ، كتبت أمى التاريخ على الظهر » .

قال ، « لا ، لست أنت ! » كان صوته مرتفعا بشكل غير عادى ؛ رن صوته مثل طفل أصغر عمرا . « لست أنت ! انظرى إليها ! لماذا ، إنها تشبه ... شخصا فى معسكر اعتقال ، ضحية ، آن فرانك ! إنها بشعة ! إنها حزينة للغاية ! »

قلبت الصورة ونظرت ثانية ، وهى مندهشة . صحيح ، لم تكن الصورة سعيدة بوجه خاص . أظهرت فتاة صغيرة سمراء ذات وجه

نحيل ، يقظ ـ لكنها لم تكن سيئة إلى ذلك الحد . قالت ، « وماذا فى ذلك ؟ » ومدت يدها بها إليه مرة أخرى . ارتد إلى الخلف بحدة .

قال لها ، « إنها لشخص آخر . لست أنت ؛ فأنت دائما تضحكين وتمرحين . إنها ليست أنت » .

قالت ، « أوه ، رائع ، إنها ليست أنا ، إذن » ، وعادت إلى بقية الصور .

قالت أمها على الهاتف ، « أريد أن أحادثك بشأن الصبى الأكبر . ما اسمه ؟ كيفين ؟ »

ــ « سليفين ، يا أمى . حقا » .

ــ « حسنا ، لقد سرق مكنستى الكهربائية » .

ــ « فعل ماذا ؟ »

ــ « فى عصر يوم الأحد حين جئتم جميعا لزيارتى ، تسلل إلى غرفة الكرار ، وانسل هاربا بمكنستى العمودية » .

جلست جينى على سريرها . قالت ، « دعينى أفهم هذا بوضوح » .

قالت أمها ، « لقد افتقدتها طوال الأسبوع . ولم أستطع فهم هذا . أعرف أننا لم نتعرض للسطو ، وحتى لو كان هذا حدث ، ما الذى يمكن أن يريده أى واحد من مكنستى القديمة ؟ »

ــ « ولكن لماذا تتهمين سليفين ؟ »

ــ « أخبرتنى جارتى ، عصر اليوم فقط . قالت مسز آرثر ، هل

كان ذلك حفيدك من رأيت يوم الأحد ؟ فتى ضخم نوعا ما ؟ يشحن مكنستك العمودية فى صندوق سيارة ابنتك ؟ »

قالت جينى ، « ذلك مستحيل » .

ـــ « الآن ، كيف تعرفين ذلك ؟ كيف تعرفين ما هو مستحيل ، وما هو غير مستحيل ؟ فهو لايكاد يكون أكثر من غريب ، يا جينى . أعنى ، أنك حصلت على هؤلاء الأطفال بالطريقة التى يحصل بها الناس الآخرون على ضيوف فى عطلة نهاية الأسبوع » .

قالت جينى لها ، « أنت تبالغين » .

ـــ « حسنا ، كل ما أطلبه منك هو أن تفحصى غرفة نوم سليفين . مجرد أن تفحصيها » .

ـــ « ماذا ، الآن على الفور ؟»

ـــ « هناك كثير من النسالة الكتانية تملأ سجادتى » .

قالت جينى ، « أوه ، حسنا » .

وضعت السماعة على وسادتها وصعدت من الطابق الثانى إلى الثالث . كان باب سليفين مفتوحا ولم يكن هو فى غرفته ، على الرغم من أن جهاز الراديو يتأرجح بصوت موسيقى « جيفرسون أيربلين » . خطت فوق حقيبة ظهر سليفين بخطى متلصصة ، تجنبت كومة تترنح من مجلات **العلوم المبسطة** ، فتحت باب خزانته ووجدت نفسها تحملق فى مكنسة أمها . كانت لتعرفها فى أى مكان : آلة كهلة بكيس قمامة من القماش الرمادى . كان سلكها ملفوفا بعناية وبدا غير مصاب بضرر . لو أنه كان قد فككها ليعرف كيف تعمل ، لفهمت . أو لو أنه هشمها بدافع من حنق على أمها . لكنها كانت هناك ، كاملة . وقفت

متحيرة أمام هذا اللغز عدة ثوان . ثم دفعتها على عجلاتها خارج الخزانة وحملتها بمشقة أسفل الدرج ، إلى حيث كان صوت أمها يرن بنفاد صبر من السماعة « جينى ؟ جينى ؟ »

قالت جينى ، « حسنا ، أنت على حق . وجدتها فى غرفته » .

حلت فترة صمت كان بإمكان بيرل أن تقول فيها ، « قلت لك هذا » ، لكنها كرما منها لم تفعل . ثم قالت ، « إننى أتساءل إن كان يسعى لطلب مساعدة بطريقة ما » .

ـــ « بسرقة مكنسة كهربائية ؟ »

قالت بيرل ، « إنه ولد لطيف حقا . أستطيع أن أرى هذا ، ربما كان يطلب طبيبا نفسيا أو شيئا من هذا القبيل » .

قالت جينى ، « الأكثر احتمالا أنه يطلب بيتا أكثر ترتيبا . إن كرات الغبار على أرضية خزانته قد بدأت تتكدس وتنشىء عائلة لها » .

تصورت سليفين وهو يسرق ، بدافع اليأس ، مستودع تجهيزات تنظيف ـ مكنسة هذا الجار ، سوائل تنظيف من ذلك الجار ، يجمعها بنفس الحماسة المحمومة التى أظهرها فى جمع البنسات التى تحمل رءوسا هندية . أصابتها نوبة ضحك فجائية .

قالت أمها بحزن ، « أوه ، يا جينى ، هل ترين كل شىء على أنه نكتة ؟ »

قالت جينى ، « إنها ليست غلطتى إذا حدثت أشياء مضحكة » .

قالت أمها ، « إنها بكل تأكيد غلطتك » ، ولكنها بدلا من شرح ما تعنيه ، أصبحت حادة على الفور وطلبت إعادة مكنستها صباح الغد .

كانت جينى وجو وكل الأطفال فيما عدا الرضيعة يشاهدون التليفزيون . كان الوقت قد تجاوز ميعاد النوم بكثير بالنسبة لمعظمهم ، لكن هذه كانت مناسبة خاصة : كان العرض المتأخر هو **مذاق عسل النحل** . وقد سمع كل واحد فى البيت عن **مذاق عسل النحل** . كان فيلم جينى المفضل طيلة الوقت . وقد رأته مرة فى الماضى فى ١٩٦٣ ، ولم تنسه أبدا . لم يصل أى شىء آخر إلى مستواه ، كما كانت مغرمة بأن تقول ، وبعد عودتها من مشاهدة فيلم آخر كان من المؤكد أن تعلن ، « حسنا ، كان فيلما لابأس به ، فيما أظن ، لكنه لم يكن **مذاق عسل النحل** » . وبمضى الوقت ، كان بإمكان أى من الأطفال أن ينهى تلك الجملة قبل أن تصل إلى منتصفها . كانوا يسألونها بمجرد أن تدخل من الباب ، « **هل كان مذاق عسل النحل** ، يا جينى ؟ هل كان ؟ » وسمعت فيبى ذات مرة تقول لبيتر ، « أحب المدرسة الجديدة حبا لا بأس به ، أظن ، لكنها ليست **مذاق عسل النحل** » .

عندما علموا أنه سيذاع تليفزيونيا ، توسلوا جميعاً أن يظلوا ساهرين ليتفرجوا عليه . أعد الأطفال الأكبر سنا مشروب الكاكاو وأعد الأصغر سنا رقائق البطاطس . رتبت بيكى وسليفين دائرة كراسى حول جهاز التليفزيون فى غرفة المعيشة .

قال جو لجينى ، « أنت تعرفين ماذا سيحدث . بعد كل هذا الوقت ، حتى **مذاق عسل النحل** لن يكون **مذاق عسل النحل** » .

وكان على حق فى نقطة ما . لا أنها لم تعد تحبه - بلى ، بلى ، هكذا أكدت للأطفال ، كان كما تذكرته تماما - لكنها فى نهاية الأمر كانت شخصا مختلفا وهى تتفرج عليه . جعلها الفيلم تتلوى إشفاقا الآن ، فى حين أنه كان قد جعلها مفعمة بالأمل فى أول مرة . وألم يكن غريبا ،

ألم يكن شاذا ، أنها لم تطابق القصة أبدا مع قصتها هى ؟ فى ١٩٦٣ ، كانت طبيبة أطفال مقيمة ، تكافح كى ترعى طفلة عمرها سنتان ولدت بعد فسخ زواجها بستة أسابيع . ومع ذلك فقد تفرجت على فيلم يدور حول فتاة حامل غير متزوجة ، ولا معين لها ، بأقصى درجات الاستمتاع الموضوعى ، وهى تأتى على صندوق بسكويت مملح على نحو حالم . (وما الذى كانت تفعله فى دار سينما ، بأية حال ؟ كيف وجدت الوقت ، خلال مثل هذا الجدول المشحون بالمواعيد ؟

عندما انتهى ، أطفأت التليفزيون وهشت الأطفال إلى أعلى الدرج . كان كوين ، أصغر الأطفال ، الذى لم يتأثر مطلقا **بمذاق عسل النحل** ، يغط فى النوم وكان على جو أن يحمله . حتى الأطفال الأكبر سنا كانوا يترنحون ويطرفون بعيونهم . قالت لهم ، « استيقظوا . هيا ، الآن » ، وجذبت جيكوب الذى سقط كأنه صرة على أعلى درجة . قادتهم واحدا واحدا إلى أسرّتهم وقبلتهم قبلة ما قبل النوم . كم بدت غرفهم مليئة بالضجيج ، حتى فى صمتها ! ـ تلك الجلبة الصاخبة من اللعب والملابس المتناثرة ، ملصقاتهم المدوية ، المتنافرة عن نجوم رقصة الروك ، وبطاقاتهم المصمغة الوفيرة ضد الحرب والبيارق التى تحمل صور طائر الصافر . كان ثلاثة من الأطفال لا يودون استخدام الملاءات ، ويناموم فى أكياس النوم بدلا من ذلك ـ أغطية ذات سوستة ورسوم مبهرجة تتمدد على البطانيات ؛ ولم تكن فيبى تحب الأسرّة مطلقا بل تتكور فى لحاف على الأرضية ، وأغلب الأحيان بالخارج فى الصالة أمام غرفة والديها . كانت ترقد بعرض مدخل الباب مثل حارس ، وكان عليك أن تنتبه إلى خطواتك فى الظلام حتى لا تتعثر فيها .

قالت جينى ، « أريد أن تخفضى صوت ذلك الراديو » ، وقبّلت قمة رأس بيكى . ثم اختلست نظرة فى غرفة سليفين ، وطرقت إطار بابه

المفتوح ، ودخلت . كان يرتدى ملابس النهار لينام بها ، مثلما يفعل دائما ـ حتى حزامه العريض المزين بإبزيم سائقى الشاحنات ـ وكان يرقد على الأغطية . وقد واظبت على تقبيله قبلة ما قبل النوم كل ليلة منذ أن تزوجت جو ، لكنه مازال يتصرف بخجل . كان كل ما تفعله حقا هو أن تمس خده بخدها برفق ، وهى تأخذ كرامته بعين الاعتبار . قالت له ، « نوما هانئا » .

قال ، « أرى أنك عثرت على المكنسة الكهربائية » .

قالت ، وهى تتحايل كى لا تبدأ هى بطرح الموضوع ، « مكنسة ؟ »

قال ، « آسف لأننى أخذتها . أعتقد أن أمك غاضبة جدا ، هه ؟ لكنها لم تكن سرقة ؛ بصدق .. مجرد أننى كنت بحاجة إلى استعارتها بسبب نوبة » .

جلست على حافة السرير . « كنت بحاجة إلى استعارتها بسبب ماذا ؟ »

قال ، « حسنا ، لـ ... لا أدرى . لمجرد أن ... انظرى ، كانت هناك فى غرفة الكرار . كانت تشبه مكنسة أمى بالضبط . تعرفين كيف لا تفكرين أبدا فى شىء ، أو تدركين أنك تتذكرينه ، ثم فجأة يذكرك به تماما شىء ما ؟ كنت قد نسيت أن لها ذلك الشريط المطاطى حول حافتها حتى لا تبلى الأثاث ، وذلك الكيس المنتفخ الذى كنت أخاف منه وأنا طفل . بل كانت لها نفس الرائحة . كانت لها نفس رائحة القماش ، تماما مثل مكنسة أمى . تعرفين ؟ لذا أردت أن آخذها إلى البيت . ولكن ما أن أتيت بها إلى هنا ، حسنا ، لم تفعل فعلها . كما لو كنت قد فقدت الاتصال . لم تكن نفس الشىء فى نهاية الأمر » .

قالت ، « لا بأس ، يا سليفين . يا للسماء ، يا حبيبى ، لا بأس » . ثم أقلقها أن صوتها قد أفشى أكثر من اللازم ، وأنه سيجعله خجولا مرة أخرى ، ولذا ضحكت قليلا وقالت ، « هل نأتى لك بمكنسة هوفر خاصة بك فى عيد ميلادك ؟ »

انقلب على جنبه .

قالت ، وهى تقهقه ، « أو يمكننا أن نطلب تشكيلها من قماش البفتة . مكنسة كهربائية دقيقة من البفتة المحشوة حتى تأخذها معك إلى الفراش » .

لكن سليفين أغمض عينيه ، ولذا فإنها بعد هنيهة تمنت له نوما هانئا وانصرفت .

حلمت أنها عادت إلى سام وايلى ، زوجها الثانى والزوج الذى أحبته أكثر من الآخرين . كانت قد جعلت من نفسها حمقاء مع سام . حلمت أنه يدور على ذلك المقعد الخشبى العالى الذى كان لديهما فى المطبخ فى بولام . كان يسوى لفات شاربه الذى يشبه مقود الدراجة ويدندن أغنية « اتركه لحاله » التى لم تكن قد ظهرت بعد ، فى ذلك الوقت .

فتحت عينيها وسمعت « اتركه لحاله » تصدر من راديو أحد الأطفال ، وتتهادى عبر الصالة المظلمة . كم من مرة أخبرتهم ؟ نهضت واتجهت إلى غرفة بيتر - عارية القدمين ، وهى تخطو فوق فيبى . قالت لنفسها إن لأجهزة الراديو بالليل رنينا مختلفا جدا - قصيا للغاية ويطقطق بصوت راكد رملى تقريبا ، كما لو كان على الموسيقى ان تسافر فوق أميال من خطوط السكك الحديدية والطرق السريعة

المهجورة ، عبر أفنية فحم ومقالب السيارات ، والهياكل المعدنية المقامة فوق آبار البترول ، ومداخن المصانع ، والمحولات الكهربائية . قطعت التيار عن الراديو وجذبت كيس نوم بيتر إلى أعلى حول كتفيه . اطمأنت على الطفلة الرضيعة فى مهدها . ثم عادت إلى فراشها ، وهى ترتجف قليلا ، وتكومت لصق ظهر جو الضخم طلبا للدفء .

اعتاد سام أن يغنى « ماك السكين » و « الحقول الخضراء » - أجل ، اللتين كانتا شائعتين . تذكرت كم كان يصبح أوبراليا ، ويدور بعينيه فى محجريهما ، ويضرب صدره ، وهو يحاول أن يجعلها تضحك . (كانت طالبة طب شابة جادة ، فى تلك الأيام) . ثم تذكرت الخط المؤلم الغض الذى أحدثته طاولة الكشف عبر بطنها المنتفخ بالطفل ، حين كانت طبيبة مقيمة حاملا فى الشهر السادس أو السابع ... وما أن حل الشهر الثامن حتى انتهى زواجها ، وكانت جينى تروح وتغدو وقد أصابها الدوار . رأت أنها كانت محكوما عليها دائما بالفشل ، غير جديرة بأن تُحَب ، تنقصها خاصية ما لتحتفظ بزوج . لم تكن قد عرفت هذا عن وعى ، من قبل ، لكن الألم الذى شعرت به كان مألوفا بشكل خفى - مثل شك داخلها طويلا وتأكدت صحته أخيرا .

كانت ترتدى الأزياء الموحدة المصممة للأطباء الذكور ذات الوسط مقاس أربعين بوصة ؛ فلم تكن هناك المعاطف المخصصة للمعامل بمستشفيات الولادة . وكان الأساتذة أثناء قيامهم بجولاتهم التفتيشية يلقون عليها نظرات متشككة ، ويسألونها إن كانت متأكدة أنها قادرة على معالجة الأمور . وكانت الممرضات المتعاطفات معها يحضرن لها كثيرا جدا من أقداح القهوة حتى ظنت أنها أصبحت مثل شىء يطفو على سطح الماء . وقد مكثت إحدى أولئك الممرضات معها معظم الوقت حين فاجأتها آلام المخاض . كان للنساء الأخريات أزواجهن ، أما جينى فكان

لها روزا بيريز ، التى تركتها تعتصر أصابعها بعنف بالقدر الذى يريحها ولم تفه بكلمة شكوى .

وما اسم تلك الجارة التى كانت ترعى الرضيعة ؟ مارى شىء ما – مارى لى ، مارى لو – زوجة طبيب مقيم زميل لها ، فقيرة مثل جينى وأم لطفلين تحت الستين . كانت تعمل جليسة أطفال لقاء أجر زهيد ، ولكن حتى هذا كان أكثر من طاقة جينى . وجدول العمل ! شهور من الخدمة الليلية ، ست وثلاثون ساعة تحت الاستدعاء واثنتا عشرة ساعة راحة ، غرفة الطوارىء ، عنبر الولادة ، جراحة الرضوض ... ولم تكن فترة التخصص أفضل حالا . فى تلك الأثناء ، تحولت بيكى من طفلة إلى فتاة صغيرة ، غريبة حقا ، طفلة مفعمة بالحيوية لها عينا سام وايلى السوداوان الحادتان ، اللتان لا تنتميان إلى جينى . على الرغم من أنها كانت تندهش أحيانا ، حين تراها تلقى تلك النظرة المحدقة المباشرة المتأملة التى تميز آل تل . هل كان من الممكن أن تنشىء هذه الغريبة الصغيرة أسرة فى نهاية الأمر ؟ تعلمت المشى ؛ تعلمت الكلام . كانت تقول بصوتها الحازم المفعم بالحيوية ، « لا ! » ؛ وكانت جينى تسقط رأسها فى كفيها ، وهى تحاول أن تظل مستيقظة فى الثالثة صباحا أو الثالثة عصرا ، مهما كانت الفترة القصيرة التى يقضيانها معا . كانت بيكى تقول ، « لا ! » فتجذبها جينى وتصفعها على فمها ، ثم تروح ترجها حتى يتدلى رأسها ، ثم تقذفها جانبا وتعدو خارجة من الشقة إلى ... أين ؟ (السينما ، ربما ؟) فى تلك الأيام ، كانت الأشياء تتمايل وتنمو لها حواف إضافية . كانت مجهدة إلى حد أن رؤية وسائد مرضاها البيضاء يمكنها أن تنومها تنويما مغناطيسيا . كانت الأصوات كثيفة ، كما لو كانت تنتقل تحت الماء . الكلمات على الرسوم البيانية لا معنى لها – الكثير من حروف الكاف والجيم ، كم كانت الانجليزية لغة مائجة

للغاية ، مقاطع قصيرة ، كتل من الحروف الساكنة ، لم تكن قد لاحظتها أبدا ؛ مثل اللغة الأيسلاندية ، ربما ، أو لغة الأسكيمو . دفعت وجه بيكى بعنف فى طبق عشائها الذى يحمل صورة الأرنب بيتر وأدمت أنفها . انتزعت خصلة من شعرها . عادت إليها ذكريات طفولتها كاملة : ضربات أمها وصفعاتها ولعناتها ، أظافر أمها المدببة تنغرز فى ذراع جينى ، وأمها تصرخ ، « يا طفلة الحوارى ! يا حيوانا قارضا صغيرا ! » وذرة ذكرى ما – لا يمكنها أن تحددها تماما – كودى يمسك برسغ بيرل ويتقى ضرباتها بينما جينى تنكمش وتلتصق بالحائط .

هل كان هذا ما تنتهى إليه الأشياء – أنك لا يمكنك أن تهرب أبدا ؟ أن أشياء معينة كان مقدرا لها أن تستمر ، جيلا بعد جيل ؟ عجزت عن أن ترى رصيفا ولوت كاحلها ، وراحت تعرج الى عملها وهى فى ألم مبرح . أساءت تشخيص حالة التهاب رئوى فيروسى . تركت حالة كسر جزئى تنسل من أمامها تماما . أحضرت لبيكى شربة ماء فى منتصف الليل ، ثم صرخت فجأة ، ودون أدنى قصد ، « تناوليها ! تناوليها ! » وقذفت بالكوب فى وجه بيكى . ارتجفت بيكى وأمسكت بأنفاسها لمدة ساعات بعد ذلك ، حتى فى نومها ، على الرغم من أن جينى أمسكت بها بإحكام فى حجرها .

ثم اتصلت بها أمها هاتفيا من بلتيمور وقالت ، « جينى ؟ ألم تعودى تكتبين إلى أسرتك ؟ »

كانت جينى تعنى أن تقول ، « حسنا ، لقد كنت مشغولة للغاية » أو : « اتركينى وشأنى ، فأنا أذكر كل شىء عنك . لقد عاد إلىّ جميعه . أكتب ؟ ولماذا ينبغى أن أكتب ؟ لقد أتلفتنى ؛ لقد آذيتنى . فلماذا أريد أن أكتب إليك ؟ »

بدلا من هذا ، أجفلت ... وهى لا تبكى بالضبط ، ولكن ما هو أسوأ . مزقتها شهقات جافة مسننة ؛ تقطعت أنفاسها ؛ وبصدرها كان هناك صوت صرير . قالت أمها بهدوء ، « جينى ، ضعى السماعة . هل تعرفين تلك الأريكة التى فى غرفة معيشتك ؟ اذهبى وارقدى عليها . وسأكون عندك ما أن يتمكن عزرا من أن يقود بى السيارة » .

بقيت بيرل أسبوعين ، وهى تستغل كل وقت أجازتها . كان أول ما فعلته هو أن تتصل بمستشفى جينى وأن تقوم بترتيب أجازة مرضية . ثم شرعت فى ترتيب الأمور مرة أخرى . فرشت ملاءات نظيفة على سرير جينى ، وأحضرت لها الشاى ومرقا منشطا ، وغسلت شعرها بالصابون السائل ، ووضعت زهورا على خزانتها الصغيرة . وقعت بيكى فى حب جدتها ، التى لم تكن قد رأتها بالكاد حتى الآن . نادت بيرل بيكى باسم « ربيكا » ، وعاملتها معاملة رسمية ، باحترام ، كأنها لم تكن متأكدة بمدى ما كان مسموحا لها به . وفى كل صباح كانت تمشى ببيكى إلى حديقة الأطفال وتؤرجحها على الأراجيح . وبعد الظهر كانتا تتسوقان معا . اشترت لبيكى ثوبا من طراز عتيق جعلها تبدو رزينة ورشيدة . اشترت كتبا بها صور - أشعار لحجرة نوم الطفلة وقصص جنيات و « **البيت الصغير** » . كانت جينى قد نسيت « **البيت الصغير** » . لماذا ، كانت تحب ذلك الكتاب ! كانت تطلبه كل مساء ، تذكرت الآن . كانت تجلس على تلك الأريكة البسيطة القديمة وتنصت فى حين تروح أمها ، بصبر لا حد له ، تقرأه ثلاث مرات ، أربع مرات ، خمسا ... قالت بيكى الآن ، « اقرئيه مرة ثانية » ، وعادت بيرل إلى الصفحة الأولى ، وأصغت جينى بنفس الانتباه الذى أصغت به بيكى .

وفى أيام الأحد ، حين يغلق عزرا مطعمه ، كان يقود سيارته من بلتيمور . لم يكن شخصا منفتحا ، رغم وجهه البرىء ، وبدلا من الكلام

مباشرة عن حالة جينى الأخيرة القابلة للانهيار ، ظل يبتسم فى هدوء لنقطة ما فيما وراءها تماما . استمدت من هذا راحة . شعرت أن العالم كان به سلفا من الصراحة أكثر مما ينبغى - كل واحد يرغى ويزبد ويبكى ويبتهج . تخيلت أن عزرا لم يكن عرضة للتقلبات التى ترج الناس الآخرين . كان يروق لها أن يقرأ لها الجرائد (قلاقل فى هندوراس ، مشاكل فى سايجون ، كوارث طبيعية فى هايتى وكوبا وايطاليا) بينما هى تنصت من تحت عش من البطاطين الداكنة الزرقاء وقميص نوم لا يزال دافئا من مكواة أمها .

فى عطلة نهاية الأسبوع الثانية ، وصل كودى من حيثما كان قد اختفى مؤخرا جدا . سافر تحيط به نسمات الحيوية والمال ؛ تأثرت جينى . استخدم هاتفها لمدة ساعتين مثل التاجر المتوهج الذى لا يعرف الكلل الذى كان دائما على شاكلته ، وعمل ترتيبات لدفع أجر جليسة أطفال طوال الوقت ، شابة نحيلة تدعى دليلة جريننج اتضح فيما بعد أنها كانت عونا لم يكن لجينى أن تجد مثيلا له مرة أخرى . ثم علق سترته فوق إحدى كتفيه ، وحياها تحية صغيرة ، ومضى .

كانت تنام ، أحيانا ، لمدة اثنتى عشرة ساعة أو أربع عشرة متصلة . وتستيقظ مشوشة الذهن ، يفزعها صمت الشقة المدغدغ الذى يغمره ضوء الشمس . كانت تخلط الأحلام والحياة الواقعية . قد تسأل أمها ، « كيف حدث - ؟ » قبل أن تتذكر أنه لم يحدث (موكب آل شرانير خلال غرفة نومها ، السيد الكهل يتدلى معلقا من عقبيه من قضيب ستارتها مثل حبة فاكهة) . أحيانا بالليل كانت تسمع أصواتا مدوية تخترق جدار الصمت وسط الظلام . كانوا يقولون بالحاح ، وبشكل رسمى ، « د . تل ، د . تل » . أو « ستمائة وخمسون ملليجرام كبريتات الكينين ... » كان نبضها ذاته يدق فى طبلتى أذنيها . مدت يدها

تجاه الضوء الذى يأتى من مصباح الشارع وتعجبت كم أصبحت بيضاء شاحبة .

عندما رحلت أمها ووصلت دليلة ، نهضت جينى وعادت إلى عملها . ولفترة ما ، كانت تمشى مثل كوب به سائل . حافظت على ثباتها واتزانها ، حريصة على ألا تنسكب . لكنها رأت أنها على خير ما يرام ؛ كانت على خير ما يرام حقا . كانت أمها وعزرا يقومان بزيارات قصيرة ، أو تأخذ جينى بيكى إلى بلتيمور بالقطار . كانت كل منهما ترتدى أحسن ما عندها من ثياب لهذه الرحلات ، وتجلس بلا حراك حتى لا تتكسر ملابسها . شعرت جينى أنها تطهرت ، مثل شخص استنزفته الحمى .

وفى الصيف التالى ، حين كان بإمكانها أن تقبل عروضا أكثر ربحا فى فيلادلفيا أو نيوآرك ، اختارت بلتيمور بديلا . انخرطت فى العمل مع طبيبى أطفال أكبر عمرا ، ألحقت بيكى بمدرسة حضانة ، وبعد ذلك بقليل اشترت بيتها فى صف بيوت بولتون هيل . ظلت تشعر بهشاشتها ، على الرغم من ذلك . وظلت تحرس بنيانا مائعا مرتجفا . وأحيانا كانت الضجة العالية تجعل قلبها يدق بسرعة - أمها تنطق باسمها بدون تحذير ، أو الهاتف يرن فى وقت متأخر من الليل . عند ذاك كانت تمسك بزمام نفسها . تنكر نفسها أن تتراجع ، أن تخفف قبضتها . بدا لها أن الناس الذين تعجب بهم (أحد زملائها ، وكان رجلا مضحكا ، ساخرا يدعى دان تشارلز ؛ وأخاها عزرا ؛ وجارتها ليه هيوم) كان لديهم هذا الشىء المشترك : كانوا يحدقون فى العالم من على بعد . كان يحيط بهم شىء يغشاهم - شىء من الالتواء يجعل من الصعب فهمهم . كان دان ، على سبيل المثال ، يحافظ على نوع من المزاح السهل ، الثابت حتى أنه كان لا يمكنك أبدا أن تسأله عن زوجته التى كانت دائمة الدخول

والخروج من مؤسسات عقلية . وليه : كان بإمكانها أن تسخر من إخفاق مضارباتها التجارية المجنونة التى تشبه الكثير من السقوط على العَجُز . كم بدت غير متأثرة ، كم بدت بليدة الحس ، وهى تضحك ضحكات خافتة لنفسها وتغطى فمها بيد جميلة الشكل ، لا تلقى عناية ! كانت جينى تدرسها ؛ تدون ملاحظاتها عليها ، كما يمكن القول تقريبا . كانت تتعلم كيف تشق طريقها فى الحياة على منحدر . كانت تحاول أن تفقد حدتها .

قالت أمها ، « لقد تغيرت » (وهى ذاتها شديدة الانفعال) . « لقد أصبحت مختلفة للغاية ، يا جينى . لا أستطيع أن أحدد الخطأ بالضبط ، لكن هناك شيء خاطىء » . كانت تريد أن تتزوج جينى مرة أخرى ؛ وتأمل أن يكون لها دستة من الأحفاد ، على الأقل ؛ كانت تلاحق جينى دائما حتى تخرج وتختلط ، وتشترك فى النشاط الاجتماعى ، أن تجعل نفسها أكثر جاذبية ، وتلتقى بشاب لطيف . ما لم تخبرها جينى به هو أنها ببساطة لم يكن بوسعها أن تهتم بكل ذلك . كانت تشعر أنها بلا نسيج ، حتى أن الأحداث كانت تنزلق من عليها بدون احتكاك من أى نوع ؛ وفكرة المحادثات القلبية التى تتطلبها الخطوبة تملؤها بنفاد الصبر .

ثم التقت بجو بأجنحة جيشه من الأطفال - بمنصة إطلاقه ، وخندقه ، ومتراسه من الأطفال ، وكلهم فى حاجة ملحة إلى رعايتها المفعمة بالحيوية والكفاءة . لا حديث **هناك** - فهى و جو لم يكادا يجدان لحظة يخاطبان فيها أحدهما الآخر بجدية . كانا يحاولان دائما أن يسمع كل منهما الآخر فوق صوت اللعب من الشاحنات والاكسيلوفون . بل إنها لم يكن لديها وقت للتفكير .

قال القس ، « الهدف المادى لا شيء ، بطبيعة الحال » . أجفل عند سماعه الصرخة الطويلة التى انبعثت من غرفة الانتظار . « فذلك لا يهمّ ، هو أقل اهتماماتى . على الرغم من أنه كانت له قيمة تاريخية ما . فقد كان هبة ، فيما أعتقد ، من الأخ المبشر لواحد من أبناء الأبرشية » .

استندت جينى على نافذة موظفة الاستقبال ولمست جبينها بيدها . قالت ، « حسنا ، أنا لا ... ماذا قلت إنه كان ؟ »

قال القس ، « قدم وحيد القرن فى شكل قاعدة مظلة . أو قاعدة مظلة فى شكل قدم وحيد القرن . كانت قدم وحيد قرن حقيقى من ... حيثما يأتى حيوان وحيد القرن » .

اندفع طفل عار يمشى بخطى أطفال قلقة مثل حبة فشار ضالة ، تتبعه ممرضة بإبرة تؤخذ تحت الجلد . تراجع القس إلى الخلف ليفسح لهما الطريق . قال ، « نحن نعرف أنها كانت موجودة فى الصباح . لكنها اختفت فى الساعة الرابعة . وكان سليفين هناك قبل ذلك تماما ؛ كنت قد طلبت منه أن يأتى لنتحدث حديثا من غير كلفة . غير أننى كنت أتحدث فى الهاتف حين وصل . وما أن وضعت السماعة حتى كان قد اختفى ، وكذلك قدم وحيد القرن » .

قالت جينى ، « إننى اتساءل إذا كانت أمه لها قدم وحيد القرن » .

قال القس ، « عفوا ؟ »

أدركت كيف يمكن أن يبدو هذا ، وضحكت . قالت ، « لا ، أنا لا أعنى أنها كانت لها قدم وحيد القرن ... أوه ، يا إلهى ... »

قال القس ، « د . تل ، ألا ترين أن هذا أمر خطير ؟ فلدينا طفل

فى مشكلة ، ألا ترين ذلك ؟ ألا تعتقدين أن لا بد أن نفعل شيئا ؟ أين تقفين ، يا د . تل ؟ »

تلاشت ابتسامة جينى ونظرت فى وجهه . قالت ، بعد لحظة صمت ، « لا أدرى » . شعرت فجأه أنها قد فقدت عزيزا لديها ، كما لو كان هناك شيء مفتقد ، كما لو كانت قد تخلت عن شيء . لم تكن دائما على هذه الحال ! أرادت أن تخبره . لكنها قالت بصوت مرتفع ، « كنت أعنى فقط ، هل تفهم ... أعتقد أنه يسرق ما يذكّره بأمه . مكانس كهربائية وقواعد مظلات . ألا يبدو هذا معقولا ؟ »

قال القس ، « آه » .

قالت جينى ، « وماذا بعد ذلك ، إننى أتساءل » . استغرقت فى التفكير لحظة . قالت ، « تصور هذا ! آلات بيانو فخمة . أحواض مطبخ . لماذا ، إن لدينا بيت أمه كله ، ألبومات صورها ، وحوليات مدرستها الابتدائية ، ورفيقتها فى الغرفة فى الكلية تنام فى سريرنا ، وأصدقاؤها فى المدرسة الثانوية فى غرفة معيشتنا » . تخيلت طابورا من الفتية المتأنقين من الخمسينيات ، شعرهم مبتل ومملس ، وقمصانهم مكوية بشكل حاد ، وقد حطوا على أريكتها يضعون صناديق شوكولاته على شكل قلب على ركبهم . ضحكت . أنّ القس . أزت طائرة هليكوبتر زرقاء من البلاستيك عبر غرفة الانتظار وهبطت فى شعر جينى .

[٨]

حدث هذا حقا

فى الصيف الذى بلغ فيه لوك تل الرابعة عشرة ، وقعت لأبيه حادثة خطيرة فى المصنع الذى يقوم بمعاينته . فقد دارت عارضة معدنية على سلكها الغليظ ، وأصابت والد لوك ورئيس العمال الذى يقف إلى جواره ، ودفعتهما من فوق الممشى إلى المستوى الأسفل للمصنع . لقى رئيس العمال مصرعه . وعاش كودى ، بأعجوبة ، لكنه أصيب إصابة بالغة . ظل راقدا فى غيبوبة لمدة يومين . كان هناك احتمال إصابته بتلف فى المخ ، حتى استيقظ ، وسأل بطريقته العادية ، الفظة : من المسؤول هنا بحق الجحيم .

وبعد ثلاثة أسابيع ، عاد إلى البيت بعربة الإسعاف . كان شعره الأسود الكثيف قد حلق من أحد جوانب رأسه ، حيث تغطى رقعة من الشاش أسوأ جروحه . وكان وجهه – النحيل الذى لفحته الشمس عادة – متورما عبر عظمة وجنته ويتحول إلى درجات اللون الأصفر من كدمات تتلاشى ببطء . وكانت ضلوعه مربوطة بشريط ضاغط وإحدى ذراعيه وإحدى ساقيه فى الجبس – الذراع اليمنى والساق اليسرى ، ولذا لم يكن يستطيع أن يستخدم عكازات . اضطر إلى أن يرقد فى السرير ، وهو يلعن عروض المباريات التى تعرض بالتليفزيون . « حمقى . حمير . من يظنون أنه يود أن يتفرج على هذا الهراء ؟ »

فقدت أم لوك ، التى كانت دائما مفعمة للغاية بالحيوية ، شيئا هاما بالنسبة للحادثة . أولا ، فى أيام الغيبوبة الفظيعة ، كانت تنجرف فيما حولها فى سيل من الدموع - امرأة ضئيلة الحجم ، شاحبة الوجه ، بعينين أرجوانيتين . بدا شعرها الأحمر مستنزف اللون . كان لوك يقول ، « أمى ؟ » وهى لا تسمع ، وأحيانا تختطف مفاتيح سيارتها كما لو كانت أخطأت من ناداها وتندفع إلى المستشفى مرة أخرى ، تاركة لوك وحده . حتى بعد أن انقشعت الغيبوبة ، لم يبد أنها عادت لحالتها العادية بصورة كاملة . عندما أعيد كودى إلى البيت ، ظلت تجلس إلى جوار سريره لساعات وهى لا تقول شيئا ، وتربت بخفة عرقا غليظا يمر أسفل بطن رسغه . كانت تتفرج على عروض المباريات بابتسامة مرتعشة . قال كودى باشمئزاز ، « يالله ، انظرى إليهم وهم يطلقون أصواتا عالية حادة » ، ومالت روث ووضعت خدها على يده كما لو كان قد تفوه بشىء رائع .

راح لوك يتسكع الآن حول الحافة ، وهو الذى كان مركز عالمها . كان الوقت شهر يوليو وليس لديه ما يفعله . كانوا يعيشون هنا - فى ضاحية من ضواحى بيترسبرج ، فيرجينيا - فقط منذ نهاية العام الدراسى ، ولم يكن يعرف أى صبية فى سنه . كان أطفال البناية كلهم أصغر سنا ، أصواتهم حادة ، وهم سريعو الاهتياج . وكانت أذناه تتأذيان لسماع مبارياتهم الصارخة فى دحرجة المضرب وفرقعة **بش ! بشو !** من بنادقهم الخيالية . وكان الأطفال الذين يتعلمون المشى محشورين فى أحواض استحمام مصنوعة من الفينيل المطبوع بأزهار ، والتى كانوا يقضون صباحهم يفرغونها ، وهم يعايرونها قدحا بعد قدح ، حتى تصبح كل ياردة بحرا من الوحل . لم يستطع لوك أن يتذكر أنه كان صغيرا أبدا إلى ذلك الحد . ففى حين كان يهيم فى أناقة البيت المبنى على طراز

المستعمرات بلونه الأبيض والذهبى ، كان يطفو فى مرايا متنوعة ذات أطر مذهبة : شخصا غير رشيق وغير مطلوب ، يتمايل على ساقين أطول من أن يستطيع التحكم فيهما ، وجهه أبعد ما يكون عن الجاذبية وإن كان لم يتخذ بعد أى شكل أفضل - وجه بيضاوى هش ، امتداد من الشعر الأشقر المخطط ، فم من قوسين يجعلان شفتيه تبدوان غير منتظمتين وضعيفتين . كان سرواله الجينز الأزرق الخشن يزداد قصرا للغاية لكنه ليست لديه أدنى فكرة كيف يتصرف لشراء سروال جديد . كان معتاداً أن يعتمد على أمه فى مثل هذه الأشياء . ففى الأيام الخوالى ، كانت أمه تفعل كل شىء له . كانت تثير أعصابه فى حقيقة الأمر .

كان الآن يعد إفطاره - مشروبات أو فتات القمح - وشطيرة الغداء . كانت أمه تطهى العشاء ، لكنه كان شيئا مخفوقا معا ، لا طريقتها المعتادة على الإطلاق ؛ وتترك لوك يأكل وحده فى المطبخ فى أغلب الأحيان فى حين تقتسم هى وكودى صينية فى غرفة النوم . أو يظل حديثها يدور حول كودى ، حين تمكث مع لوك . لم تسأل لوك أبدا عن نفسه ، لا ؛ كانت تقول « أبوك » هذا و « أبوك » ذاك ، لا شىء مطلقا سوى « أبوك » . وكم كان يتحمل بشكل طيب ، وكم تحمل دائما ، دائما يمكن الاعتماد عليه منذ عرفته من قديم الزمن . قالت ، « لم أكن إلا فى التاسعة عشرة حين التقيت به ، وكان هو فى الثلاثين . كنت صبية بسيطة وكان هو أكثر من رأيت وسامة على الإطلاق ، كريم الطبع ، يرتدى حلته الرمادية الرائعة . فى ذلك الوقت ، كنت مصممة كل التصميم على الزواج من عزرا ، شقيق أبيك . أراهن أنك لم تكن تعلم ذلك ، أليس كذلك ؟ أوه ، كنت أنتقل من مكان إلى مكان فى تلك الأيام ! ثم تدخل أبوك . كان صفيقا كما يمكنك أن تتخيل . لم يكن يهتم كيف يبدو الأمر ، لم تكن لديه ذرة من الخجل ، تدخل فقط وطالب بى

زوجة له . حسنا ، ظننت فى أول الأمر أنه يشاكس . كان بإمكانه الحصول على أية واحدة ، أية فتاة تروق له ، بل حتى فتاة جميلة . ثم رأيت أنه كان جادا فى الأمر . لم أدر أى وجهة أتخذ ، لأننى كنت أحب عمك عزرا حقا ، على الرغم من أنه لم يكن ... أعنى ، كان عزرا شخصا أبسط كثيرا ، أكثر شبها بى ، كما يمكنك القول . لكن أباك كان يدخل الغرفة فيبدو الأمر ، لا أدرى ، كما لو كان الهواء قد دبت فيه الحياة تماما ، بشكل ما . وضع يديه على كتفى ذات يوم وقلت له من فضلك ، إننى مخطوبة لعزرا ، فقال إنه يعرف ذلك . دنا منى فقلت حقا ، إن عزرا رجل طيب ، طيب ، وقال أجل إنه كذلك ؛ وتعانقنا مثل اثنين يتقاسمان العزاء فى وفاة عزيز لديهما ، وقلت ، « لماذا ، إنك تكاد تكون شقيق زوجى ! » فقال ، « تقريبا تماما ، أجل » ، وقبّل شفتى » .

أخفض لوك رموشه . ود لو أنها لا تتكلم عن مثل هذه الأشياء .

قالت ، « وإذا كنا قد مررنا بتقلبات الحياة ، حسنا ، فإننى أريدك فقط أن تعرف أن ذلك لم يكن خطأه ، يالوك . أنظر إلىّ ! لست إلا فتاة ريفية من الغابات الخلفية لمقاطعة جاريت ، لم أكد أتلقى تعليما . ولست سهلة المعشر ، أيضا . لست متساهلة . لا يجب أن تلومه . لماذا ، ذات مرة – أوه ، كنت أنت فى مدرسة الحضانة ، وأراهن أنك لا تتذكر هذا – لففتك وحملتك وتركته . أخبرته أنه لا يحبنى ولم يحبنى أبدا ، وأنه تزوجنى فقط نكاية فى أخيه ، عزرا ، الذى كان يغار منه دائما . اتهمته بأشياء فظيعة ؛ فظيعة تماما ، ثم بينما كان فى عمله حملتك إلى محطة السكة الحديد و ... يبدو هذا الآن وأنا أقصه عليك مضحكا ، لكنه لم يكن حينذاك : بينما كنا ننتظر على المقعد الخشبى الطويل تقيأ بحار فى محفظتى . وحان وقت ركوب القطار ولم يكن بوسعى أن أضع أصابعى بداخلها وأخرج التذكرتين ، على فرض أنهما مازالتا صالحتين

للاستعمال ؛ ولم يكن بوسعى أن أحتمل أن أمد أصابعى بداخلها لأشترى تذاكر أخرى ، أيضا . ولذا اتصلت بأبيك هاتفيا ، واستنجدت به قائلة ، « كودى ، تعال وخذنى ؛ فليس هذا حقا ما أريد أن أفعله » . قلت ، « أوه ، يا كودى ، لقد امتزجنا إلى هذا الحد ؛ حتى لو كنت لا تحبنى على الإطلاق ، نحن الآن ممتزجان . أنت من أريد البقاء معه » . فترك العمل وقاد سيارته ليقلنى ، وهو ثابت وواثق من نفسه فى حلته الرمادية الرائعة ، لا شبيه له فى العالم » . قالت له ، « ألا تذكر ذلك ؟ لقد نسيت كل شىء يتعلق به : أحسب أن ذلك أفضل . لوك ، عندما تفقد شخصا ، يصبح كل شىء واضحا ! ترى كم يهمك ، كم لا يوجد واحد يشبهه أقل شبه ؛ أنه لا يوجد من يحل محله . كم يضعنا فى المقام الأول دائما ؛ أعنى أنه لم ينسنا أنا وأنت أبدا ، طوال عمره ، حين يسافر للعمل ، لكنه يحملنا معه إلى كل مدينة جديدة يستدعى إليها لأنه لا يود أن يفعل ما فعله أبوه ، كما يقول : أن يرتحل من مكان لمكان ناسيا أقاربه ذاتهم . ليس صحيحا أنه يصحبنا معه لأنه لا يثق بى . إنه يعنى حقا بسعادتنا » . قالت ، « عندما أفكر الآن فى أبيك وهو يقبلنى فى تلك المرة الأولى - قال ، « تقريبا جدا ، أجل . أجل ، تقريبا تماما شقيق زوجك » ، وقبلنى بهدوء شديد لكنه محدد ، مصرا ، كما لو كان لن يقبل الرفض - لماذا ، أرى الآن أن حياتى بدأت فى تلك اللحظة ! لكن فى ذلك الوقت لم تكن لدى أدنى فكرة ، لم أدرك الأهمية . لم أدر آنذاك أن شخصا واحدا يمكنه أن يكون له مثل هذا التأثير على شخص آخر » .

ولكن حتى لو كانت تغيرت ، (بل حتى لو كان لوك تغير ، وتحول إلى شخص شفاف ، كما تخيل) ، إلا أن كودى ظل نفس الشىء تماما . ففى نهاية الأمر ، لم يعان كودى توتر تلك الغيبوبة ؛ كان غائبا

عنها . لم يقلقه أنه سيموت ، ما أن أفاق ، لأنه ما كان ليخطر له أنه ذلك **النمط** الذى يموت . لقد أبحر خلال التجربة بأكملها بتركيبه المعتاد من اللامبالاة والنزعة القتالية ، وكان يرقد الآن يتقلب على سريره متسائلا متى يمكنه أن ينهض ثانية . قال للوك ، « أنا أساسا مجنون . لقد تركنى هذا الأمر اللعين بأكمله مجنونا كالجحيم . شعرت بتلك العارضة تضربنى ، تعرف ؟ شعرت حقا بها تضربنى ، وكانت مؤلمة ، وطوال الوقت الذى كنت أطير فيه فى الهواء كنت أريد أن أرد الضربة ، أن ألكم أحدا ؛ ويبدو الآن أننى ما زلت أنتظر الفرصة . متى أسوى حسابى ؟ ولا تكلمنى عن القضايا ، والتعويض . الشىء الوحيد الذى أريد أن أفعله هو أن أرد الضربة لتلك العارضة » .

قال لوك ، « تقول أمى هل تريد بعض الحساء ؟ » وهو يمسح كفيه بعصبية أسفل فخذيه .

ــ « لا ، لا أريد بعض الحساء . لماذا تريد دائما تغذيتى ؟ أنصت إلىّ ، يا لوك . إذا اتصلت جدتك مرة ثانية اليوم ، أريدك أن تقول لها إننى قد عدت إلى العمل » .

ــ « إلى العمل ؟ »

ــ « لم أعد أستطيع أن أحتملها وهى تقلق على الهاتف » .

قال لوك ، « ولكنك كنت تخبرها طوال الوقت أنك مريض إلى درجة لا تحتمل ضيوفا . بالأمس كنت مريضا للغاية واليوم عدت الى العمل ؟ ماذا سوف تظن ؟ »

قال كودى ، « ما تظنه لا يعنى شيئا بالنسبة لى » . لم يبد أبدا مغرما بالجدة تل ، التى كانت تتصل هاتفيا من بلتيمور كل يوم منذ الحادث . كان لوك مسرورا بها . بالقليل الذى يعرفه عنها ، لكن كودى

قال إن المظهر خدّاع . قال للوك ، « إنها تبدى مظهرا طيبا . أنت لا تعرفها على حقيقتها . لا تعرف كم عانينا ونحن نشب فى كنف امرأة مثلها » .

شعر لوك أنه يعرف (ألم يسمع ذلك مليون مرة ؟) لكن أباه قد بدأ الآن ولن يوقفه شيء . قال ، « دعنى أضرب لك مثلا . أصغ ، الآن . حدث هذا حقا » . كانت تلك هى الطريقة التى يقدم بها طفولته دائما . كان ليقول ، « حدث هذا حقا » ، كما لو كان شيئا لا يخطر على بال أحد ، يستحيل تصديقه ، لكن ما يتلو ذلك لا يبدو للوك مطلقا بشعا إلى هذا الحد . « أقسم على هذا : كانت لجدتك هذه الصديقة التى تدعى إيمالين لم ترها سنوات طويلة . الصديقة الوحيدة التى كانت تذكرها أبدا . وكانت إيمالين تعيش فى ... نسيت . على أية حال ، فى مكان ما بعيد . ولذا فإننى فى أحد أعياد الميلاد ادخرت المال اللازم لشراء تذكرة حافلة إلى حيثما كانت إيمالين تعيش . كدحت واقترضت وسرقت المال ، وقدمت لأمى التذكرة صباح عيد الميلاد . كنت فى السابعة عشرة فى ذلك الوقت ، كبيرا بما يكفى لأن أرعى الآخرين ، وقلت ، « ترحلين غدا ، وتمكثين أسبوعا ، وسوف أسهر على متابعة الأمور حتى تعودى » . وهل تعرف ماذا قالت ؟ أنصت ؛ لن تصدق هذا . قالت ، « لكن كودى ، يا حبيبى ، إن بعد الغد هو عيد ميلاد أخيك » . »

ألقى نظرة فاحصة على وجه لوك . انتظر لوك أن يواصل حديثه .

قال كودى ، « فهمت ، كان عيد ميلاد عزرا فى السابع والعشرين من ديسمبر » .

سأله لوك ، « إذن ؟ »

ـــ « ولذا ما كانت لتترك ولدها الغالى فى عيد ميلاده ! ولا حتى

لتزور أعز وأغلى صديقة وحيدة لها ، التى أعطاها ابنها الآخر تذكرة من أجل أن تزورها » .

قال لوك ، « ما كنت لأحب أنا أيضا أن تتركنى أمى فى عيد ميلادى » .

ـــ « لا ، لا ، لقد فاتك المغزى من وراء هذا . ما كانت لتترك عزرا ، ابنها الأثير . كانت لتتركنى أو تترك أختى بالتأكيد » .

سأله لوك ، « كيف تعرف ذلك ؟ هل حاولت أبدا أن تعطيها تذكرة فى عيد ميلادك **أنت** ؟ أراهن أنها كانت ستقول نفس الشيء » .

قال كودى ، « إن عيد ميلادى فى فبراير . ليس قريبا بحال من الأحوال من أية مناسبة لتقديم هدية . أوه ، لا أدرى لم أهتم بالحديث معك . أنت طفل وحيد ، تلك مشكلتك . ليست لديك أدنى فكرة عما أحاول توصيله إليك » ، أدار وسادته ومال إلى الخلف بتنهيدة .

خرج لوك إلى الفناء وقذف كرة البيسبول باتجاه الجاراج . ارتطمت وارتدت ، وهى تتلألأ فى ضوء الشمس . كانت أمه تتدرب معه على قذفها فى الأيام الخوالى . كانت قد علمته أن يقذف الكرة بالمضرب وأن يقذفها ويده إلى أعلى ، أيضا . كانت جيدة فى الألعاب الرياضية . رأى فيها لمحات ، أحيانا ، من الفتاة المسترجلة الطائشة الصغيرة التى لا بد أنها كانت عليها . ولكن كان الأمر يبدو دائما ، حين يلعبان الكرة معا ، أن هذا ليس إلا استعدادا للمباراة **الحقيقية** ، مع أبيه . كان أشبه بالدراسة على عجل استعدادا للامتحان . ثم كان أبوه يعود إلى البيت فى عطلات نهاية الأسبوع ويقذف الكرة إليه ويقول ، « لا بأس . لا بأس أبدا » ، بينما كان لوك يطيح بالكرة خارج الفناء . فى هذه اللحظات كان لوك واعيا بإضافة مشية اختيال الى مشيته ، أرجحة معينة

لكتفيه . تخيل أنه يصبح أكثر شبها بأبيه . وبينما هو يمشى الهوينى داخلا المنزل بعد التدريب ، كان يمر بسيارة أبيه فى مكان انتظارها ويسأل ، « هل ما زالت تزيد زيادة طيبة فى عدد الأميال التى تقطعها ؟ » وكان يقف أمام باب الثلاجة المفتوح ويجزع شايا مثلجا من الإبريق مباشرة - وهو شىء تمقته أمه . أوه ، حان الوقت الذى يلقى فيه بأمه وراء ظهره - بعد كل تلك السنوات التى كان يتبعها فيها خلال البيت ، واقعا فى شراك روتينها ، وهو يجر مكنسته اللعبة خلف مكنستها الكبيرة ، أو يستند بكلتا مرفقيه على طاولة زينتها يتفرج ، منتشيا ، وهى تذر المسحوق على أنفها المنمش . ياللروتين اليومى فى حياة النساء ! عرف كل ما يهمه أن يعرفه عنها . أرهقته تفاهات قياس رقائق الصابون ، وانتظار السمكرى . حان الوقت أن ينتقل إلى جانب أبيه . لكن أباه كان يرقد على ظهره فى غرفة النوم ، يلعن بشكل ثابت ، « ما خطب هذا التليفزيون بحق الجحيم ؟ لماذا أزعج نفسى بشراء جهاز سونى إذا لم يكن هناك من يصلحه ؟ »

انساب صوت روث الناعم ، الغض ، « سوف أعثر على رجل يصلحه اليوم » .

كانت روث ترتدى الفساتين طوال الوقت الان لأن كودى قال إنه سئم حللها ذات السراويل . قال ، « حلل أبدية من البوليستر » ، وكان صحيحا أنها لا تبدو أنيقة مثل بقية النساء ، على الرغم من أن لوك لم يكن واثقا إلى هذا الحد أن الحلل يقع عليها اللوم . فحتى بعد أن تحولت إلى الفساتين ، كان شىء ما يبدو خطأ . كانت الفساتين أكبر من اللازم ، أو مظهرها الخارجى أكثر صلابة من اللازم ، أو لامعة أكثر من اللازم ؛ قال لوك لنفسه إنها تبدو أكثر شبها بالبيوت منها بالثياب . سألت أباه قائلة ، « هل هذا أفضل ؟ » ووقفت مفعمة بالأمل فى مدخل

الباب ، مسطحة على حذائها الخفيف الرخيص لأنهم فى مقاطعة جاريت ، كما قالت ، لم يعلموها مطلقا المشى بأحذية ذات كعوب عالية . فى تلك اللحظة كان كودى قد شفى من حالته المزاجية . قال ، « بالتأكيد ، يا حبيبتى . بالتأكيد . إنه على ما يرام » . لم يكن دائما شيطانى المزاج . كان ذلك نتيجة التوتر الناشىء عن رقاده بلا حراك . نتيجة الانزعاج الدائم . وقد بذل مجهودا بالفعل . لكنه بعدئذ ، فى أقل من ساعتين بعد ذلك : « روث ، هل تفسرين لى لم أضطر إلى العيش فى مكانٍ يبدو كأنه طبق من الحلوى ؟ هل من الضرورى أن أستأجر بيتا كل شىء فيه أبيض وذهبى ولولبيا فى تزيينه ؟ هل تفكرين فى ذلك على أنه فصل مدرسى ؟ »

كانت طبيعة وظيفة كودى تقتضى أن يعمل وحده . وما أن ينتهى من تحقيق انسيابية إنتاج أى مصنع استدعاه حتى يرتحل . كان شريكه ، وهو رجل يدعى سلون ، يعيش فى نيويورك وقد اخترع أجهزة قرر كودى حاجته إليها – رفوفا للفرز ، أدوات مساعدة يمكن طيها ، أدوات يدوية مفردة تقوم بمهمة عدة آلات . وبالتالى ، لم يكن هناك زملاء عمل ليقوموا بزيارة كودى ، إلا إذا حسبت تلك الزيارة الوحيدة المثيرة للأعصاب التى قام بها صاحب المصنع الذى وقعت له فيه الحادثة . ولم يكونوا يعرفون أيا من الجيران . كانوا بمفردهم ، مجرد ثلاثتهم . ربما كانوا منبوذين . فلا عجب أن تصرف كودى بهذا النزق . كان الوقت الوحيد الذى يخرج فيه لوك وأمه مرة واحدة فى الأسبوع ، عندما يذهبان لشراء البقالة . عندما كانت روث تخرج سيارتها المرسيدس البيضاء من الجاراج وهى ترجع بها إلى الوراء ، تجلس منتصبة القامة ويقظة ، ولا تنظر إلى الخلف ، وهى قلقة على كودى سلفا . « ربما كان يجب أن أجعلك تبقى . فلو احتاج أن يذهب إلى الحمام – »

قال لوك من خلال أسنانه ، « يستطيع أن يكون طيبا **وينتظر** » .

ـــ « لماذا ، يا لوك ! »

ـــ « دعيه يبول فى السرير » .

ـــ « لوك تل ! »

حدق لوك من النافذة .

قالت أمه ، « لقد كان ذلك عصيبا بالنسبة لك . يجب أن نجد لك بعض الأصدقاء » .

ـــ « لست بحاجة إلى أصدقاء » .

قالت ، « كل واحد يحتاج إلى أصدقاء . ليس لنا صديق واحد فى هذه البلدة . أشعر كما لو كانت أجف . أحيانا أتساءل إذا كانت هذه هى الحياة حقا ... » لكنها لم تزد .

عندما عادا ، كان كودى لطيفا ومبتهجا ، كما لو كان قد اتخذ قرارات فى غيابهما . أو ربما أنعشته الوحدة . قال لروث ، « تحدثت مع سلون . اتصل بى من نيويورك . قلت له ، ما أن أنزع هذه الجبيرة فسوف أتم عملى فى المصنع وأنصرف . لا أستطيع أن أحتمل هذا المكان أكثر من هذا » .

ـــ « أوه ، حسنا ، يا كودى ، يا حبيبى » .

ـــ « أحضرى لى حافظة أوراقى ، من فضلك ؟ أريد أن أدون بعض الأفكار . هناك الكثير الذى يمكننى أن أقوم به فى السرير » .

ـــ « انتقيت بعضا من حبات الكمثرى التى تحبها » .

ـــ « لا ، لا ، مجرد حافظة أوراقى ، وذلك القلم من على المكتب

في حجرة مكتبى . سوف أرى إذا كانت أصابعى أهلا للكتابة بعد » .

قال للوك ، « العمل هو ما أنا بحاجة إليه . لقد جعت إلى العمل . وقد جعلنى هذا حادا بعض الشيء » .

حك لوك قفصه الصدرى . قال ، « لا بأس » .

ـــ « تأكد من أن تحصل على عمل تستمتع به ، عندما تكبر . لا بد من أن تستمتع بما تفعله . ذلك أمر مهم » .

ـــ « أعرف » .

قال كودى ، « بالنسبة لى ، فأنا أتعامل مع الزمن » ، تقبل قلما جافا من روث . « الزمن هو الشيء الأثير لدى عن كل شيء آخر » .

كان لوك يحب أن يتكلم أبوه عن الزمن .

ـــ « الزمن هوالفكرة التى تستحوذ علّى ؛ ألا أبدده ، ألا أضيعه . إنه أشبه ... لا أدرى ، بشيء له قوام ، بالنسبة لى ؛ شيء يمكنك أن تمسك به تقريبا . أفكر دائما فيما لو كان بوسعى أن أجمع ما يكفى منه فى كتلة واحدة . لو كان بوسعى أن أحركه إلى الأمام وإلى الخلف وإلى الجانبين ، تعرف ؟ لو أن أينشتاين كان على حق ، وكان الزمن نوعا من النهر يمكنك أن تختار أن تخطو بداخله عند أى مكان على طول الشاطيء » .

طقطق سن القلم دخولا وخروجا ، وهو يعبس فى الفضاء . قال ، « لو أنهم كانت لديهم آلة للزمن ، لرحلت عليها ، وما كان ليهم كثيرا إلى أين تأخذنى . الماضى أو المستقبل : مجرد أن تحملنى خارج زمنى . مجرد مكان آخر ما » .

أحس لوك بغصة . قال ، « لكنك عندئذ ما كنت لتعرفنى » .

— « همم ؟ »

قالت روث بحيوية ، « من المؤكد أنه كان ليعرفك » ، كانت تفتح أقفال حقيبة أوراق كودى . « كان ليأخذك معه » . وقالت لكودى ، « وليكن فى علمك ، إذا ذهب لوك أيضا فعليك أن تحضر بنسيلين ، وحبوب حمى القش ، ومعجون أسنانه بالفلورايد ، هل تسمع ؟ »

ضحك كودى ، لكنه لم يقل شيئا بطريقة أو بأخرى عن أخذ لوك معه .

* * *

كان ذاك هو المساء الذى واتت فيه كودى هذه الفكرة الغريبة لأول مرة . خطرت له فجأة : كانوا يلعبون لعبة « بنك السعادة » على سرير كودى ، ثلاثتهم ، وكان كودى يكسب كعادته ويعرض على لوك قرضا ليستمر فى اللعب . قال لوك ، « أوه ، حسنا ، لا ، أظن أننى خسرت » .

حدثت أقصر لحظة صمت – نبضة أفلتها القلب . ألقى كودى نظرة فاحصة على روث ، التى كانت تعد بطاقات حجج ملكيتها .

قال لها ، « إنه يبدو مثل عزرا » .

عبست للبطاقة التى جاءتها فى اللعبة تحمل اسم شارع البلطيق .

— « هل سمعت ما قاله ؟ قاله مثل عزرا تماما » .

— « حقا ؟ »

قال كودى للوك ، « إن عزرا ليفعل هذا . عمك عزرا . لم تكن هناك متعة فى التغلب عليه . ما كان ليقبل قرضا وما كان ليرهن أقل

شيء ، ولا حتى شريط سكة حديدية أو محطة المياه . كان يتقوض تماما ويقر بعجزه » .

قال لوك ، « حسنا ، إن الأمر فقط هو ... إنك تستطيع أن ترى أننى خسرت . إنها مسألة وقت » .

ــــ « أحيانا يبدو لى أن من المحتمل أن تكون ابن عزرا ، لا ابنى » .

قالت روث ، « كودى تل ! يالها من فكرة » .

لكن سبق السيف العذل . تعلقت الكلمات فى الهواء . شعر لوك بالتعاسة ؛ لقد نال كل ما يمكنه أن يناله فى نهاية اللعبة . (كان يعرف أن أباه لا يقدر عزرا حق قدره) . وعلى الرغم من أن كودى كف عن الكلام فى الموضوع ، إلا أنه ظل مستاء بشكل ما . ظل يقول للوك ، « اجلس وقامتك أكثر اعتدالا . لا تنحن . اجلس معتدل القامة . يا الله . إنك تبدو مثل أرنب » .

تمنى لوك له ليلة طيبة ، حالما أمكنه ذلك ، وانصرف إلى فراشه .

فى صباح اليوم التالى ، عادت المياه إلى مجاريها مرة أخرى . قام كودى بأداء بعض العمل على أوراقه وتلقى مكالمة أخرى من سلون . طهت روث دجاجة لعشاء صيفى بارد لطيف . وفى كل مرة بدا فيها لوك شارد الذهن ، كان كودى يقول له شيئا بهيجا ، كان ليسأله ، « لماذا تبدو حزينا ؟ » أو ، « هل تشعر بملل ، يا بنى ؟ » بدا شيئا غريبا أن يدعو لوك « ابنى » ، فلم يكن كودى يفعل ذلك عادة .

تناول الجميع عشاءهم فى غرفة النوم – شطائر وسلطة بطاطس ، كأنهم فى نزهة . شرع الهاتف يرن ، وهو مختف بين الملاءات ، فى

منتصف الوجبة ، وطلب كودى منهما ألا يردا . قال ، لا بد أنها أمه . ظلوا صامتين تماما ، كما لو كان بوسع من يتصل أن يسمعهم بطريقة ما . وبعد أن توقف الرنين قالت روث ، على الرغم من ذلك ، « تلك المرأة المسكينة ، المسكينة » .

صاح كودى مغضبا ، « مسكينة ! »

ـــ « ألسنا بشعين ؟ »

ـــ « ما كنت لتسميها مسكينة لو أنك عرفتها معرفة أفضل » .

عاد لوك إلى غرفته وراح يفرز نسخ طائراته القديمة . تبعته أصوات والديه . كان كودى يقول لروث ، « انصتى . حدث هذا حقا . فمن أجل عيد ميلاد أمى ادخرت كل نقودى ، أربعة عشر دولارا ، ولم يكن لدى عزرا بنس ، تعرفين ... »

راح لوك ينبش فى خزانته الخشبية ، قطعة الأثاث الوحيدة التى تخصه حقا . فقد صاحبت كل تنقلاتهم منذ لم يكن يستطيع أن يتذكر شيئا . كان يبحث عن جناح طائرة نفاثة مفقود . لم يجد الجناح لكنه وجد حقيبة جلدية بها بلى - النوع الذى كان يحبه ، ذو فقاعات رشت برذاذ كأن بداخلها مياه الجنزبيل الغازية . ومقلاعا صنع من شريط من أنبوب إطار داخلى . وصفارة - صفارة بلاستيك سوداء يعلوها الغبار كان قد عزف عليها ، بمناسبة عيد الأم فى صفه الأول فى المدرسة الابتدائية ، « الأجراس المرجانية البيضاء » مع رفاقه فى الفصل . جربها الآن : **أجراس مرجانية بيضاء ، على ساق نبات نحيل** ... عادت إليه ، نغمة نغمة . نهض وذهب إلى غرفة أبويه ليعزفها الى نهايتها . **زنابق الوادى تزيننى** .

قال أبوه ، « لا أستطيع أن أحتمل هذا » .

أخفض لوك الصفارة .

سأله كودى ، « هل تفعل هذا عن عمد ؟ هل أنت مصمم على تعذيبى ؟ »

ـــ « هه ؟ »

قالت ، « كودى ، يا حبيبى ... »

ـــ « أنت تطاردنى ، أليس كذلك ؟ لا أستطيع أن أهرب منه ! أقضى نصف عمرى مع عزرا الطيب اللطيف وصفارته الخشبية الملعونة ؛ وانجح فى الفرار فى النهاية ، والآن انظر : ها نحن مرة ثانية . إنها أشبه بمؤامرة ! أشبه بمؤامرة ما قرر شخص ما بمقتضاها ، قبل أن أولد بوقت طويل ، أن أعيش أيامى محاطا بناس ... ألطف منى ، ألطف مني بشكل فطرى تماما دون حتى أن يحاولوا ، ناس يفضلهم الناس الآخرون ؛ وحيثما أذهب يوجد شىء ، مجرد تلك الابتسامة المتسامحة اللعينة أو أغنية شعبية مخبولة تشرد من نافذة ـ » .

قالت روث ، « كودى ، سوف يظن لوك أنك فقدت عقلك » .

قال لها كودى ، « وأنت ! انظرى إلى نفسك ! آه ، ياالله . بعض الناس يتلاءمون معا إلى الأبد ، أليس كذلك ؟ ولا أمل لديك فى السماء أن تنتزعيهم من أحدهم الآخر . وسواء تزوجت أم لم تتزوجى ، فقد كنت دائما تحبين عزرا أكثر منى » .

ـــ « كودى ، عم تتكلم ؟ »

قال كودى ، « أقرى بهذا . أليس عزرا أبو لوك الحقيقى ؟ »

خيم صمت .

قالت له روث ، « أنت لم تقل ذلك . لا يمكن أن تكون قلته » .

ـــ « أقرى ! »

ـــ « أنت تعلم أنك لا تصدق شيئا كهذا بشكل جدى » .

ـــ « أليست هذه هى الحقيقة ؟ أخبرينى ! لن أغضب ، أعدك » .

عاد لوك إلى غرفته وأغلق الباب .

رقد فى سريره طوال عصر ذلك اليوم ، وهو يعيد قراءة كتاب عن الخيل من أيام طفولته لأنه لم يكن لديه شيء آخر يفعله . بدت له القصة الآن سخيفة ، على الرغم من أنه قد أحبها ذات يوم . عندما دعته أمه إلى العشاء ، خطا إلى داخل المطبخ بشكل ثابت جدا . كان سيرفض ، كلية ، أن يأكل فى غرفة النوم مع كودى بعد الآن . لكن أمه كانت قد أعدت سلفا مكانين على طاولة المطبخ . جلست قبالته وهو يأكل ، وهى لا تأكل كثيرا . راح لوك يدفع أطعمة باردة متنوعة فى فمه ورفض أن تلتقى عيناه بعينيها . كانت الحقيقة أنها غبية . لم يدر متى رأى مثل هذه المرأة الضعيفة الغبية .

عاد إلى غرفته بعد العشاء ، واستمع إلى برنامج اذاعى كان الناس فيه يتصلون هاتفيا بمضيف متعب الصوت ويدلون بآرائهم . كانوا يناقشون سائقين مخمورين وزوجات تعرضن للضرب . حل الظلام ، لكن لوك لم يشعل الضوء . نقرت أمه الباب بتردد ، توقفت وانصرفت .

ثم لا بد أنه أخذته سِنة من النوم . عندما استيقظ كان الظلام دامسا أكثر من ذى قبل ، ورقبته متصلبة ، وامرأة تقول من الراديو ، « الآن ، أنا لا أنكر أننى وقّعت الأوراق لكن ذلك بسبب كلامه الذلق الخداع ،

هو فقط الذى أقنعنى بذلك . يقول لى ، « فقط وقعى باسم جون دو هنا » ... » ،

قال المضيف بسأم ، « أظن أنك تعنين جون هانكوك » .

قالت المرأة ، « أيا كان » .

ثم جاء خلف هذه الأصوات دمدمة كودى وإجابات روث الشاحبة ، تهمهم من خلال الجدار . غطى لوك رأسه بوسادته .

حاول أن يتذكر عمه عزرا . كانت سنوات عديدة قد انقضت منذ أن التقيا . وحتى تلك الزيارة كانت زيارة قصيرة ، بعد أن حملهما أبوه معه فى نوبة غضب قبل أن يستقر بهم المقام . كان العثور على عزرا شيئا أشبه بالتنقيب فى تلك الخزانة الخشبية ؛ كان عليه أن ينقب خلال ذكريات أخرى كثيرة ، فتتعاقب ذكريات أكثر مع ما كان يبحث عنه . شم رائحة شرائح الخبز المحترقة فى مطبخ أمه وتذكر غرفة نوم عزرا ، التى كانت يوما ما غرفة عزرا وكودى معا ، حيث بقيت كنوز الصبا (مسند كتب له شكل كرة القدم ، عصا هوكى مقشرة) فى أماكنها زمنا طويلا إلى درجة أنها كانت ، بالنسبة لعزرا ، خفية . كان عزرا يبدو مندهشا لرؤية أى شىء يلفت انتباه لوك . كان يسأله ، « أوه ، هل تود أن تحتفظ بتلك ؟ » ، وحين يرفض لوك بأدب لأنه لا يريد أن يبدو طماعا ، يقول عزرا ، « من فضلك . ليس بوسعى أن أفكر فيما تزال تفعله هنا » . كانت غرفته واسعة – على نسق العنابر ، تشغل الطابق الثالث كله – لكن رائحتها الخانقة المنبعثة من الملاءات المستعملة والملابس التى لبست مرتين جعلتها تبدو أصغر . تذكر لوك أنه كان هناك قفل داخل باب الحمام فى الطابق السفلى ، يبدو تماما مثل بندقة شجر البلاذُر الصغيرة ، والحمام نفسه له سقف مرتفع تتردد فيه

الأصداء ، عتيق ، ذو أرضية باردة ، بمقبض من الصينى فى حوض الاغتسال يحمل كلمة « نفاية » .

حاول أن يتخيل أبناء عمومته – أبناء العمة جينى – لكن تراءت له فقط غرفة أخرى : غرفة نوم ابنة عمته بيكى المشوشة ، بحشدها من الحيوانات المحشوة الرثة تحيط بسريرها . وكان قد تساءل ، كيف يمكنها النوم ؟ لكنها أخبرته أنها لا تجد مشقة فى النوم مطلقا ؛ وقالت إنها حيثما ترحل لقضاء الليل ، فإنها تحمل معها المجموعة بأكملها فى حقيبة قماشية هائلة الحجم وأول ما تفعله هو أن توزعها حول السرير الجديد ، حتى قبل أن تخرج ثوب نومها ؛ ومعظم أصدقائها يفعلون نفس الشىء . كانت أولى أفكار لوك المبهمة أن الفتيات مختلفات . تحير وفتن ، وعاملها بشكل حامٍ بقية زيارته القصيرة – على الرغم من أنها كانت أكبر منه بسنة وأطول منه قامة بنصف رأس .

لو كان عزرا أباه حقا ، قال لوك لنفسه ، إذن لاستطاع لوك أن يعيش فى بلتيمور حيث كانت البيوت معتمة وعميقة وغامضة . ولسوف يحيط به الأقارب – جدة محبة ، والعمة جينى الغريبة وتلك المجموعات من أبناء العمة . ولسوف يدعه عزرا يساعده فى مطعمه . ولسوف يتكلم عن الطعام ، وعن حاجة الناس إلى اطعامهم بعناية ؛ وكان بوسع لوك أن يسمع طريقته المتمهلة فى الكلام . أجل ، الآن واتته : واتته الذكرى . كان عزرا يرتدى قميصا صوفيا ناعما من نسيج مربع النقش ، غام فى ذاكرته . كان شعره أصفر ... لماذا ! كان من نوع صفرة شعر لوك ، مخططا وذا طبقات . وعيناه من لون عينى لوك الرماديتين ، أخف بدرجة كاملة من لون عينى كودى ، وبشرته لها نفس الظل الذهبى لذى يجعلها تمتزج مع شعره دون خط فاصل تقريبا .

سمح لوك لنفسه أن يعتقد فى لحظة لا يمكن تخيلها بين روث

وعزرا ، منذ أربعة عشر عاما . وطفر عبرها بسرعة إلى حين يصل عزرا ليطالب به . « أنت الآن كبير بما يكفى لأن نخبرك ، يا بنى ... »

وبينما راح ينسج هذا المشهد فى الظلام ، ويعود أدراجه ليصحح نغمة زائفة أو ينطلق قدما إلى بداية طيبة ، نسى لوك نفسه وأزال الوسادة من على رأسه . وفى الحال ، سمع صوت كودى خلف الحائط . « على الدوام ، كل ما كنت أريده ، يحصل عليه عزرا : أى شىء أردته فى الحياة . حتى الأشياء التى كنت أظن أننى فزت بها ، آلت إلى عزرا فى النهاية . ولم يبد عليه حتى أنه يسعى لهذا ؛ هذه هى اللعنة » .

صاح لوك ، « ربحت مباريات « بنك السعادة » اللعينة ، أليس كذلك ؟ »

لم يقل كودى شيئا .

فى صباح اليوم التالى ، بدا كودى هادئا بشكل غير عادى . اصطحبته روث إلى الطبيب ليضع له جبيرة المشى - وهى لحظة طال انتظارهم لها ، لكن كودى لم يبد اهتماما الآن . كان على لوك أن يذهب معهما ليستخدم مثل عكاز . أجفل حين وضع كودى جبيرة ذراعه حول كتفيه فى أول الأمر ؛ شعر أن هناك خطرا ما يحوم حوله . لكن كودى كان هامدا ، يئن وهو يمشى ، ويفكر بكل وضوح فى أمور أخرى . رفع نفسه إلى داخل السيارة وحدق باكتئاب أمامه . وفى حين راح لوك وأمه يقرآن مجلات ، فى غرفة انتظار الطبيب ، جلس كودى جامد الوجه . وبعد أن وضع جبيرة المشى ، راح يعرج فى طريق عودته إلى السيارة دون معاونة ، متجاهلا عرض لوك لمساعدته . ارتمى على السرير ما أن وصلوا إلى البيت ، ورقد وهو يحدق فى السقف . قالت له روث ،

« كودى ، حبيبى ؟ تتذكر أن الطبيب قال أن تقوم بإجراء بعض التمرينات لهذه الساق » .

لم يجب .

خرج لوك إلى الفناء وراح يركل العشب بعض الوقت كما لو كان يفتش عن شيء . من البيت المجاور حدقت فيه مجموعة من الأطفال الدارجين وهم فى حوض استحمام . أراد أن يصرخ ، « أديروا رءوسكم ! كفوا عن النظر إلىّ ؛ ليس هذا شأنكم » . ولكن بدلا من ذلك كان هو من استدار ، هائما على وجهه من الفناء إلى الشارع . أحواض استحمام أكثر ؛ مزيد من نظرات ناقدة فى عيون مفتوحة على اتساعها . راح كلب سمين قصير الأرجل فخيم الهيئة يعدو بنشاط على طول الرصيف ، تتبعه سيدة ترتدى عباءة فضفاضة . صاحت ، « تولوز ! تولوز ! » كانت الحرارة تنبض ، وتكاد تتنفس . كست وجه لوك طبقة رقيقة من العرق والتصقت صدرته الخارجية بظهره . ظل يمسح شفته العليا . اجتاز صفوفا من بيوت المستعمرات البريطانية القديمة تشبه بيته ، كل واحد منها يحمل شيئا له هيئة قطعة أثرية فى نافذة غرفة المعيشة : مصباح بصلى الشكل ، حصان من الصينى ، زهرية بها زهور المخملية ذات رقاب متصلبة . (ماذا كانت تحمل نافذته هو ؟ لم يستطع أن يتذكر . أراد أن يقول شجرة تين باكية ، لكن ذلك كان فى شقة استأجروها قبل شقتهم الحالية بثلاث أو أربع مدن فى الماضى) . كانت رشاشات المياه تدور بتكاسل . وكان من بواعث الارتياح أن يتوقف ، من آن لآخر ، ويراقب مرجة منقوعة فى قطرات الماء المتلألئة .

والآن جاءت إلى هنا سيدة نشيطة معها طفلها فى عربة أطفال ، وحولها من كل جانب أطفال صغار . عبر الشارع ليتجنبهم ،

ودار يمنة ، ووصل إلى شارع « بوف آفنيو » بحركة مروره التى تئز ، وصيدلياته ، ومكاتبه العقارية ولافتاته ومحطات البنزين . انتظر عند أحد التقاطعات ، وهو يمعن التفكير فى أين يذهب بعد ذلك . كان أحد الأشياء التى تحيط بالانتقال كثيرا إلى هذا الحد ، هو أنه لم يكن يعرف أبدا أين كان . اعتقد أن حاسة الاتجاه عنده قد ثلم حدها . ولم يكن بوسعه أن يفهم كيف يحمل بعض الناس نوعا من الخرائط التفصيلية الداخلية للمدينة التى يعيشون فيها .

أزت بجانبه حافلة تابعة لشركة « تريل وايز » وهى تحمل كلمة « بلتيمور » . تخيل أن يناديها . (هل يمكنك النداء على حافلة تابعة لشركة « تريل وايز » ؟) تخيل ركوبها – على فرض أنه يحمل نقودا ، وهو ما لم يفعله – والانطلاق إلى بلتيمور ، والوصول إلى مطعم عزرا ودخوله متمهلا . « ها أنذا » . وكان عزرا ليقول ، « ها أنت ذا » . لو أنه فقط أحضر نقوده ! مرت حافلة أخرى ، لكنها كانت حافلة محلية . ثم توقفت شاحنة عملاقة ، والسائق يكبح فراملها فيتوهج ضوؤها العنبرى . رفع لوك إبهامه ، كما لو كان يطيع أوامر . مال السائق على المقعد وفتح الباب الذى يقع ناحية الركاب . قال للوك ، « اصعد » .

كانت بطاقة على النافذة تقول ، « ممنوع الركاب » ، ولم يكن أى شىء من هذا يحدث . صعد لوك إلى كابينة السائق ، ببطء ، كأن شخصا يدفعه من الخلف . كانت تغص بموسيقى مدوية ورائحة ذكرية تفوح بالعرق والجلد جعلته يشعر بالارتياح فى الحال . صفق الباب واتكأ إلى الخلف . كان السائق – وهو رجل له وجه غير حليق ، حاد الملامح مثل سكين – يحدق فى ضوء المرور بعينين نصف مغمضتين ويسأل ، « الى أين أنت متجه ، يا بنى ؟ »

قال لوك ، « بلتيمور ، مريلاند » .

ـــ « هل يعرف أهلك أنك ذاهب الى هناك ؟ »

قال لوك ، « بالتأكيد » .

صوب السائق إليه نظرة .

قال له لوك ، « لماذا ، أهلى ... يعيشون فى بلتيمور » .

ـــ « حسنا ، إذن » .

انطلقت السيارة ثانية . دمدمت متجاوزة الشارع التجارى حيث كانت أم لوك تذهب لشراء بقالتها . تأرجحت لافتة خضراء علوية ، تحمل قائمة تحدد المواقع الواقعة شمالا . قال السائق وهو يعدل وضع مرآته ، « حسنا ، أقول لك : يمكننى أن أقلك حتى ريتشموند . فهناك علىّ أن أتجه غربا » .

قال لوك ، « حسنا » .

كانت ريتشموند ، فى نهاية الأمر ، أبعد مما كان يعنى أن يذهب على الإطلاق..

كان بيلى سوان يغنى من الراديو ، « يمكننى أن أساعد » . دندن السائق معه بصوت به صرير لم يقترب من النغمة الصحيحة تماما . رأى لوك أن شعره الأشيب الناحل قد مُشِط مؤخرا ؛ فقد التصق بجمجمته فى خطوط متوازية رطبة . كان يمسك بسيجارة بين أصابعه لكنه لم يشعلها . كانت أظافره غليظة ومضلعة ، لعلها قطعت من نسيج قطنى أصفر مضلع .

قال ، « فى صيف عام ستة وخمسين ، كنت مارا على طول هذا

الطريق ذاته مع زوجتى فى شاحنة بقالة تابعة لشركة « سيفوييى » عندما بدأت تشعر بآلام المخاض . لم يكن قد مضى سوى ثمانية شهور وجاءها المخاض رأسا . يا الله ! أذكر حتى يومنا هذا . تقول ، « كليمنت ، أظن أن الوقت قد حان » . حسنا ، كنت شابا عندئذ . غير مجرب . كنت أظن أن الطفل يولد حين تعد ثلاثا : واحد – اثنان – ثلاثة . ظننت أننا لم يكن أمامنا لحظة نضيعها . وأيضا ، تعرف ما يقولون : أن الطفل الذى يولد فى الشهر السابع يصل إلى حالة طيبة أما ابن ثمانية شهور فإنه لا يفلح . لا يمكننى أن أتصور لم ينبغى أن يحدث ذلك . ولذا أدوس على الفرامل ، وجسدى كله يرتجف . وقدمى التى تدوس الفرملة ترتجف إلى حد أننا نتلوى على الطريق السريع . هل ترى تلك اللافتة هناك ؟ التى ترشد إلى اليمين ؟ هل ترى لافتة المستشفى تلك ؟ حسنا ، كان ذلك إلى حيث أخذتها . على طول ذلك الطريق مباشرة . ولا أصل إلى هنا أبدا إلا وتذكرت هذه الواقعة » .

نظر لوك بأدب إلى لافتة المستشفى ، ثم لوى عنقه حتى يواصل النظر بعد أن تجاوزاها . كانت الاستجابة الوحيدة التى يمكنه أن يفكر فيها .

قال السائق ، « استمر المخاض اثنتين وثلاثين ساعة . ظنت شركة « سيفوييى » أننى اختطفت عربتهم » .

قال لوك ، « حسنا ، لكن الطفل ولد على ما يرام » .

قال السائق ، « مؤكد . طفلة تزن خمسة أرطال . ليزا ميشيل » . فكر لحظة . ثم قال ، « ماتت فيما بعد ، رغم هذا » .

تنحنح لوك .

قال السائق ، « الموت فى المهد هذا ما يطلقونه عليه فى هذه

الأيام » . انحرف حول مقطورة ، « هل سمعت بهذا أبدا ؟ »

— « لا ، يا سيدى ، لم أسمع » .

— « موت فجائى في المهد . وعمرها ستة شهور . نور حياتى . زاهية مثل برعم غض ، أيضا – تحبنى بجنون . كنت أصل إلى البيت وكانت هى تتوهج على الفور – تدور بذراعيها وساقيها مثل طاحونة هواء ما أن تقع عيناها علىّ . ثم مضت وماتت » .

قال لوك ، « حسنا ، يا إلهى » .

قال السائق ، « عندى الآن آخرون . هل تريد أن تراهم ؟ أخفض واقية الشمس تلك التى فوق رأسك » .

قلب لوك واقية الشمس . أظهرت صورة ملونة ، مثبتة فى مكانها بمشبك غسيل أرجوانى من البلاستيك ، ثلاث بنات بسيطات يرتدين ثيابا جديدة ومنشاة حتى بدون كأنهن فى يوم أحد عيد الفصح .

قال السائق ، « الصغرى فى مثل عمرك تقريبا . ما عمرك ؟ ثلاثة عشرة ، أربعة عشرة ؟ » ضغط على آلة التنبيه لسيارة ركاب كبيرة تخطته قريبا منه جدا . قال ، « هن بنات مليحات ، لكننى لا أعرف . ليس الأمر نفس الشيء ، بشكل ما . يبدو أننى فقدت الـ ... ارتباط . فقدت موهبة الارتباط . أعنى أننى أحبهن ؛ هه ، أهيم بهن ، لكننى لم يعد لدى الـ ... يبدو لى أننى لم أعد قادرا على أن أحرك الطاقة » .

كانت إحدى السيدات تعلن عن سيارات شيفروليه بالراديو . حول السائق المحطة وجاء صوت باربرا سترايسند ، وهى تتباهى كالمعتاد . قال السائق ، « لكن عليك أن ترى زوجتى ! أليس ذلك مذهلا ؟ فهى تحب هؤلاء الأطفال حبها للطفلة الأولى . إنها تبدأ نشاطها من جديد

تماما . ولا أدرى كيف أفهمها . أنظر إليها ولا أصدق . أقول ، « دوتى ، إن الأمر كله ينتهى إلى لا شىء . إنه لا يهدف إلى شىء . دوتى ، كيف يمكنك أن تستمرى على هذا المنوال ؟ » انظر ، أنا لم أعد إلى حالتى الطبيعية . أمر بطريق ذلك المستشفى وهل تعرف ؟ أكاد أصدق أننى لو انحرفت تجاه المستشفى ، لكانت الأشياء على حالها كما كانت سابقا . ستمسك دوتى بيدى ، وتكون ليزا ميشبل تنتظر أن تولد » .

حك لوك يديه على سرواله الجينز الأزرق الخشن . قال السائق ، « حسنا الآن . أصغ إلىّ ! إننى أثرثر لا غير ؛ أظن أنك ترى أننى أتكلم كثيرا » . وصمت طوال بقية الرحلة ، وهو يصفر فقط من خلال أسنانه عندما يقدم الراديو أغنية مألوفة .

ودعه بالقرب من ريتشموند ، بعد أن خرج عن طريقه ليترك لوك عند منحدر بعد نُزُلٍ مباشرة . قال ، « انتظر هنا تماما وسوف تحصل على مواصلة فى لمح البصر . هم يسافرون هنا ببطء ، على أية حال ، ولا يبالون بأن يتوقفوا » ، ثم رفع يده بشكل متصلب وانطلق . ومن على بعد ، بدت شاحنته متألقة ومكتنزة مثل لعبة .

لكن بدا له أن الرجل أخذ معه عزما من نوع ما ، جوا من السرعة والثقة . فى الحال تماما ... ما الذى كان لوك يفعله هنا ؟ ما الذى يمكنه أن يفكر فيه ؟ رأى نفسه ، وحيدا فى وهج الشمس الأبيض المتقد ، يرفع إبهامه بزاوية غير خبيرة فى طريق يمتد فى اللا مكان . لم يكن بوسعه حتى أن يتصور إلى أى مدى كان عليه أن يذهب . (فهو لم يوفق أبدا فى الجغرافيا) . وعلى الرغم من أن الجو كان حارا – ذروة فترة العصر ، الآن – إلا أنه تاق إلى سترة جلدية : حماية . تاق إلى محفظة أوراقه النقدية ، لا من أجل مبلغ النقود الصغير الذى تحتويه بقدر

ما كان من أجل بطاقة هويته التى جاءت معها حين اشتراها . فلو أنه قتل فى هذا الطريق ، فمن يبلغون ؟ تساءل إن كان عليه – وهو بلا مأوى ، وبلا أبوين – أن يرتدى تلك الأربطة المُقوِّمة على أسنانه بقية عمره . تصور نفسه رجلا كهلا ، لا يزال يخفى ملء فم من المعدن حينما يضحك .

ثم توقفت بجواره سيارة بالية الطراز تشبه مؤخرتها شكل الزعنفة ، ودار الباب على محوره وفتح . سأله السائق ، « هل تريد توصيلة ؟ » فى المقعد الخلفى راح ولد صغير له شعر ناعم مبيض يتواثب صعودا وهبوطا ، مناديا ، « هيا ! هيا ! ادخل وخذ جولة بالسيارة . ادخل واركب معنا ! »

دخل لوك . وجد السائق يبتسم له – رجل لوحته الشمس يرتدى سروالا أزرق خشنا من الجينز ، حول عينيه خطوط عميقة . قال ، « اسمى دان سموليت . وذلك فى المقعد الخلفى هو سامى » .

— « أنا لوك » .

— « نحن متجهان الى مقاطعة كولومبيا . هل يفيدك ذلك ؟ »

قال لوك ، « لا بأس » . أضاف ، وهو ما يزال غير واثق من معرفته بالجغرافيا ، « أظن أن الطريق يقود إلى بلتيمور » .

قال سامى وهو ما يزال يتواثب ، « بلتيمور ! أبى ، هل يمكننا الذهاب إلى بلتيمور ؟ »

— « علينا أن نذهب إلى واشنطن ، يا سامى » .

— « ألا نعرف أحدا فى بلتيمور ؟ كيتى ؟ سوسى ؟ بتسى ؟ »

— « الآن ، يا سامى ، اجلس ، من فضلك » .

قال سامى للوك ، « إننا نقوم بزيارة صديقات والدى القدامى » .

ــــ قال لوك ، « أوه » .

ــــ « لقد جئنا من مدينة رالى تواً ورأينا كارلا » .

قال أبوه ، « لا ، لا ، كانت كارلا فى ديرام . كانت ديدى هى من رأيتها فى رالى » .

قال سامى ، « كانت كارلا لطيفة . كانت أفضل المجموعة . كنت لتحبها ، يا لوك » .

ــــ « صحيح ؟ »

ــــ « من المؤسف أنها كانت متزوجة » .

ــــ « سامى ، لا يريد لوك أن يعرف حياتنا الخاصة » .

قال لوك ، « أوه ، ذلك على ما يرام » . لم يكن واثقا ماذا يسمع ، على أية حال .

كانوا قد عادوا الآن إلى الطريق السريع ، وظلوا فى حارة القيادة البطيئة – ربما بسبب الصرير المزعج الذى يحدث عندما يسرع دان . لم يكن لوك قد ركب فى حياته سيارة قديمة كهذه . كان باطنها من الجوخ الرمادى الذى يعلوه الغبار ، وأرضيتها مغمورة بأكواب ورقية وأكياس شرائح البطاطس المقلية . كان الصندوق الصغير الملحق بالتابلوه - وهو بلا باب – تنسكب منه خرائط مشققة عند وصلاتها ، ومعها قطع نقدية متناثرة ، وأطواق نجاة ، ونماذج دقيقة الحجم من جرارات وشاحنات قمامة . وفى الخلف ، كان سامى يتواثب بين بطاطين ووسادات يميل لونها الى الرمادى . ظل أبوه يقول ، « اجلس » ، لكن بلا فائدة . قال دان للوك ، « إنه ينتابه القلق قليلا ،

حوالى العصر » .

سأله لوك ، « منذ متى وأنتما على سفر ؟ »

ـــ « أوه ، ثلاثة أسابيع أو زهائها » .

ـــ « ثلاثة أسابيع ! »

ـــ « غادرنا بعد انتهاء المدرسة الصيفية . فأنا مدرس لغة انجليزية بالمدارس الثانوية ؛ وكان علىّ أن أقوم بتدريس مقرر القواعد هذا أولا » .

قال سامى ، « انظر إلى هذا » ، وفى وثبته التالية ، دفع حشوة من ورق فى وجه لوك . ومن الواضح أن أحدا ما كان يمضغها . كانت أربع ورقات ، عصرت معا ، تحمل أعمدة من الأسماء والعناوين كتبت على الآلة الكاتبة . قال سامى ، « صديقات والدى القديمات » .

حملق لوك .

قال أبوه ، « لسن كذلك . حقا ، يا سامى » . وقال للوك ، « تلك دفعة تخرجى فى المدرسة الثانوية . أولاد وبنات . فى العام الماضى أقاموا حفل التئام شملهم ؛ لم أذهب لكنهم أرسلوا لنا قائمة العناوين هذه » .

قال سامى ، « ونحن الآن نقوم بزيارة البنات » .

ـــ « لا كل البنات ، يا سامى » .

ـــ « البنات اللاتى كنت تخرج معهن » .

قال دان للوك ، « إن زوجتى تقوم باجراءات الطلاق منى » . وبدا

عليه أنه يظن أن ذلك يفسر كل شيء . ولّي وجهه إلى الأمام مرة ثانية ، وقال لوك ، « أوه » . مرق بجوارهم نزل آخر ، وغابة بعيدة من لافتات شركتى تكساكو وأموكو . انطلق صوت آلة التنبيه تفضلا من شاحنة مغلقة متحركة حين أعطى سامى الإشارة من خارج النافذة . أطلق سامى صرخة حادة وتواثب بشدة أكبر - وهو كتلة شائكة من العظام وقميص خارجى قطنى ، وسروال قصير يرفرف ، وحذاء ممزق .

سأل دان لوك ، « فى أى سنة أنت فى المدرسة ؟ »

ـــ « أنا منقول الى الصف التاسع » .

ـــ « هل قرأت أيا من أعمال همنجواى ؟ **الماسك فى الجودار** ؟ ما الذى يطلبون منكم قراءته ؟ »

قال لوك ، « لا أعرف بعد . فأنا جديد » .

كان بوسعه بسهولة أن يتصور دان مدرسا . كان ليرتدى سرواله الجينز الأزرق الخشن فى الفصل . واحد من تلك الأنماط الرفيقة اللا مبالية التى لم يكن لوك يطمئن إليها أبدا . الأفضل أن يرتدى حلة وربطة عنق ؛ فعندئذ تعرف على الأقل موقفك منه .

قال سامى ، « فى واشنطن هناك فتاتان ، باتى ولينا » .

قال له دان ، « لا تقل فتاتان ، قل امرأتان » .

ـــ « باتى سيرز ولينا سبارو » .

قال دان للوك ، « أنا أفضل حالا مع الأسماء التى تبدأ بحرف السين . كانا معى فى الغرفة التى نسجل فيها حضورنا » .

قال سامى ، « سمعنا أن لينا انفصلت عن زوجها » .

قال لوك ، « لكن ماذا تفعلان عندما تقومان بزيارة ؟ ما الذى تستطيعان عمله هناك ؟ »

قال سامى ، « أوه ، نجلس . نمكث بضعة أيام إذا طلبن منا ذلك ؟ نلعب مع كلابهن وقططهن وأطفالهن . فمعظمهن لديهن أطفال . وأزواج » .

قال لوك ، « حسنا ، إذن . إذا كان لهن أزواج ... » .

قال سامى ، « لكننا لا نعرف ذلك حتى نصل هناك . أليس كذلك ؟ »

قال دان ، « إن سامى مشوش الذهن قليلا . إن الأمر ليس كما لو كنا نتصيد أن نحل محل أحد . نحن نرتحل فقط . فقد جاء هذا الطلاق صدمة وأنا فقط ، أوه ، أرتحل إلى الماضى . أزور أصدقاء قدامى » .

قال سامى مؤكدا ، « ولكن **صديقات** فقط » .

ـــ « كن فتيات أتماشى معهن على خير وجه . لا حبيبات بالضرورة . لكنى كنت أروق لهن ؛ كن يرين أننى إنسان مرهف . أو على الأقل كان يبدو أنهن يعتقدن هذا . كنت أفترض أنهن يرين هذا . لا أدرى . ربما كن يتصرفن بطريقة مهذبة لا أكثر . ربما كنت مشوشا منذ البداية » .

لم يستطع لوك أن يفكر فى شىء يقوله .

قال له دان ، « انصت إذن ! هل قرأت **جاتسبى العظيم** بعد ؟ »

ـــ « لا أظن ذلك » .

ـــ « ما رأيك فى **سيد الذباب** ؟ هل وصلت الى **سيد الذباب** ؟

قال لوك ، « أنا لم أقرأ أى شىء . فقد ارتحلت من مكان لآخر كثيرا ؛ وفى كل مكان أذهب اليه أجدهم يدرسون **سيلاس مارنر** » .

ويبدو أن هذا أفضى بدان إلى نوع ما من الاكتئاب . فقد تهدلت كتفاه ولم يعد يقول شيئا .

توقف سامى أخيرا عن التواثب وجلس يقرأ **جاك وجيل** . قلب الصفحات ، وهى تطقطق فى الريح الساخنة التى كانت تهب مخترقة السيارة . وبين دان ولوك كانت قائمة عناوين دان ترف على المقعد . لم تبد قائمة طويلة . أربع أو خمس صحائف ، فى كل صحيفة عمودان ؛ وسوف تستهلك فى وقت قصير . قال لوك ، « أوم ... »

ألقى عليه دان نظرة فاحصة .

قال لوك ، « لا بد أنك التحقت بالكلية » .

— « أجل » .

— « أو حتى كلية الدراسات العليا » .

— « مجرد الكلية » .

— « أليس لديك بعض العناوين من هناك ؟ »

قال دان ، « الكلية ليست نفس الشىء . فلن أرتحل الى الماضى بدرجة كافية إلى هذا المدى . لماذا ، » قال وقد طرأت له فكرة ، « الكلية هى المكان الذى قابلت فيه زوجتى ! »

قال لوك ، « أوه ، فهمت » .

أوقف دان السيارة خارج واشنطن لينزل لوك . وعند الأفق كانت

هناك غبشة من بيوت قال عنها دان إنها « الاسكندرية » . سأله لوك ، « الاسكندرية ، فيرجينيا ؟ » لم يفهم علاقة هذا بواشنطن . لكن دان ، الذى بدا فى عجلة من أمره ، كان ينظر سلفا فى مرآته الجانبية . تدلى سامى من النافذة وهو ينادى ، « وداعا يا لوك ! متى أراك ثانية ؟ هل تأتى لزيارتنا حين نجد مكانا ؟ اكتب إلىّ خطابا ، يا لوك ! »

قال لوك ، « بالتأكيد » ، وهو يلوح بيده . وانطلقت السيارة .

لا بد أنها كانت الساعة الرابعة على الأقل الآن ، لكن لم يبد للوك أنه يشعر ببرودة أكثر . آلمته عيناه من إغماضهما نصف إغماضة فى ضوء الشمس . كان شعره قد أصبح ليفيا متيبسا . لكن شيئا بخصوص هذا الطريق – روائح القطران ووقود الديزل الغريبة ، أو هدير المرور – جعله يعتقد لأول مرة أنه يصل حقا إلى مكان ما . كان واثقا أن شخصا ما سيلتقطه إن آجلا أو عاجلا . راح يرفع إبهامه فترة ، مشى بضع ياردات ، وتوقف ليرفع إبهامه ثانية . كان قد استدار ليبدأ المشى مرة أخرى حين فرملت سيارة بقوة ، وهى تنحرف باتجاه كتفه لتتوقف أمامه . صاحت امرأة ، « بحق الله ، اصعد فورا ، هل تسمع ؟ »

فتح الباب وصعد . كانت سيارة دودج ، لا تكاد تبلغ قِدم سيارة دان لكنها شأنها رثة المظهر تقريبا ، كما لو كانت قد استعملت كثيرا . كانت المرأة التى بداخلها مدملجة فى الأربعينيات من عمرها . كانت عيناها منتفختين وقد رسمت الدموع خطوطا على وجنتيها ، لكنه اطمأن اليها ، على أية حال ؛ كنت لتظنها أمه ، من الطريقة آلتى أنّبته بها . « هل جننت ؟ هل تريد أن تُقتل ؟ هل تعرف أنواع المنحرفين فى هذا العالم ؟ تأكد من أن بابك مغلق . أغلقه ، عليك اللعنة ؛ فلسنا فى سليبى هولو بقلب المدينة . اربط حزام مقعدك . أوصل حزام كتفك » .

كان سعيدا أن يطيع . ضبط ابزيما ما معقدا فى حين عشّقت

المرأة ، وهي تنشق ، تروس ناقل السرعة واندفعت ثانية فى خضم المرور . سألته ، « ما اسمك ؟ »

ـــ « لوك » .

ـــ « حسنا ، يا لوك ، هل أنت أبله تماما ؟ هل تعلم أمك أنك توقف السيارات لتوصلك ؟ أين أبواك من كل هذا ؟ »

قال ، « أوه ، آه ، بلتيمور . لا أظنك ذاهبة إلى هناك » .

ـــ « يا لله ، لا ، وماذا أريد من بلتيمور ؟ »

ـــ « حسنا ، إلى أين أنت ذاهبة ؟ »

ـــ قالت له ، « لا أدرى » .

ـــ « لا تدرين ؟ »

نظر إليها . كانت الدموع تسيل على وجنتيها مرة أخرى . قال ، « أوم ، ربما - »

ـــ « أوه ، استرخ . لا بأس . سوف آخذك الى بلتيمور » .

ـــ « سوف تأخذيننى ؟ »

ـــ « إنه أفضل من الدوران حول الطريق الدائرى إلى الأبد » .

قال ، « يا لله ، شكرا » .

ـــ « إنهم يسمحون للأطفال بالخروج بمفردهم فى هذه الأيام » .

ـــ « لست طفلا » .

ـــ « ألا تقرأ الجرائد ؟ جرائم الجنس ! جرائم السرقة بالإكراه ! جرائم القتل ! أشياء لا معنى لها » .

قال ، « وماذا يهم ؟ لقد ظللت مسافرا بمفردى زمنا طويلا . أعواما . منذ أن ولدت تقريبا » .

قالت له ، « رغم كل ما تعرفه . فإنه من الممكن أننى أحتجزك طلبا لفدية » .

أفلت هذا منه ضحكة مُروّعَة . ألقت عليه نظرة فاحصة وابتسمت له ابتسامة حزينة . كان يحيط برابية بطنها شيء يبعث على الاطمئنان والراحة ، والتنورة القطنية تنحسر عن ساقيها الممتلئتين ، وحذاء التنس الأبيض المائل إلى الرمادى . راحت تكرر مسح أرنبة أنفها بمفاصل أصابع يدها . لاحظ أنها ترتدى خاتم زواج ، وأنها ترتديه من زمن طويل إلى حد أنه بدا منطمرا فى أصبعها .

قالت ، « على بعد ثلاثة أميال تماما ، منذ أقل من شهر ، توقف فتى يقود سيارة مكشوفة ليقل فتاة وهشمت جمجمته ببطارية ، ودحرجته الى أسفل جسر ، ومضت بسيارته المكشوفة » .

قال مؤكدا ، « إن ذلك يثبت أنك أنت التى تفعلين شيئا خطرا ، لا أنا . (كم كان من السهل أن يقع تحت تأثير نبرة الجدل الساخرة التى تصدر عن الأمهات !) « لماذا التقطتنى ؟ من الممكن أننى أخطط لقتلك » .

قالت ، وهى تنشق ثانية ، « أوه ، حقا . ألا يتصادف أن يكون معك منديل ورقى ؟ »

— « لا ، آسف » .

قالت له ، « ما كنت لأتوقف أبدا لمجرد أى واحد . فقط إذا كانوا فى خطر – أعنى فتيات صغيرات وحدهن ، أو أطفال مثلك » .

ـــ « لست – »

ـــ « بالأمس كانت فتاة ترتدى سروالا قصيرا ، هل يمكنك أن تصدق ؟ وأخبرتها ؛ قلت لها ، « حبيبتى ، أنت تسعين وراء المشاكل ، وأنت تلبسين هكذا » . وأول البارحة ، كان صبيا فى الثانية عشرة . قال إن أجر ركوبه قد سُرق ، وأن عليه أن يصل إلى البيت بأسرع ما يمكنه . واليوم الأسبق – »

ـــ « ماذا ؟ هل تقودين سيارتك هنا كل يوم ؟ »

ـــ « فى معظم الأيام » .

نظر من النافذة إلى الشاحنات المغلقة وصهاريج ناقلات البترول ، والحافلات التى تسافر بين الولايات ، والسيارات التى حُمِّلت شبكاتها فوق طاقتها بالأمتعة . قال ، « كنت أظن أن هذا طريق طويل المدى » .

قالت له ، « أوه ، لا . يا للسماء ، لا . لا ، فأنا أعيش بالقرب من هنا تماما » .

ـــ « اذن لماذا تتجولين بسيارتك ؟ »

تجعد ذقنها . قالت ، « ليس هذا من شأنك » .

ـــ « أوه » .

قالت ، « المسألة هى ، هل تفهم ، أننى أفعل هذا بوجه عام من الساعة الثالثة عصرا حتى وقت العشاء . أحيانا أذهب إلى أنابوليس ، وأحيانا إلى مكان ما فى فيرجينيا . وأحيانا أدور وأدور فى الطريق الدائرى . حسب الظروف » . ألقت عليه نظرة ، كما لو كانت تتوقع أن يسألها حسب أية ظروف ، لكنه كان قد أُهين ولم يقل شيئا . تنهدت . « الثانية أو الثالثة هو الوقت الذى تستيقظ فيه ابنتى . إنها فى الرابعة

عشرة . حوالى عمرك ، حسنا ؟ كم عمرك ؟ »

راح يقرع بأصابعه وينظر من النافذة .

ـــ « فى الصيف تنام باستمرار . يقول زوجى ، « يا الله ، يا ماج » . يقول ، « لماذا تدعينها تنام إلى وقت متأخر هكذا ؟ » حسنا ، سأخبرك بالسبب . السبب أنها لا تُحتمل . لا تُحتمل ، حقًا . أعنى ، ليس من الممكن أن تصدق أنها يمكن أن تكون فظيعة إلى هذا الحد . فهى تنزل إلى الطابق السفلى فى ثوب استحمامها ، وهى تتثاءب . تجدنى فى المطبخ . تقول ، « حسنا ، يا أمى ، أرى أنك تضعين عطر قتل الحشرات مرة أخرى ، د . د . ت رقم خمسة » . ثم تهيم على وجهها . تتركنى أتشمم رسغى واتعجب . أقول ، « ليدى ، هل ستنظفين غرفتك اليوم ؟ » فتقول ، « اصغى إلى ما تقولين ، إنك تهاجمين وتحدثين مغصا ؛ أنت تبدين مثل أمك تماما » . أقول نكتة صغيرة ؛ فتقول ، « مضحكة جدا ، يا أمى . ها ها . الممثلة الكوميدية الكبيرة » . اكتشف أنها سرقت أفضل مشدات صدرى المصنوع من الدانتيللا والذى أرتديه فى عيد زواجى فقط ، فتقذف به الىّ وكله متسخ عند الوصلات : « خذيه ، مَن يريده ، إنه يسطح الصدر أكثر من اللازم على أية حال » . وتدعونى كلبة فى مواجهتى ، تقول إننى بدينة وبسيطة ، تقول إنها تكرهنى ، فأقول ،.« انصتى هنا ، يا آنسة ، حان الوقت لكى نسوى بعض الأشياء » ، لكن كل ما تفعله هو أن تتثاءب ، وتشرع فى مضغ واحد من الأسلاك البلاستيكية التى تحمل السعر من على كُم بلوزتها . قلت لزوجى ، « كلمها » ، فيقول ، « ليدى ، تعرفين الى أى حال تصير أمك . لماذا تزعجينها ؟ » أقول ، « كيف أصير ؟ ماذا تعنى ، كيف أصير ؟ » وقبل أن تعرف ، إذا بنا هو وأنا نتعارك ، وربما كانت هذه هى خطتها طيلة الوقت . التفرقة . التمزيق . الفوضى . هذا هو

ما تستمتع به . إن لها هذا الصديق ، تعامله معاملة مفزعة . وأخيرا قطع علاقته بها ، وظلت تبكى طوال الليل وتسأل نفسها مائة مرة ، « لماذا تصرفت بذلك الشكل ؟ ما الذى أستطيع أن أفعله ليغير رأيه ؟ » قلت لها بأن تكون صادقة ، مجرد أن تتصل به هاتفيا وتقول إنها لم تكن تعرف ما الذى أصابها ؛ وهكذا اتصلت فى اليوم التالى ، واصطلحا ، وكان كل شىء رائعا وجاءت وشكرتنى على نصيحتى الطيبة . عاد النظام إلى حياتها ، هكذا بدت . وهكذا جلست إلى المنضدة فترة ، هادئة كما رأيتها . ثم شرعت تؤرجح قدمها . ثم شرعت تنزع أظافرها . ثم ذهبت واتصلت بصديقها مرة أخرى . قالت ، « روجر ، لم أكن أريد أن أقول لك هذا لكننى رأيت أن الوقت قد حان لكى تعرف . إن الطبيب يقول إننى أموت من سرطان الدم » . »

ضحك لوك . ألقت عليه نظرة فاحصة ببراءة ، لكنه لاحظ التواءة متكبرة عنيدة حول ركنى فمها . قالت ، « وحوالى الساعة الثانية أو الثالثة ، أركب سيارتى وأشرع فى قيادتها . فى أول الأمر ، أجد نفسى أتكلم بصوت عال . عليك أن تراني . أقول ، « لن أعود أبدا » . ألعن من خلال أسنانى ؛ أستعمل آلة التنبيه لسيدات طاعنات فى السن مقعدات . أقول ، « التعسة الصغيرة ، تلك الآفة ، تلك الطفلة المدللة . لسوف تندم ! » أسرع على طول الطريق – أوه ، يجب أن ترى سجلى فى إدارة المرور ! نقطة واحدة أخرى على إجازة قيادتى وسوف يكون على أن أتلقى مقرر دروس يوم السبت عن شرور القيادة المتهورة ؛ وعلى أن أشاهد ذلك الفيلم الذى تنتهى فيه السيدة مقطوعة الرأس . حسنا ، سوف يخرجنى على الأقل من البيت . أطلق لسيارتى العنان ولا أدع السيارات الأخرى أمامى ، وأتصور كيف سيعود زوجى إلى البيت ويقول ، « ليدى ؟ أين أمك ؟ ماذا فعلت معها ، يا ليدى ؟ »

وسوف تشعر ليدى شعورا فظيعا تماما ... لكننى عندئذ أفكر فى زوجى . لدى زوج لطيف حقا . ليس هو من أريد أن أتركه . وأتعجب إذا كان بوسعى أن أتسلل عائدة الى البيت بالليل وأن أخبره ، « بست ! لنرحل **كلانا** . لنهرب » ، سوف أقول . لكننى أعرف أنه لن يفعل هذا . فهو ليس متورطا بنفس القدر . إنها تضايقه ، ولكنه ليس موجودا بما يكفى لأن يرتكب أى أخطاء خطيرة معها . ذلك هو ما يقتلنى : ارتكاب الأخطاء . المبالغة فى رد الفعل ، تركها تنجح فى الوصول إلىّ ... أوه ، يمكننى أن أفكر فى أشياء كثيرة للغاية ! يمكنك أن تقول إن ما أتركه خلفى هو رأيى فى نفسى ، تمام ؟ ولذا فإننى عندئذ أبدأ فى قيادة السيارة بسرعة أقل . أبدأ فى تذكر الأشياء . أفكر فى ليدى حين كانت صغيرة : كانت تقف معتدلة القامة دائما . كان باستطاعتك أن تميزها فى وسط حشد من الناس بظهرها الصغير المعتدل . ولمدة عام كامل كانت تأكل فقط بالعودين اللذين يتناول بهما الصينيون طعامهم . تطقطق فى طبقها ... كان ينبغى لك أن ترى الفوضى ! لكننى لم أكن أبالى . فى تلك الأيام ، كانت تحبنى كثيرا . كنت أما طيبة حقا ، وكانت تحبنى » .

قال متشككا ، « ربما **ما زالت** تحبك » .

قالت المرأة ، « لا . لا تحبنى » .

مرا بلافتة تشير إلى بلتيمور . بدا الريف على وتيرة واحدة إلى ما لا نهاية – حقول من حشائش عالية ، ثم ظهور الواجهة الخلفية للمساكن الحضرية بحبال الغسيل والموتوسيكلات وفوق الأرض حمامات سباحة دائرية ، ثم حقول من الحشائش العالية مرة ثانية ، كما لو كان المنظر يكرر نفسه بشكل منتظم على حزام جهاز آلى لنقل السلع .

قالت المرأة ، « الأمر يبدو كما لو كنت أقود سيارتى حتى أعثر على ذاتها القديمة . هل تعرف ؟ **وذاتى** القديمة . ثم ميلا بعد ميل ، يزول اهتياجى . تسترخى قدمى من على البنزين أكثر قليلا . وهكذا ما أن يحين موعد العشاء حتى أكون مستعدة للعودة الى البيت مرة أخرى » .

راجع لوك الساعة الموجودة على لوحة أجهزة القياس . كانت الرابعة وخمسا وثلاثين دقيقة .

قالت ، « سوف أعد الليلة سلطة تونه » .

ـــ « حسنا ، أنا أقدر قيامك بهذا » .

قالت ، « هذا لا شيء » ، ومسحت أنفها للمرة الأخيرة .

وعند الخامسة ، كانا قد بلغا ضواحى بلتيمور . كان أمرا أشبه بدخول آلة ، هكذا قال لوك لنفسه – كلها مغطاة بالهباب ، تتحرك بجلبة واهتياج . بدا على المرأة أنها معتادة على هذا ؛ فقد كانت تقود السيارة دون تعليق . قالت ، « والآن ، خبرنى ماذا أفعل بعد شارع رسل » .

ـــ « سيدتى ؟ »

ـــ « كيف أجد بيتكم ؟ »

قال ، « أوه ، لماذا لا تنزليننى فى وسط المدينة ؟ »

ـــ « أين فى وسط المدينة ؟ »

ـــ « أى مكان يفى بالغرض » .

ألقت عليه نظرة فاحصة .

قال ، « إننى أعيش قريبا جدا ، أعنى ... »

ــــ « قريبا من ماذا ؟ »

ــــ « لماذا ، من أى شىء » .

قالت ، « الآن ، أنصت ، يا لوك . يساورنى الآن شعور غريب جدا . أريد أن أعرف بالضبط أين والداك » .

تساءل ماذا كانت لتفعل لو أنه أخبرها أن عليه أن يبحث عنهما فى دليل الهاتف . كان سيقول إنه قد غاب طويلا جداً ، فى معسكر صيفى أو مكان ما ، وأن العنوان قد غاب عن ... لا . لكن الحقيقة أنه لم يعرف أبدا عنوان الشارع الذى يسكن فيه عزرا . كان مجرد بيت يصلان إليه ، كودى يقود السيارة ، ولوك يجلس فى الخلف .

قال ، « المسألة أن كليهما فى العمل . هما يملكان مطعما ، « مطعم المشتاقين للأهل » . ربما يمكنك أن تنزلينى عند المطعم » .

ــــ « أين يقع هذا ؟ »

ــــ « آه ... »

قالت ، « لا يوجد مثل هذا المكان ، أليس كذلك ؟ كنت أعرف هذا ! « مطعم المشتاقين للأهل » ، حقا » .

قال ، « بل يوجد ! صدقينى . لكنه جديد . فقد ابتاعوه لتوهم ، لكننى لم أذهب إلى هناك بعد » .

قالت ، « ابحث عنه » .

توقفت بفجائية بالغة إلى درجة أنه سُرَّ لأنه قد ثبت حزام مقعده . إلى جوارهما كان هناك كشك تليفون . قالت له ، « هيا ! ابحث عنه » لابد أنها كانت تظن أنها تتصل هاتفيا بخدعته .

قال لوك ، « حسنا ، سوف أفعل » .

وفى كشك التليفون - ذلك النوع القديم ، المغلق تماما ، صندوق من الزجاج والألومنيوم يفيض بالحرارة - راح يمرر إصبعه مارا **بنادى راكيت أرض الوطن** ، **مكتب عقار الباحثين عن سكن** ، ووجد نفسه مندهشا للغاية عندما وصل إلى **مطعم المشتاقين للأهل** إلى درجة أنه من الممكن أن يكون خدعة فى نهاية الأمر . قال حين عاد إلى السيارة ، « إنه فى شارع سانت بول . يمكنك أن تنزلينى فى أى مكان ، وسوف أجد الرقم » .

لكن لا ، كان عليها أن تأخذه إلى عتبة المكان ، رغم أن ذلك يعنى الكثير من الرجوع إلى الوراء لأن شارع سانت بول ، كما اتضح ، كان ذا اتجاه واحد وظلت هى تخطىء فى عد الشوارع المتقاطعة . وعندما أوقفت السيارة أمام المطعم ، قالت ، « حسنا ، يالله ! إنه موجود » .

قال لوك ، « شكرا على التوصيلة » .

أمعنت فيه النظر . سألته ، « هل ستكون بخير ، يا لوك ؟ »

ـــ « طبعا أنا بخير » .

ـــ « وأنت واثق أن والديك هنا ؟ »

ـــ « طبعا هما هنا » .

لكنها انتظرت على أية حال . (أعاد هذا إلى ذهنه حفلات المدرسة الابتدائية التى كان رفاق فصله يقومون بها ، وأمه تتأكد أنه دخل قبل أن تبتعد بسيارتها) . جرب باب المطعم ووجده مغلقا . كان عليه أن يدور إلى الخلف . مالت المرأة خارج النافذة وصاحت ، « ما المشكلة ، يا لوك ؟ »

ـــ « نسيت ، علّى أن استخدم مدخل المطبخ » .

ـــ « ماذا إذا كان ذلك مغلقا أيضا ؟ »

ـــ « ليس مغلقا » .

نادت عليه ، « أصغ إلىّ ، يا لوك . كل شيء يتغير ، والأمور ليست آمنة مثلما كانت فى الأيام الخوالى . كل زقاق فى هذه المدينة يغص بالسارقين ، هل تسمع ما أقول ؟ كل مدخل وبناية خالية ، كل شارع فى بلتيمور » .

لوح بيده واختفى . بعد ذلك بلحظة سمع صوت سيارتها وهى تقلع ثانية – ولكن على مضض ، بدون حيويتها المعتادة ، كما لو كانت لاتزال منهمكة فى قائمة الأخطار .

كان يعرف المطعم معرفة جيدة للغاية ، ولابد أنه حمل معه صورته بداخله بشكل دائم : قرقعة مقلاياته وارتطام الأطباق الصينى ، رائحة الكرفس المقطع وهو يغلى برفق فى الزبد ، حزم من الأعشاب لها شكل المكانس تتدلى من العوارض الخشبية ، جِرار سعة جالون من ثمار الزيتون اليونانى المجعدة ، سلال من البقدونس ، غلايات سوداء يتصاعد منها البخار يراقبها باخلاص صبى لا يزيد عمره على عمر لوك . وفيما وراء المطبخ ، لا تكاد تنفصل عنه ، امتدت قاعة الطعام بطاولاتها المكسوة بالأغطية البيضاء الفضفاضة وأشعة شمس يتصاعد فيها الغبار . كانت هناك زخارف كثيرة للغاية فى قاعة الطعام – هدايا وتذكارات ، تجمعت عبر السنين – إلى درجة أنها كانت تذكر لوك دائما ببيت شخص ما ، منزل من المنازل العائلية المزدحمة بحيث تلصق رسوم رياض الأطفال فوق رف المدفأة ثم تنسى . تعرّف على تكوين

تصويرى من الورق الملصق على الخيش يبلغ ارتفاعه ست أقدام لسلطة عزرا من جمار النخيل ، قدمها له فنان كان يتناول طعامه هناك كثيرا ، ورأى السلسلة الورقية الملونة التى دلاها هو وأبناء عمته حول مثبت خفيف بمناسبة عشاء أحد أعياد الميلاد من زمن بعيد . (لم يكن عزرا قد أزالها مطلقا ، على الرغم من أن العشاء انفض بمشاجرة ، وأن السلسلة أصبحت الآن باهتة وهشة) . كان لوك يعرف أن فى أحد الأركان ، بعيدا عن مجال رؤيته ، كانت توجد دراجة عتيقة ثقيلة اشتراها عزرا من سوق فى الهواء الطلق يتاجر فى السلع المستعملة الرخيصة فى بلدة تيمونيم . وقد كتبت عبارة « أطعمة ميركوريو المطهوة الشهية » بشكل جذاب عبر سلتها الخشبية ، التى امتلأت بحبات كمثرى وأصابع موز زجاجية كساها الصقيع تبرع بها زبون . وعلى الدراجة تمثال لمارلين مونرو من الورق المقوى وهى تجلس منفرجة الساقين وقد رفع الهواء ثوبها - إحدى ألاعيب أشخاص غير معروفين ، لكن أحدا لم يزلها وظلت مارلين مونرو راكبة ، وقد ظهرت ثنيات فى رقبتها لتصل إلى نقطة الانكسار تقريبا ، وابتسامتها تتزايد شحوبا موسما بعد موسم وتنورتها ذات الطيات التى تشبه طيات الأكورديون تلتف عند الحواف .

كان عاملون متوردو الوجه ، يعانون الحر ، يندفعون فى أرجاء المطبخ ، منهمكون فى مهامهم الخاصة ، يشقون طريقهم بين الآخرين على نحو متلو مثل حروف التاء النموذجية فى الكوميديات الصامتة - وهم يئزون ! ، يتفادون أحدهم الآخر بالكاد ، لا يرتطمون مرة واحدة ، تتقاطع مساراتهم لكنهم ينزلقون بعيدا عن الخطر بأعجوبة . وقف لوك بالمدخل دون أن يلحظه أحد . كانت رحلته مغامرة فى حد ذاتها حتى أن قصده منها قد غاب عن ذهنه تقريبا . ما الذى كان يفعله هنا ، على أية حال ؟ لكنه عندئذ رأى عزرا . كان عزرا يكوم البسكويت فى سلة

من السمار فجة المنظر . لم يكن يرتدى القميص الأزرق ذا المربعا
الذى تذكره لوك - والذى كان من نسيج صوفى ، فى نهاية الأمر
لا يصلح للصيف - لكن قميصا من نسيج رقيق قد شمر كُمّيه . كا
يضع كل بسكويتة فى مكانها وهو غارق فى التفكير ، ويداه الكبيرتا
المتبلدتان مترويتان . شق لوك طريقه عبر المطبخ . أدهشته ومض
خجل . كان قلبه يدور بسرعة بالغة . وصل أمام عزرا وقال
« أهلاً » .

رفع عزرا عينيه ، وهو لايزال غارقا فى التفكير . قال « اهلاً »

لم يعرف من كان هذا .

أصاب الذعر لوك ، فى أول الأمر . ثم بدأ يشعر بالسرور
لماذا ، لابد أنه قد تغير بشكل لا حد له ! كانت قامته قد طالت قدما
أصبح صوته نقيقا ؛ كان رجلا بالفعل . وكان هناك بعض الأمان ، نو
من الدروع ، فى نظرة عزرا المسطحة . أعاد لوك ترتيب خططه
دفع لوك كتفيه للوراء فى وضع المتأهب . قال بثبات ، « أريد عملا »

سكنت حركة عزرا . قال ، « لوك ؟ »

كان لوك يقول ، « إذا كان ذلك الصبى هناك يمكنه أن يعتن
بالغلايات - » توقف . « عفوا ؟ »

— « هذا لوك كودى ، أليس كذلك ؟ »

— « كيف خمنت ؟ »

— « استطعت أن أعرف حين دفعت كتفيك بتلك الطريقة ، تما
مثل أبيك ، بالضبط تماما مثل أبيك . كم هذا غريب ! وكذلك شيء

فى نبرة صوتك ، كل شىء جاهز للدخول فى معركة ... حسنا ، يا لوك ! » صافح لوك بشدة . كان لأصابعه ملمس رملى من البسكويت . « أين والداك ؟ هناك بالمنزل ؟»

ــــ « لقد جئت بمفردى » .

قال عزرا ، « بمفردك ؟ » كان يبتسم بلطف ، وعدم ثقة ، مثل واحد يأمل فى أن يفهم نكتة . « تعنى ، مع لا أحد آخر ؟ »

ــــ « كنت أريد أن أسألك اذا كان بإمكانى أن أبقى معك ؟ »

توقف عزرا عن الضحك . قال ، « إنه كودى » .

ــــ « عفوا ؟ »

ــــ « حدث له شىء » .

ــــ « لم يحدث شىء » .

ــــ « كان ينبغى أن أذهب إلى هناك ؛ كنت أعرف أننى يجب علىّ . لم يكن ينبغى أن أجعله يوقفنى . فالحادثة أسوأ مما صرحا به » .

ــــ « لا ! هو بخير » .

راح عزرا يقيسه بنظراته للحظة طويلة صامتة . قال له لوك ، « لقد وضع سلفا جبيرة المشى » .

ــــ « أجل ، لكن جراحه الأخرى ، رأسه ؟ »

ــــ « كل شىء على ما يرام » .

ــــ « هل تقسم على هذا ؟ »

ــــ « نعم ! ياالله » .

قال عزرا ، « انظر ، ليس لدىّ إخوة آخرون » .

قال لوك ، « أقسم . وأرسم علامة الإيمان على قلبى » .

ـــ « إذن أين هو ؟ »

قال لوك ، « هو فى فيرجينيا . تركته هناك . هربت » .

أمعن عزرا التفكير فى هذا . عبرته نادلة وهى تسير جانبيا حاملة صينية عليها أكواب ترتعش وتصلصل برقة .

قال له لوك ، « لم يكن فى نيتى أن أفعل هذا . لكنه قال لى ... أنظر ، قال لى ... »

أوه ، لم يكن مهما أن يخبر عزرا بما قاله كودى . كان هراء ؟ ملاحظة من تلك الملاحظات التى تنطلق من لاشىء . وها هنا كان لوك ، أبعد ما يكون عن بيته ، يتلعثم تحت نظرة عزرا العطوفة . قال ، « لا أستطيع أن أشرح » .

لكن عزرا قال برقة ، كما لو كان قد شرح تماما ، « لا تنزعج بهذا . لم يكن يقصده . ما كان ليؤلمك لأى سبب فى العالم » .

قال لوك ، « أعرف ذلك » .

وعلى الهاتف كان عزرا مازحا ، أخويا ، لا مكترثا عن قصد ، يهون من أمر ما حدث ، وهو يكلم روث . « الآن ، يا روث ، أنا أجلس هنا أنظر إليه مباشرة وهو على خير ما يرام تماماً ... الشرطة ؟ لم ؟ حسنا ، اتصلى بهم ثانية ، قولى لهم إنه سليم معافى . قولى لهم إنكم أحدثتم جلبة هائلة بلا سبب » .

أصغى لوك ، وهو يبتسم بقلق، كما لو كانت أمه تستطيع أن تراه .

راح يُدخل لوالب سلك التليفون بين أصابعه . كانا فى مكتب عزرا الصغير خلف المطبخ . كان عزرا يجلس إلى مكتب تكومت فوقه كتب الطهي ، الفواتير ، المجلات ، قدر به ثوم معمر ، مقلاة نحاسية صفراء ذات بطانة من الميناء المتشققة ، وصورة من الجرائد داخل إطار لرجلين يرتديان المآزر ويحملان سمكة طويلة كاملة على طبق كبير .

ثم من الواضح أن كودى تناول الهاتف . إذ بدا عزرا أكثر جدية الآن . قال ، « ربما أمكننا أن نبقيه فترة . نود أن يأتى لزيارتنا . أرجو أن تدعه » . وفى نبرة صوته المباشرة الرزينة ، حتى فى جمله القصيرة ، قرأ لوك نوعا من الحذر . داخله القلق من أن كودى كان يصيح من نهاية الخط الأخرى ؛ أسقط السلك وتجول بعيدا ، وهو يتظاهر بالاهتمام بالكتب التى كانت فى خزانة كتب عزرا . شعر بالحرج من أجل والده . غير أنه لابد أنه لم يكن هناك أى صياح فى نهاية الأمر ؛ لأن عزرا قال بهدوء ، « حسنا ، يا كودى . أجل أستطيع أن أفهم ذلك » .

وعندما وضع السماعة ، قال للوك ، « سيكونان هنا بأسرع ما يمكن . فهو يفضل أن يأتى ليأخذك الآن ، كما قال » .

شعر لوك بدرجة ضئيلة من الفزع تبدأ فى معدته . تساءل كم كان أبوه غاضبا . تعجب كيف أمكنه أن يفكر فى الإقدام على هذا – أن يقطع كل هذه المسافة ! وحده تماماً ! بدا كما لو كان شيء هام خلاله ينساب فى حلم .

كان بيت جدته لايزال يحمل رائحة شرائح الخبز المحترقة ، بأركانه الشفقية ، وجو الغموض الذى يكتنفه . قال لوك لنفسه ، لو أنك

انتقلت إلى هنا ، ألا تواصل اكتشاف حجرات صغيرة وخزانات غير متوقعة لمدة أسابيع أو حتى شهور ، بعد ذلك ؟ (نعم . تخيل انتقالك إلى هنا . تخيل تقاسم غرفة المعيشة الدافئة ، ومطبخ جدتى الآمن) . كانت جدته تنزلق برشاقة حوله ، وهى تضيف أطباق طعام دقيقة إلى ما كان موجودا سلفا على المائدة . ظل عزرا يقول لها ، « أمى ، هونى عليك . لا تحدثى كل هذه الجلبة » . لكن لوك كان يستمتع بالجلبة . كان يحب الطريقة التى تتوقف بها فى منتصف إعداد شيء لتهرع نحوه وتحتضن وجهه بيديها . « أنظر إلى نفسك ! أنظر فقط ! » كانت أقصر منه الآن . وقد شاخت كثيرا ، أو أنه كان أصغر من أن يلاحظ ذلك من قبل . كان هناك شيء أنجز على عجل مستعد للإقلاع يحيط بعقدة شعرها الصغيرة المحكمة ، التى كانت ذات يوم شقراء لكنها الآن لا لون لها ، ووجهها المقسم بجيوب عميقة من الخطوط ، ويداها المجعدتان المبقعتان . رأى كم كانت تحبه ، من مجرد لمستها الجائعة على وجنتيه ، وتساءل كيف استطاع أبوه أن يسيء الحكم عليها .

قالت له ، « ليس من الصحيح أن يأتى أبواك ويعودان بك هكذا . سوف نجعلهما يبقيان . سوف نجعلهما بالتأكيد . سوف أبدل الملاءات فى غرفة جينى القديمة . يمكنك أن تأخذ غرفة الضيوف . أوه ، يا لوك ! ما كنت لأعرفك . ما كنت لأحلم أنه أنت لو أننى رأيتك فى الشارع ؛ فقد انقضى ذلك الوقت الطويل . على الرغم من أننى كنت لأقول ... أجل ، كنت لأقول لنفسى وأنا أمر ، « ياإلهى ، ذلك الطفل يذكرنى بكودى من سنين طويلة مضت ؛ ألا يفعل ؟ مجرد أن شعره أكثر اصفرارا ، هذا كل ما فى الأمر » . كان ليداخلنى ذلك الشعور الموجع ثم أنسى ، ثم ربما فيما بعد ، وأنا أعد الشاى ، كنت لأفكر ، « انتظرى الآن ، كان شيء ما يزعجنى هناك ... » . »

حاولت أن تصب وعاء من بقايا الفاصوليا فى مقلاة لكنها أخطأت الهدف ، وأراقت معظم السائل على النضد الطويل ، ومسحته بحشوة من الفوط الورقية وهى تضحك على نفسها . « يالها من سيدة عجوز ! إنك تقول لنفسك ، ما أحمقها من سيدة عجوز . لم يعد بصرى ما كان عليه . لا ، لا ، ياعزرا ، أستطيع أن أتدبر الأمر ، ياعزيزى » .

ـــ « أمى ، لماذا لا تدعينى أتولى الأمر ؟ »

قالت ، « أستطيع بالتأكيد أن أتدبر الأمر فى مطبخى ، يا عزرا . ألا تود أن تعود إلى مطعمك ؟ وأنت لا تدرى ما يفعله ناسك أولئك » .

قال عزرا وهو يشاكسها ، « أنت فقط تريدين أن تنفردى بلوك » .

ـــ « أوه ، أعترف بهذا ، أعترف بهذا ! »

أشعلت الشعلة تحت المقلاة . قالت للوك ، « كل الأشياء تتضام . فقد كنت قلقة للغاية ، قلقة حتى الغثيان تماماً ، وأنا أتصور كودى يتألم وأتوق إلى الذهاب إليه ، وبالطبع لم يشأ أن يسمح لى ؛ لقد كان دائما هكذا منذ أن كان طفلا ، ... شائكا للغاية ، خشنا للغاية ، معتدا بنفسه دائما . والآن أية متاعب ضئيلة أو شىء من هذا القبيل – لا ، لا تبد منزعجاً إلى هذا الحد ! فلن أسأل أية أسئلة ، أعدك ؛ قال لى عزرا ؛ لا شأن لنا ، لكن ... تأتى بك إلينا هنا متاعب ضئيلة ، لا أدرى ، مناقشة ربما ؟ انفعال من انفعالات كودى ؟ »

قال عزرا ، « أمى » .

واصلت كلامها بسرعة ، « وهكذا نراه فى النهاية . سوف يظهر بنفسه حقا . لكن ، يا لوك . كن صادقا . هو ليس ، هو ليس ... به ندوب أو أى شىء ، أليس كذلك ؟ أعنى وجهه ، لم تحدث له أى ندوب تشوهه » .

قال لوك ، « مجرد كدمات . لا شيء يدوم . وفي الحقيقة » ، أضاف قائلا ، « لقد اختفى معظمها الآن » .

أدهشه أن يكتشف أنه كان يتمسك بصورة كودى مكسورا طوال هذا الوقت ، فى حين أن الكدمات قد ذوت حقا ، حين تفكر فيها ، وأن الانتفاخات قد اختفت ، وأن الشعر قد نما تقريبا بصورة كاملة فوق جرح رأسه .

قالت بيرل ، « كان دائما وسيما للغاية . كان ذلك جزءا من هويته » .

تحرك عزرا حول المائدة ، وهو يرتب الأطباق والفضيات . كانت المقلاة تهش على الموقد . جلس لوك على كرسى مطبخ ، ومال إلى الخلف على شبكة تدفئة . جعلته ضلوعها البارزة وأنابيبها الطويلة يفكر فى الأماكن القديمة الطراز المريحة - كنيسة زارها مع صديق له من روضة الأطفال ، مثلا ، أو حجرة فصله في الصف الثانى فى المدرسة الابتدائية ، حيث تخيل ذات مرة ، عندما بدأت عاصفة ثلجية أثناء فترة الغداء ، أنها ستزداد عنفا وتتطور بحيث تبقى كل الأطفال معزولين وناعمين بالدفء لمدة أيام ، يشربون أقداح حساء ترسل إليهم من الكافيتريا .

راح هو وبيرل يشاهدان التليفزيون ، بعد العشاء بينما عاد عزرا ليشرف على المطعم . أبقت بيرل غرفة المعيشة مظلمة ، تضيئها فقط شاشة التليفزيون الزرقاء الخفاقة . كانت كلتا النافذتين الأماميتين مفتوحتين وكان بإمكانهما أن يسمعا ضوضاء الطريق - مباراة فى بيسبول المساجين ، جرسا بهيجا ، امرأة تنادى أطفالها . وحوالى الساعة التاسعة ، عندما كان الشفق قد تراجع أخيرا أمام الليل وأصبح

الهواء الخانق رطبا بعض الشيء ، سمع لوك الطنين المميز المحكم النسيج لسيارة مرسيدس تتوقف عند الرصيف . توتر . واصلت بيرل ، التي لم تكن لتتعرف على الصوت ، مشاهدة التليفزيون برباطة جأش . سألته ، « من ذلك ، يا عزيزى ؟ » لكنها كانت تشير إلى أحد الممثلين ؛ كانت تحدق فى جهاز التليفزيون . جاء وقع خطوات أقدام عبر الشرفة الأمامية . قالت ، « إه ؟ بهذه السرعة ؟ » نهضت ، وهى تفتش أولا عن ذراعى مقعدها بتمريرتين أو ثلاث ، تمريرات ضريرة . فتحت الباب الأمامى وقالت ، « كودى ؟ »

وقف كودى ضخما ، أضخم مما توقع لوك ، وذراعه وجبائر ساقه تتوهج بيضاء فى الظلام . قال ، « أهلا ، يا أمى » .

ــــ « لماذا ، كودى ، دعنى أنظر إليك ! وروث : أهلا ، يا عزيزتى . كودى ، هل أنت بخير ؟ لا أستطيع أن أميز وجهك . هل تشعر حقا بتحسن ؟ »

قال لها كودى ، « أنا على ما يرام » . قبّل وجنتها ثم راح يعرج داخلا .

قال لوك ، « أهلا ، يا أبى » ، وهو ينهض بحرج .

قال كودى ، « هل لى أن أسأل عما ظننت أنك كنت بصدده ؟ »

ــــ « حسنا ، لا أدرى ... »

ــــ « لا تدرى ! هل هذا كل ما لديك لتقوله ؟ لقد أفزعتنا فزع الموت ! كانت أمك لا تتمالك نفسها رعبا » .

صاحت روث « أوه ، يا حبيبى ، كنا قلقين للغاية ! » جذبته إليها وقبّلته . جعد ثوبها – وهو من البوليستر القرمزى ترتديه فى مناسبات

خاصة – طياته الحادة على صدره . اشتم رائحتها العشبية المألوفة التى لم يلاحظها حقا من قبل على الإطلاق .

قالت روث لبيرل ، « كدنا نفقد عقلينا . أعتقد أننى لابد قد شخت ربع قرن . شعرت أننى إذا نظرت من نفس تلك النافذة الأمامية مرة واحدة أخرى لجننت ، لجننت تماما ، لجننت إلى حد الهذيان – نفس المنحنى القديم فى الطريق ، نفس الرصيف القديم ، خاويان . أنت لا تعرفين قط » .

قالت بيرل إنها كانت لديها مدخرات قليلة ، لكن كودى ظل يلح ، كما لو كان هناك شىء مُرضٍ ، شىء مزهو فى شراء فرن لشخص ما . أوه ، المال ، المال ،. كنت لتظن أن بإمكانهم أن يصلوا إلى موضوع ما أكثر إثارة للسويق .

ضغط لوك على ذراع فى مقعده ووجد نفسه يتطوح إلى الخلف ، وقدماه ترتفعان فجأة على مسند للقدمين من نوع ما . كانت بيرل تسأل الآن إلى أين سيذهبون بعد بيترسبرج ، وكودى يقول إنه لايعرف ؛ كان هو و سلون يأملان أن يضطلعا بشركة أدوات التجميل هذه فى ... ولّدت نبرة صوته العاقلة فى لوك شعورا بأنه يُخدع ، يُخان . لماذا ، لقد كان يستمع طيلة هذا الوقت إلى مثل هذه الحواديت البشعة ! لقد أخبره كودى عن مثل هذه النوايا السيئة

قالت بيرل ، « أعرف فعلا . أعرف فعلا » .

كانت تتحسس بحثا عن مفتاح إضاءة مصباح على المنضدة . حف الستار الحريرى ومال . ثم وصل عزرا إلى الباب . قال ، « كودى ؟ هل هذا أنت ؟ » مشى مسرعا بخطى واسعة إلى الداخل وواجه روث أولا – اصطدم بها إلى حد أن تفقد توازنها ـ وأمسك بيدها ورجها .

قال ، « جميل أن نراك ، ياروث » . فى تلك الأثناء عثر كودى على المفتاح لأمه وأضاء المصباح . كانت مصادفة ؛كان يعينها فقط ، لكن لوك شعر أنه أضاء المصباح ليفحصهما : روث وعزرا ، وجها لوجه . طرف عزرا بعينيه فى الضوء المفاجىء ثم عانق كودى عناق دب . وقف كودى دون مقاومة . سأله عزرا ، « كيف حال ذراعك ؟ كيف حال ساقك ؟ ماذا ، لا عكازات ؟ »

واصل كودى مراقبة روث وعزرا . قالت روث ، « يقول إنه لا يستطيع استعمالها ، يقول إنه وذراعه المقابلة فى جبيرة ... » مدت يدها وملست صدرة لوك الخارجية ، التى لم تكن تحتاج إلى تسوية . دفعت شعره عن جبينه . قالت وهى مغيبة ، « أما الآن وقد حصل على جبيرة المشى هذه ... أوه ، لوك ، حبيبى ، ألم تكن تظن أننا سنفتقدك ؟ »

استدار كودى وانهار فى مقعد . سألتهما بيرل ، « ألا تودان أنتما الاثنان بعض الشاى المثلج ؟ »

قال كودى ، « لا ، شكرا » .

ـــ « أو قهوة ؟ قدحا لطيفا من القهوة ؟ »

قال كودى ، « لا ! ياالله . لا » .

توقع لوك أن تُبدو الإساءة على بيرل ، لكنها ابتسمت لكودى ابتسامة راضية بشكل غريب . قالت له ، « كنت دائما نكدا حين تصيبك وعكة » .

وفى الحقيقة ، كم كانت كل هذه الزيارة مثيرة للدهشة ! ـ قاتمة

وخلوا من الأحداث الهامة ، بل مملة . بدأ لوك يجلس منتصبا بشكل صارم ، لكنه استرخى بالتدريج وترك انتباهه ينجرف إلى عرض منوعات تليفزيونى . راح الكبار يهمهمون حوله بدون توكيد ، وهم يناقشون أمور المال . كان كودى يريد بيرل أن تشترى فرنا جديدا ؛ قال إنه سيدفع ثمنه . قالت بيرل إنها كانت لديها مدخرات قليلة ، لكن كودى ظل يلح ، كما لو كان هناك شىء مُرضٍ ، شىء مزهو فى شراء فرن لشخص ما . أوه ، المال ، المال ، المال . كنت لتظن أن بإمكانهم أن يصلوا إلى موضوع ما أكثر إثارة للتشويق .

ضغط لوك على ذراع فى مقعده ووجد نفسه يتطوح إلى الخلف ، وقدماه ترتفعان فجأة على مسند للقدمين من نوع ما . كانت بيرل تسأل الآن إلى أين سيذهبون بعد بيترسبرج ، وكودى يقول إنه لا يعرف ؛ كان هو و سلون يأملان أن يضطلعا بشركة أدوات التجميل هذه فى ... ولّدت نبرة صوته العاقلة فى لوك شعورا بأنه يُخدع ، يُخان . لماذا ، لقد كان يستمع طيلة هذا الوقت إلى مثل هذه الحواديت البشعة ! لقد أخبره كودى عن مثل هذه النوايا السيئة والمرارة ! لكن كودى وبيرل كانا يتحدثان بلطف ، مثل أى كبار متحضرين . كانا يناقشان ما إذا كان الشمال أو الجنوب مكانا أفضل للمعيشة . ودار بينهما نقاش هادىء ، فاتر ، غير مجد حول هذا ، حتى ظهر أن بيرل تفترض أن بلتيمور فى الشمال وأن كودى يفترض أنها فى الجنوب . سألته إذا ما كان هذا المصنع الجديد خطرا مثل المصنع السابق . قال كودى ، « أى مكان خطر ، إذا كان البلهاء يديرونه » .

قالت له ،« كودى ، إننى قلقة للغاية ، لو أنك عرفت كم كنت مجنونة ! أن أسمع أن أكبر أبنائى ، ولدى الأول فى حالة حرجة وأننى غير مسموح لى أن آتى لأراه » .

ـــ « حالة حرجة ! إننى أمشى ، أليس كذلك ؟ »

قالت ، «**الجريح** السائر » ، وطوحت ذراعيها إلى أعلى . « أليست هذه سخرية ؟ كنت دائما أظن أن الكوارث ... تخص الطبقات الدنيا . كنت أقرأ هذه القصص السيئة الحظ فى الجريدة : سيدة تُطرد بحكم قضائى فى حين أنها تحاول أن تربى سبعة أطفال لابنتها التى صرعتها رصاصات فى إحدى الحانات ، وأحد الأطفال متخلف عقليا والآخر يجب أن يؤخذ لعملية تنقية الدم عدة مرات أسبوعيا ولنقل الدم مرتين أسبوعيا ، بواسطة حافلة المدينة ، تقطع به شوطا من الطريق ، ثم يستقل حافلة أخرى لباقى الطريق ... حسنا ، طبعا أشعر بالأسف لمثل هؤلاء الناس لكننى أيضا ، لا أدرى ، أشعر بنفاد الصبر ، كما لو كانوا قد جلبوا هذا لأنفسهم بطريقة ما . هناك حد ، هكذا أريد أن أقول لهم ؛ هناك قدر ما فقط من الحياة يعتمد على الحظ . لكن أنظر الآن : إن بصرى يضعف وابنى الأكبر أصيب فى حادثة خطيرة وابنه هرب من بيته لأسباب لا نعلمها ، ولم أر ابنتى لعدة أسابيع لأنها مقيدة بابنتها الصغيرة التى أصابها ذلك المرض ، ماذا يسمونه ، فقدان الشهية ـ »

سألها كودى ،« كيف حال بيكى ، على أية حال ؟ » وبدت لعينى لوك صورة لكودى يمد يده وسط عقدة من الخيوط المتشابكة ، ويجذب الخيط القصير الوحيد الذى لم يكن مشتبكا مع الخيوط الأخرى على الإطلاق .

قالت بيرل ، وهى تتأرجح ، « لا أحد يعرف » .

دلكت روث جبينها ، الذى اكتسى بمظهر مجهد خشن كان دائما يكتسى به بعد يوم عصيب . ضحك عزرا من شىء فى التليفزيون . تنهد كودى ، الذى كان يراقبهما كليهما ، بحدة واستدار إلى أمه .

قال لها ، « يحسن بنا أن نذهب » .

انتصبت . قالت ، « ماذا ؟ هل أنتم راحلون ؟ »

ـــ« أمامنا طريق طويل » .

قالت له ، « لكن هذا هو بالضبط السبب الذى من أجله ستبقى ! استرح الليلة وأبدأ نشيطا فى الصباح » .

قال كودى ، « لا نستطيع » .

ـــ « لماذا لا تستطيعون ؟ »

ـــ « علينا أن ... آه ، نطعم الكلب » .

ـــ « لم أكن أعرف أن لديكم كلبا » .

ـــ « من نوع الدوبرمان » .

ـــ « لكن الدوبرمان نوع وحشى » .

قال كودى ، « هذا هو السبب الذى من أجله يحسن بنا أن نسرع بالعودة وأن نطعمه . لا أريده أن يلتهم الجيران » .

مد يده باتجاه لوك ، تسلق لوك الكرسى المستلقى بصعوبة ليساعد أباه على الوقوف على قدميه . عندما أطبقت أصابع كودى على أصابعه ، تخيل لوك أن هناك إحكاما إضافيا – مصافحة سرية ، لكزة على النكتة التى أنجزاها على بيرل . حافظ على وجهه بلا تعبير عن عمد .

قال عزرا ، « أنصتوا جميعا . تعرفون أن عيد الشكر وشيك » .

حدق فيه الجميع .

ـــ « هل ستعودون إلى هنا لقضاء عطلة عيد الشكر ؟ يمكننا أن نتناول عشاء عائليا فى المطعم » .

قال كودى ، « أوه ، يا عزرا ، لا ندرى أين سنكون عندئذ » .

قالت بيرل ، « ماذا ؟ ألم تسمع أبدا بالطائرات ؟ المركبات البرمائية لشركة أمتراك ؟ النقل الحديث ؟ »

قال كودى ، وهو يربت كتفها ، « سوف نتكلم فى هذا عندما يقترب الوقت . روث ، هل لديك كل شىء ؟ إلى اللقاء ، يا عزرا ، أخبرنى كيف يسير الحال » .

اجتاحت المكان موجة من العناق والمصافحة . وفيما بعد ، لم يكن لوك واثقا أنه شكر عزرا - على الرغم من أنه لم يكن يدرى لماذا أراد أن يشكره ، بالتحديد ؟ لأجل شىء ما أو آخر ... ساروا على الرصيف ودخلوا السيارة ، التى كانت لاتزال تحتفظ برائحة الهواء المكيف الراكدة الشاحبة . صاح كل واحد بأجزاء من جمل ، كما لو كانوا يحاولون أن يعطوا الانطباع بأنهم كان لديهم الكثير ، لكن لم يكن هناك متسع ليقول كل منهم ما لديه كاملا . « الآن ، تأكدوا من أن - » ، « من المؤكد أنه كان طيبا أن - » ، « أخبروا جينى أننا نتمنى - » ، « وقُد السيارة بحذر ، هل تسمع ؟ »

تحركوا من جانب الرصيف ، وهم يلوحون من خلال النافذة . تراجع عزرا وبيرل . اتجه لوك ، وهو يجلس فى الخلف ، بوجهه إلى الأمام ووجد أباه خلف عجلة القيادة . كانت أمه فى مقعد الركاب الأمامى . قال لوك ، « أمى ؟ ألا تظنين أنك يجب أن تقودى ؟ »

قالت روث ، « لقد أصر . قاد على طول الطريق إلى هنا ،

أيضا » . استدارت ونظرت إلى لوك نظرة لها مغزى ، من فوق ظهر المقعد . « قال إنه يريد أن يكون هو من قاد السيارة ليأتى بك » .

قال لوك ، « أوه » .

ما الذى كانت تنتظره ؟ ظلت تنظر إليه بعض الوقت ، ثم كفت عن هذا واستدارت بعينيها مرة أخرى . جلس لوك متجها إلى الأمام ، وهو يبذل قصارى جهده ، ليلاحظ كيف كان كودى يدبر أمره .

قال ، « حسنا ، أظن أن الأمر لن يكون صعبا إلى هذا الحد ، فيما عدا نقل السرعة » .

قال له كودى ، « النقل سهل » .

ـــ « أوه » .

ـــ « ولحسن الحظ أنه ليس هناك جهاز تعشيق التروس » .

ـــ « لا » .

مروا بصفوف وصفوف من البيوت ، كثير منها شرفاتها تغص بناس يتأرجحون فى الظلام . داروا حول بناية كان بها رواقات بيضاء بدلا من الشرفات اللصيقة بالشارع . فى أحد هذه الرواقات حطت عائلة بأكملها ، ومعها ثلاجة صغيرة للبيرة ومروحة قلابة وطفل فى مهد شبكى موضوع على الرصيف . وعلى غطاء مقدمة سيارة بجوار الرصيف كان هناك جهاز تليفزيون ، ولذا فإذا تصادف أنك كنت سائرا على قدميك ، فقد كان عليك أن تعبر بين التليفزيون وبين المشاهدين ، وأنت تغمغم ، « اعذرونى ، من فضلكم » ، كما لو كنت قد سرت خلال غرفة معيشة شخص ما . حدق لوك فى تلك العائلة طالما ظلت فى مرمى البصر . حل محلهم شريط من الحانات والمقاهى ، ثم زقاق مظلم .

قال لوك لأبيه ، « أليس من الغريب أن أحدا لم يطلب منكم فى بلتيمور أن تعيدوا تنظيم أى شيء » .

قال كودى ،« غريب جدا » .

ـــ « يكون بإمكاننا عندئذ أن نعيش مع جدتى ، ألا نستطيع ؟ »

لم يقل كودى شيئا .

غادروا المدينة إلى الطريق السريع ، وهم يدخلون عالما من الأضواء العالية الكئيبة وسماء داكنة الزرقة . انزلقت روث ببطء أمام النافذة . كان رأسها الصغير يتذبذب مع كل انحدار فى الطريق .

قال لوك ،« نامت أمى » .

قال كودى ،« إنها متعبة » .

ربما كان يعنى بها توبيخا . هل كان هذا حيث يبدأ التوبيخ ؟ ظل لوك هادئا لفترة . لكن ما قاله كودى بعد ذلك كان ، « إن ذلك البيت يرهقها . فجدتك يصعب التعامل معها » .

ـــ جدتى ليست صعبة .

ـــ « ليس بالنسبة لك ، ربما . بالنسبة لآخرين هى كذلك . بالنسبة لأمك . فجدتك تعتقد أن أمك « نفاية » . هى قالت لى ذلك ، ذات مرة . أطلقت عليها « نفاية ومستهترة » . ضحك ، وهو يتذكر شيئا ، إلى درجة أن لوك شرع يضحك كما هو متوقع . قال كودى ، « وذات مرة – أراهن أنك لا تتذكر هذا – حدثت بينى وبين أمك مشاحنة صغيرة سخيفة ، ووضعتك فى لفة وحملتك وهربت إلى عزرا . ثم ما أن وصلت إلى المحطة حتى شرعت تفكر فيما يمكن أن تكون عليه الحياة مع جدتك

واتصلت بى وطلبت منى أن أحضر وأقلها إلى بيتها » . ذوت ابتسامة لوك . سأله ، « هربت إلى أين ؟ »

ــــ إلى عزرا . لكن لا تلق إلى ذلك بالا ، كان ذلك مجرد واحدة من تلك . »

قال لوك ، « لم تهرب إلى عزرا . كانت تنوى الذهاب إلى أهلها » .

سأله كودى ، « أى أهل ؟ »

لم يكن لوك يعرف .

قال كودى ، « إنها يتيمة . أى أهل ؟ »

ــــ « حسنا ، ربما ... »

قال كودى ، « كانت تنوى الذهاب إلى عزرا . أستطيع أن أرى ذلك الآن ! أستطيع أن أتصور كيف كانا ليتوليان أمر زواجهما ، من حيث انتهى زواجنا . أوه ، أعتقد أننى قد ساورنى الشعور دائما بأنه لم يكن زواجى ، على أية حال . كان زواج شخص آخر . كان زواجهما . أحيانا كان يبدو لى أننى استمتع به استمتاعا أفضل حين أتخيل أننى كنت أراه من خلال عينى شخص آخر » .

سأله لوك ، « لماذا تخبرنى بهذا ؟ »

ــــ « كان كل ما أعنيه هو . »

ــــ « ماذا أنت ، مجنون ؟ كيف يتأتى لك أن تستمر فى التشبث بهذه الأشياء ، عاما بعد عام ، بعد عام ؟ »

ــــ « الآن ، انتظر لحظة ، انتظر ... »

هز لوك كتف أمه ، « أمى ! أمى ! استيقظى ! »

مال رأس روث إلى الجانب الآخر .

قال كودى ، « دعها تسترح ، اللعنة ، يالوك . »

ـــ « استيقظى ، يا أمى ! » .

قالت روث ، وهى لا تستيقظ ، « همم » .

ـــ « أمى ؟ أريد أن أسالك . أمى ؟ هل تذكرين عندما وضعتنى فى لفة وحملتنى وهربت من أبى ؟ »

ـــ « مم » .

ـــ « تذكرين ؟ »

غمغمت ، وهى تتكور بإحكام أكبر « أجل » .

ـــ « إلى أين كنا سنذهب ، يا أمى ؟ »

رفعت رأسها ، وشعرها كله أشعث ، وألقت عليه نظرة محدقة غائمة مذهولة . قالت ، « ماذا ؟ مقاطعة جاريت ، حيث يعيش عمى . من يريد أن يعرف ؟ »

قال لها كودى ، « لا أحد . عودى إلى النوم » .

عادت إلى النوم . حك كودى ذقنه وهو مستغرق فى التفكير .

أسرعوا خلال ممر من الضوء يحده من كلا الجانبين أكثف ظلام . التقوا بسيارات منفردة وتجاوزوها فكانت تختفى فى لحظة . تدلى جفنا لوك .

قال كودى ، « ما أعنى أن أقوله ، ما قدت السيارة طوال هذا الطريق لأقوله ... »

لكنه عندئذ أصبح تدريجيا أقل ميلا للكلام . وعندما شرع يتكلم

ثانية ، فقد تكلم عن موضوع مختلف كلية : الوقت . كيف كان الناس يقللون من قيمة الوقت . كيف كان الوقت ثمينا جدا وما إلى ذلك . شعر لوك بالراحة . أصغى بهدوء بال أكثر ؛ وقد هدهدته كلمات والده . قال والده ، « كل شيء ينتهي إلى الزمن - إلى مرور الزمن ، إلى التغير . هل فكرت في ذلك أبدا ؟ أى شيء يجعلك سعيدا ، أو حزينا ، ألا يقوم فى النهاية على أساس مرور الدقائق ؟ أليست السعادة هى توقع شيء سوف يأتيك به الزمن ؟ أليس الحزن هو أن نتمنى أن يعود بنا الزمن أدراجه ؟ حتى الأشياء الكبيرة - حتى التفجع على موت عزيز : ألا تتمنى تماما حقا أن يعود الزمن إلى الوراء حين كان ذلك الشخص حيا ؟ أو اللقطات الفوتوغرافية - هل لاحظت أبدا اللقطات الفوتوغرافية القديمة ؟ كم تجعلك تشعر بالحزن ؟ ناس يبتسمون من زمن بعيد ، طفلة ستكون الآن سيدة عجوزا ، قطة ماتت ، نبات مزهر ذوى مَنذ ذلك الزمن البعيد والأصيص ذاته قد كُسِر أو وضع فى غير موضعه ... أليس مجرد أن الزمن قد توقف مرة هو ما يجعلك حزينا ؟ لو أنك كنت تستطيع فقط أن تعيده إلى الوراء مرة أخرى ، هكذا تقول لنفسك . لو أنك كنت تستطيع فقط أن تغير هذا أو ذاك ، أن تبطل ما فعلته ، لو أنك كنت تستطيع فقط أن تدير الدقائق فى الاتجاه العكسى ، ولو مرة واحدة » .

لم يكن يبدو عليه أنه يتوقع إجابة . وهو ما كان من حسن الطالع . فقد كان لوك نعسانا إلى درجة لا يستطيع معها أن يدبر واحدة . شعر بثقل ، أثقلته قصص الناس الآخرين . تخيل أنه ينزلق أو يسقط . اعتقد أنه ينزلق بعيدا ، يتدفق إلى أسفل نهر زمن عظيم ، عريض ، يغمره الضوء ، برفقة كل الناس الذين التقى بهم اليوم . ترك رأسه يميل ، وأغمض عينيه ونام .

[٩]

تفاح تفاح

استيقظ عزرا تل ذات صباح وحلق ذقنه ، ودعك أسنانه بالفرشاة ، ودخل فى سرواله ، وصادف نتوءا فى أعلى فخذه الأيمن . أحست به أصابعه بالصدفة فتكصت حيرى ثم عادت اليه . اكتسى وجهه الأشقر ، العريض ، بنظرة متجمدة فى مرآة غرفة النوم . وجد ذهنه ينصرف إلى كلمة سرطان رغما عنه ، كما لو كان أحد قد همس بها فى أذنه ، لكن ما سبّب تعبير وجهه المصدوم كان الخاطر الذى مرق بعدهاً : حسنا . ليحدث . سوف أمضى وأموت .

طرد الخاطر ، بطبيعة الحال . كان فى السادسة والأربعين ، رجلا هادئا عاقلا ، وفيما بعد سوف يحدد موعداً مع د . فنسنت . وفى غضون ذلك ارتدى قميصا ، وزرره ، وفرد زوجا من الجوارب . تحسس النتوء ثانية مرتين ، دون أن يقصد ذلك ، بأنامله . كان تقريبا فى حجم جوزة البلوطة ، حساساً لكنه غير مؤلم . كان يدور تحت الجلد بنعومة مثل مقلة العين .

لم يكن الأمر يتعلق بأنه يريد حقا أن يموت . بالطبع لا . كان فقط نهبا لحالة مزاجية عابرة ، قرر هذا وهو يهبط الدرج ؛ فلم تكن الأمور تسير سيرا حسنا فى هذا الصيف . كانت أمه ، التى كان إبصارها يضعف منذ ١٩٧٥ ، عمياء كلية تقريبا الآن (فى ١٩٧٩) ، لكنها

مازالت لم تعترف بهذا تماما ، وهو ماجعل أمر العناية بها أصعب بكثير ؛ وأخوه أكثر بعدا وأخته أكثر انشغالا من أن يقدما له مساعدة كبيرة . وكان مطعمه يتعثر حتى أكثر من المألوف ؛ فقد توقفت أبرع طاهياته عن العمل لأن خريطة بروجها نصحتها بذلك ؛ وبدت موجة من الحرارة كما لو كانت تخدر مدينة بلتيمور بأكملها . كانت الأمور سيئة إلى حد أن أتفه المشاهدات أسهمت فى تأكيد يأسه - كلب جاره يلهث على الرصيف ، أو شجيرة أمه الوحيدة السقيمة من نوع الكوبية تلتوى وترتخى فى الساعة الثانية من عصر كل يوم . حتى منظر ساعى البريد كان يجسد الكارثة ؛ فقد قُتِلت زوجته فى حادث سطو فى الربيع الماضى ، وكان الآن يحمل حقيبته الجلدية بمشقة فى طوافه بالناحية كما لو كانت ثقيلة فوق الاحتمال ، كما لو كانت ستجره فى النهاية إلى التوقف . أصبحت قدماه أبطأ وأبطأ ؛ وانحنت كتفاه أقرب إلى الأرض . وفى كل يوم كان البريد يصل متأخرا أكثر .

وقف عزرا حاملا قهوته عند النافذة ، وراح يراقب ساعى البريد مستغرقا فى تفكير كئيب وهو يمر من أمامه ، وتساءل إن كان للحياة أية أهمية .

ثم هبطت أمه إلى الطابق السفلى ، وهى تثبت قدميها جيدا . قالت ، « أوه ، أنظر ، ياله من صباح مشمس ! » افترض أن بإمكانها أن تشعر بهذا - والصباح يدفىء بشرتها فى مربعات حين وقفت إلى جواره عند النافذة . أو ربما استطاعت حتى أن تراه ، حيث من الواضح أنها مازالت تميز الضوء من الظلام . لكن ثوبها كان مرتبا بطريقة خاطئة . كانت قد لملمت شعرها الأشقر الأشيب القشى فى كعكته المألوفة ، ووضعت بمهارة ومضة وحيدة من اللون الأرجوانى على منتصف شفتيها الجافتين المزمومتين ، لكن جانبا من ياقتها كان بارزا لأعلى

بزاوية ، وكان النسيج المزهر ناتئا إلى الخارج كأنه جراب ، يظهر سروالها الداخلى من خلال ثغرة بين زرارين .

قال لها عزرا ، « سوف يصبح يوما شديد الحرارة » .

ـــ « أوه ، يا لعزرا المسكين ، أكره أن أراك تذهب إلى العمل فى هذا الحر » .

كان كل ما تقوله يحمل إشارة إلى البصر . لم يستطع أن يعرف إذا كانت قد انتوته على هذا النحو .

سمحت له أن يأتيها بكوب قهوتها لكنها رفضت الإفطار ، وجلست بدلا من ذلك بجواره فى غرفة المعيشة بينما راح هو يقرأ الجريدة . كان هذا وقتهما الوحيد معا - الصباح والظهر ، كان يغادر بعده إلى المطعم ولا يعود حتى وقت متأخر جدا من الليل ، بعد موعد نومها بوقت طويل . وكان يعانى من تخيل مافعلته فى غيابه . وأحيانا يتصل بها من عمله وكانت تبدو دائما نشيطة - كانت تقول ، « أعد لنفسى بعض الشاى المثلج » ، أو « أفرز جواربى » . لكنه يسمع فى الخلفية أنغام موسيقى الأرغن المنذرة بالسوء ، الشديدة الحلاوة منبعثة من مسلسل تليفزيونى عاطفى ، وشك أنها جلست ببساطة أمام التليفزيون ردحا طويلا من النهار ، وقد تدلت على كتفيها حتى فى هذا الحر ثنيات حسنة المظهر من سترة صوفية محبوكة ، ويداها الباردتان مطويتان فى حجرها . ومن المؤكد أنها لم تكن ترى صديقات ؛ فلم يكن لها أى صديقات . وفى حدود ما يستطيع أن يتذكر ، لم يكن لها أى صديقات مطلقا . فقد عاشت من خلال أطفالها ؛ كل ما تعرفه عن العالم الخارجى تعرفه من النميمة التى يأتون بها ، وأنشطتهم توفر لها إحساسها الوحيد بالحركة . حتى فى الماضى حين كانت تعمل فى متجر البقالة ، لم تكن

تعاشر العميلات أو الصرافات الأخريات . أما الآن وقد اعتزلت العمل ، فلم تكن أى من رفيقاتها فى العمل تأتى لزيارتها .

لا ، كانت هذه ذروة يومها ، بلا شك : ساعات منتصف الصباح البطيئة هذه ، حفيف جريدة عزرا ، وتقاريره الإخبارية المتقطعة . « تقول هنا إن سائق تاكسى آخر قد سُرِق بالإكراه » .

ـــ « أوه ، يالله » .

ـــ « حادث إطلاق نار آخر فى ميدان المدينة » .

تساءلت أمه ، « أين ينتهى هذا كله ؟ »

ـــ « قنبلة إرهابية فى مدريد » .

الجرائد ، الخطابات ، اللقطات الفوتوغرافية ، المجلات - كان يستطيع أن يساعدها بها . مع هذه الأشياء كانت تترك نفسها تحدق أمامها مباشرة ، بعينين جامدتين ، وهو يقوم بدور المترجم . لكنها كانت تعتمد على نفسها بشكل ضارٍ فى كل المواقف الأخرى . ماذا كانت طبيعة التفاهم بينهما بالضبط ؟ أقرت فقط بأن بصرها لم يعد ما كان عليه - أنه ضعف بالقدر الذى يجعل القراءة مزعجة . قال الطبيب ، « هى عمياء » وهى تخبره ، « هو يظن أننى عمياء »وهى لا تجادل لكنها تتمكن من أن تعنى ضمنا ، بشكل ما ، أن هذه كانت مسألة رأى - أو مسألة إرادة ، ما تريد أن تسمح به وما لا تريد . كان عزرا قد تعلم أن يقدم لها تلميحات بالأسلوب العرضى المائل الذى تقبله . فلو أنه قال ، مثلا ، « إنها تمطر ، يا أمى » ، وهما يبدآن رحلة لمكان ما ، لشمخت بأنفها وقالت له ، « حسنا ، أعرف ذلك » . تعلّم أن يقول ، « رجل الأرصاد يقول إنه هذا سيستمر . يستحسن أن تأتى بمظلتك » ، عندئذ

كان وجهها يتغير ويهدأ ، وهى تتكيف مع المعلومة . كانت لتقول ، « بصراحة ، أنا لا أصدقه » ، على الرغم من أنه كان ذلك المطر الذى تكتنفه شبورة والذى يهطل دون صوت ، وكان يعلم أنها لن تتبينه . كانت تخفى دهشتها جيدا حتى أنه لم يكن فى وسع أحد آخر غير أولادها ، الذين تعودوا على إنكارها العنيد لأى شىء قد يضعفها ، أن يرى ما يكمن تحت تلك النظرة المحدقة الرمادية المتحدية .

وفى الشهر الماضى أخبرته أخته أن أمهم اتصلت بها لتسأل سؤالا غريبا . قالت ، « كانت تريد أن تعرف إن كان صحيحا أن الرقاد على ظهرها لوقت طويل يسبب لها التهابا رئويا . سألتها ، « لماذا ؟ لماذا تهتمين ؟ » قالت ، « بدافع الفضول فقط » . »

أخفض عزرا جريدته ، وضع طرفى إصبعين بحرص عند أعلى فخذه .

بعد أن أنتهيا من قهوتهما ، غسل القدحين ورتب المطبخ ، الذى اكتسب هذه الأيام مظهرا غير نظيف مهما فعل به . كانت هناك مشكلات لم يعرف كيف يعالجها – الستائر بجوار الموقد تكتسب لونا رماديا ، والمنديل الدانتيللا الصغير تحت طاقم التوابل الموضوع على المائدة ، يتييس بالغبار . هل غسلت مثل هذه الأشياء حقا ؟ هل ألقيتها فقط فى الماكينة ؟ كان يستطيع أن يسأل أمه ، لكنه لم يفعل . فسوف يزعجها هذا فقط . كانت لتتساءل ، عندئذ ، أى واجبات أخرى قصرت عن أدائها إلى جانب هذا .

خرجت إليه ، وهى تتحسس طريقها بعناية بالغة إلى حد أن خفيها الصغيرين الأسودين بدوا مثل أعضاء رقيقة ، بالغة الحساسية ،

ترتجف . قالت ، « عزرا ، ما هى خططك لهذا الصباح ؟ »

— « لا خطط ، يا أمى » .

— « هل أنت واثق ، الآن ؟ »

— « ما الذى تريدين أن تفعليه ؟ »

— « كنت أفكر أننا نستطيع أن نفرز أدراج مكتبى ، لكن إذا كنت مشغولا — »

— « لست مشغولا » .

— « عليك أن تقول فقط إذا كنت مشغولا » .

— « سوف يسرنى أن أساعدك » .

قالت ، « عندما كنت صغيرا ، كان يغضبك أن ترانى مريضة أو فى حاجة إلى مساعدة » .

— « حسنا ، كان ذلك حين كنت صغيرا » .

— « أليس هذا غريبا ؟ فقد كنت أنت حينذاك أطيبهم قلبا ، أشدهم التصاقا بى ، وألطفهم ؛ والآخران يدبران دائما شيئا ، وينهمكان فى أمورهما الخاصة . لكن عندما كنت أمرض ، كنت تصبح قاسى القلب ! كنت تسأل ، « هل يعنى هذا أننا لن نذهب إلى السينما ؟ » كان أخوك هو من يتولى الأمر عندئذ – آخر من كنت أتوقع هذا منه بين أبنائى . كنت أقول ، « عزرا ، هل لك أن تحضر لى بطانية ملونة ، من فضلك ؟ » فتتحول إلى حجر وتتظاهر أنك لم تسمع . كنت تبدو كما لو كنت تظن أننى فعلت بك شيئا – أننى أصبت بصداع بدافع الإساءة إليك » .

قال عزرا ، « كنت صغيرا جدا عندئذ » .

رغم أنه كان غريبا كيف يشعر بأنه مطبق الفكين ، الآن أيضا – لا لأنه غاضب بقدر ما كان تعوزه الحماية ؛وهو يعتقد أنه كان يشعر أنه تعوزه الحماية وهو طفل ، أيضا . كان يثق أن أمه هى كل شيء بالنسبة له . عندما جرحت إصبعها بسكين تقشير ، شعر أن عدم حصانتها قد هزمه . كيف كان بوسعه أن يعتمد على مثل هذا الشخص ؟ لماذا خذلته إلى هذا الحد ؟

أسندها من الجزء العلوى من ذراعها وقادها عائدا بها إلى غرفة المعيشة . (أصبح واعيا ، فجأة ، بطول قامته وثقله الراسخ الجدير بالاعتماد عليه) . أجلسها على الأريكة واتجه إلى المنضدة لينزع الدرج السفلى .

كان ذلك شيئا فعله عدة مرات من قبل . لم تكن المسألة ، بالتأكيد ، أن الدرج بحاجة إلى تنظيف ، على الرغم من أنه قد يبدو مهوشا بالنسبة لغريب . كانت شلالات صغيرة من صور فوتوغرافية بغير أطر تنزلق منه وهو يسير ؛ وصور أخرى تبرز من الألبومات المتجعدة التى يكسوها العفن قد كومت فى جانب . كان هناك صندوق أحذية مليء بمذكرات أمه فى صباها ؛ كتاب أطفال غير كامل لكودى ؛ وصندوق حلوى يحوى رسائل قديمة ، تحمل كلها طوابع قصت من على المظاريف . وكان هناك صدار بلون أرجوانى شاحب هرس حتى أصبح متيبسا وصلبا مثل جثة فأر جافة ؛ فردة قفاز واحدة لطفل قد تصلبت بفعل الزمن ؛ وبطاقة تقرير تفوح برائحة عتيقة ، خاصة ببيرل .-أ-. كودى ، السنة الرابعة ، ١٩٠٣ ، وقد دونت التقديرات بخط رشيق للغاية إلى درجة أن شخصا ما قد يضع حالقات من شعر بنى ناعم على شكل حرف « أ » إلى جوار كل مادة . كان عزرا مغرما

بهذه المقتنيات كان يعيد فحصها عن طبيب مرارا وتكرارا ، وهو يصفها لأمه . « هناك تلك الصورة لعمتك ميليندا يوم عرسها » .

ـــ « آه ؟ »

ـــ « أنت تقفين إلى جوارها تحملين مروحة من الريش » .

ـــ قالت أمه ، « سوف نحتفظ بها » . كانت لا تزال تتظاهر أنهما يفرزان فقط .

ولكن سرعان ما أغفلت الأمر ومالت إلى الخلف ، مستغرقة فى التفكير ، فى حين راح هو يلقى على مسامعها ما يجده . « هاك صورة لشرفة شخص ما » .

ـــ « شرفة ؟ شرفة من ؟ »

ـــ « لا يمكننى أن أعرف » .

ـــ « كيف تبدو ؟ »

ـــ « عمودان وأرضية داكنة ، وأصيص من الخزف ملىء بزهور إبرة الراعى ... »

ـــ « هل أنا فيها ؟ »

ـــ « لا » .

قالت وهى تلوح بيدها ، « أوه ، حسنا ، ربما كانت شرفة لونا » .

لم يكن قد سمع بلونا هذه مطلقا .

ولكى نقول الصدق ، لم يكن يعتقد أن الأقارب هم ما كانت أمه تبحث عنه . كانت صور لرجال وسيدات لا يعرفهم تتلاحق أمام عينيه ؛

بذل قصارى جهده ليعرف أسماءهم ، لكن أمه كانت تصرف النظر عنهم بكبرياء . أحس أنها إنما كانت تبحث عن نفسها . « هل تراني على الإطلاق ؟ هل ذلك هو العشاء الذى كنت ارتدى فيه الرداء الأزرق الشاحب ؟ » أحيانا كان رسوخ عزمها يستقطب اهتمامه ، وأحيانا يضايقه . كان دفعها لذقنها إلى الأمام ينم عن تعطشها وهى تنتظر أن يخبرها بعثوره على صورة لها . « هل أنا فى تلك المجموعة ؟ هل كنت فى تلك النزهة ؟ »

فتح ألبوما قطيفيا أحمر داكنا ، وقد تحولت كل صفحة من صفحاته الرمادية اللينة حول حوافها إلى اللون الأصفر اللامع مثل البول . لم تكن أى من الصور هنا ملصقة كما ينبغى . وكانت هناك صورة وجه بنية داكنة لرجل ملتح مثبتة بإحكام فى جلدة الألبوم مع صورة ملونة لطفل قرنفلى اللون فى حوض استحمام زاه من الفينيل ، وقد طبع على الحاشية « سبتمبر ٦٣ » . دفعت أمه وجهها إلى الأمام ، متلهفة . قال ، « هنا رجل ملتح . أظن أنه أبوك » .

قالت بلا اهتمام ، « محتمل » .

قلب الصفحة . « هنا مجموعة من السيدات تحت شجرة » .

ــــ « سيدات ؟ »

ــــ « ولا واحدة منهن تبدو لى مألوفة » .

ــــ « ماذا يلبسن ؟ »

قال لها ، « ثياب طويلة فضفاضة . كل شيء يبدو مرتخيا عند الوسط » .

ــــ « هذا لابد فى عام ١٩١٠ أو نحو ذلك . لعله حفل خطوبة

لولا » .

ـــ « ومن كانت لولا ؟ »

قالت له ، « ابحث عنى فى ثوب مخطط لونه كحلى » .

ـــ « لا توجد خطوط هنا » .

ـــ « دعك منها » .

لم تكن أبدا النوع الذى يحدق إلى الوراء ، لم تملأ طفولته بقولها ، « حين كنت فى مثل عمرك » ، مثلما تفعل أمهات كثيرات . وحتى الآن ، لم تكن تستعمل هذه الصور تعلة للتذكر . فلم تكد تناقشها مطلقا – حتى الصور التى كانت تبدو فيها . فبدلا من ذلك ، كانت تنصت ، يقظة ، لأية تفصيلات يمكنه أن يعطيها لها عن ذاتها الماضية . هل كان الأمر أنها كانت تريد رؤية صورتها فى عينى شخص من الخارج ؟ أو هل كانت تأمل أن تحل لغزا ما ؟ « هل أنا أبتسم ، أو أعبس ؟ هل يمكنك القول بأننى كنت أبدو سعيدة ؟ »

وعندما حاول عزرا أن يسألها هى أية أسئلة ، كان يعتريها الملل . سألها ، « كيف كانت تبدو أمك ؟ »

قالت له ، « أوه ، كان ذلك من زمن بعيد » .

بدا له أنها لم تعش حياة حافلة . تساءل عما يمكن أن تستمتع بالعودة إليه ، فى كل تاريخها . خطوبتها ، حتى وهى تعلم كيف ستنتهى ؟ الولادة ؟ الأمومة الشابة ؟ كانت تتكلم كثيرا وبحزن عن السنين التى كان أولادها فيها صغارا . لكن معظم الصور الفوتوغرافية فى هذا الدرج كانت ترجع إلى ما قبلهم بزمن طويل ، إلى الجزء المبكر من القرن ، وكانت هذه هى الصور التى تفتش فيها بمثابرة بالغة . « سوف يكون

هذا التئام شمل عائلة بيكر ، ١٩٠٨ . حفل عيد ميلاد بيولا السادس عشر اللطيف . عيد زواج لوسى وهارولد الفضى » . كانت الأحداث التى تفهرسها أحداث ناس آخرين ؛ ظلت هى على الحواشى ، تراقب . « كاثرين روز ، فى الصيف الذى بدت فيه بالغة الجمال والتقت فيه بزوجها فى المستقبل » .

أمعن النظر فى كاثرين روز . قال ، « إنها لا تبدو على هذا القدر من الجمال بالنسبة لى » .

ــــ « سرعان ما ذوى » .

كانت كاثرين روز ، أيا من كانت ، ترتدى ثوبا سادة معقدا ذا طراز لم يُر خلال ستين سنة أو أكثر . كان يتفحص وجهها الأرنبى كما لو كانت معاصرة ، فتاة ما لمحها فى حانة ، ولكن من الممكن أنها قد ماتت منذ عقود . شعر أنه يجرجر إلى الخلف خلال طبقات من الأجيال .

قلب مذكرات دقيقة ففتحها ، العديد منها ليس أكبر حجما من علبة تجميل إحدى السيدات ، وقرأ بصوت مرتفع ما دونته أمه بخط تصعب قراءته . « **الثامن من ديسمبر ، عام ألف وتسعمائة واثنا عشر . قمت بزيارة إدوينا باريت . سكبت نصف لتر من القشدة الممتازة فى العربة وأنا أعود إلى البيت ، وأستطيع أن أؤكد لك أن ما قمت به من إزالتها من على الوسائد كان عملا رائعا ...** » « **الرابع من ابريل ، عام ألف وتسعمائة وثمانية . ذهبت إلى قلب المدينة مع أليس وقمنا بوزن أنفسنا على آلة الوزن الجديدة فى متجر مستر سليتر . أليس تزن مائة وثلاثة عشر رطلا . وأنا مائة وثمانية ونصف** » .أصغت أمه ، وهى متوترة وساكنة ، كما لو كانت تتوقع شيئا

خطيرا ، لكن كل ما وجده هو « **اشتريت عشر ياردات من مستحضر تلميع الشعر الأرجوانى ، وصنعت مهلبية بالشيكولاته للمشاركات فى دورة الثقافة للفتيات ، ووزنت نفسى ثانية فى متجر سليتر** » . وخلال صيف ١٩٠٨ – عامها الرابع عشر ، كما استطاع أن يحسب تقريبا – كانت تزن نفسها يوما بعد يوم تقريبا ، وهى تربط حصانها القزم « برنس » وتقود العربة إلى وسط المدينة تماما لتفعل هذا . قرأ ، « **السابع من أغسطس . أخذت مقاساتى عند حائكة الثياب وأعطتنى نسخة منها لأحتفظ بها . لقد نما جسمى بكل ما فى الكلمة من معنى** » . ضحك ، لكن أمه أتت بحركة صغيرة نافدة الصبر بإحدى يديها . قرأ ، « **التاسع من سبتمبر** » ، ثم داخله فجأة شعور بأن الأرض قد اندفعت من تحت قدميه . لماذا ، كانت تلك الفتاة الشابة المرحة هى هذه المرأة العجوز ! هذه المرأة العجوز الكفيفة التى تجلس إلى جواره ! كانت يوما ما شخصا مختلفا كلية ، تعيش حياة مختلفة كلية منفصلة عن حياته هذه ، وقضت وقتها **تنتقل من ناد إلى ناد مع الفتيات المسترجلات الصغيرات وتجتزىء مع الصبية من عائلة نيل إحدى المجلات الرخيصة وتنال الجائزة الأولى فى مباراة الإلقاء فى الخريف** . (كتبتْ بخط برىء غليظ ، **كنت آمل أن تفوز نادين المسكينة ، لكن كان لطيفا بطبيعة الحال أن أحصل أنا عليها**) . جلست أمه صامتة ، وهى تربت الصدار الميت غارقة فى التفكير . قالت له ، « لا بأس » .

ـــ « هل أتوقف ؟ »

ـــ « لم يكن ذلك ما أردته فى نهاية الأمر » .

فى طريقه إلى المطعم خفض عزرا رأسه داخلا إلى متجر كتب ،

واكتشف موضع « كتيب ميرك » فى القسم الخاص بالصحة الأسرية . راجع الفهرست بحثا عن كلمة ورم . لكن كان كل ما وجده هو **الفك المتورم (فطريات الجلد)** . من الواضح أن عليك أن تعرف اسم مرضك أولا – وفى هذه الحالة ، لماذا تهتم بالبحث عنه فى الفهرست ؟ فكر من خلال ما يتذكره من مقرر علم الأحياء فى المدرسة الثانوية ، وقرر أن يكشف تحت **الغدة الليمفاوية** . كانت العبارة نفسها مطمئنة ؛ فالغدد الليمفاوية تتورم طوال الوقت . كان له غدتان فى رقبته تنموان فى حجم الجوزة الأمريكية فى أى وقت يصاب فيه بالتنشق . لكن لم تكن هناك أى **غدد ليمفاوية** مسجلة فى الفهرست ، وتجمدت أوصاله عند رؤيته **سرطان الأوعية الليمفاوية ودرن الأوعية الليمفاوية والدم** . أغلق الكتاب بسرعة وأعاده إلى مكانه على الرف .

كان جوسيا قد فتح المطعم سلفا ، واثنان من المساعدين منهمكان فى تقطيع الخضراوات فى المطبخ . وكان بائع متجول يرتدى حلة من قماش مربعات يحاول أن يثير اهتمام جوسيا فى منتج ما جديد . ظل جوسيا يقول ، « ولكن . لكن لا أظن – » كان جوسيا أخرق ومشوشا – عملاقا نحيلا يرتدى ثيابا بيضاء ، وشعره الأسود الأشيب ينتصب فى خصل هائجة كما لو كان قد انتزع أحفانا منه بدافع اليأس – إلى درجة أن عزرا شعر بفورة إشفاق عليه . قال ، « جوسيا ، ما المشكلة ؟ » واستدار جوسيا إليه ممتنا . « أه ، أنظر ، هذا السيد هنا – »

قال البائع المتجول ، « الاسم ميرفى ، ج . ر . ميرفى . أبيع صلصة الصويا ، علامة تجارية خاصة . أبيعها بالصندوق » .

قال عزرا ، « ليس بإمكاننا أن نشترى صندوقا . فنحن لا نكاد نستهلك صندوقا أبدا » .

قال له البائع ، « سوف تستهلكه ، رغم هذا . فصلصة الصويا هى الشىء القادم ؛ ويحسن بك أن تحصل عليه حين يكون ذلك بمقدورك . فهذا هو الترياق للإشعاع » .

ــــ «الترياق لماذا ؟ »

ــــ « الحوادث النووية ! القنابل الذرية ! ألق فقط نظرة على الحقائق : فأولئك الناس فى هيروشيما لم يتعرضوا من قريب أو بعيد للتأثيرات الجانبية التى كانت متوقعة . تريد أن تعرف لماذا ؟ كان ذلك كله بفضل الطعام اليابانى بصلصة الصويا . صلصة الصويا قليلة التوابل المعتقة . احتفظ بصندوق منها فيما حولك ولن يبقى هناك ما يقلقك على ثرى مايل أيلاند » .

ــــ « لكننى حتى لا أحب صلصة الصويا » .

ــــ « ومن قال إن عليك أن تحبها ؟ »

قال عزرا ، « حسنا ، ربما بضع زجاجات فقط ... »

تساءل إذا كانت هناك شفرة سرية لعبادة دينية ما على بابه تقول لكل الناس المجانين أنه سيجد مشقة فى قول لا .

ذهب ليفحص قاعة الطعام . كانت نادلتان تنفضان مفارش الموائد وتنشرانها بصوت حاد يشق الهواء . كان جوسيا يسحب بتثاقل بالات من الفوط المغسولة . كانت هناك دائما لحظة ، فى هذه الساعة المبكرة من النهار ، حين كان عزرا يجد مطعمه مثبطا للهمة . كانت الموائد الخالية ، النوافذ البادية للعيان بلا ستائر ، رائحة سجائر الليلة البارحة النفاذة ، تصيبه بإحساس بالبرودة . أى مهنة هذه ؟ كان الناس يزدردون طعامه بدون تفكير ، وهم منهمكون فى خطب ود أو نقاش أو مفاوضة

إلى حد أنهم لا يلاحظون ما يأكلون ؛ ثم يذهبون إلى بيوتهم وينسونه . لم يكن أى شيء مهما . وكان عزرا رجلا فى منتصف العمر يشف شعره فى مؤخرة رأسه ؛ ولكن ها هو الآن ، حيث كان وهو فى العشرين ، يعيش مع أمه فى بيت ضمن صف من بيوت شارع كالفيرت ، ويقرأ كتب الطهى إلى أن يداعب النوم جفنيه . لم يتزوج أبدا ، لم يكن أبا لأطفال ، وقد فقد الفتاة الوحيدة التى أحبها ، بسبب إيمانه المطلق بحكم القدر ، افتقاره إلى القوة ، تسليمه بالهزيمة عن طيب خاطر . (ليكن ما يكون هى الفكرة السائدة فى حياته . كانت تحكمه حالة مزاجية حالمة من تقبل الأشياء على علاتها ، كانت من ناحية مصدر كل سعادته ومن ناحية أخرى سبب خرابه) .

جاء جوسيا ليقف أمامه . سأله ، « هل ترى حذائى العالى الساقين ؟ »

أخفض عزرا عينيه للأرض ونظر الى حذاء جوسيا العالى الساقين . كان يبرز من تحت زى العمل الأبيض الذى يرتديه – حذاء هائل الحجم من قماش القنب ، مغطى بطبقة من المطاط تمكنه أن يقاوم فيضانا ، عاصفة ثلجية ، أو انهيارا ثلجيا .

قال جوسيا ، « ل . ل . بين » .

ـــ « آه » .

كانت شركة « ل . ل . بين » المكان الذى يحصل منه جوسيا على هداياه الغامضة . كانت تصله مرة أو مرتين فى السنة : خيمة لرجل واحد ؛ كيس نوم من زغب الأوز ؛ حذاء صيد على مقاسه الصعب النادر ؛ عباءة صفراء مخضرة يمكنها أن تعينه على الرياح الموسمية ؛ مجموعة من أدوات النجاة للجيب تتضمن بوصلة ، حجر قدح ، مرآة

لإرسال الإشارات ، وبطانية معدنية . كل هذا لرجل ولد وترعرع فى المدينة وبدا ميالا إلى البقاء هناك . لم تكن هناك أبدا أى بطاقة أو مذكرة للتفسير . كان جوسيا قد كتب إلى الشركة ، لكنها أجابت بأن المتبرع فضل أن يظل غفل الاسم . وقد قضى عزرا ساعات يساعد جوسيا على التفكير فى الاحتمالات . « هل تذكر تلك السيدة التى اعتدت أن تجرف لها الممر ؟ ربما كانت هى » .

ـــ « لابد أنها ميتة الآن ، يا عزرا » .

ـــ « هل تذكر موللى كين ؟ بمقعدها المتحرك ؟ كنت معتادا على دفع عربتها إلى حصة الجبر » .

ـــ « لكنها كانت تقول ، « دع مقعدى ، أيها المتخلف الكبير ! » .»

ـــ » ربما تندم على هذا الآن » .

ـــ «أوه ، لا . ليست هى . ليست موللى كين » .

ـــ « ربما كان مجرد شخص غيرت له إطار سيارته ولم تفكر فيه أبدا . شخص فتحت بابا له . ربما ... لا أدرى ... »

فى الأحوال العادية كان يستمتع بهذه التأملات ، لكنه الآن وهو ينظر إلى حذاء جوسيا الهائل صدمته حقيقة أنه حتى جوسيا - جوسيا النحيل ، البارز الأسنان ، المتلعثم - كان له إنسان ملكه وحده ارتبط به ، سواء كان يعرف اسم ذلك الشخص أم لا ، ويعيش فى عش من الهدايا والأسرار والرعاية الخاصة التى كان عزرا محروما منها .

قرأ عزرا بصوت مرتفع ، « **رأس السنة ، ألف وتسعمائة وأربعة** عشر . أرجو **ألا تُفقد هذه المفكرة كما فُقِدت مفكرة العام الماضى .**

أرجو ألا أضع فيها أى شىء أحمق مثلما عرف عنى من قبل أننى أفعل » .

أخفت أمه ابتسامة ، دون أن تنجح . أى حماقة كان من الممكن أن ترتكبها فى ذلك الزمن البعيد ؟ انزلقت عينا عزرا إلى أسفل الصفحة إلى سطر مشطوب . قال ، « هناك شىء لا أستطيع قراءته » .

ـــ « لم يعرف عنى أبدا حسن الخط » .

ـــ « لا ، أعنى أنك شخبطت فوقه بحلقات كثيرة للغاية وأشياء ـ »

قالت أمه ، « تفاح تفاح » .

ـــ « عفوا » .

ـــ « كان ذلك ما نكتبه فوق كلمات نريدها أن تبقى سرا . « **تفاحتفا حتفاح** » كلها مرتبط ببعضها ، حتى لا يستطيع أحد أن يخمن ما كتب تحتها » .

قال عزرا ، « حسنا ، من المؤكد أنها أوفت بالغرض » .

قالت له أمه ، « استمر » .

ـــ « أوه ... أوم . **وضعت لبخة بذر الكتان على اصبعى ... بدأت إعداد بعض أربطة الجوارب من شريط أرجوانى شاحب ... صنعت بعض القشار ودهنت نصفه بالزبد ، وصنعت بالباقى بسكويتا هشا ...** »

تنهدت أمه . وقرأ عزرا عدة صفحات قراءة عابرة وهو صامت .

كم كانت الحياة الواقعية بلا حبكة ! فى الروايات تتصاعد الأحداث إلى شىء ما . فى يوميات أمه ، كانت الأحداث تترى دون اتجاه

واضح . أحضر لها فرانك نشافات معطرة وصندوق حلوى من جوز الهند ؛ قام روى بزيارة ولم يبد عليه أنه قادر على انتزاع نفسه ؛ أخذها بيرت تانسى إلى الأوبرا الكوميدية وقدم لها بعد ذلك كتابا من القطع الكبير يضم الأغنيات ؛ لكن لم يرد ذكر أى من هؤلاء الناس مرة أخرى أبدا . كتب لها شخص يدعى آرثر خطابا كان **سقيما للغاية** ، كما قالت . **لم أكن أعرف أن بوسعه أن يكون ساذجا إلى هذا الحد . كان الخطاب كله متمشيا مع الشكليات وأنا لست غاضبة جدا** . وعدها شخص يدعى كلارك ألينزبى أن يزورها ولم يفعل ؛ قالت ، **أظن أن هذا لحسن الحظ فى النهاية ، لكننى غير قادرة على فهم تصرفاته حيث أنه سيرحل غدا** . قالت وهى تشد الستائر ، **أعلن الزنجى وصول شاب قدم للزيارة . بدوت مثل شخص عجيب الخلقة لكننى دخلت على أية حال وهناك كان يجلس هيو ماكينلى . كان فى طريقه إلى متجر البذور وهكذا « تصادف » أن توقف لزيارة قصيرة ، ومكث بعض الوقت ...**

بدأ عزرا يرى أنه بالنسبة لأمه (أو بالنسبة لها حين كانت شابة) كانت هناك حبكة ، فى نهاية الأمر . كانت قد تخيلت حبكة مدهشة تماماً - مغزى لكل لقاء حدث بالصدفة ، محاولات عنيفة ممكنة لكسب الود . حفلات عرس بيضاء فخمة ، منتهى السعادة التى لا تشوبها شائبة إلى الأبد . كتبت تقول ، **جاء جيمس رايسون للزيارة فى وقت متأخر إلى حد مذهل . سرق صورتى من على البيانو ووضعها فى جيبه . تصرف بشكل كوميدى تعجز عن وصفه الكلمات . أنا واثقة أننى لا أعرف ما الذى سيتمخض عنه هذا .**

حسنا ، لم يتمخض عنه شيء . لم يتمخض شيء عن أى شيء . تزوجت مندوب مبيعات يعمل لدى شركة تانر ، وهجرها ولم يعد أبدا . سألته أمه ، « عزرا ؟ لم لا تقرأ لى ؟ »

قال ، « إننى متعب » .

صحبها إلى مباراة كرة بعد الظهر . كانت قد أصبحت ، فى شيخوختها ، نصيرا عظيما لفريق أوريولس . كانت تصغى إلى الراديو إذا لم تتمكن من حضور المباراة شخصيا ، بل تسهر بعد موعد نومها إذا امتدت المباراة لجولات إضافية . قالت إن البيسبول كان الرياضة الوحيدة التى لها معنى : واضحة مثل لعبة النرد ، ماهرة مثل الشطرنج . بدت راضية عن نفسها لتفكيرها فى هذا ، لكن عزرا شك فى أن لهذا علاقة بالمسلسلات التليفزيونية الاجتماعية التى كانت تستمتع بها . من المؤكد أنها كانت ترى كل مباراة على أنها دراما ، وتستثيرها النميمة التى كان عزرا يجمعها لها من الصفحات الرياضية - إصابات اللاعبين ، المنافسات ، تراجع مستويات اللعب ، الحواديت الفاجعة عن الناشئين الشبان الذين يخفقون فى الفرصة الوحيدة التى تتاح لهم . كان يروق لها أن تفكر فى فريق أوريولس على أنه فقير جدا وطاهر اليد ، غير قادر ببساطة على شراء موهبته مثلما كانت الفرق الأكثر ثراء تفعل . كان مظهر اللاعبين يعنيها بعمق كما لو كانوا نجوم السينما : كانت عظمتا وجنتى كين سينجلتون البارزتان اللامعتان ، كما وصفتهما واحدة من حفيداتها ، تبعثان فيها نشوة إعجاب صغيرة . وكان يروق لها أن تسمع كيف يذبذب آل بميرى مضربه بطريقة طروبة للغاية قبل أن يضرب الكرة ؛ كيف يدفع ستانهاوس الناس إلى الجنون وهو يتأخر فوق الرابية فى مباراة البيسبول . تمنت لو أن دوج دى سنيس حلق شاربه وأن كيكو جارسيا قص شعره . رأت أن ايرل ويفر لم يكن يمتلك حنوا أبويا بما فيه الكفاية حتى يصبح مديرا ملائما ، وكثيرا ، عندما كان يحل راميا محل رام مسكين حزين لم يكن ينال فرصة ، كانت توجه صيحة عنيفة إلى الراديو ، وتدعوه « ميرل بيفر » نكاية فيه وهى تبصق

كلماتها . قالت « إن مجرد أن المرء يزرع طماطمه ، لا يعني بالضرورة أن له قلباً » .

أحيانا كان عزرا يُسمع أصدقاءه فى المطعم بعضا من أقوالها المأثورة ، ويتوقف فى منتصف جملة متفكرا ، إننى أصورها على أنها ... فيلسوفة ؛ فيبدو كل ما قاله على أنه أكذوبة ، على الرغم من أنه حدث بطبيعة الحال . كانت حقيقة الأمر أنها كانت امرأة قوية جدا (بل امرأة مخيفة جدا ، فى أثناء طفولته) ، ربما تكون قد انكمشت وهرمت لكن ذاتها الداخلية الحقيقية مازالت هائلة ، أكبر من الحياة ، صلبة . كاسحة .

وصلا إلى الاستاد مبكرا حتى تتمكن أمه من المشى بخطوتها ، التى كانت بطيئة ومتعثرة للغاية إلى حد أنهما ما أن جلسا ، حتى كانت قائمة أسماء اللاعبين تعلن سلفا . كان مقعداهما جيدين ، قريبين من اللوح المطاطى الذى يقف بجواره ماسك المضرب فى أحد أركان الملعب . غاصت أمه فى مقعدها شاكرة ، ثم كان عليها أن تقف ، فى الحال تقريبا ، للنشيد الوطنى . لنشيدين وطنيين ؛ كان الفريق الآخر تورنتو . وفى منتصف النشيد الثانى ، لاحظ عزرا أن ركبتى أمه تصطكان . سألها ، « هل تريدين الجلوس ؟ » هزت رأسها . كان يوما قائظا لكن ذراعها ، حين أمسك بها ، كانت باردة وجافة تقريبا بشكل غير طبيعى ، كما لو كانت مكسوة بطبقة رقيقة من مسحوق .

كم كان العشب أخضر صافيا ! أمكنه أن يرى وجهة نظر أمه : كان للملعب مظهر مباراة تجرى على لوحة ، دقيقا ومستويا وزاهى الألوان . وقف اللاعبون يؤرجحون أذرعتهم بتراخ . ضرب ماسك مضرب تورنتو كرة طائرة عالية والتقطها مدافع منتصف مؤخرة الملعب من السماء بسهولة ، وهو يكاد يكون شارد الذهن . قال عزرا ،

« حسنا ! كانت ضربة سريعة . أول ضربة لمؤخرة الملعب ولم نكد نبدأ » .

كان تعليقا بارعاً منه . أخبرها دون أن يبدو عليه أنه يفعل ذلك ، كما لو كان يثرثر . « ياإلهى ، انظرى إلى هذه الكرة البطيئة الماكرة » . و « هل تسمين تلك رمية ؟ لقد انزلقت أمام ركبته تماما . هل تسمين تلك رمية ؟ » أنصتت أمه ، وقد اشرأبت بوجهها مصغية بكل حواسها ، كأنها تحضر حفلاً موسيقيا .

ما الذى كانت تفيده من وراء هذا ؟ قال لنفسه ، كانت لتتابع المباراة بدقة أكبر ، لو أنها بقيت بالبيت إلى جوار الراديو . (وما كانت لتحضر راديو ؛ أقلقها أن يظن الناس أنه كان أداة مساعدة للسمع) . ظن أنها يروق لها هذا الجو ، الهتاف والإثارة ورائحة الفشار . بل إنها سمحت له أن يشترى لها قدحا من البيرة ، التى يفترض أنها تعطى إحساسا بالدفء بعد رشفة واحدة ؛ وعندما نفخ البوق قالت ، « اهجموا » بنعومة بالغة ، وشبه ابتسامة متحيرة ترتسم فوق شفتيها . كان ثلاثة رجال خلفها يسرفون فى الشراب وقد أمالت الخمر رءوسهم - يطلقون صيحات الاستهجان ويصفرون ويكيلون الإهانات لفتيات يمررن - لكن أم عزرا ظلت على هدوئها ، تنظر إلى الأمام . قالت لعزرا ، « عندما تحضر إلى الملعب شخصيا ، فإنك تملك أن توجه بؤرة اهتمامك حيثما تشاء ، هل تعرف ؟ إن رجال التليفزيون والإذاعة قد يركزون على قاذف الكرة فى حين أنك تريد أن ترى ما يفعله اللاعب فى أحد أركان الملعب ؛ ولاخيار لك إلا أن تتقبل ما يعرضونه عليك .»

دار ماسك مضرب مصوبا على كرة منخفضة وأدركها ، ورأى عزرا (وعيناه فى كل اتجاه) كيف دبت الحياة فى نفس اللحظة فى الملعب ، وكل لاعب يتبع مضماره المعين له . قفز المدافع إلى أعلى ،

كما لو كان مشدودا على شرائط مطاطية دون ثانية استعداد وأمسك بالكرة ؛ وأطبق لاعب الجناح كأنه لون جديد أضيف إلى لوحة ثرية الألوان ؛ دار عداء الركن الثانى للملعب على عقبيه ولاحقه المدافع حتى أخرجه . صاح مخمور خلفهما ، « يو ، يا جارسيا » ، بذلك الصوت الرملى الأجش الذى يتخذه بعض الرجال فى منتزهات الكرة ؛ وسكب بيرة مثلجة على قفا عزرا . قال عزرا لأمه ، « حسنا ... » لكنه لم يستطع أن يهتدى بفكره لوسيلة يحيطها بها بكل ما حدث ، ولذا فإنه قال أخيرا ، « يبدو أننا سننهض » .

لم تجبه . استدار إليها ووجدها تتهاوى على نفسها ، ورأسها يسقط إلى الأمام ، وقدح البيرة ينزلق من بين أصابعها . « أمى ؟ أمى ! » نهض كل من حوله ، وتحركوا فى دائرة بغير انتظام وأحدثوا جلبة . قالوا له ، « أعطها هواء » ، ثم بشكل ما أفلحوا فى تمديدها على ظهرها ، وهى ترقد حيث كانت أقدامهم . كان وجهها أبيض فى لون الورق ، ساكنا بلا حراك ، مثل صخرة متجعدة . تقدم أحد المخمورين إلى الأمام ليسوى تنورتها فوق ركبتيها باحتشام ، وأزاح آخر شعرها عن جبينها . قال عزرا ، « سوف تكون على ما يرام . لا تقلقوا . إنه الحر فقط . ياناس ، أفسحوا ! دعوها تتنفس ! »

فتحت أم عزرا عينيها . كان الهواء متألقا مثل أنصال السكاكين ، متلألئا بضوء نحاسى قاس ، لكنها لم تغمض عينيها حتى نصف إغماضة ؛ ولأول مرة أدرك عزرا تماما أنها كانت عمياء . ويبدو أنه لم يدرك ذلك قبلا . ترنح إلى الخلف ، وهو يجلس القرفصاء عند أقدام غرباء ، وتخيل أن عليه أن يبقى هنا إلى الأبد : كلاهما عاجز ، مسطح تحت وهج السماء الصيفية .

فى تلك الليلة حلم بأنه يسير بين الموائد فى مطعمه . كان أحد الزبائن القدامى ، مستر روزن ، يطالع قائمة الطعام متحيرا . سأل عزرا ، « بم توصى ؟ أرى أن لديك لحما باللبن المخضوض وعيش الغراب ، لكننى لا أدرى ، ذلك ثقيل بعض الشىء . أعنى أننى لست جائعا جدا ، يمكننى أن آكل قليلا ، وقد تراكمت بعض الدهون على معدتى هنا تماما تحت قفصى الصدرى ، هل تعرف ما أعنيه ؟ ما الذى تراه مناسبا لذلك ؟ ما الذى يجب أن آكله ؟ »

كان ذلك سلوك مستر روزن فى الحياة الواقعية أيضا ، وعزرا يتوقع ذلك ويستجيب دائما بلطف وكياسة . لكنه فى الحلم أصابه فزع لم يعتده فى مثل هذه المواقف . صاح ، « ليس لدى شىء ! لا شىء ! أنا لا أعرف ماذا تريد ! ليس لدى شىء ! كف عن السؤال ! » واعتصر يديه كمدا عندما راح يفكر فى ثلاجته الخاوية والموقد المعطل عن العمل .

استيقظ والعرق يتصبب منه ، متشابكا فى ملاءات رطبة . كان الظلام متشحا بهالة بيضاء معينة جعلته يعتقد أن الوقت قرب الفجر . غادر السرير ، وهو يرفع سروال بيجامته ، وهبط الدرج وصب كوبا من اللبن . ثم هام على وجهه إلى غرفة المعيشة بحثا عن مجلة ، لكن المجلات الوحيدة التى وجدها كانت قديمة بشهور . جلس آخر الأمر على البساط بجوار درج أمه وفتح الدرج الأسفل .

وصفة لكعكة مربى اللارنج : **من المطبخ** .. بدون اسم مكتوب . شهادة تخرج خاصة بشخص ما ، ملفوفة ومثبتة بشريط أزرق موحل . قصاصة من جريدة . **أشجار الصنوبر المخروطية الشائكة ، تدخر كل حياتها ، فى أوقات الشدة ، فى عرق واحد وتدع العروق الأخرى تموت** . صورة لأخته فى ثوب سهرة وأزهار الجاردينيا ،معقودة حول

وسطها . يومية من ١٩٠٩ ، وزهرة بنفسج مضغوطة بين صفحاتها . قرأ ، **غسلت ثوب نومى الأصفر ، صنعت خبزا مخمرا مالحا ، لعبت كرة السلة . اشتريت قبعة من محل وارنر وزينتها بشريط حريرى أخضر . علّبت الطماطم . ذهبت إلى تدريب المشى . تعلمت لعبة العيدانية المتوالية .**

كانت حيويتها تطن فى الغرفة حوله . كانت منهمكة أبدا بعمل شىء ما لصُدْراتها ، وهو ما افترض عزرا أنها بلوزات . تطرز صُدْرات أو تصلح صُدْرات ، أو تشترى سلعا لصُدْرة أو تحيك قماش مربعات جديد على صُدْرة ، أو تضيف حلية على صُدْرة ، تمزق حلية مضافة من على صُدْرة ، أو تزم ثنيات صدرتها الحمراء المربعات حتى تفقد الحرملة ثباتها ، تصل أكماما جديدة إلى صُدْرة - بل تحضر ، لمدة أسبوع كامل ، مقررا يسمى « لمسات حديثة لصنع البلوزة » . كانت تكوى صُدْرة ، تحيك غطاء مشد ، ترتق جواربها ، تغير حزاما ، تخيط لحافا ، تطرز الأحرف الأولى من اسمها على منديل ، تقص قماشا صوفيا للتنورات . (ورغم ذلك فإن عزرا لم يرها أبدا ، منذ أن نما وعيه ، تحيك حاشية لفوطة أطباق) . ذهبت لسماع محاضرة عنوانها « أنغام الرعد من المقصلة » . أضجرت الطبيب البيطرى بأسئلتها عن علة برنس - التهاب مفصل العرقوب ، أيا ما كان ذلك . كانت تبيع بطاقات للمناسبات الاجتماعية ، وعروض الهواة المسرحية ، ونزهات جمعية التبشير . قامت بزيارة عمها لكنها وجدت بابه مغلقا إغلاقا مزدوجا ونافذة قاعة الاستقبال فقط مفتوحة .

فى بيت عزرا الهاجع ، الساكن ، كان أعلى الأصوات يأتى من بيرل وهى فى الخامسة عشرة ، ترفع تنورتها الداخلية لتتسلق خلال تلك النافذة فى ذلك الزمان البعيد .

* * *

كان يمضى يوميا إلى محال بيع الكتب منقبا عن كتب أخرى غير كتيب ميرك ، كتب أبسط فى الاستعمال ، موجهة للناس العاديين . كان العديد منها مفهرسا تبعا للأعراض المرضية ، بما فيها ورم . أكتشف أن ورمه يمكن أن يكون عقدة ليمفاوية - ورما مؤقتا نتيجة لعدوى ثانوية . أو أنه يمكن أن يكون أيضا فتقا . أو أنه يمكن أن يكون شيئا أسوأ . قرأ ، **استشر طبيبك** . لكنه لم يفعل . وفى كل صباح ، وهو مازال مرتديا بيجامته ، كان يتفحص الورم بأصابعه ، ويستقر رأيه على أن يزور د . فنسنت ، لكنه فيما بعد كان يلغى الفكرة . أفرض أنه أتضح أنه سرطان : لماذا ينبغى له أن يتحمل تلك الأنواع من العلاج - الإشعاع والكيماويات السامة ؟ من المستحسن أن يموت وينتهى الأمر .

لاحظ أنه يفكر فى الموت كنوع من المغامرة ، شىء جديد لم يجربه حتى الآن . مثل القيام بنزهة غير عادية فى إحدى العطلات .

جاءت أخته ، جينى ، فى زيارة قصيرة مع أطفالها . كان يوم أربعاء ، يوم عطلتها . تولت أمر البيت ، دون أى غضاضة على الإطلاق . قالت ، « أين مكوتكم ؟ أعطنى مكوتكم » و « ماذا تريدون فيما يتعلق بالتسوق ؟ » و « كوين انزل من عندك » . كانت لديها طاقة كبيرة للغاية ؛ أساءت إلى نفسها بكثير من اللامبالاة . راحت تجوب أرجاء غرفة المعيشة ، فى ثيابها المستهلكة المظهر ، وحذائها البالى ، وشعرها الداكن يرتفع خلفها . « أعتقد أنك يجب أن تشترى جهاز تكييف هواء ، يا أمى . هل سمعت آخر إحصائية للتلوث ؟ ولشخص فى حالتك الصحية ... »

صمدت أمها أمام هذه العاصفة من الكلمات ، وهى صامتة بشكل مكتئب ، ثم رفعت يدا بيضاء . قالت ، « اقتربى حتى أرى شعرك » .

اقتربت جيني واستسلمت للمستها . ربتت أمها شعرها بتعبير مستاء على وجهها . قالت ، « لا أعرف لماذا لا تبذلين عناية أكبر بمظهرك . منذ متى ذهبت إلى صالون تجميل ؟ »

ـــ « إنني امرأة مشغولة ، يا أمي » .

ـــ « كم من الوقت تحتاجين لقص الشعر ؟ وأنت لا تضعين مساحيق تجميل على وجهك ، أليس كذلك ؟ من الصعب أن أعرف في مثل هذا الضوء . أوه ، جيني . ماذا يمكن أن يظن زوجك ؟ سوف يظن أنك لا تحاولين . لقد أهملت نفسك . أتوقع أنني يمكنني أن أمرّ بك في الشارع فلا أعرفك » .

بدا لعزرا أن تعبيرها المفضل هو: ماكنت لأعرفك لو رأيتك في الطريق . استخدمته حين أشارت إلى زينة جيني الفقيرة ، زيارات كودي المتفرقة ، ميل عزرا للسمنة . لمح عزرا فجأة رصيفا عريضا خاليا وأفراد أسرته المختلفون يمشون الهويني عليه ، ووجه كل منهم متحول عن الآخر .

راح أطفال جيني يسيرون في أرجاء البيت على مهل ، يعتريهم الملل والتقزز . راحت الطفلة الرضيعة تمضغ حبل الستار . حطت جين ، ذات الأعوام التسعة ، على ركبة عزرا بشكل لامبال كأنه قطعة أثاث . كانت رائحة أقلام الشمع وزبد الفول السوداني تفوح منها – روائح منزلية أدفأت قلبه . سألته ، « ماذا تعد الليلة في مطعمك ؟ »

ـــ « أشياء باردة . سلطات . أنواعا من الحساء » .

قالت ، « أنواع الحساء تقدم ساخنة » .

ـــ « ليس بالضرورة » .

ــــ « أوه » .

صمتت ، ربما لكى تختزن هذه المعلومة فى خزانة ضخمة لحفظ المعلومات داخل رأسها . تأثر عزرا باستعدادها لتصحيح معلوماتها – بقدرتها اللطيفة على التواصل مع الغير . كان يتساءل أحيانا ، هل من الممكن أن يستميل الصغار الكبار بملاطفتهم ؟ إذا ما أصر الكبار على تدريبهم على قضاء الحاجة بالحمام ، وعلى استخدام العبارات المهذبة من قبيل **من فضلك** و**شكرا** – حيث أن هذه أشياء يعيرها الكبار اهتماما كبيرا ، على ما يبدو . لكن أحد لم يجد ذلك جديرا بالمناقشة من قبل . فما على الكبار إلا أن يصدروا توجيهاتهم حتى ينصاع لها الصغار دون مراجعة ؛ رغم أنهم يعتبرونها غير مهمة فى الواقع . بمراجعة أو بدون مراجعة ، ماذا يهم ؟ أى فرق يصنعه هذا ؟ فاللغة بينهما مختلفة على أية حال .

قالت جين لعزرا ، « ربما أمكنك أن تدعونى على العشاء فى مطعمك » .

ــــ « سوف يسرنى أن أدعوك على العشاء » .

ــــ « ربما أمكننى أن أصطحب صديقة » .

ــــ « بالتأكيد » .

ــــ «سوف أصطحب باربى » .

قال عزرا ، « سيكون هذا رائعا » .

ــــ « أحضر أنت صديقا ، أيضا » .

ــــ « كل أصدقائى يعملون فى المطعم » .

ـــ « ألا تضرب موعدا مع صديقة أبدا ؟ »

ـــ « بالطبع أضرب مواعيد » .

ـــ « لا أعنى مجرد واحدة من تلك الطاهيات اللاتى تصاحبهن » .

ـــ « أوه ، لقد ضربت مواعيد فى شبابى » .

حفظت هذه المعلومة فى رأسها أيضا .

كانت جينى تنتقد طبيب أمهم . قالت إنه هرم للغاية ، بالى الطراز جدا ـ غير متخصص بما يكفى . قالت ، « أنت بحاجة إلى طبيب باطنى جيد . وأنا بالصدفة أعرف واحدا فى ـ »

قالت أمها ، « لقد ظللت أذهب إلى د . فنسنت طوال حياتى فى بلتيمور » .

ـــ « ما علاقة ذلك بالأمر ؟ »

ـــ « لسنا جميعا نغير من أجل التغيير » .

دارت جينى بعينيها نحو عزرا .

قال عزرا ، « ربما أمكنك أنت أن تكونى طبيبتها » .

ـــ « أنا قريبتها ، ياعزرا » .

قال عزرا ، « وهذا أفضل » .

ـــ « وعلاوة على هذا ، فإن مجالى هو طب الأطفال » .

قال عزرا ، « جينى . ماذا كنت لتقولى ـ »

توقف . رفعت جينى حاجبيها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـــ « ماذا كنت لتقولى إنه أكثر الأمراض شيوعا بين مرضاك ؟ »

قالت له ، « التهاب الأم » .

ـــ « أوه » .

ـــ « لماذا تسأل ؟»

ـــ « ليس ، أوم ، السرطان أو أى شىء » .

قالت مرة ثانية ، « لماذا تسأل ؟ »

هز كتفيه فقط .

بعد أن رتبت ما كانت تكويه ، وأعدت قائمة تسوق ، وجمعت الأطفال ، قالت إن عليها أن تنصرف . مست خد أمها بخدها وربتت ذراع عزرا . قال « سأصحبك إلى السيارة » .

ـــ « لا عليك » .

صحبها على أية حال ، وهو يحمل عنها حقيبة الغسيل فى حين حملت هى الطفلة الرضيعة منفرجة الساقين حول مفصل فخذها . مرا بساعى البريد . كان محنيا للغاية نحو الأرض إلى درجة أنه لم يلاحظهما .

وفى الخارج بجوار السيارة ، قال عزرا ، « لدىّ هذا الورم » .

قالت جينى ، « أوه ؟ أين ؟»

لمس أعلى فخذه . قال ، « فى الصباح يبدأ صغيرا ، ولكن بحلول المساء يكبر كثيرا ، هو أشبه بصخرة أو شىء ما فى جيب سروالى . واتساءل إذا كان ، سرطانا ؟»

ــ « إنه ليس سرطانا . الأكثر احتمالا أن يكون فتقا ، من وصفك له . اذهب لزيارة طبيب » . صعدت إلى سيارتها وثبتت الطفلة الرضيعة في حاملتها . ثم مالت خارج النافذة المفتوحة . سألته ، « هل لدىّ كل الأطفال ؟ »

ــ « أجل » .

لوحت بيدها وانطلقت .

عندما رجع إلى البيت ، كانت أمه تحوم عند النافذة كما لو كان بإمكانها بالفعل أن ترى . قالت ، « هذه الفتاة لديها أسرة أضخم من اللازم . أظن أن جمالها قد فسد الآن » .

ــ « لا ، لم ألاحظ ذلك » .

قالت ، « وشعرها . بصدق . عزرا ، أخبرنى بالحقيقة .كيف تبدو جينى لك الآن ؟ »

ــ « أوه ، نفس ما كانت عليه دائما » .

ــ « أعنى ، ألا تظن أنها أهملت نفسها ؟ ماذا عما كانت ترتديه ، مثلا ؟»

حاول أن يتذكر . كان شيئا حائل اللون ، لكنه مقبول تماما ، فيما يظن . هل كان أزرق ؟ رماديا ؟ حاول أن يسترجع تصفيفة شعرها ، طراز حذائها ، لكنه تذكر فقط الخطوط المحفورة التى كانت تحيط دائما برقبتها ، حتى فى صباها ـ دوائر من خطوط كانت تضفى عليها مظهرا نضرا . ولسبب ما ، جعلته هذه الخطوط حزينا الآن ، وكذلك يدا جينى الزيتونية اللون ، بأظافرها البيضاوية المسننة ، وتجعدات ركنى

عينيها ، وما عرفه من أن حياته ، فى نهاية الأمر ، سوف تستمر وتستمر وتستمر .

قرأ عزرا بصوت مرتفع ، « **السادس من فبراير ، ألف وتسعمائة وعشرة . خبزت بعض الحلويات الاسكتلندية الممتازة ، لكنها لا تصلح لأن آخذها إلى حفل شاى** » .

أمعنت أمه التفكير فى هذا بضع لحظات ، وهى تصغى بانتباه . ثم أصدرت إيماءتها المعتادة تصرف بها الأمر ، وشرعت تتأرجح مرة أخرى فى مقعدها الهزاز .

— « **ربطت برنس إلى العربة الخفيفة ، وانطلقت بها إلى وسط المدينة لأشترى قفازات حريرية بنية وحقيبة للثلج . ثم أخرجت إطارات قبعتى وغسلت قبعتى القش . أعددت للعشاء عجينة من -** »

قالت أمه ، « انتقل » .

قلب الصفحات ، وهو يلمح **عروة وغرزة وحفلة بطيخ وفراء رائعا لقاء ٢٢,٥ دولار** . قرأ لأمه ، « **فى صباح اليوم الباكر ، خرجت إلى خلف المنزل لأقتلع الحشائش . كنت أركع فى التراب بجوار الاسطبل ومئزرى متسخ والعرق يتصبب ويسيل أسفل ظهرى ، مسحت وجهى على كمى ، مددت يدى لأتناول الفوطة ، وفى الحال فكرت ، لماذا أعتقد فى هذه اللحظة بالذات أننى سعيدة تماما** » .

توقفت أمه عن التأرجح وسكنت حركتها تماما .

قرأ ، « **كانت درجات السلم الموسيقى لبيانو بنت آل بيدلو تصدح من خارج نافذتها ، وكانت هناك ذبابة تطن فى العشب ، ورأيت أننى**

كنت أركع على مثل هذا الكوكب الصغير الأخضر الجميل . لا يهمنى أن يحدث أى شىء آخر ، فقد حصلت على هذه اللحظة . فهى تخصنى » .

كانت هذه نهاية المذكرة اليومية . خيم عليه الصمت .

قالت أمه ، « شكرا لك ، يا عزرا . فليست هناك حاجة إلى مزيد من القراءة » .

ثم تحاملت واقفة من كرسيها ، وتركته يقودها إلى المطبخ لتناول الغداء . قادها برقة ، خطوة خطوة . بدا له أنه لابد أن يكون حريصا جدا معها . كانا يعبران منحنى الكرة الأرضية ، صغيرين وراسخين ، محاطين برفقاء : جينى تتجاوزهما طيرانا مع أطفالها ، المخمورون بالاستاد يعودون لرشدهم فى اللحظة التى يحتاج فيها إلى مساعدتهم ، لاعبو البيسبول يقفزون إلى أعلى فى ضوء الشمس طائعين ، وجوسيا مرتبط بمانح هداياه المجهول بنفس العمق ، وبنفس الغموض ، مثلما كان عزرا نفسه مرتبطا بهذه المرأة التى كانت بجواره .

[١٠]

عشاء فى مطعم المشتاقين للأهل

عندما ماتت بيرل تل ، كان كودى قد خرج فى رحلة لصيد الأوز ولم يكن فى الإمكان الوصول إليه لمدة يومين . كان هو ولوك يقيمان فى كوخ يمتلكه شريكه فى العمل . لم يكن به هاتف ، وكانت الطرق أفضل قليلا من دروب لنقل زنود الخشب .

وعندما عادا ، فى وقت متأخر من يوم الأحد ، خرجت روث إلى الممر . كانت الليلة باردة ، ولم تكن ترتدى سترة لكنها تعانق نفسها وهى تسير باتجاه السيارة ، ووجهها الأبيض المنمش جامد بشكل شاذ وشعرها الأحمر الشاحب منتصب فى الريح . كان ذلك ما جعل كودى يخمن أن أمرا سيئا قد وقع . فقد كانت روث تكره الجو البارد ، وكانت لتنتظر فى الظروف الاعتيادية داخل البيت .

قالت ، « إنه خبر سيىء . آسفة » .

ـــ « ماذا حدث ؟ »

ـــ « لقد توفيت أمك » .

سألها لوك ، كما لو كان يصححها ، « جدتى ماتت ؟ »

قبّلت روث وجنة لوك لكن عينيها ظلتا مسلطتين على كودى ، ربما كانت تحاول أن تقيس مدى إحساسه بالخسارة . كان كودى نفسه غير واثق من خسارته ، وهو يغلق باب السيارة خلفه بسأم . فقد كانت أمه امرأة صعبة ، بطبيعة الحال . ولكن رغم هذا ...

قالت روث ، « توفيت أثناء نومها ، فى وقت مبكر بالأمس » . تناولت يد كودى فى كلتا يديها وقبضت عليها ، بإحكام ، حتى أن الألم الذى أحس به فى تلك اللحظة بالذات كان ألما جسمانيا صرفا . وقف لحظة ، وقد تماشى معها ؛ ثم سحب يده برقة وذهب ليفتح صندوق السيارة .

لم يكونا قد صادا أى أوز . فقد كان الصيد عذرا مفتعلا ، حقا ، لقضاء بعض الوقت مع لوك ، الذى كان الآن فى الصف النهائى بالمدرسة الثانوية ولن يتوافر لهما وقت أطول كثيرا . كل ما كان على كودى أن يفرغه هو البنادق فى أكياسها المصنوعة من قماش القنب وحقيبة معدات التخييم . أحضر لوك صندوق الثلج . ساروا باتجاه البيت فى صمت ، ولم يزل كودى لم يظهر رد فعله إزاء ما حدث .

قالت روث ، « الجنازة غدا فى الحادية عشرة . قلت لعزرا إننا سنكون هناك فى الصباح » .

سألها كودى ، « كيف كان وقع الأمر عليه ؟ »

— « بدا على ما يرام » .

وضع كودى حقيبة معدات التخييم ، بداخل الباب الأمامى ، وأسند البنادق إلى الحائط . قرر أنه لم يكن يشعر بالحزن بقدر ما يشعر بالثقل . وعلى الرغم من أنه كان نحيل الجسم ، ومازال فى حال طيبة ،

إلاّ أنه تخيل أنه قد تهاوى فجأة على نفسه وأصبح أكثر اكتنازا . كانت عيناه ثقيلتين وجافتين ، وبدت خطوته أشد صلابة من أن تحتملها ألواح الأرضية الضيقة المصقولة فى الصالة .

قال ، « حسنا ، يا لوك » .

بدا لوك كما لو كان مصابا بدوار ، أو ربما نعسانا فقط . أغمض عينيه نصف إغماضة فى الضوء الساطع .

سأله كودى ، « هل تريد أن تذهب إلى الجنازة ؟»

قال لوك ، « مؤكد ، فيما أظن » .

ـــ « لست مضطرا إلى ذلك » .

ـــ « ليس لدى ما يمنعنى » .

قالت روث ، « هو ذاهب بطبيعة الحال . فهو حفيدها » .

قال لها كودى ، « ذلك لا يلزمه » .

ـ « بالطبع يلزمه » .

هنا اختلفا . وكان بوسعهما أن يتجادلا فى الأمر طوال الليل ، لولا أن كودى كان متعبا للغاية .

* * *

فى رحلتهم إلى الجنوب ، قاد كودى سيارة روث لأن سيارته مازالت ملوثة برشاش الوحل من صيد الأوز . وقد افترض أن عليهم أن يسيروا بسيارتهم فى موكب جنائزى رسمى مهيب . لكنه حين تصادف أن ذكر هذا لروث ، فى منتصف المسافة على الطريق

الرئيسى ، أخبرته أن عزرا قال إن أمهم قد طلبت إحراق جثتها . (همس لوك ، « ياالله ») . ولذلك فسوف تكون هناك صلاة عامة - بلا رحلة إلى الجبانة ولا دفن . قال كودى ، « معقول جدا » . فكر فى هيكل عظام أمه المتناسق ، والكعكة المتجعدة خلف رأسها . هل مازال ذلك القذ الضئيل الوحشى موجودا ؟ هل كان رمادا سلفا ؟ قال لروث ، « آه ، يا إلهى ، إنه أمر همجى ، كيفما نظرت إليه » .

قالت ، « ماذا ، إحراق الجثة ؟ »

— « الموت » .

أسرعوا - كودى فى أبهى حلة رمادية ، وروث فى ثوب أسود متيبس إلى جواره . جلس لوك فى المقعد الخلفى ، يحدق من النافذة الجانبية . كانوا يجتازون الآن الطريق الدائرى ، على مشارف بلتيمور . مروا بأشجار متوهجة بأوراق حمراء وصفراء ، وشوارع تجارية تكتظ بمرور صباح يوم الاثنين المعتاد . قال كودى للوك ، « عندما كنت صبيا ، كان هذا مازال ريفا » .

— « قلت لى هذا » .

— « لم تكن بلتيمور سوى ميناء صغير » .

لم يعلق أحد . بحث كودى عن لوك فى مرآة الرؤية الخلفية . قال ، « هيى . هل تريد أن تقود باقى الطريق ؟ »

— « لا ، هذا لا بأس به » .

— « حقا . هل تريد ؟ »

— همست روث ، « دعه وشأنه » .

ـــ « ماذا ؟ »

ـــ « هو منزعج » .

ـــ « لأى سبب ؟ »

ـــ « أمك ، يا كودى . أنت تعلم أنه كان يشعر دائما أنه قريب جدا منها » .

لم يكن بإمكان كودى أن يتصور كيف يمكن لأى شخص أن يشعر أنه قريب من أمه - باستثناء عزرا ، الذى كان يظن البعض أنه قديس . تفحص وجه لوك فى المرآة مرة أخرى ، لكن ما الذى يمكنك أن تستشفه من تلك النظرة المحدقة الجامدة ؟ قال لروث ، « ياللجحيم ، كل ما طلبته منه هو ما إذا كان يريد أن يقود » .

بدت المدينة أكثر خرابا عن المعتاد ، تتهاوى تحت سماء زرقاء شاحبة . قال كودى ، « انظرا إلى هناك . محل لينزى للحلوى والطباق . كانوا يبيعون السجائر للقاصرين . محل بوبى جو للمشويات . وها هى مدرستى القديمة » .

وفى شارع كالفيرت ، كانت البيوت المتراصة بجوار بعضها البعض تقف فى صفين لا نهاية لهما . كان لوك قد قال له ذات مرة ، « لا أفهم كيف كنت تعرف أيها كان بيتك » ، وذهل كودى . أوه ، لو أنك عشت هنا لعرفت . لم تكن متشابهة على الاطلاق ، ليست متشابهة تماما . كان لأحدها العديد من الورود تشق طريقها بصعوبة فى فنائه الأمامى الضيق ، ولأحدها تمثال مضاء لمريم العذراء يتوهج ليل نهار فى نافذة قاعة الاستقبال . بعضها قد طليت حواشى نوافذه بألوان تثير الدهشة ، كأنها ناس برزت ذقونهم إلى الأمام . لم تكن حقيقة أنها ملتصقة ببعضها البعض تعنى شيئا .

اوقف السيارة أمام بيت أمه . هبط منها وتمطى ، وهو ينتظر روث ولوك .

فى مثل هذه الظروف ، كانت بيرل لتخرج من الباب وتقطع نصف المسافة هابطة على الدرج ، وهى تمد إلى ثلاثتهم أصابعها المتلهفة التى تتحرق شوقا .

سألته روث ،« هل هذه سيارة أختك ؟»

ـــ « لا أعرف أى نوع من السيارات تقود » .

صعدوا الدرج . كانت روث قد شبكت يدها فى ظهر حزام لوك . صار أطول قامة بالنسبة لها من أن تستطيع أن تحيط قفاه بكفها ، مثلما كانت تفعل فيما مضى .

حين غادر كودى البيت لأول مرة ، كان يطرق الباب عندما يعود للزيارة . كان تصرفا مخططا ، متعمدا ؛ إهانة لأمه . كانت تعرف ذلك وقد اعترضت . « ألا يمكنك أن تدخل مباشرة ؟ هل ينبغى لك أن تتصرف وكأنك ضيف ؟ » وكان يقول ، « لكننى ضيف بالفعل » . كانت قد بدأت تفوقه دهاء ؛ تكمن له متأهبة ، تندفع لتلقاه عند أول صوت يصدر عن حذائه على الرصيف . (ولذا فربما لم يكن الحب وحده ما كان يجعلها تندفع هابطة الدرج) . والآن لم يعرف كودى ، وهو يجتاز الشرفة ، ما إذا كان يطرق الباب أو مجرد أن يفتح الباب . حسنا ، افترض أن هذا البيت يخص عزرا الآن . طرق الباب .

بدا عزرا حزينا ومرهقا ، وهو يرتدى حلة فضفاضة خفيفة من الكاكى لم يكن أحد غيره ليظنها ملائمة . وكالعادة ، بدا بدون سوالف طويلة ، له وجه صبى . كانت هناك مسافة بين ياقته وعقدة ربطة عنقه .

وقد تعنقد منديل بشكل فوضوى من جيب سترته . قال ، « كودى . ادخل » . لمس ذراع كودى بتلك الطريقة المُترددة التى تميزه - شيء أكثر من مصافحة وأقل من عناق . « روث ؟ لوك ؟ كنا بدأنا نقلق عليكم » .

من أعماق المنزل المظلمة ، تقدمت جينى لتقبل كل واحد . كانت تفوح منها رائحة عطر معقدة لكن لها مظهرها المعتاد الذى جمعته على عجل - معطفها الأنيق محلول الأزرار ، شعرها الأسود خشن ومرفوع . سار زوجها خلفها على مهل ، بدينا وملتحيا ، تنطق ملامحه بالسماحة . ربت على كتف كودى . « جميل أن نراك .مؤسف أمر والدتك » .

ــ « أشكرك ، يا جو » .

قالت جينى ، « من المفروض أن نتحرك إلى الكنيسة هذه اللحظة . علينا أن نرحل مبكرا لأننا سوف نلتقط بعض الأطفال فى طريقنا » .

قال كودى ، « أنا على أهبة الاستعداد » .

سأله عزرا ، « لكن ألا تريد قهوة أولا » .

ــ « لا ، لا ، دعنا نذهب » .

قال عزرا ، « انظر ، كنت قد أعتزمت تقديم القهوة والفطائر الحلوة قبل أن ننطلق . افترضت أنك ستأتى مبكرا أكثر » .

قال له كودى ، « لقد تناولنا الإفطار سلفا » .

ــ « لكن كل شيء مُعدّ على المائدة » .

شعر كودى بسخطه القديم المألوف يبدأ . قال ، « عزرا - »

قالت روث لعزرا ، « كان ذلك لفتة طيبة منك ، لكننا ، حقا ، على ما يرام ، ولا نريد تعطيل الناس » .

راجع عزرا ساعته . ألقى نظرة خلفه ، باتجاه غرفة الطعام . قال ، « إنها فقط العاشرة والربع » . سار إلى النافذة الأمامية ورفع الستار .

أما وقد بدا أن هناك أمرا يشغله ، فقد وقف الآخرون ينتظرون . (كان بوسعه أن يكون بطيئا إلى درجة تثير الجنون ، وأكثر بطئا إذا دُفِع) .

قال أخيرا ، « الأمر على هذا النحو » .

سعل .

قال ، « كنت أتوقع وصول والدى » .

حط صمت أجوف بارد .

سأله كودى ، « من ؟ »

ـــ « أبانا » .

ـــ « ولكن أنى له أن يعرف ؟ »

ـــ « حسنا ، آه ، لقد دعوته » .

قال كودى ، « عزرا ، بحق الله » .

قال عزرا ، « لم تكن فكرتى . كانت فكرة أمى . تكلمت عنها حين أصبحت مريضة للغاية . قالت ، « انظر فى مفكرة العناوين الخاصة بى . ادع كل واحد فيها إلى جنازتى » . تعجبت من كانت تعنى ، فى

أول الأمر . أنت تعرف أنها لم تكن تكتب أبدا إلى أى واحد ، ومعظم أقاربها متوفون . ولكن ما أن فتحت مفكرة العناوين حتى رأيته : بك تل . لم أكن حتى أدرك أنها تعرف إلى أين هرب » .

قال كودى ، « كان يكتب إليها ؛ وهكذا كانت تعرف » .

ـــ « كان يكتب ؟ »

ـــ « كان يرسل إليها هذه الخطابات من آن لآخر ، متفاخرا ، متباهيا . **أوفق** ... **أتوقع ترقية** ... كنت أختلس نظرة إليها فى غفلة من أمى » .

قال عزرا ، « لم أخمن حتى أبدا » .

ـــ « أى فرق كان هذا ليفعله ؟ »

ـــ « أوه ، لا أدرى ... »

قال كودى ، « لقد لفظنا ، حين كنا أطفالا . ماذا يهمك بشأنه الآن ؟ »

قال عزرا ، « حسنا ، أنا لا يهمنى » . ورأى كودى ، الذى كثيرا ما كان قلب عزرا الرقيق يثير سخطه ، أنه كان صحيحا فى هذه الحالة : لم يكن يهتم حقا . فقد نظر إلى كودى بشكل مباشر بعينيه الصافيتين بشكل مميز ، اللتين تفيضان بالضوء وقال ، « كانت أمى هى من طلبت ؛ لا أنا . كل ما فعلته هو أننى اتصلت به وقلت ، « أنا عزرا . لقد ماتت أمى وسنجرى مراسم جنازتها يوم الاثنين فى الحادية عشرة » . »

قال كودى ، « كان ذلك **كل** ما قلته ؟ »

ـــ « حسنا ، ثم أخبرته أن بوسعه أن يتوقف بالبيت أولا ، إذا وصل مبكرا » .

ـــ « لكنك لم تسأله ، « كيف حالك » أو « أين كنت » أو « لماذا رحلت ؟ » ».

ـــ «قلت فقط ، « أنا عزرا . لقد ماتت أمى - » ».

ضحك كودى .

قالت جينى ، « على أية حال ، لا يبدو أنه سيأتى » .

قال كودى ، « لا ، لكن فكرى فى الأمر . أعنى ، ألا تفهمين ؟ هو يرحل أولا وأمى تتظاهر أنه لم يفعل . وبدافع الكبرياء ، أو النكاية ، أو شىء ما ، لا تقول كلمة واحدة عن هذا ، وتوهمنا جميعا أنه فى رحلة عمل . رحلة عمل طولها خمس وثلاثون سنة . وعزرا الآن يتصل به هاتفيا ويفعل نفس الشىء تماما . يقول ، « هذا عزرا » ، كما لو كان قد رأى أبانا بالأمس فقط ـ »

قالت جينى ، « هل يمكننا أن نمضى الآن ؟ سوف يتجمد أطفالى حتى الموت » .

قالت لها روث ، « أوه ، مؤكد . كودى ، حبيبى ، إن أطفالها ينتظروننا » .

قال كودى ، « كانت أمى لتفعل ذلك بالضبط . لو أن أبى دخل البيت لقالت ، « آه ، أجل ، ها أنت ذا . هل تستطيع أن تخبرنى إن كان سروالى الداخلى يبين ؟» ».

أطلق جو ضحكة كأنها نباح قصير . ابتسم عزرا ، لكن عينيه

غطتهما طبقة رقيقة من الدموع . قال ، « هذا صحيح . كانت لتفعل ذلك . هل تعرف ؟ كانت لتفعل ذلك حقا » .

قالت جينى ، « حسنا ، كانت لتفعل . إذن ، هل نمضى ؟ »

كانت بالغة الصغر عندما رحل أبوهم ، على أية حال . وكانت تزعم أنها قد نسيت كل شيء بشأنه .

فى الجنازة ، ألقى القس ، الذى لم يكن قد التقى بأمهم أبدا ، كلمة تأبين غامضة للغاية ، عامة جدا ، تنطبق على أى انسان إلى درجة أن كودى فكر فى تلك اللعبة التى تمارس داخل البيت حيث يخط الناس بعض الكلمات بطريقة عشوائية ثم يقهقهون بهستيرية على القصة التى أسفرت عنها . قال القس إن بيرل تل كانت زوجة وفية وأما محبة وأحد أعمدة المجتمع . وقد عاشت حياة طويلة حافلة وتوفيت فى حضن عائلتها ، التى حزنت من أجلها لكنها وجدت العزاء فى معرفة أنها قد ذهبت إلى مكان أروع بكثير .

غاب عن ذهن القس ، أو ربما لم يكن قد سمع ، أنها لم تكن زوجة لأحد لما يزيد على ثلث قرن ؛ أنها كانت أما حادة الطبع ، غاضبة ، مخيفة أحيانا ؛ وأنها لم تبد أدنى اهتمام بمجتمعها لكنها عاشت فيه مثل ضيفة قادمة من ناحية أرقى ، ترتدى قبعتها دائما عندما تخرج للمشى على الأقدام ، وتحتفظ بأبوابها مغلقة بإحكام حين تكون بالبيت . أن حياتها كانت طويلة حقا لكنها لم تكن حافلة أبدا ؛ أقرب إلى حياة **معوقة عن النمو** . أو تالفة . أو ... ماذا كانت الكلمة التى يريدها كودى ؟ متعرشة . ملولبة ومسطحة على الجدار - خاصة حين هرمت وذوت ، وفقدت بصرها ، وأصبحت تتسند بشكل مسرف على عزرا . أنها لم تكن متدينة على الإطلاق ، لم تطأ قدمها هذه الكنيسة عقودا طويلة ؛

وعلى الرغم من أنها فى حالات حزينة معينة قد تنكر احتمال الجنة ، إلا أن كودى لم يجدْ عزاء فى فكرة إقامتها هناك ، وهى تتململ وتتلمس الأخطاء وتثير السخط .

جلس كودى فى المقعد الأمامى الأيمن ، صورة لابن مطيع فقد أحد والديه . لكن أفكارا متشككة انسابت خلال رأسه بصوت عال إلى حد أنه اعتقد تقريبا أنها قد يسمعها جمهور المصلين . عاد إلى صباه ، فيما يبدو ، وهو يخشى أن تستطيع أمه قراءة أفكاره بلا تردد مثلما كانت تقيس الحرارة الداخلية لدجاجة تشوى بأن تقرص فخذها قرصة واحدة مزدرية . ألقى نظرة جانبية على روث ، لكنها كانت تصغى إلى القس .

أعلن القس الترتيلة الختامية ، التى طلبتها بيرل فى تعليماتها الخاصة بجنازتها ، وهى بعنوان : « سوف نفهمه كلنا عما قريب » . بدا القس المبجل ثيرمان ، وهو يرفع وجهه الطويل الذى لا يبدو فيه أثر لعظمة لكى يقود المرتلين ، متحيرا - ربما أقل حيرة من طرق الله الخفية عنه من طبيعة مجموعة المعزين التى لا تردد مقاطع الصلاة وراءه . كان معظمهم يحدقون فى كتب الترانيم ، يتابعون كل مقطع فى صمت . وكان هناك قليل جدا منهم : اثنان من مساعدى عزرا ، بعض الأحفاد من الفتيان المكفهرين يجلسون عابسين فى مقاعد متناثرة ، وخمسة أو ستة أفراد متقدمون فى السن مجهولون ، ربما جاءوا بصفتهم أعضاء فى الكنيسة لكنهم يعطون الانطباع بأنهم جاءوا من الشوارع إلى الداخل بحثا عن مأوى ، وهم يجرون أكياسا للتسوق ذات مقابض من الخيط .

عندما انتهت الصلاة ، نزل القس من على المنبر وتوقف ليصافح كودى ، بصفته الابن الأكبر ، ويقدم له تعازيه ، « خالص عزائى ... أعرف أية خسارة ...»

قال كودى ، « شكرا » ، ومضى هو وروث والقس على طول الممشى . تبعهم جينى وجو ، وجاء عزرا آخرهم ، وهو يتمخط ... وطبقا للأصول كان ينبغى أن ينهض الأحفاد أيضا ، لكن لو أنهم فعلوا لما بقى بالكاد أى ضيوف .

فى الخارج ، كان البرد مُتلمسا للراحة ، وكودى ممتن لضوضاء المرور الهادرة فى الطريق . وقف بين جينى وروث وتقبل غمغمات من أغراب . قال له أحدهم ، « صلاة جميلة » .

قال ، « شكرا » .

سمع امرأة تقول لعزرا ، بالقرب من مدخل الكنيسة ، « آسفة لمحنتكم » وقال عزرا بلطف ، « أوه ، كل شىء على ما يرام » . على الرغم من أن هذه الوفاة ، بالنسبة لعزرا دون الآخرين ، كما تصور كودى ، لم تكن على ما يرام . ما الذى يملأ به حياته الآن ؟ لقد كان عينى أمه . وبمؤخرا ، كان يديها وقدميها أيضا . أما وقد رحلت الآن فسوف يعود إلى البيت كل ليلة و ... يفعل ماذا ؟ ماذا كان ليفعل ؟ مجرد أن يجلس على الأريكة وحده ؛ أو يرقد فى سريره ، بكامل ملابسه ، يحدق فى الهواء الذى يميل إلى اللون البنى ، المحلق فوق سريره .

قالت جينى ، « هل قال لك عزرا إننا سنجتمع فى مطعمه فيما بعد ؟»

تأوه كودى . صافح رجلا عجوزا وقال لجينى ، « كنت أعرف ذلك . كنت أعرف ذلك تماما » . ألم يخبر روث ، فى الحقيقة ؟ ففى السيارة وهما فى طريقهما إلى هنا ، قال ، « أوه ، يا إلهى ، أظن أنه سوف تكون هناك وجبة من وجبات العشاء تلك . وسيكون علينا أن نتناول وجبة من وجبات العشاء العائلية الأبدية فى مطعم عزرا » .

وقالت روث ، « ربما يكون أكثر انزعاجا من أن يفعل ذلك . أشك في أنه سوف يقيم مأدبة عشاء الآن » .

وأوضح هذا أنها لم تكن تعرف عزرا مثلما كانت تتخيل دائما . من المؤكد أنه كان ليقيم مأدبة عشاء . أى عذر كان يكفى ـ عرس أو خطوبة أو ظهور اسم ابن أخ أو ابن أخت فى لوحة الشرف . كان ليقول ، « العشاء فى مطعم المشتاقين للأهل ! كل فرد فى العائلة ! مجرد تجمع عائلى دافىء » ـ وكان ليفرك يديه معا بتلك الطريقة الخاصة به التى تثير الضيق . ولاشك أن العاملين عنده كانوا يعملون حتى فى هذه اللحظة ، يعدون الـ ... ماذا كان اسمها ؟ لحوم الجنازة المحمصة . تنهد كودى . لكنه شك فى ضرورة حضورهم .

لابد أن الرجل العجوز قد تكلم ؛ كان ينتظر أن يجيب كودى . أمال وجهه المتورد المشدود الجلد تحت تاج من الشعر الفضى المصفف بعناية يسمح للضوء بأن يتألق من خلاله . قال كودى ، « شكرا » . ومن الواضح أن هذا لم يكن الرد المنتظر . عدل العجوز فمه بما يوحى بخيبة الأمل . قال كودى ، « أوم ... »

قال العجوز ، « قلت ، قلت « كودى ؟ هل تعرفنى ؟ » ».

لم يكن ينبغى أن يستغرق الأمر وقتا طويلا . كانت هناك مفاتيح ينبغى أن يلتقطها على الفور : تصفيف الشعر العالى الذى له شكل المروحة ، وهو لايزال كثيفا ومتموجا بشكل حاد ؛ لون عينيه الأزرق المتألق ؛ مظهر حلته الكحلية اللون المخططة بخطوط دقيقة ولا تتفق ومقاييس جسمه ، والتى تشبه ملابس رجال العصابات .

قال العجوز ، بإيماءة مزهوة ، « أجل . هذا أبوك يتكلم ، يا كودى » .

قال كودى لجينى . « لست واثقا أن عزرا قد تذكر أن يعد مكانا لأبى » .

قالت جينى ، « ماذا ؟ » نظرت إلى بك تل . قالت ، «أوه » .

ـــ « فى المطعم . هل تَتَذَكّر ؟ »

قالت ، « أوه ، حسنا ، ربما » .

قال كودى لبك ، « لا شىء فاخر على نحو مبالغ فيه » .

فغر بك فمه لكودى .

ـــ « مجرد وجبة صغيرة فى مطعم المشتاقين للأهل » .

سأله بك ، « عم تتكلم ؟ »

ـــ « العشاء فيما بعد ، بطبيعة الحال ، فى مطعم المشتاقين للأهل ».

مرر بك يدا على جبينه . قال ، « هل هذه هى جينى ؟»

قالت له جينى ، « أجل » .

ـــ « جينى ، فى آخر مرة وقعت عيناى عليك فيها كنت فى الثامنة تقريبا . هل كانت الثامنة ؟ أو التاسعة . كانت أغنيتك المفضلة « ميرزى دوتس » . كنت تدندنين بها ليل نهار » .

قالت جينى متباعدة ، « أوه ، أجل . والحملان الصغيرة تأكل اللبلاب » .

توقف بك وأغلق فمه ، بعد أن كان قد ملأ رئتيه بالهواء ليواصل الحديث .

قال كودى ، « أنت تتذكر روث » .

ـــ « روث ؟ »

ـــ « زوجتى » .

ـــ « وكيف لى أن اتذكرها ؟ لقد كنت بعيدا ! لم أكن هنا ! »

خطت روث إلى الأمام لتمد يدها . قال بك ، « إذن فكودى متزوج . تخيل هذا . أى أطفال ؟ »

قال كودى ، « حسنا ، لوك ، بطبيعة الحال » .

ـــ « أنا جد » . واستدار إلى جينى،« وماذا عنك ؟ هل تزوجت ؟»

قالت جينى ، « أجل ، لكنه ذهب ليحضر الصغار » . ولوحت بيدها مودعة شخصا ما .

سأل بك ، « وعزرا ؟ أين عزرا ؟ »

قال كودى ،« هناك بجوار الدرج » .

ـــ « آه » .

اتجه إليه بك طروبا ، وهو يتخلل بيده شعره الذى يشبه عرف الديك . حملقت جينى وكودى وراءه .

قالت جينى ، « لو أننى رأيته فى الطريق ، لمررت به دون أن أعرفه » .

قال لها كودى ، « نحن نراه بالضبط فى الطريق » .

ـــ « حسنا . أجل » .

راقبا بك وهو يصل أمام عزرا بوثبة ، مثل طفل يستعرض مهاراته . مال عزرا برأسه باحتشام ليسمع كلمات بك ، ثم ابتسم له ابتسامة لطيفة وصافحه .

سمعا بك يقول ، « تخيل ! انظر إلى نفسك ! كلا ولدى أضخم منى » .

قال له عزرا بهدوء ، « العشاء فى مطعمى » .

تداعى تعبير وجه بك على الفور مرة أخرى ، لكنه استعاد نفسه . قال ، « رائع ! » تحرك باتجاه الفتيان الصغار ، الذين عرفوا ما يجرى ووقفوا متضامين على مقربة - صامتين ، محدقين ، عدائيين كالمعتاد . لم يبد على بك أنه لاحظ . قال لهم ، « أنا جدكم . جدكم تل . هل سمعتم بى أبدا ؟» ربما لم يسمعوا ، ما لم يكونوا قد فكروا فى الاستفسار . تحرك على طول الصف ، متألقا . « أنا جدكم الذى افتقدتموه طويلا . وأنتم _ ؟ يالك من فتى صغير وسيم !»

صافح أطول الفتيان الصغار وهو يهز يده بشدة ، ولم يكن لسوء الحظ حفيدا على الإطلاق ، لكنه كان واحدا من فتيان عزرا الذين يتولون أمر السلطة .

تقدم كودى وروث وجينى الجميع فى الطريق إلى المطعم مشيا على الأقدام . تلكأ الآخرون فى الخلف بشكل غير مرتب . استدارت المجموعة الأولى فى شارع سانت بول ومرت بأبنية صغيرة صاخبة - محل للتنظيف الجاف وصيدلية ومحل لبيع الزهور . كان كل المشاة الآخرون زنوجا ؛ معظمهم يحملون لصق آذانهم أجهزة راديو تحدث أصواتا غير سائغة ، حتى أن نتفا من أغانى عن الحب والغيرة والنساء

القاسيات الفؤاد ظلت تقترب وتتلاشى . ثم تأرجحت لافتة عزرا الخشبية فوق الرءوس ، وصعد ثلاثتهم الدرج ودخلوا .

فى الضوء البارد المنبعث من النوافذ ، بدا المطعم خاويا بشكل صارخ . كانت مائدة طويلة مغطاة بمفرش أبيض ، ومعدة بأطباق وأكواب من الصينى والكريستال . عد كودى ثلاثة عشر مكانا ؛ لأن جو زوج جينى سيحضر مزيدا من الأطفال ، أولئك الذين كانوا أصغر من أن يحضروا الصلاة . كانت نادلة مدملجة ، مليحة الوجه ترتدى ثوبا فضفاضا من الشيت تسحب كرسيا عاليا للطفلة الرضيعة . عندما رأتهم يدخلون ، وقفت لتعانق جينى . قالت ، « أنا آسفة لمصابكم . أنت وكل أفراد عائلتك ، هل تسمعين ؟ »

قالت جينى ، « شكرا ، يا مسز بوتر . هل تعرفين أخى كودى ؟ وهذه روث زوجته » .

طقطقت مسز بوتر بلسانها . قالت ، « إنه يوم فظيع بالنسبة لكم » .

استدار كودى باتجاه الباب فى الوقت المناسب ليرى بك وعزرا يدخلان ، وفى أعقابهما الفتيان الصغار . كان من الواضح أن عزرا قد استرخى وأصبح ثرثارا ؛ لم يكن بوسعه أن يظل باردا تجاه أحد لفترة طويلة . كان يقول ، « وهكذا هدمت ذلك الحائط هناك ....»

قال بك ، « لطيف جدا . راق جداً » .

ــــ « وقشرت هذه الأرضيات ... »

ــــ« أرجو ألا تكون تقدم ذلك النوع من الطعام الذى لا يستطيع المرء أن يتعرف عليه » .

ــــ « أوه ، لا » .

ـــ « طعام مختلط ، لا ينفصل فيه شيء عن الآخر » .

قال عزرا ، « لا ، أبدا » .

راح كودى يراقب باهتمام . (كثيرا ما كان عزرا يقدم مثل هذا الطعام) . قاد عزرا بك خلال القاعة ، وهو يلوح بذراع هنا وهناك . « انظر ، هذه الطاولات يمكن ضمها إلى بعضها البعض لو أن أى زبون ... وهذا هو المطبخ ... وهذان طاهيان من طهاتى ، سام ومايرون . جاءا خصيصا لعشائنا . بالليل لدىّ ثلاثة آخرون : جوسيا ، تشينيل ومحمد » .

قال بك ، « مشروع ضخم » .

فى تلك الأثناء ، كان الآخرون يتسكعون حول مائدتهم . لم يجلس أحد . راح ابن كودى ، لوك ، وابن جينى ، بيتر ـ وكلاهما يرتديان ملابس رسمية بقمصان بيضاء وأربطة عنق ـ يتصارعان معا بطريقة خجولة لا هدف لها ، وهما يلقيان بنظرات مختلسة على بك . ولعل هذين الصبيين كانا يريانه فرصة جديدة كل الجدة . بداية جديدة ، شخصا يقدرهما أخيرا . لكنهما عندما جلسا أخيرا ، لم يتخير أيهما مكانا قريبا من بك . لعله الخجل . حتى عزرا جلس على مسافة بعيدة نوعا ما . ولما كان جو والصغار لم يصلوا بعد ، فقد كان هذا يعنى أن يجد بك نفسه محاطا من الجانبين بعدة كراسى خاوية . لم يبد عليه أنه لاحظ ذلك . بل جلس وحده ، كأنه ملك ، وقد طوى يديه أمام طبقه وهو يشع ابتسامات للآخرين . بدت على وجنتيه زخرفة شجرية من عروق حمراء ، مميزة مثل أنهار وروافد على خريطة . قال ، « إذن ، ابنى يمتلك مطعما خياليا » .

بدا عزرا مسرورا ومرتبكا .

قال بك ، « وابنتى طبيبة . ولكن كودى ؟ ماذا عنك ؟»

قال كودى ، « لماذا ، أنت تعرف : أنا مستشار فى شؤون طرق تحقيق الكفاية » .

ـــ « آه ، وكيف ذلك ؟»

لم يجب كودى . قال عزرا ، « إنه يفحص المصانع . ويخبرهم كيف يعملون الأشياء بكفاءة أكبر » .

ـــ « آه ! رجل لدراسة الوقت » .

قال عزرا ، « هو واحد من أفضلهم . ويكتبون عنه دائما مقالات » .

ـــ « هل هذا صحيح ؟ حسنا ، أنا جد فخور بك ، يا بنى » .

داخل كودى إحساس فجائى بأن الوضع فى الغد ، سيفوق قدرته على جر نفسه إلى العمل . فقد أوفى نجاحه أخيرا بغرضه . هل كان هذا كل ما كان يجاهد من أجله ـ هذه اللحظة الواحدة القصيرة من الاحترام ترف على وجه أبيه ؟

قال بك وهو يميل باتجاهه ، « كثيرا ما كنت أتساءل عنك ، يا كودى . كثيرا ما فكرت فيك بعد أن رحلت » .

قال كودى بأدب ، « أوه ؟ هل رحلت ؟ »

رجع أبوه إلى الوراء .

قال عزرا ، « **على أية حال** » تنحنح ، « حسنا ، يا أبى . أمازلت تعمل لدى شركة تانر ؟ »

ـــ « لا ، لا ،أنا متقاعد . تقاعدت فى عام خمسة وستين . أقاموا لى وليمة رائعة وأهدونى مجموعة أقلام رصاص وأقلام حبر فضية حقيقية . قضيت اثنتين وأربعين سنة فى الخدمة » .

غمغمت روث ـ بصوت معجب يفيض أنوثة . استدار إليها وقال ، « لكى أقول لك الحق ، إننى افتقدها شيئا ما . افتقد الاتصالات ، افتقد الحياة ... فحياة مندوب المبيعات حافلة بالنشاط ، هل تعرفون ما أعنيه ؟ كثير من النشاط . والآن كثيرا ما يبدو لى أنه لا يوجد ما يكفى لأن يبقينى مشغولا . لكننى أقوم ببعض الأنشطة الاجتماعية ، لعب الورق . لدىّ بعض الرفاق فى الفندق الذى أقيم فيه . ولدىّ صديقة أراها » . اختلس نظرة فيما حوله إلى الآخرين من تحت حاجبيه الكثيفين . قال ، « أراهن أنكم تظنون أننى عجوز على مثل هذه الأشياء . أعرف ما تفكرون فيه ! لكن هذه امرأة رائعة حقا ؛ تبعث فى كثيرا من الاهتمام بالحياة . وتفهمون أننى لا أعنى أى عدم احترام لأمكم ، لكننى الآن بعد أن رحلت حر فى أن أتزوج مرة أخرى ...»

لم يكن قد خطر بذهن كودى ، بشكل ما ، أن والديه مازالا متزوجين . طرفت جينى وعزرا ، أيضا ، برموشهما ، وتراجعا إلى الخلف قليلا .

قال بك لهم ، « المشكلة الوحيدة هى ابنة هذه السيدة . فلديها هذه الابنة ؛ ابنة لا خير فيها ، فى الخامسة والثلاثين على أقل تقدير لكنها مازالت تقيم فى البيت . اسمها يوستيسيا لى . ليست طيبة بأى شكل من الأشكال . فقدت إصبعين فى مثقاب يعمل بالضغط من سنين مضت ولم تعمل أبدا منذ ذلك الحين ، وأنفقت قيمة التعويض لشراء سيارة تسير على الجليد . ولست واثقا للغاية من أننى أريد أن أعيش معها » .

لم يبد على أى واحد أنه قادر على التفكير فى أى تعليق .

ثم وصل جو . اندفع من خلال الباب ، وهو يرتحل فى غلاف من الهواء النضر الرائحة ، ويحمل الرضيعة ويسحب طوفا كاملا من الأطفال . كان هناك حقا ثلاثة فقط ، لكنهم بدوا كما لو كانوا أكثر ؛ كانوا ثرثارين ومختلطين . « لم تسمح لى مسز نيسبت - تقريبا - بمغادرة المدرسة » ، و« لن تخمن ماذا أكلت الرضيعة »، و« كان على فيبى أن تبقى لأنها تشعر بالإجحاف من مادة الرياضيات » . وسألت طفلة ، وهى تواجه بك ، « من يكون هذا ؟ »

ـــ « جدك تل » .

قالت ، وهى تجلس ، « أوه . هل نحصل نحن الأطفال على نبيذ ؟ »

قالت جينى « جو ، أريدك أن تلتقى بأبى » .

قال جو ، « حقا ؟ يالله » . لكن كان عليه عندئذ أن يأخذ بعين الاعتبار حزام مقعد الطفلة الرضيعة .

انسل آخر طفلين فى الكرسيين الخاليين على كل جانب من بك . شبكا قدميهما فى رافدات الكراسى ، ووضعا مرفقيهما المدببين على المائدة . حدق بك ، وهو محاط من جانبيه ، أولا إلى يساره ثم إلى يمينه . قال ، « هل لكم أن تنظروا إلى هذا !»

سألته جينى ، « عفوا ؟ »

ـــ « هذه المجموعة . هذا التجمع . هذا الـ ... جمع ! »

قالت جينى ، وهى تخرج صدرية طفل من حقيبتها ، « أوه . أجل ، إنه جمهور كبير » .

ـــ « أحد عشر ، اثنا عشر ... ثلاثة عشر ... ومع عد، الرضيعة ، أربعة عشر من الأشخاص !» قالت جينى ، « كان العدد ليصل إلى خمسة عشر ، لكن سليفين ذهب إلى الكلية » .

هز بك رأسه . ربطت جينى الصدرية حول رقبة الرضيعة .

قال بك ، « ما لدينا هو ... حسنا ، طاقم . طاقم كامل » .

شرعت فيبى ، التى كانت متدينة ، تتلو صلاة بركة بصوت عال . . وضعت مسز بوتر وعاء حساء يتصاعد منه البخار أمام بك . تشممه ، وهو ينظر بتشكك .

قال له عزرا ، « إنه حساء الباذنجان » .

ـــ « آه ، حسنا ، لا أصدق ... »

ـــ « حساء باذنجان ايرسيولا . وصفة تركتها واحدة من أفضل طاهياتى » .

قالت فيبى ، « فى يوم الوفاة هذا ، أقل ما يمكن أن يفعله الناس هو أن يدعوا شخصا يصلى فى هدوء » .

قال عزرا ، « كانت تطبخ بالتنجيم . أقول لها ، « لنعمل سلطة الهندباء الليلة » . فتقول ، « لا شىء به خل ، فالنجوم ليست على ما يرام » ، ويظهر طبق لم أفكر فيه أبدا ، شىء كنت لأظن أنه خطأ بيّن ، لكنه ينجح ؛ كان ينجح دائما . ربما كان هناك شىء صحيح فى عملية حساب الطالع هذه ، تعرف ؟ لكن النجوم نصحتها فى الصيف الماضى أن ترحل ، ورحلت ، ولم يعد هذا المكان نفس الشىء أبدا » .

قالت جينى وهى تشاكسه ، « أخبرنا بالتركيبة السرية » .

ـــ « من قال إن به تركيبه سرية ؟»

ـــ « أليست هناك دائما تركيبة سرية ؟ خدعة خاصة تثير الدهشة تتقاسمها فقط مع الأقارب الذين تربطك بهم صلة الدم ؟ »

قال عزرا ، « حسنا ، إنه الموز » .

ـــ « آها » .

ـــ « بدون الموز ، لا يفلح هذا الحساء » .

قالت فيبى « فى يوم الوفاة هذا ، هل علينا أن نتكلم عن الطعام ؟ »

قالت لها جينى ، « إنه ليس يوم وفاة . استخدمى فوطتك » .

قال بك ، « الأمر هو » ، توقف ، « ما أعنى أن أقوله هو أنه يبدو أن هذه واحدة من تلك **العائلات** ... الكبيرة ، الصاخبة ، الجوالة ! »

تطلع الكبار فيما حول المائدة . استمر الصغار يرشفون الحساء محدثين صوتا . جلس بك ، الذى لم يكن حتى تلك اللحظة قد غمس ملعقته فى الطبق ، مائلا إلى الأمام بجدية . قال ، « إننى أتكلم عن قبيلة . مثل شيء بالتليفزيون . كثير من أبناء العمومة والأعمام ، نكات ، ومناسبات التئام شمل ـ »

قال له كودى ، « ليس الأمر هكذا على الإطلاق » .

ـــ « وكيف ذلك ؟ »

ـــ « لا تدعهم يضللونك . ليس الأمر ما يبدو عليه . لماذا ، ليس أكثر من طفلين أو ثلاثة من هؤلاء الأطفال ينتسبون حتى إليك . فالباقون أطفال جو من زوجة سابقة . أما فيما يتعلق بى ، حسنا ، فأنا لم ألتق بهؤلاء الناس من سنين ـ ولا أستطيع أن أخبرك ما اسم ذلك الطفل الذى

هناك . بالمناسبة ، هل هو ولد أم بنت ؟ هل علمت حتى بخبر مولده ؟ لذا لا تحسبنى ضمن قبيلتك . وبيكى التى هناك عند نهاية المائدة »

قال بك ، « بيكى ؟ هل حدث أن سميت باسمى ، بالصدفة ؟ »

توقف كودى ، وفمه فاغر . استدار الى جينى .

قالت جينى ، وهى تمسح ذقن الرضيعة ، « لا . اسمها ربيكا » .

قال كودى ، وهو يستدير إليه ، « أنت تظن أننا عائلة . تظن أننا عائلة ما مرحة ، تعج حياتنا بالمواقف الكوميدية فى حين أننا أشلاء ، ممزقون ، ممزقون متناثرون فى طول المكان وعرضه ، وأمنا كانت ساحرة شريرة » .

قال عزرا ، « أوه ، كودى » .

قال كودى لبك ، « ساحرة ، تهذى وتصرخ ولا يمكن التنبؤ بما تأتيه من أفعال . كانت تضربنا بعنف فى الحائط وتدعونا حثالة وأفاعى ، وتقول إنها تتمنى أن ترانا ميتين ، وترجنا حتى تصطك أسناننا ، وتصرخ فى وجوهنا . ولم نكن نعلم من يوم لآخر ما إذا كانت بخير ، أم لم تكن ؟ كان أقل شىء كفيلا بأن يشعلها . اعتادت أن تقول لى ، « سوف ألقى بك من النافذة . سوف أنظر من تلك النافذة وأضحك على مخك المبعثر على الرصيف ».»

وُضِع الطبق الرئيسى أمامهم ، على أطراف أصابع القدمين ، وضعته مسز بوتر وامرأة أخرى تبتسم بشكل ثابت ، كما لو كانتا مصممتين على ألا تُسمعا . لكن أحدا لم يلتقط شوكته . راحت الرضيعة تدندن بنعومة لبرعم عيش الغراب . وراح الأطفال الآخرون يراقبون كودى بوجوه مُفزَّعة مبيضة ، بينما بدا على الكبار أنهم يفكرون فى

شيء آخر . ظلت نظراتهم منكسة . حتى بك فعل مثلهم .

قال عزرا أخيرا ، « لم يكن الحال على هذا النحو » .

سأله كودى ، « سوف تنكر هذا ؟ »

ـــ « لا ، لكنها لم تكن دائما غضوبة . حقا كانت نادرا جدا ما تغضب ، بضع مرات فقط ، متباعدة كل البعد ، ولكن حدث أن علقت بعقلك » .

شعر كودى أنه قد أفرغ . نظر إلى عشائه ووجد لحم ضأن أرجوانيا في منتصف الطبق وخضراوات متألقة . توليفة متناسقة من الألوان والأنسجة . واحدة من تحف عزرا ، لكنه لم يستطع أن يتناول شيئا .

قال له عزرا ،« فكر فى الجانب الآخر . فكر فى كيف كانت تلعب لعبة « بنك السعادة » معنا . وتنصت إلى فريد ألن معنا . وتغنى تلك الأغنية القصيرة معك . ماذا كان اسم تلك الأغنية التى كنتما تغنيانها أنتما الاثنان ؟ أيفى ، أيفى ... الحلوة ، الحلوة ... وكنت ترقص رقصة نقرية صغيرة . كنتما أنتما الاثنان تعقدان ذراعيكما وترقصان وأنتما تنقران الأرض إلى داخل المطبخ » .

قال بك ، « هل ذلك صحيح ! لم أتذكر أن بيرل تستطيع أن ترقص الرقصة النقرية » .

صبت مسز بوتر النبيذ فى قدح كودى . وضع أصابعه حول ساق القدح لكنه لم يتمكن من رفعه . كان واعيا بروث ، إلى يمينه ، تراقبه بقلق .

ثم قال عزرا ، « إذن ! ما رأيك فى هذا النبيذ ، يا أبى ؟»

قال بك ، « أخشى أننى لا أميل كثيرا إلى النبيذ ، يا بنى » .

ــ « هذا نبيذ جيد حقا » .

قال بك ، « جرعة صغيرة من البوربون تتفق أكثر مع ميولى » .

ــ « وأفضل شيء هو النبيذ الذى نشربه مع الحلوى التى نختتم بها الطعام . إنهم يصنعونه من العنب الذى تعرض لنوع معين من العفن ، تعرف ــ »

قال بك ، « حسنا ، انتظر الآن . عفن ؟ »

ــ « سوف تحبه » .

ــ « وما هذه المادة الضاربة إلى البياض هنا ؟ »

ــ « إنه كاشا » .

ــ « لا أعتقد أننى سمعت بذلك » .

قال عزرا ، « سوف تحبه » .

هز بك رأسه ، لكنه بدا راضيا ، كما لو كان يروق له أن يفكر فى أن عزرا قد اكتسب من المعارف ما يفوقه بمراحل .

ثم دفع كودى طبقه بعيدا . قال ، « لدىّ شريكى ، سلون . أعزب طيلة حياته . لم يتزوج أبدا » .

اتخذ كل واحد سمت الانتباه المبالغ فيه حتى الأطفال .

قال كودى ،« فى العام الماضى ، التقى سلون مصادفة بصديقة قديمة ، امرأة عرفها من زمن بعيد ، وكان معها ابنتها الصغيرة . كانتا تحتفلان بعيد ميلاد الابنة . سألها سلون أى عيد ميلاد كان ، لمجرد

الانخراط فى الحديث ، وعندما أخبرته المرأة ، نكّره هذا بشيء . أحصى التواريخ ، وقال ، « لماذا ! ياإلهى ! لابد أنها ابنتى ! » ألقت عليه المرأة نظرة فاحصة ، بشيء من الغموض ، ثم استجمعت أفكارها وقالت ، « أوه . نعم ، هى ابنتك ، فى حقيقة الأمر ».»

انتظروا . وابتسم كودى وألقى عليهم تحية صغيرة ، وهو يعنى أن بإمكانهم أن يعودوا إلى طعامهم .

قال بك أخيرا ، « حسنا . يالها من سيدة غريبة » .

قال له كودى ، « على الإطلاق » .

ـــ « كنت تفطن أنها على الأقل ـ»

ـــ « كان ما تقوله هو أن الرجل لا شأن له بهما . لم يكن هناك أبدا ، هل ترى ، ولذلك فإنه لم يكن له فى العير أو النفير . لم يكن جزءا من العائلة » .

رجع بك إلى الخلف بحدة . لم تعد عيناه تبدوان زرقاوين إلى ذلك الحد ؛ فقد أظلمتا حتى أصبحتا أقرب إلى اللون الكحلى .

ثم قال جو ، « الرضيعة ! »

كانت الرضيعة تجاهد بلا صوت ، بتشنج ، فاغرة الفم ووجهها يكتسب لونا أرجوانيا . قالت جينى ، « إنها تختنق » . هب العديد منهم واقفين وانقلب قدح نبيذ . كان جو يحاول أن يجذب الرضيعة من مقعدها العالى ، لكن جينى أوقفته . « لا تكترث بهذا ! دعنى لها ! » بدا أن الصينية كانت مربوطة فى مكانها وليس بوسعهم أن يخرجوا الرضيعة من تحتها . شرع طفل أكبر يبكى . ارتطم شيء بالأرضية . ضربت جينى الرضيعة بقبضتها فى الحجاب الحاجز وانطلق برعم عيش الغراب

ليسقط على المائدة . ولولت الرضيعة وأصبح لونها قرنفليا . سحبت من المقعد العالى ، وقد أصابها الفواق ، ووُضعت على حجر أمها ، حيث جلست مبتهجة وشرعت تطارد حبة بسلة حول حافة طبق جينى .

سألت جينى الآخرين ، « هل سأعيش لأراهم كبارا ؟ »

قال عزرا ، « لقد رحل » .

عرفوا على الفور من كان يعنى . نظر كل واحد إلى كرسى بك . كان خاويا وقد ألقيت فوطته جانبا ، وأحد أركانها مغموس فى طبقه يمتص الصلصة .

قال عزرا ، « انتظروا هنا » .

لم ينتظروا فقط ؛ توقفوا عن الكلام ، توقفوا عن الحركة ، فى حين اندفع عزرا عبر قاعة الطعام وخارج الباب الأمامى . حط صمت ، لم تنطق خلاله حتى الرضيعة بشىء . ثم عاد عزرا ، وهو يتخلل شعره بأصابعه ذاهلا . قال ، « ليس فى أى مكان على مدى البصر . لكن لم تمض إلا دقيقة . يمكننا اللحاق به ! هيا بنا ، كلكم » .

ومع ذلك ، لم يتحرك أحد .

قال عزرا ، « من فضلكم ! من فضلكم ! مرة واحدة ، أريد أن تنهى هذه العائلة وجبة معا . لماذا ، فى كل وجبة عشاء تناولناها على الإطلاق ، جرى شىء ما على نحو خاطىء . غادر شخص ما المكان غاضبا ، أو باكيا ، وانهار كل شىء ... هيا ! ليخرج الجميع ، غطوا المنطقة ، تعقبوه ! يمكننا أن نجتمع ثانية هنا حين نعثر عليه وأن نبدأ من حيث انتهينا » .

وأشار كودى ، « أو يمكننا أن ننهى الوجبة **بدونه** . ذلك احتمال دائما » .

لكنه لم يكن ؛ حتى هو كان بوسعه أن يرى ذلك . مكان واحد خال على المائدة أفسد كل شيء . كان للكرسى نفسه ، بظهره الخشبى الذى يأخذ شكل القيثارة ، مظهرا موحشا ، مؤنبا . نهض القوم ، ببطء . تجمع الأطفال حول عزرا ، الذى كان يصدر أوامر مثل قائد عسكرى استراتيجى « أنت والصغار تجربون شارع بوشنل ... نلتقى مع جو فى شارع بريما ... » ثم نهضت روث أيضا لتتناول الرضيعة أثناء ارتداء جينى لمعطفها . اتجهوا إلى الباب . صاح كودى ، « صيدا طيبا » ، ومال بكرسيه إلى الوراء فى وضع متمدد وطلب كأسا أخرى من النبيذ من مسز بوتر .

على الرغم من ذلك ، شعر داخله بالتطهر . فكر فى أيام المدرسة الابتدائية حين كان يغيظ رفيقا فى الفصل إلى حد أن أبكاه ، وتمادى فى الأمور إلى أبعد من اللازم قليلا ، ثم تطلع فيما حوله ليجد كل أصدقائه قد كفوا عن الضحك . ألم يكن هناك نفس الصمت الأجوف فى قاعة الطعام هذه ، بين هذه الموائد التى تغطيها المفارش ؟ أعادت مسز بوتر زجاجة النبيذ إلى مكانها على صينية صغيرة ذات حواف فضية . رجعت إلى الوراء وطوت ذراعيها حول بطنها .

قال لها كودى ، « أعتقد أننى سأذهب فقط لأراجع كيف يسير بهم الحال » .

فى الخارج ، كان لون السماء قد أصبح أزرق داكنا يكاد يكون مبهرجا . كانت شمس واهنة تضىء قمم البيوت ، ولم يبد الجو باردا لحد كبير . وقف كودى ويداه على مفصلى فخذيه ، وقدماه منفرجتان .

لا يبدو عليه القلق من الظاهر - وراح يدور بعينيه بين أول الشارع وآخره . كان قسم من جماعة البحث يختفى لتوه عند ناصية : جو والفتيان الصغار . وكانت امرأة زنجية مهيبة تلف حول رأسها مناديل كبيرة مزدانة بالرسوم قد توقفت لتعيد توزيع محتويات كيسين من البقالة .

سلك كودى الزقاق الذى يقع على يمين المدخل ، وهو شريط ضيق من الأسمنت يحيطه من الجانبين صناديق كرتونية للتعبئة وصفائح القمامة التى سحقت حتى أصبحت بلا شكل . اجتاز نافذة مطبخ المطعم ، حيث حملت إليه مروحة لطرد البخار ذكرى حَمَل عزرا . دار حول قطة نحيلة جائعة لها ذيل متلبد مثل فرشاة بالية لغسل الزجاجات . اتخذ مؤخر عنقه ذلك السمت اليقظ الخاص الذى تتطلبه شوارع بلتيمور ، لكنه راح يسير بخطوة رخية متمهلة ويداه فى جيبى سرواله .

اعتاد أبوه أن يقول له ، « لتكن عاقد العزم دائما . تصرف كما لو كنت متجها إلى مكان ما بكل عزم ، ولن يعبث بك أى من الوضعاء » . كان قد قال له أيضا ، « لا تثق أبدا برجل يبدأ حديثه بكلمة : بصراحة » ، و« تسعة أعشار الرميات الجانبية الموفقة فى مباراة البيسبول تعتمد على حركة الرسغ الخاطفة » ، و« إذا أردت أن تبيع شخصا شيئا ما ، حوّل نظرك إلى مكان آخر وأنت تتكلم ، ولا تنظر فى عينيه مباشرة » .

كان عزرا يقول ، « كل ما لدينا هو أحدنا الآخر » ، مبررا وجبة من وجبات عشائه الخالدة . « علينا أن نترابط ؛ فلا أحد غيرنا له نفس الماضى الذى لنا » . ولكن من بين قلة من النصائح الضئيلة التى كان بك تل يبذلها - النصيحة الوحيدة حقا التى بوسع كودى أن يذكرها منه - لم يكن يبدو أن هناك ماضيا كافيا يمكن البناء فوقه . فمن وقعها ، كنت

لتتخيل أن ثلاثتهم كانوا يتقاسمون مظهرا هادفا ، عدم ثقة فى الصراحة ، رسغا ماهرا ، ونظرة محدقة مراوغة .

تاق كودى فجأة إلى ابنه - إلى رأس لوك الأشقر وكتفيه المحدبتين . (كان ليفضل الموت على أن يهجر طفله . فقد قطع على نفسه عهدا حين كان صبيا : أى شيء إلا هذا) . عاد بذاكرته إلى رحلة صيد الأوز ، حيث لم يكن لديهما الكثير ليقولاه كل منهما للآخر ؛ كانا خجلين ومتحفظين معا . تساءل إن كان سلون ليعيره الكوخ فى عطلة نهاية الأسبوع التالية ، حتى يجربا مرة أخرى .

خرج إلى شارع بوشنل - وهو مشمس أكثر من الزقاق وخال تقريبا . ظلل عينيه بيده وتطلع فيما حوله و - لماذا ! هناك كان لوك ، كما لو كان قد استُحضر بالسحر ، وهو يجلس لسبب ما فى شرفة صغيرة لمبنى تكسو أعلاه ألواح الخشب . شرع كودى فى السير باتجاهه ، وهو يسرع الخطى . سمع لوك وقع أقدامه ورفع رأسه حين وصل كودى . لكنه لم يكن لوك . كان بك . بدا شعره الفضى أصفر فى ضوء الشمس ، وقد خلع سترته ليكشف عن قميصه الأبيض وكتفيه الحادتين المائلتين اللتين تشبهان كتفى لوك بشكل غريب . توقف كودى .

قال له بك ، « كنت أبحث فقط عن محطة شركة « تريل وايز » . ظننت أنه كان بوسعى أن أصل إليها سيرا على الأقدام ، لكننى لست واثقا الآن » .

أخرج كودى منديله ليمسح جبينه .

قال بك ، « انظر ، إن كلوديت تتوقع وصولى . هذه صديقتى التى ذكرتها لكم . حسبت أن من الأفضل أن أذهب لكى أجد حافلة . آسف

لأننى أكلت وهربت ، لكنك تعرف أحوال النساء . أخبرتها أننى سأرجع إلى البيت قبل العشاء . فهى تعتمد علىّ » .

أعاد كودى المنديل إلى مكانه .

قال بك : « أظن أنها سوف تريد أن تتزوج ، بعد هذا . فهى تعلم بموت بيرل . ومن المؤكد أنها تخطط » .

رفع سترته ، كما لو كان يفحصها بحثا عن عيوب بها . طواها بعناية ، ظهرا لبطن ، ووضعها على ذراعه . كانت البطانة شيئا حريريا ، لها ألوان قوس قزح باهتة ، مثل لمعان لحم هرم .

قال بك ، « ولكى أقول الصدق ، أنا لا أرغب كثيرا فى الزواج منها . فالمسألة ليست ابنتها فقط ؛ إنه أنا . إنه أنا حقا . هل تظن أننى لم تكن لى صديقات من قبل ؟ أوه ، مؤكد ، وكان بوسعى أن أتزوج أيا منهن . كثيرات توسلن إلىّ .« اكتب إلى زوجتك . احصل على الطلاق . ولنتزوج » . كنت لأقول لهن ، « حسنا ، ربما بعد فترة » ، لكننى لم أفعل أبدا . أنا لا أعرف ، مجرد أننى لم أفعل أبدا » .

قال كودى ، « تركتنا بين براثنها » .

رفع بك عينيه . قال ، « هه ؟ »

سأله كودى ، « كيف أمكنك أن تفعل ذلك ؟ كيف أمكنك أن تلقى بنا تحت رحمتها ؟» مال أقرب إليه ، قريبا بما يكفى لأن يشم رائحة حلة بك الكافورية . « كنا أطفالا ، كنا مجرد أطفال ، لم يكن هناك سبيل إلى حماية أنفسنا . كنا نتطلع إليك لتحمينا . كنا نتصنت على وقع خطوتك عند الباب لنكون آمنين ، لكنك أدرت ظهرك إلينا . لم ترفع إصبعا لحمايتنا » .

حدق بك فيما وراء كودى فى حركة المرور .

قال لكودى أخيرا ، « لقد أنهكتنى أمك » .

ــ « أنهكتك ؟ »

ــ « استهلكت خصالى الطيبة . استهلكت كل خصالى الطيبة » .

شد كودى قامته .

قال بك ، « أوه ، فى البداية كانت تظن أننى رائع . كان ينبغى لك أن ترى وجهها حين أدخل غرفة . عندما التقيت بها ، كانت عانسا بالفعل . كانت قد يئست . فلم يخطب أحد ودها سنين ؛ وكانت صديقاتها يطلبن منها أن تجالس أطفالهن ؛ كان أطفالهن يدعونها العمة بيرل . ثم جئت أنا . أسعدتها للغاية ! وهنا كانت سقطتى ، يا بنى . أعنى أننى مع أية واحدة ، مع أى من أولئك الصديقات ، لا يمكننى أن أقاوم شخصا أسعده . لماذا ، ربما كانت هناك ثغرة بين أسنانها ، أو بسيطة ، أو ممتلئة الجسم - لايهم ! أحسب أننى لو كنت قد حصلت على ذلك الطلاق من أمك لتزوجت بست مرات أخرى ، مجرد أن أنتقل إلى كل امرأة جديدة تتهلل قليلا حين ترانى ، وانتقل مرة أخرى عندما تألفنى فلا تعود إلى التصرف بسرور كعادتها الأولى . أوه ، إن الألفة هى ما يقتلك ... لا تدنو من الناس بدرجة حميمة أبدا ، يا بنى - هل قلت لك ذلك حين كنت صغيرا ؟ عندما تزوجنا أنا وأمك أول الأمر ، كان كل شىء مثاليا . بدا لى أننى لا يمكننى أن أرتكب خطأ . ثم أظن أنها فطنت إلى أخطائى بالتدريج . فأنا لم أكتمها أبدا ، لكن بدا لى الآن أنها مهمة فى آخر الأمر . ارتكبت أخطاء ورأتها . رأت أننى كنت أتغيب عن البيت كثيرا ولم أكن سندا كافيا لها ، لم أكن أحرز تقدما في عملى ، أن وزنى يزداد ، أننى أشرب كثيرا ، أتكلم بشكل خاطىء ، آكل بشكل خاطىء ، ألبس

بشكل خاطئ ، أقود سيارة بشكل خاطئ . ومهما حاولت جاهدا ، يبدو أن كل ما كنت أفعله أصبح مشوشا . فاسدا . تحول الأمر إلى مأساة . كنت أحضر إلى البيت لعبة بسيطة ، مثلا ، لكى أدخل البهجة عليكم حين أحضر ، فتتسبب فى بدء شجار بشكل ما . وأمك تقول إنها باهظة للغاية أو خطرة للغاية أو صعبة للغاية ، وثلاثتكم تتشاجرون على من يلعب بها أولا . هل تذكر لعبة الرماية بالسهم ؟ كنت أظن أنها ستكون متعة بالغة ، أن نقيم هدفا على جذع شجرة وأن نطلق أقواسنا وسهامنا . لكن لم تأت الرياح بما تشتهى السفن . فبيرل تزعم أولا أنها لعبة غير رياضية ، ثم تقول جينى إن الجو بارد للغاية ، ثم تدخل أنت وعِزرا فى نوع من ، لا أدرى ، مناقشة أو شجار ، وينتهى بكما الأمر إلى عراك ، وتطلقان سهما ، وتصيبان أمكما » .

قال كودى ، « أذكر ذلك » .

ـــ « أصبتماها فى كتفها . كارثة ، كارثة نموذجية . وفى الأسبوع التالى ، أثناء غيبتى ، يحدث للجرح شىء خاطئ . أحضر إلى البيت من رحلة مبيعات فتخبرنى أنها أوشكت على الموت . شىء ما ، لا أعرف ، تلوث ما . كان هذا بالنسبة لى بمثابة القشة التى قصمت ظهر البعير . كنت أتناول قدح بيرة فى المطبخ فى مساء الأحد ذلك وفجأة ، دون حتى أن أعرف أننى سأفعل ذلك ، قلت ، « بيرل ، إنى راحل » . »

قال كودى ، « تعنى أن **ذلك** كان حين رحلت ؟ »

قال بك ، « حزمت حقيبتى وانسحبت » .

جلس كودى على درج الشرفة الصغيرة .

قال بك « انظر ، حقيقة الأمر ، فيما أظن : كانت الرمادية ؛ رمادية الأشياء ؛ وسطية الصواب والخطأ فى الأشياء . كل شىء متشابك ،

ممتزج ، لم يعد مثاليا . لم أستطع أن أتقبل هذا . كانت أمك تستطيع ، أما أنا فلا . نعم ، يا سيدى ، علىّ أن أسلم الأمر لأمك » .

تنهد وربت بطانة السترة .

قال ، « سأكون أمينا ، عندما رحلت لم أكن أظن أننى سأهتم أبدا أن أراكم مرة أخرى . لكن فيما بعد ، شرعت هذه الأفكار تساورنى . « ماذا تظن أن كودى يفعل الآن ؟ وماذا يفعل عزرا ، وجينى ؟» قلت لنفسى ، « لم تكن أسرتى شيئا عظيما ، لكنها كل ما هنالك حقا ، فى نهاية الأمر » . كان قد مضى على رحيلى عندئذ ربما سنتان أو ثلاث . وذات ليلة كنت أجتاز بلتيمور وأوقفت السيارة على بعد بناية ، نزلت وسرت إلى المنزل . كدت أتجمد حتى الموت ، وأنا أقف عبر الشارع وانتظر . أظن أننى كنت سأقدم نفسى أو شيئا من هذا القبيل ، لو خرج أى واحد منكم . كنت أنت من خرج . فى أول الأمر لم أعرفك حتى ، وتساءلت إن كان شخص آخر قد انتقل إلى المنزل . ثم أدركت أن المسألة هى مجرد أنك قد كبرت للغاية . كنت رجلا تقريبا . سرت على طول الرصيف وانحنيت لتلتقط الجريدة المسائية وعندما شددت قامتك ، قذفت بها فى الهواء وتلقفتها مرة أخرى ، ورأيت أنك كنت قادرا على العيش بدونى . كنت قادرا على إتيان ذلك الشىء الخالى من الهم - هل ترى - تقذف بجريدة وتلقفها . رأيت أن الأمور ستسير بك سيرا حسنا . وكنت على حق ، أليس كذلك ؟ انظر ! ألم تدر الدنيا لكم وجهها الحسن - موفقون فى حياتكم ؟ ثلاثتكم ؟ هى فعلت هذا ؛ بيرل فعلت هذا . كنت أعرف أنها ستدبر أمرها . استدرت وعدت أدراجى إلى سيارتى .

« وبعد ذلك ، دارت بى عجلة حياتى بنظامها الرتيب . كان لى بضعة رفاق ، وصديقة من آن لآخر . وقد تشرع واحدة فى أن تحبنى حبا جما فأقول لنفسى ، « أود لو أن بيرل كان بوسعها أن ترى هذا » .

بل إننى كنت أكتب اليها حاشية ، من آن لآخر . كنت أكتب وأعطيها آخر عنوان لى ، فى أى مكان أنتقل إليه ، لكن ما كنت أكتبه لأخبرها به حقا هو ، « هناك هذا الرئيس الجديد الهام الذى جاءنا ، وهو ينظر إلىّ بعين التقدير البالغ » ، أو « هناك سيدة هنا تهتز طربا حين أقوم بزيارة عرضية قصيرة » . شىء مخبول ، أليس كذلك ؟ وأعتقد أننى طوال كل هذه السنين ، حين كنت أحقق نجاحا فى أى وقت ، كنت أحتفظ به فى خيالى لتعجب به أمك . ألقى على هذا نظرة ، يا بيرل ، هكذا كنت أفكر . أوه ، ماذا سأفعل الآن وقد رحلت ؟»

هز رأسه .

تصادف أن نظر كودى ، وهو يبحث عن شىء يقوله ، باتجاه شارع بريما ورأى عائلته تدور حول الناصية ، وتتفتح مثل مروحة . جاء الأطفال أولا ، يعدون ، ومشى الفتيان الصغار يختالون خلفهم ، وكان الكبار - وهم يحاولون اللحاق بهم - يعدون هم أنفسهم تقريبا ، حتى أنهم بدوا جميعا مبتهجين على نحو غير متوقع . أحالت ثياب الحداد الكئيبة الألوان وجوهم إلى وجوه متألقة . كانت أذرع الصغار وأرجلهم ترفرف والطفلة الرضيعة تتواثب على كتفى جو . شعر كودى بالدهشة والتأثر . شعر أنهم يجذبونه إليهم - أن الأمر لم يكن أنهم هم من يرتحلون ، وإنما كودى نفسه .

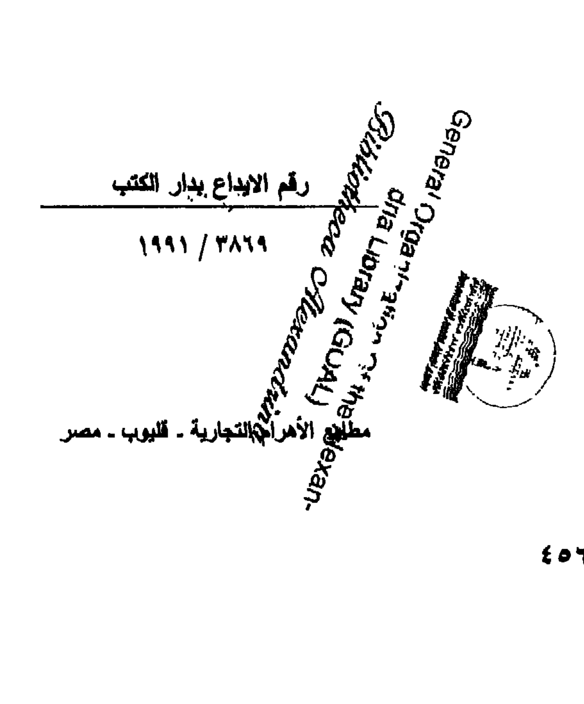
قال لبك ، « لقد عثروا علينا . لنذهب وننه عشاءنا » .

قال بك ، « أوه ، حسنا ، لست واثقا تماما » . لكنه تركه يساعده على الوقوف .

قال ،« أوه ، حسنا ، ربما هذا الطبق الأخير ، لكننى أحذرك ، إننى

أنوى أن أرحل قبل صب ذلك النبيذ على سبيل الحلوى فى نهاية الأكل » .

تشبث كودى بمرفقه وقاده باتجاه الآخرين . وفوق رءوسهم كانت طيور النورس تجوب سماء صافية زرقاء إلى درجة أنها أعادت إلى ذهنه كل نزهات صباه - الجولات فى السيارة ، النزهات ، الرحلات إلى الريف فى الخريف ، السير على الأقدام لجمع الزهور البرية فى الربيع . تذكر رحلة الرمى بالسهام ، وبدا له الآن أنه يتذكر حتى ذلك السهم وهو يبحر فى طريقه الرشيق المرفرف . تذكر هيئة أمه المستقيمة فى موازاة العشب ، وقد أضاء شعرها بلون الذهب ، يديها الصغيرتين وهما تملسان باقة زهورها بينما السهم يرتحل قدما . وتذكر فيما يبدو أنه كانت هناك طائرة صغيرة بنية اللون ، فى الأعالى ، بلا حراك تقريبا ، تئز خلال ضوء الشمس مثل النحلة الطنانة .


رقم الايداع بدار الكتب

١٩٩١ / ٣٨٦٩

مطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر



بعض إبداعات الأدب الأمريكي ، تتسم بأنها فريدة ومتميزة في محتواها وأدواتها . فهي تطرح قضايا وأفكارا تتصف بقدر هائل من الحيوية والجدلية ، وتستخدم في ذلك أساليب غير مألوفة . وسلسلة « **من روائع الأدب الأمريكي المعاصر** » ، تكفل فهما عميقا للأوضاع في ذلك البلد القارة - الولايات المتحدة ، على نحو لا تتيحه أي قراءات مهما اتسعت عن أوضاعها الاجتماعية وحضارتها وسياستها واقتصادها وعلومها وفنونها ...

وهذه الرواية للكاتبة « آن تيلر » ، مثل كل رواياتها التسع الأخرى ، تتناول موضوع الحياة العائلية وحقيقة الروابط بين الآباء والأبناء ، على نحو يجعل منها تأريخا للأحزان العائلية والتمزق ، والرغبة في الهروب من العائلة والتئام شملها في الوقت نفسه ، والصعوبات التي يلقاها الناس في التفاهم والتواصل فيما بينهم ، على نحو يعكس حقيقة نوعية من العلاقات بين الناس في الولايات المتحدة .

الناشر

مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام

التوزيع في الداخل والخارج : وكالة الأهرام للتوزيع
ش الجلاء - القاهرة

مطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر